فتحي ليسير

خليفة بن عسكر

بيوغرافيا قائد غامض

مركز سراس للبحوث حول الجزر المتوسطية.

فتحي ليسير

خليفة بن عسكر

بيوغرافيا قائد غامض

مركز سرسينا للبحوث حول الجزر المتوسطية.

العنوان : « خليفة بن عسكر » بيوغرافيا قائد غامض .

المؤلف : « فتحي ليسير » أستاذ مساعد بكليّة الآداب و العلوم الإنسانيّة بصفاقس .

الناشر : مركز سرسينا للبحث حول الجزر المتوسطيّة .

المطبعة : التسفير الفنّي ، صفاقس (تونس) .

صورة الغلاف : الفنّان التشكيليّ محمّد راجم .

الطبعة الأولى أفريل 2001 .

يتوجّه المؤلف بالشكر إلى مؤسسة ORADIST لدعمها السّخيّ

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الرّموز الواردة في الحواشيّ

- أ. و. ت. : الأرشيف الوطنيّ التّونسيّ.

- **I.S.H.M.N.** : Institut Supérieur d'Histoire du Mouvement National.

- **A.N.A.O.M.** : Archives Nationales d'Outre-Mer.

- **M.A.E.** : Ministère des Affaires Etrangères.

- **Q.O.** : Quai d'Orsay.

- **S.H.A.T.** : Service Historique de l'Armée de Terre.

- **A.I.** : Affaires Indigènes.

- **b** : bobine.

- **c** : carton.

- **C.I.S.** : Cahiers Internationaux de Sociologie.

- **d** : dossier.

- **f** : folio.

- **R.H.M.** : Revue d'Histoire Maghrébine.

- **R.T.** : Revue Tunisienne.

- S : Série.

- **t** : tome.

- **Vol** : volume.

يوسف العش

«يا أبطال برقة، وليوث طرابلس، وحماة الثّغور وذادة المعاقل والحصون...
إنّ كتّاب التّاريخ قد علّقوا أقلامهم بين أناملهم، ووضعوا صحائفهم بين أيديهم، وانتظروا ما تملون عليهم من حسنات أو سيّئات، فاملوا عليهم من أعمالكم، ما يترك في نفوسهم ذلك الأثر الّذي تركته في نفوسكم تلك الصّحائف البيضاء الّتي سجّلها التّاريخ لأولئك الأبطال العظام...»

مصطفى لطفي المنفلوطيّ
من ندائه المعنون: خطبة الحرب
النّظرات (2)، بيروت، المكتبة الشّعبيّة
(د.ت)، ص 185

«وكما يحفظ التّاريخ للرّجال حسناتهم، كذلك يحصي عليهم سيّئاتهم، فهو الصّديق الوفيّ، والعدوّ الّذي لا يرحم، وفي التّاريخ عبر لا يعقلها إلاّ العالمون...»
الشّيخ الطاهر أحمد الزّاوي،
جهاد الابطال في طرابلس الغرب، ط. 1،
القاهرة، الفجالة الجديدة، 1950، ص 134.

زهير الشاويش

توطئة

لماذا هذا الكتاب عن خليفة بن عسكر ؟

في البدء نشير إلى أنّ الأديب اللّيبيّ محمد سعيد القشاط هو أوّل من اهتمّ بسيرة هذه الشّخصيّة الإشكاليّة، في ريادة تحمد له، إذ خصّها بدراسة مطوّلة نراها خليقةً بالإشارة إليها والتّنويه بها(1)، وخاصّة لما حوته من مادّة مصدريّة بكر، على هيئة شهادات، استقاها من رجالات، زاملُوا الرّجل أو عاصروه.

وتثميننا مجهود القشاط لا يعني أن الكتاب كان خاليا من الهنات والنّقائص، وأنّ المؤلّف بمناءى عن اللّوم والمؤاخذة، وتلك على أيّة حال مسألة سنعرض لها بعد قليل.

إنّ الحديث عن الدّوافع الّتي حَمَلَتْنا على التّفكير في إنجاز هذا العمل البيوغرافي، تعود بنا إلى منتصف الثّمانينات، عندما انطلقنا في إعداد بحث جامعيّ عن انتفاضة قبيلة الودارنة (1915-1916)(2)، إذ أمكننا أن نعاين الحيّز الهام الّذي احتلّته هذه الشّخصيّة في المراسلات، والتّقارير، والأوراق الخاصّة، واليوميّات، والمذكّرات الّتي حبّرها العسكريّون، والديبلوماسيّون الفرنسيّون، وغيرهم، بخصوص مقدّمات تلك الحركة، وأطوارها، وما انجلت عنه من تداعيات...

ولقد أعادت تلك المادّة الغزيرة إلى الذّهن، ما سبق أن نبّه إليه الأستاذ البشير التليليّ، منذ نهاية السّبعينات، من ضرورة إنجاز عمل حول شخصيّة خليفة بن عسكر النّالوتي، يستجلي حقيقة دوره في «حركة الانشقاق»(كذا) الخطيرة الّتي كان أقصى الجنوب التّونسيّ ركحا لها خلال الحقبة الواقعة ما بين خريف 1915،

---

(1) محمد سعيد القشاط، **خليفة بن عسكر، الثّورة والاستسلام**، ط.1، طرابلس، المنشأة الشّعبيّة للنّشر والتّوزيع والإعلان، 1980، 415 ص.

(2) فتحي ليسير، **الاستعمار الفرنسيّ وقبائل أقصى الجنوب التونسيّ : مثال الودارنة 1882-1918**، شهادة الكفاءة في البحث، إشراف : الأستاذ الهادي التيمومي، كلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، تونس، جويلية 1987، 118 ص (مرقونة).

وصيف 1916(3)، ويلقي بعض الضّوء على بواعث تلك الحركـة، وخصائصها، وأبعادها، ونتائجها.

وبالتّدريج تطوّرت تلك الفكرة من مجرّد مشروع غائم، سديميّ، إلى خطاطة أولى لكتاب، لا سـيما بعـد أن تعزّزت لدينا قناعـة –تأسيسا عـلى جملة من الأدلّة والبراهين– قوامها :

أوّلا : جهل كـبير بشـخص الرّجل، وبحقيـقة الدّور الّذي لعبـه خلال اندلاع الانتفـاضة المومإ إليـها، وهو العيب الأسـاسيّ لجلّ الأعمال الّتي تناولت الحـركة المذكورة، إن قليلا أو كثيرا.

ثانيا : سكوت البـاحثين الليبيّين عن خلفـيّات الحرب الأهليّة بالجـبل الغربي خلال طوريها : 1916-1917، و1920-1921، والّتي كان خليـفة بن عسكر طرفا فاعـلا فيها، وكذا صـرفهم النيّة، عن لحظة التّقارب، بل التّـعاون بين عدد لا بأس به من الزّعامات القبليّة المرموقة، بإقليم طرابلس، والسّلطة الإيطاليّة، لا سيما خلال مطلع العشرينات، إلاّ فيما ندر، وعلى هيئة إشارات برقيّة.

ولكي لا يأتي كلامنا، وما تخلّله من أحكام، خاليا مـن الدّليل والسّند، فإنّنا نسوق أدناه بعض الأمثلة، مع تقديم الإيضاحات الضّروريّة :

لعـلّ أوّل مـا يطالعنـا بخصـوص النّقـائـص المومـإ إليـهـا، مـا جـاء بأقـلام بعـض الكتـاب من أنّ خليفـة بـن عـسكـر، تونسـيّ التّـابعيّـة أو الجنسيّـة. هـذا مـا عثرنا عليه مثلا عند حسن حسنـي عبد الوهـاب(4)، وفـي تأليـف للـوجـه النّقـابـي المعـروف النوري البـودالـي(5)، وعند أحـمـد بن

---

(3) Béchir TLILI : **Crises et mutations dans le monde islamo-méditerranéen contemporain (1907-1918)**, vol. 1, Tunis, Faculté des Lettres et Sciences Humaines, 1978, p. 438.

(4) حسن حسنـي عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس**، ط4، الدار التـونسيّة للنشر [د.ت] ص222.

(5) Nouri DOUDALI : **Protectorat et Indépendance**, Tunis, impri. Al Asria, 1992, p. 167.

عامر(6). ومن الغريب أن يقع مؤرّخ في قيمة جلبار ميني Gilbert MEYNIER في مثل هذا الخطأ(7).

بيد أنّ الأمر المهم هنا يتمثّل -بلا ريب- في كثرة الأخطاء والأغلاط (وجسامتها في الأعمّ الأغلب) بخصوص أسماء الوقائع، والمعارك، وتواريخها، وأطوارها، وأطراف النّزاع فيها، فضلا عن أسماء القبائل، وأسماء مضاربها وأبرز زعاماتها(8)، دع عنك الخلاصات، والاستنتاجات المجافية للحقيقة.

---

(6) احمد بن عامر، **تونس عبر التّاريخ، من أقدم العصور إلى إعلان الجمهوريّة**، تونس، مكتبة النجاح، 1960، ص 368-369.

(7) Gilbert MEYNIER : **L'Algérie révélée**, Paris - Genève, Librairie Droz, 1981, p. 491.

(8) نكتفي ههنا بإيراد بعض النماذج القصيرة : كتب حسن حسني عبد الوهاب، بخصوص حوادث الجنوب التونسيّ بعيد اندلاع الحرب العالميّة الأولى، يقول :

«وفي أثناء هذه الحرب، ثار بالنّاحية الجنوبيّة للقطر التّونسيّ، خليفة بن عسكر، وقد انضمّ إليه كثير من المحاربين الطرابلسيين، فاستولى على مركز الذهيبات والجنين وأم السويق (كذا). وكان قيام خليفة بن عسكر في أوائل شوال 1333 (أوت 1915)، وامتدت غاراته، إلى المراكز العسكريّة بجنوب البلاد، مثل بئر قصيرة، ورمادة. وقد قاومته الجيوش المنظّمة، ودامت مطاردته إلى أن وضعت الحرب أوزارها، فافتكّ منه ما كان استولى عليه، وأخيرا قتلت عصابته، ورجعت الحالة على ما كانت عليه قبل...»، نفس المرجع، ص 222.

ومن جهته تعرض أحمد بن عامر في «تاريخه» لنفس الحوادث، والتي عنونها بـ «ثورة ابن عسكر» يقول : «هي ثورة دامت أربعة أعوام، أعلنها بعض سكان الجنوب التونسيّ بقيادة خليفة بن عسكر، ضدّ طغيان السّلط الفرنسيّة وقد أعلنوها سنة 1915، وانضمّ إليها كثير من الطرابلسيين، فاستولوا على جهات الذهيبات (كذا)، والجنين وأم السويق(كذا)...» نفس المرجع، ص 368 - 369.

ومن الطريف هنا أنّ كتابا ظهر في مطلع السبعينات، لم يشر إلى شخصيّة ابن عسكر، ولا إلى الدّور الّذي نهض له، في الفصل المعنون : نشوب الثورة ضد فرنسا بجنوب تونس. واكتفى بذكر «المناضل سعيد الدبان(؟)...».

انظر : محمد عبد الرزاق مناع، **جذور النضال العربي في ليبيا**، طرابلس، دار مكتبة الفكر، 1972، ص 70-71.

وقد اتّضح لنا بعديا، تأثّر المؤلّف بما جاء في كتاب الشيخ الطاهر أحمد الزاوي، فيما يتعلّق ==

ومن الخير لنا، أن نستشهد هنا بما ورد في إحدى الدّراسات الحديثة، وهو مثال نعتقد أنّه غنيّ بالدّلالة، لأنّ ما جاء في إحدى فقراته، بخصوص «موضوعنا»، قد اختزل، وبالأحرى، كثّف كلّ النّقائص، والهنات المشار إليها آنفا.

كتب زهير الذوادي في دراسته الموسومة : الوطنيّة وهاجس التّاريخ في فكر الشيخ عبد العزيز الثعالبي[9] و لتي نحا فيها منحى «التنظير»، في نبرة غير عارية من الادّعاء، يقول :

== بهذه الحركة، انظر : الطاهر أحمد الزاوي، **جهاد الأبطال في طرابلس الغرب**، ط 1، القاهرة، الفجالة، 1950، ص 217-218.

وجدير بالذّكر كذلك أنّ الكتاب المدرسيّ : **كتاب التّاريخ لتلامذة السّنة السّابعة**، الجزء الأوّل، ط 1، تونس، المركز القومي البيداغوجي، 1979، قد تضمّن أخطاء كثيرة فيما يتعلّق بالدّور الّذي لعبه خليفة بن عسكر، وحقيقة الاتّصالات الّتي أجراها، والتّحالفات الّتي عقدها الخ... انظر : نفس المرجع، ص 172-173.

بقي أن نشير إلى أنّ الدّور الّذي نهض به خليفة بن عسكر في الانتفاضة المذكورة قد جاء مفصّلا بعض الشّيء في ثنايا بعض الدّراسات نذكر منها أعمال مصطفى كريم، ومحمود عبد المولي ودانيال غولد شتاين ففي حين اكتفى كل من مصطفى كريّم (انظر :
Nationalisme et syndicalisme en Tunisie, 1918-1929, impr. U.G.T.T., Tunis, 1976, pp. 100-116)

ومحمود عبد المولى (انظر :
Jihad et colonialisme. La Tunisie et la Tripolitaine (1914-1918) éd. Tiers-monde, 1987)

بإيراد المادّة المصدريّة الفرنسيّة خاما دون أدنى عمليّة نقد أو تحرّ، فإنّ عمل دانيال غولدشتاين الموسوم :

Daniel Goldstein : **Libération ou annexion : aux chemins croisés de l'histoire tunisienne, 1914-1922**, M.T.E., Tunis, 1978, pp. 146-157.

لم يخل من محاولة تألّفة، وأمكنه أحيانا الفكاك من أسر القراءات الفرنسيّة لحوادث 1915-1916.

(9) زهير الذوادي، **الوطنيّة وهاجس التّاريخ في فكر الشيخ عبد العزيز الثعالبي**، تونس، دار سراس، 1995.

«برزت تلك الحركة [حركة خليفة بن عسكر] إبّان الحرب العالميّة الأولى. وقد استغلّت في ذلك عنصرين كانت هي بالذّات نتيجة لهما: أوّلهما ضعف التّأطير التعسّفي للجيش الفرنسيّ في جنوب البلاد، حيث بعث بالعديد منهم إلى المعارك الطّاحنة في أروبا، وثانيهما التّدهور المريع للحالة الاقتصاديّة والاجتماعيّة، في الإيالة بسبب الحرب.

وقد برزت مع هذه الحركة المسلّحة إشكاليّات جديدة في النّضال الوطنيّ، أهمّها تحالفها مع الجنود اللّيبيّين الّذين هزمهم الغزو الإيطالي، ولم تنصرهم تركيا كما كانوا يتوقّعون...

أمّا الإشكاليّة الثّانية الّتي برزت في هذه الحركة المسلّحة، فهي تلك الّتي تتعلّق بإدارة المناطق المحرّرة، وكيفيّة التّصرّف فيها. لقد توصّل الثّوار آنذاك إلى تحرير مناطق شاسعة بالذّهيبات وجنين وأم السويق والسّيطرة عليها.

وقد شارك في تلك الحركة ما بين سنة 1915 و1916 قبائل بني زيد بقيادة الحاج سعيد بن عبد اللّطيف، الّتي توخّت في مقاومة فرنسا تكثيف حضورها العسكري في الجنوب، وعلى الحدود اللّيبيّة الّتي كان الثّوّار يجتازونها بسهولة عند الحاجة...

وكان الدّغباجي، مثل ابن عسكر، في البداية، منتدبا للعمل بالجيش الفرنسيّ، حيث كان يحسن التّدابير العسكريّة والقتاليّة...»(10).

ولسنا نرى ضرورة في التّعليق على كلّ ما ورد في هذه الفقرة من أخطاء، وأحكام قاطعة، استندت إلى شوارد مفتقرة إلى الدقّة، إذ من الواضح أنّ الكاتب كان جاهلا بأبسط ما يجب معرفته عن أحداث تلك الحقبة.

ولعلّ أهمّ ما نأخذه على المؤلّف، تلك «الخفّة» الّتي سمح لنفسه أن يعالج بها

---

(10) نفس المرجع، ص 27-28.

أحداث أهمّ انتفاضة فلاحيّة في تاريخ تونس المعاصر(11) . وشاهدنا على هذا الحكم (الّذي يجب ألاّ يُؤوّل على أنّه ضرب من النّقد القادح)، ما حفلت به الفقرة المذكورة من أغلاط، سنكتفي أدناه، بالتّوقّف عند أبرزها :

- لم تجنّد سلطة الحماية أعدادا من سكان المنطقة الخاضعة للإدارة العسكريّة للمشاركة في الحرب العظمى عام 1915.

- لم تبرز «إشكاليّة» (كذا)، خلال الحقبة 1915-1918، مؤداها كيفيّة إدارة المناطق المحرّرة.

- وفوق هذا، فإنّ الحديث عن مناطق محرّرة، وتحرير مناطق شاسعة بالذهيبات (والصّحيح : ذهيبة)، والجنين، وأم سويق (والصحيح : أم صويغ)، بحاجة إلى التّصحيح والتّدقيق. إنّ ما حدث في 20 سبتمبر 1915 هو قرار القيادة العسكريّة الفرنسيّة الانسحاب من مراكز بئر بيستور PISTOR، والجنين، وحصن بارفنكيير PERVINQUIÈRE (12) .

ودون أن نبخس الّذين شاركوا في تلك الحركة، حقّهم، فإنّ القرار المذكور، أملته اعتبارات استراتيجيّة. أمّا ادّعاء الكاتب القائل بأنّ الثّوار سيطروا على المواقع

(11) من الواضح أنّ الكاتب لم يكلّف نفسه عناء الرّجوع إلى أهمّ الأعمال الّتي تناولت تلك الحركة، والّتي كانت عدّتها في ذلك مصادر أوليّة (أرشيفيّة أصليّة) (انظر على سبيل المثال :

- فتحي ليسير، **الاستعمار الفرنسي وقبائل أقصى الجنوب التّونسي : نجع ورغمّة نموذجا 1881-1939**)، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات زغوان (تونس) 1998، 400 ص.

- Habib BELAID : "La Révolte de 1915-1916 dans le Sud Tunisien à travers les Archives du Protectorat", in **Révolte et Société** (Actes du IV colloque d'histoire au Présent), Paris, 1988, pp. 176-184. Gianni ALBERGONI, "Mémoire gentilice et histoire nationale : figures et enjeux du récit d'une insurrection bédouine anti-coloniale", in **Cahiers d'Etudes Africaines**, 119, XXX-3, 1990, pp. 299-328.

(12) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O. Série Tunisie 1917-1940**, rapport septembre 1915, voir aussi : Capitaine CHAVANNE, **Historique du Service des Affaires Indigènes de Tunisie (1888-1930)**, Tunis, Bourg, 1931, p. 73.

الموما إليهـا، فإنّه ينأى تماما عن الحقيقـة : فمركز ذهيبة -على سـبيل المثال- لم يسـقط في أيدي الثّوّار، رغم مـحاولاتهم المتكرّرة الرّامـية إلـى اقتحـامه، علـى ما سيزداد وضوحا في مباحث الباب الثّاني من هذه الدّراسة.

- لم تشارك قبائل بني زيد في الانتفاضة المذكورة. وجدير بالإشارة إلى أنّ هذه الانتـفاضة اندرست فـي نهاية 1917، لا عـام 1919 كما يذكـر الكاتب. أضف إلى ذلك أن مـضـارب بني زيد لم تكن عـلى الحـدود مع القطر الـطرابلسيّ المجاور، وأنّ أهالي هذه القـبيلة لم يكتّـفوا «حضـورهم العسكري..» (كـذا)، بهذه النواحي، إبّان الحرب العالميّة الأولى.

- إنّ الحاج سـعيد بن عـبد اللّطيف ليس وجيـها من قبـيلة بني زيد، بل من فريق أولاد دباب (من قبيلة الودارنة الورغميّة). وكـما هو معروف، فإنّ قيادة تلك الحركـة كانت ثلاثيّة، إذ تزعمـها إلى جوار سـعيد بن عبـد اللّطيف الدبابي (وكان وقتذاك عضوا بالهيئـة التّشريعيّة المسماة الجمعيّة الشّوريّة)، شـقيقه علي بن عبد اللّطيف، وشيخ فريق الكراشوة (من الودارنة) عمر الأبيض.

- لعلّ ثالثة الأثافي فيما نحن بصدده من إضاءات، وتفسيرات، حول الحقبة المذكـورة، تأكيـد الكاتب انخراط ابن عـسكر في الجـيش الفرنسيّ قـبل 1915، وتمرّسه بالأساليب الحربيّة، والقتـاليّة تحت العلم الفرنسيّ، وهو ادّعاءٌ لا أساس له من الصحّة. وبوسـع القارئ التّأكّـد من ذلك بالرّجوع إلى مباحث الباب الأوّل من كتابنا هذا.

وبهذه الملاحظة الأخيرة ننـهي هذا التّعليق الّذي استطال بعض الشّيء، رغم أنّه جاء على هيئة إشارات برقيّة.

لقـد كان بالإمـكان أن نستـرسل في سـرد الأمثلـة، ولكن هدفنا -في هذه التّوطئـة- لا يتمثّل في حشـد القدر الأوفر من الأدلّة، وذلك لاعـتبارات منهجـيّة لا نراها خافية على القارئ.

وإذا نحن انتقلنا إلى «الصّنف الثّاني» من الكتابات، فإنّ الملاحظة البارزة بشأنها ذات صلة متينة بـ زورار جلّ الكتاب -إلا فيما ندر- عن الخوض -كما أسلفنا القول- في حرب الجبل الغربي (خلال الحقبتين 1916-1917، 1920-1921)، والحفر في بواعثها، ومقدّماتها، وأطوارها، بدعوى أنّها «مخجلة، ومحزنة، ولا داعي لنبش الماضي...»(13).

كما تجنّبت تفصيل القول في خلفيّات اصطراع زعامات الصّفّ الوطنيّ، وكذا مسألة تعاون قسم منهم مع الإيطاليين خلال الحقبة الواقعة ما بين 1915 و1924.

وبالتّدريج شكّل ذلك، السّكوت سياجا أحاط بالموضوع وحوّله -على مرّ السّنين- إلى ضرب من المحرّمات، أو ما يشبه الحقل الملغوم(14)، وهو ما سيكون شغلنا في الباب الثّالث من هذه الدّراسة.

---

(13) علي عبد اللطيف حميدة: **المجتمع والدّولة والاستعمار في ليبيا**، دراسة في الأصول الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة لحركات وسياسة التّواطؤ ومقاومة الاستعمار (1930-1936)، ط 1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1995، ص 177.

إنّ هذا العزوف (أو بالأحرى الهروب) عن دراسة هذه الحقبة الحساسة في تاريخ ليبيا هو جامع مشترك لكلّ الباحثين الوطنيّين تقريبا. انظر على سبيل المثال كيف يركن علي مصطفى المصراتي إلى المراوغة عندما يصل به الحديث إلى الحرب المذكورة (الّتي يسمّيها خلافا): «لقد أحدث الخلاف بين الزّعماء هوّة سحيقة. وكانت تطوّرات، وأحداث شغلت بال النّاس. ونحن هنا في الحديث عن تلك الفترة لا نودّ أن ندخل في التّفاصيل، لا نريد أن نغوص في أبعاد بعيدة...» علي مصطفى المصراتي، **سعدون البطل الشّهيد، صفحة من نضال الشّعب اللّيبيّ**، ط1، بيروت، المكتب التّجاري للطّباعة والتّوزيع والنّشر، 1964، ص 72.

(14) يقول خليفة محمد التليسي في هذا المعنى: «والواقع أنّ هذه الظّاهرة تحتاج منّا إلى دراسة عميقة صريحة جريئة لا تتردّد في الثّورة على تاريخنا. لا تجامل، ولا تحابي، ولا تراعي الحساسيّات الّتي هي أثر من مخلّفات المشاعر الجهويّة، أو العنصريّة المتخلّفة، وبقايا تلك العقليّات القبليّة والأسريّة، يدفعنا إلى ذلك إيماننا بأنّ الشّخصيّة السّياسيّة ملكٌ للتّاريخ الّذي شاركت في صياغته، وتشكيل أحداثه، وليست ملكا لأسرتها، أو عشيرتها أو جماعتها، ومن حقّ الدّارسين أن يتناولوها بالدّراسة، وأن يضعوها في المكان الّذي يتّفق مع عملها، ومنهجها السّياسيّ ونتائجه...» انظر: محمد خليفة التليسي، **بعد القرضابية**، ط2، الدار العربيّة للكتاب، تونس، 1978، ص 233.

وقد اخترنا ههنا أن نفرد لكتاب محمّد سعيد القشاط المهور : خليفة بن عسكر : الثّورة والاستسلام، هذا الحيّز الخاص بالكتابات «اللّيبيّة» في الموضوع. واختيارنا لمؤلّف القشاط له ما يسوّغه لأنّ هذا الأديب جعل من سيرة هذه الشّخصيّة -كما سبق أن أشرنا- مركز اهتمامه، ونذر جهدا كبيرا في تقميش مادّة بحثه، وصياغتها.

وبإمكاننا تكثيف ملاحظاتنا بخصوص هذا الكتاب في النّقاط الآتية :

أوّلا : تضمن العنوان الفرعي للمؤلّف خطأ تاريخيّا، ونحن لا نملك إلاّ أن نعجب لذلك، إذ من المعروف -وهذا ما تؤكّده الوثائق بكلّ وضوح وقوّة- أنّ خليفة بن عسكر لم يستسلم كما أشار إلى ذلك العنوان المذكور، بل كان ضحيّة خدعة أو مكيدة أوقعه فيها رودولفو غراتسياني، في المكان المعروف بالوطيّة يوم 28 ماي 1922. شتّان إذن بين الاستسلام، وبين الوقوع في «مصيدة» أحكم العدوّ نصبها.

ثانيا : لدينا أكثر من مأخذ على التّخطيط الّذي انتهجه المؤلّف. فالانطباع الأوّلي الّذي يخرج به القارئ، هو أنّ الكاتب انساق في عمله، وراء التّفاصيل، فكان أن استغرقته، ومن ثمّ ضاع التّصوّر الجامع.

وإذا نحن سلّمنا (أو سالمنا) بالقولة المعروفة، والّتي قوامها أنّ طبيعة الموضوع هي الّتي تحدّد نوع التّصميم، أو الأخذ بمنهج معيّن، فإنّ مواضيع البيوغرافيا تقتضي -هي الأخرى- طرقا معروفة في المقاربات.

صحيح أنّ المقاربة الكرونولوجيّة هي من صميم هذا الضّرب من المواضيع، ولكن لن يمنع هذا من فصل الوقائع (أو مفصلتها، وهو عمل إجرائي ليس إلاّ) ضمن محاور، أو أبواب ذات عناوين معبّرة.

وغنيّ عن القول هنا أنّ الإشكاليّة الأساسيّة تتلخّص في مدى قدرة الباحث على التقاط المفصل الأساسيّ، والمسك بلحظة «التّطوّر النّوعي». ولسنا بحاجة إلى التّأكيد أنّه من الخَطَل في الرّأي تصوّر حياة الأفراد على هيئة تطوّر كميّ بسيط، غير معقّد، وغير متميّز.

أربعة عشر فصلا شكّلت عَصَب الكتاب، وكان بالإمكان تكثيف الأحداث موضوع الدّراسة، وتركيزها في ثلاثة أو أربعة فصول على أقصى تقدير.

بلى، لقد كان بوسع المؤلف أن يستجمع الفصل الخامس (الجمهوريّة الطرابلسيّة)، والفصل السّادس (صلح بنيادم)، والفصل السّابع (اختلاف ابن عسكر مع الطّليان ووساطة البارونى) والفصل الثّامن (هيئة الإصلاح المركزيّة)، في فصل واحد يكون عنوانه (على سبيل المثال): مستجدّات ما بعد الحرب بإقليم طرابلس، خلفيّات التّقارب بين ابن عسكر والإيطاليين: أطواره وتعثّره (1919-1922).

كما كان باستطاعة الباحث الاستغناء عن الفصلين الثّالث عشر والرّابع عشر، وجمع المادّة الوثائقيّة المهمّة المبثوثة فيهما (من صور، ورسائل مخطوطة الخ...) في فصل أخير يحمل عنوان: ملاحق.

ثالثا: لم تكن مقاربة القشاط تحليليّة بقدر ما كانت انطباعيّة، ذلك أنّ المؤلّف انبرى في تعاطيه مع سيرة ابن عسكر لصياغة «تاريخ وطنيّ» (في ردّه على التّاريخ «اللاوطنيّ» الّذي كتبه الإيطاليّون والمتأثّرون بنهجهم)، غالبا ما حكمه منطق التّخوين (لسليمان الباروني، ويوسف خربيش، وسلطان بن شعبان وغيرهم...).

ومجمل الأمر، أن بيوغرافيا شخصيّة خليفة بن عسكر بقلم القشاط، كانت كناية عن عمل منقبيّ لا غير. ولسنا في حاجة هنا إلى ذكر بعض النّماذج الموضّحة لذلك، إذ أنّ كلّ صفحات الكتاب تقريبا تسمح بتعضيد هذا الرّأي.

رابعا: لم تكن مصادر الكتاب ومراجعه وفيرة ومتنوّعة بالقدر الّذي يتيح تأليف كتاب يلمّ جميع مراحل حياة هذه الشّخصيّة الإشكاليّة.

وغالبا ما كان القشاط يعود إلى مؤلّف الطّاهر أحمد الزّاوي: جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، دون الإشارة إلى ذلك(15).

---

(15) من الأمثلة على ذلك ما جاء بالصّفحتين 46-47، والصفحات 130-138 الخ...

أمّا الفصل الّذي عنونه : الجهاد ضدّ فرنسا في الوثائق الفرنسيّة، والّذي اشتمل على تعريب لدراسة النّقيب رافو RAFFOUX عن جبهة الجنوب التّونسيّ أثناء حرب 1914-1918، فإنّ ما يتعيّن قوله هنا أنّ هذا العمل لا يعتبر مصدرا بل مجرّد مرجع، ذلك أنّ هذا النّقيب الفرنسيّ جمع مادّة دراسته في أوائل الأربعينات خلال نبشه في ركام التّقارير المودعة في محفوظات مكاتب الشّؤون الأهليّة بأقصى الجنوب التّونسيّ، وكذا بمصلحة الشّؤون الأهليّة بتونس.

شتّان إذن بين من كتب تحت وهج الحدث (راجع قائمة المصادر)، وبين من قمّش مادّة باردة، بعد مرور ربع قرن عن المواجهة المذكورة. أضف إلى ذلك ما حوته تلك الدّراسة من تقويمات متهافتة، وأحكام وثوقيّة (انظر على سبيل المثال خاتمة تلك الدّراسة).

والواقع أن القشاط ليس مسؤولا كلّ المسؤوليّة عن هذه الهنة، الّتي أوقعه فيها -والحقّ يقال- المرحوم محمّد المرزوقي، من خلال إيهامه أنّ دراسة «رافو» تعتبر مصدرا يعتدّ به، عكس وضع الفرنسيّين، ومواقفهم عامي 1915 و1916(16).

على أنّ عيب المادّة المصدريّة الرّئيسيّ باعتقادنا هو ذلك المتعلّق بالمصادر الشّفويّة، إذ يبدو واضحا اطمئنان الكاتب إلى شهادات مخاطبيه (المنتخبين ؟)، الّتي سادها التّقرير الجازم، وإلى ما سرد على سمعه من بطولات، وأحداث، ومعارك لعبت بها ذاكرة الرّواة، وذلك بالرّغم ممّا قام به - أحيانا- من تحرّ(17).

---

(16) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 71.

(17) لا مناص من التّذكير أنّ التّعاطي مع هذا الضّرب من المصادر محفوف بالمزالق، إذ يجب الانتباه إلى جملة من المحاذير الملازمة لهذه المادّة المصدريّة : فالرّاوي يعتمد على ذاكرته. وإذا نحن تركنا جانبا عاملي النّسيان وتقادم الأشياء، فلا مندوحة عن التّذكير بما قاله مارك بلوك Marc Bloch من ان «الذّاكرة لا تتذكّر، وإنّما تعيد تركيب عناصر الحدث...»، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أنّ المرء يقدم ويؤخّر، ويختزل ويستضخم أشياء، وشخصيّات، ويسكت عن أخرى الخ... هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لا بد من الإشارة إلى أن قناعات النّاس تتغيّر بمرور الزّمن -إن قليلا أو كثيرا- كما أن رؤاهم للأشياء والوقائع السّابقة، وتقويمهم لها، كثيرا ==

وفي كلمة : لقد شكّلت تلك المصادر في عمومها تمثّلات سارت في اتّجاه التّمجيد (في الأغلب الاعمّ) وتصوّرات نحت منحى الأسطرة (في بعض الأحيان)(18).

خامسا : بَدَا تعصّب محمد سعيد القشاط، وتحيّزه لقبيلة الزنتان واضحا في متون هذا الكتاب، ولسنا الوحيدين الّذين انتبهنا لهذا الأمر(19).

كما انتصر الكاتب للقبائل الّتي تحالفت مع قبيلته (أي قبيلة الزّنتان) خلال الحرب الأهليّة 1920-1921. وإذا كان من حقّ القشاط أن ينتصر لعشيرته وذوي قرباه، فليس يعقل، في المقابل أن يخلع «الوطنيّة» على من يريد من الزّعامات، وأن يدمغ من يشاء منها (إقرأ : منافسيهم)، بالخيانة والتّواطؤ، كلّ ذلك استنادا إلى شهادات جزئيّة، وإشارات غائمة تفتقر إلى الكثير من الدقّة.

== ما يعْتَورها تبدّل. وعادة ما ينعت المصدر الشّفوي بالذّاتية المزدوجة :

- ذاتية الرّاوي (بأحداثها الموضوعي منها والخيالي وحتّى المزوّر).

- ذاتية الباحث أو الجامع (خلال تركيبه، وتبويبه، و«تصحيحه»، وإخراجه للسّير أو البيوغرافيّات)

كما تجدر الملاحظة أن المستجوب عادة ما يدلي بالمعلومات الّتي يعتقد أنّها تستجيب لرغبة الباحث. ومن جهة أخرى يكتفي بالإفصاح عن المعلومات الّتي يودّ استمرارها عنه بعد وفاته أي أنّه يتّجه بكلامه إلى الباحث كشخص، ثم الباحث، وأخيرا إلى الموت.

ويضيق المجال هنا للحديث عن تعدّد «الأنوات» لدى المتحدّث (أنا الرّاوي، أنا الشّخص...)، وكذلك إلى تفرّع الواقع، موضوع -المقابلة إلى : واقع مقنّن، وواقع متمثّل "Réalité représentée"، وواقع معيش.

(18) نذكر على سبيل المثال الجملة التّالية الّتي نسبت إلى ضابط إيطاليّ خلال معركة الجويبيّة (ديسمبر 1914)، «من أين جاءتهم هذه الخيول الكثيرة ؟ إنّني أرى خيولا زرقاء تقاتل معهم...». وقد أكّد محمّد يوسف بوصوّة (أحد رفاق ابن عسكر) كلام الضّابط هذا موضّحا في الآن نفسه أنّهم (أي رجال المقاومة) لا يملكون جوادا واحدا. فالجميع كانوا راجلين. وقد علّق القشاط على هذه الحادثة بقوله : «إنّ للّه رجالا...»، انظر : نفس المرجع، ص 22.

(19) علي عبد اللّطيف حميدة، **نفس المرجع**، ص 176، إحالة 101.

لنقتصر على مثال واحد نراه جدّ مهمّ : لقد أفاض القشّاط في الحديث عن «خيانات سليمان الباروني وعمالته وتواطئه مع الإيطاليّين الخ...»[20] ، قبل أن يصدر حكما نهائيّا باتّا بشأنه : «كان أحد السّاسة الّذين أجهضوا حركة الجهاد في طرابلس...»[21] .

وفي المقابل نراه متفهّما حدّ السّذاجة لموقف محمّد فكيني زعيم قبيلة الرّجبان (وحليف قبيلة الزنتان أي قبيلته هو)، الّذي شكّل إحدى ركائز ما يسمّى «بالتّحالف الوطنيّ» خلال الحرب الأهليّة المذكورة، والحال أنّ اتّصالات هذا الأخير بالإيطاليّين، وتعاونه معهم (وخذلانه حركة المقاومة)، فاقت «ما أتاه الباروني» (كذا) بكثير.

ومن الطّريف الدّال بهذا الخصوص، أن يضرب محمد سعيد القشاط صفحا عن الدّور المهمّ الّذي نهض له سليمان الباروني عند انطلاق حركة المقاومة خلال الفترة الواقعة ما بين 1911-1913[22] ، وهو الدّور الّذي نوّه به، ونبّه إليه، كلّ المؤرّخين ليبيّين كانوا أم أجانب[23] .

---

(20) انظر على سبيل المثال الصّفحات : 120، 126، 172، 175، 177، 179، 180، 199، 218، 220. الخ... وبوسع القارئ المتمعّن أن يلاحظ أنّ الكاتب قد انحرف في أحايين كثيرة عن هدفه الأصلي (بيوغرافيا خليفة بن عسكر).

(21) **نفس المرجع**، ص 220.

(22) **نفس المرجع**، ص 218.

(23) انظر على سبيل الذّكر لا الحصر :

- I.S.H.M.N., **A.N.O.M. (Aix-en-Provence) sous série 26 H, Tunisie** B. 69, rapport octobre 1912:

إذ كتب الضباط مؤكّدين أنّ الباروني يعتبر زعيم المقاومة الأوّل (ص 1).

– الطاهر أحمد الزّاوي، نفس المصدر، ص 190-120، وص 204-206 الخ...

– حسن علي خشيم، **صفحات من جهادنا الوطني**، ط2، طرابلس، دار مكتبة الفكر، 1974، ص 51-52.

– جورج ريمون، **من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا** (1912) ط2، نقله عن الفرنسيّة وعلّق عليه، محمد عبد الكريم الوافي، طرابلس المنشأة العامّة للنّشر والتّوزيع والإعلان، 1983، ص 110-111.

ومن الطّريف أيضا ألاّ ينتبه المؤلّف إلى ما جاء في الوثائق الّتي حاول بها، ومن خلالها تعضيد أقواله، وتعزيز طروحاته، من إشارات أفادت عكس ما قصده خلال سعيه المذكور إلى تلطيخ صورة الباروني، وثلم صيته(24) .

على أنّ الأمر المحيّر حقا في هذا الكتاب الّذي حكمه منطق التّخوين (من البداية إلى النّهاية) هو ذاك المتعلّق بالسرّ الكامن وراء قيام «حلف فولاذيّ» بين قبيلة الزنتان الوطنيّة برئاسة وجيهها أحمد الشنطة، وقبيلة الرّجبان الّتي كان يقودها محمّد فكيني، وهو الرّجل الّذي قال عنه القشاط إنّه «تسبّب في إجهاض حركة الجهاد في الجبل الغربي وتوجيهها غير وجهتها الصّحيحة...(؟)(25)

تلكم مجرّد خواطر سريعة بخصوص كتاب محمد سعيد القشاط. وأقصى ما نودّ تأكيده في هذا المقام هو أنّنا لم نسع إلى دحض كلّ دعاوى الكاتب، وتفنيد جلّ طروحاته، لاعتبارات منهجيّة حتّمتها حدود هذا الاستهلال. وبإمكان قارئ هذا الكتاب أن يجد ردودا على هذه الدّعاوى والمزاعم، صادرة عن القشاط وغيره، مبثوثة في متونه.

وجوهر الجوهر، بعد تكرار التّنويه بريادة هذا العمل، وثراء وثائق ملاحقه، إن سيرة خليفة بن عسكر لم تكن في حقيقة الأمر، بالنّسبة لهذا الكاتب، إلاّ مناسبة لمحاولة ترسيخ بعض القناعات المُسبقة، وتأكيد بعض «المُنطلقات الوطنيّة، والسّياسيّة» (القبليّة ؟).

***

(24) **نفس المرجع** ص 95. وجاء في تلك الإشارة ما يؤكّد تحلّي الرّجل «بروح الأمانة ونظافة اليد...».

(25) **نفس المرجع**، ص 202.

إنّ السّؤال الّذي يواجهنا في هذه المرحلة من التّوطئة، هو : ما هي مسوّغات استئناف النّظر في سيرة هذا القائد العسكريّ والزّعيم السّياسي ؟

لقد انجلت مقاربة القشاط المار ذكرها عن بياضات رأينا من الضّروري ملأها. بعبارة أخرى : لقد ترتّب على تعاطيه المفتقر للموضوعيّة مع حركة الرّجل، تغييب بعض الوقائع، وطمس جانب من الحقائق الّتي كان خليفة بن عسكر طرفا فيها إن قليلا أو كثيرا. ومن ثمّ فإنّ دراستنا هذه تطمح إلى إضاءة بعض الجوانب المعتّمة، والخوض في بعض القضايا الّتي ظلّت في عداد المحرّمات من فرط حساسيّتها إذ ليس يعقل أن تبقى سير بعض «شوامخ البطولة» (كذا) بمناءى عن الدّراسة والنّقد المتأنّي.

لماذا استضخم دور خليفة بن عسكر في انتفاضة الودارنة عام 1915، والحال أنّه خذل قادتها عام 1916، قبل أن يبرم الصّلح مع فرنسا ؟ ما حقيقة العلاقة بين ابن عسكر وقادة الحركة السنوسيّة آنئذ ؟ ما طبيعة الحرب الأهليّة الّتي اندلعت عام 1921 بين معسكر الجباليّة بقيادة خليفة بن عسكر، ومعسكر الزّعامات القبليّة البدويّة، حلفاء ابن عسكر عام 1916 ضدّ «بني جلدته»، من بربر يفرن وفساطو... ؟

بماذا نفسّر تحوّل الجباليّ ابن عسكر إلى طاغية بَطَش بالأشياء والأحْياء (بعد عام 1915) بطْش الصّبية، من خلال إيقاعه الأذى الشّديد بسكّان جهة نالوت، والمهاجرين التونسيّين الّذين التحقوا بحركته، وأعدائه على حدّ سواء ؟

ما هي خلفيّات التّقارب بين خليفة بن عسكر والإيطاليين خلال الفترة 1919-1920 ؟ وما حقيقة دور سليمان الباروني في ذلك ؟ وأخيرا : لماذا عجّل الإيطاليّون بالتّخلّص منه، في سبتمبر 1922 ؟

تلكم أهمّ القضايا الّتي حاولنا إثارتها في متون هذا البحث. ومن الحقّ القول أنّ إقدام باحث غير ليبيّ على التّعاطي مع أحداث مرحلة بمثل الدقّة والتّعقيد الّذي تميّزت به الحقبة 1915-1922، لا يخلو من فوائد أو إيجابيّات قد يراها البعض ثانويّة، ونراها نحن جوهريّة.

إنّ ما نريد الخلوص إليه هنا هو التّذكير بالحقيقة البديهيّة الّتي قوامها أنّ رؤية الأشياء، وتحليلها، واستبدار أبعادها من خلال «نافذة أجنبيّة» يمثّل مصدر إغناء للبحث التّاريخيّ.

لا مريّة إذن في أنّ عدم اعتبار الباحث نفسه طرفا في الأحداث -لا من قريب ولا من بعيد- لا سيما إذا كانت بمثل حساسيّة الحرب الأهليّة الّتي عرفها الجبل الغربيّ الطرابلسيّ في مطلع العشرينات، سيتيح له الإنصات «الهادئ» لإيقاع حركة المقاومة، وحرب الزّعامات الأهليّة، والتّعامل «الرّصين»، مع تبدّل المواقع، وتغيّر خريطة الولاءات السّياسيّ، ومشهد التّحالفات القبليّة الخ...

ومن الإنصاف الإقرار هنا أنّ «وضعنا المريح» هذا، هو الّذي جعلنا لا نتهيّب نبش القضايا الآنف ذكرها، والخوض في تفاصيلها، دون خشية لَوْم أو مُؤاخذة(26).

لقد حتّمت دقّة الموضوع وحساسيّته من حيث وقائعه، وطبيعة الأطراف، والشّخصيّات الفاعلة فيه، التّحلّي بأكبر قدر من التّبصّر في التّعامل مع المادّة المصدريّة، سواء ما صدر منه عن الجانب الوطنيّ (أي اللّيبيّ)، أو الأجنبيّ (أي الإيطالي، والفرنسيّ، وحتّى التّونسيّ).

---

(26) لا يمكن للباحث أن يدرك أهمّية هذا الوضع، ويعيه جيّدا، إلاّ بعد الاطّلاع على «معاناة» زملاء له تجرّؤوا على الخوض في المسكوت عنه. ونكتفي أدناه بهذه الشّهادة الصّادرة عن باحث ليبيّ جمّ النّشاط، عميق المعرفة بتاريخ بلاده، وفوق هذا مشهود له باستقلاليّة الرّأي، ونزاهة الأحكام:

«لقد عانى تاريخنا من ظروف، وعوامل، وأسباب جعلت عمليّة دراسته ضربا من المغامرة، ونوعا من المجازفة غير المأمونة، إذ حيط بحساسيّات جعلت التّعرّض له بالكشف والدّراسة، مجلبة للمتاعب، والمشاكل الّتي يحرص الإنسان على أن يتجنّبها، ويبتعد عنها.

وهكذا تحجب الحقيقة، ويموت التّاريخ، ولا يبقى منه سوى أصداء خافتة تردّدها ذاكرة عبث بها الزّمان...» انظر: خليفة محمد التليسيّ، **مُعجم معارك الجهاد في ليبيا 1911-1931**، ط. 1، تونس، الدار العربيّة للكتاب، 1980، ص 14.

والواقع أنّنا حاولنا المزاوجة بين مختلف تلك المصادر، لما يتيحه هذا التّمشيّ من إمكانيّة المقارنة، ومن ثمّ التّثبّت في حقيقة ما جرى من أحداث، ووقائع. على أنّه بإمكان القارئ أن يلاحظ أنّنا ركّزنا أكثر على الوثائق الفرنسيّة، وهو اختيار سنبرّره بعد قليل.

فبصدد المصادر، أفدنا أيّما إفادة من تأليف الشيخ الطاهر أحمد الزّاوي المعنون: جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، وتحديدا من الطّبعة الأولى الصّادرة بالقاهرة عام 1950.

ويضيق المجال هنا لإبراز الأهمّية الّتي يرتديها هذا المصدر. وحسبنا أنّ المؤلّف كان واحدا من أبرز الزّعامات الوطنيّة، وأمتنها ثقافة، وأوسعها اطّلاعا، وأشهرها استقلالا بالرّأي. وأنّه أنفق زهاء عشرين عاما في جمع مادّة الكتاب، وصياغه متونه، بأسلوب بدا لنا أبعد ما يكون عن الوثوقيّة، والجزم، والانحياز.

ثمّ إنّ هذا الكتاب -وهذا الأهمّ- صدر قبل استقلال ليبيا أي قبل شروع العائلة السنوسيّة في «كتابة» تاريخ ليبيا وفق رؤيتها الخاصّة، وما استتبع ذلك التّمشّي من انتقاء، وحذف، واستضخام شخصيّات وتغييب أخرى...

وقد ألجأنا نقص المعلومات أثناء الحفر، في مرحلة التّنشئة، والشّباب للشّخصيّة موضوع البحث إلى التّوسّل بما جاء في الرّوايات الشّفويّة الّتي اعتمدها سعيد القشاط في عمله لتوافرها على إضاءات مهمّة بهذا الخصوص، نعتقد أنّ جانب المبالغة فيها محدود(27).

ولكنّنا بالمقابل، استبعدنا تأويلات من زاملوا الرّجل، وكذا تقويماتهم اعتبارا إلى أنّهم لم يفلتوا -فيما نعتقد- من ثقل الحاضر، وضغط استفهاماته، واستنتاجاته، ناهيك أنّ شخصيّة خليفة بن عسكر، لم تتحوّل، خلال منتصف السّتينات (أثناء الإدلاء بالشّهادات الموما إليها)، في ليبيا، إلى فلذة من الماضي، وهي أشياء وقعت الإشارة إليها في هذه التّوطئة.

---

(27) من نافلة القول أنّ الرّواية الشّفويّة -على أهمّيتها في حقل البحث التّاريخيّ-الاجتماعي- لا تحظى في أوساط الباحثين بالإجماع حول صلاحيّة اعتمادها، ومن ثمّ فهي أقلّ جاذبيّة، وأضعف ائتمانا على معطياتها... راجع ملاحظاتنا بهذا الخصوص، إحالة 17.

وحريّ بالتّسجيل أنّ كتابة هذه السّيرة تواقتت مع تدشين الطّور الثّاني في كتابة التّاريخ الوطني(28)، وهو طور تميّز بالتّركيز على شخصيّات أحمد الشّريف، وعمر المختار، والبعض من رجالات الجمهوريّة الطرابلسيّة، وعناصر المقاومة البارزة بإقليم طرابلس نحو سليمان الباروني، ورمضان السويحلي وغيرهما... وطبيعي أن يتمّ التّخلّي عن ذكر دور العائلة السنوسيّة، ومساهمة حفيد مؤسّس الحركة إدريس السنوسي (حـ. 1951-1969) في مقاومة الاستعمار وبناء الدّولة، كما جاء بقلم «مؤرّخي إدريس» (كذا)(29)، وأصبح ذكر هذا الأخير(30)، وكذا يوسف خربيشة وغيرهما مرادفا للعمالة، والتّواطؤ، والرّجعيّة، وما يحيل عليها.

واعتمدنا أيضا في تحصيل المعطيات على ما جاء بالمصادر الإيطاليّة، أي ما نقل من هذه المصادر إلى العربيّة مثل مؤلف رودولفو غراتسياني : نحو فزّان، فضلا عمّا كتبته الصّحف الإيطاليّة الصّادرة بطرابلس أو أيطاليا حول مجريات الأحداث بليبيا ما بين 1919 و1922، وحول الزّعامات الوطنيّة وهي المقالات

---

(28) تعالت الأصوات في مستهلّ هذا الطّور الثّاني الّذي انطلق مع ثورة 1969 مطالبة بإعادة كتابة تاريخ ليبيا. وتطالعنا بهذا الخصوص دعوة علي خشيم في كتابه الموسوم : **صفحات من جهادنا الوطني** (راجع لائحة المصادر والمراجع)، إذ كتب في مستهلّ الفصل الأوّل الّذي عنونه : كيف نصحّح التاريخ ؟، قائلا : «تاريخنا مزيّف... إذن من هنا نبدأ... كلّ ما تعلّمناه في المدارس، وقرأناه في كتب المؤرّخين هو زيف، وخداع، ونفاق، لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة. كلّ ما دبّجه المنافقون عن جهاد الأسرة السنوسيّة هو كذب، وزور وبهتان... إدريس السنوسي هو أكبر دجّال عرفته ليبيا في تاريخها الطّويل لم يتّخذ مكانا في جبهة القتال يوما واحدا... بل بالعكس هو الّذي حارب السويحلي، وخدع عمر المختار، وساوم الإيطاليين باسم المجاهدين...

وبحثا عن المجاهدين الحقيقيين، الّذين حاربوا الاستعمار الإيطالي، وصنائعه، وعملائه، كان لا بدّ أن تعاد صياغة تاريخنا الحديث من جديد، صياغة جديدة تقول للمجاهد : أحسنت، وللخائن : أخطأت !...» **نفس المرجع**، ص13 -14.

(29) جماعي، **حقيقة إدريس : وثائق، وصور، وأسرار**، ط.2، طرابلس، المنشأة العامّة للنّشر والتّوزيع والإعلان 1983 ص 706.

(30) نفس المرجع، ص 706-707.

الّتي عني بيار غرانشان Pierre Granchamp بنقلها إلى الفرنسيّة، والتّعليق عليها ابتداء من عام 1920.

أمّا القسم الأعظم من مادّة هذا البحث فقد تألّف من المصادر الفرنسيّة بمختلف أنواعها كما قدّمنا. ولنا هنا ملاحظتان بصدد تسويغ هذا الاختيار. أمّا الأولى فذات صلة بالأهميّة الّتي تكتسيها هذه المصادر بالنّسبة لدارسيّ تاريخ ليبيا المعاصر، إذ شكّلت الوثائق الفرنسيّة -فيما نعتقد- رؤية أخرى، أو قراءة مغايرة لما كان يجري في ليبيا منذ الغزو الإيطاليّ لها في خريف 1911(31)، ومن ثمّ فإنّ الاطّلاع على ما انطوت عليه دُور المحفوظات الفرنسيّة، بخصوص «الشّؤون اللّيبيّة»، يعدّ من الأهميّة بمكان بالنّسبة لكلّ باحث ينشد رسم «صورة صادقة»، أو «موضوعيّة» عن تطوّر الأوضاع في هذا القطر على عهد الاستعمار الإيطالي.

وأمّا الملاحظة الثّانية فتتعلّق بالغياب شبه الكليّ لهذه المصادر القيّمة، في الأعمال الّتي ألّفها المؤرّخون اللّيبيّون. ولئن حاول بعض الكتّاب غير اللّيبيين، استغلال تلك المادّة الأرشيفيّة، في بعض الأعمال، فإنّنا نعتقد أنّهم ليسوا بمنجى من المؤاخذة، إذ قام البعض بتوظيف تلك المادّة على نحو خام، أي دون إخضاعها لعمليّة النّقد المطلوبة(32)، ولم يعمد البعض الآخر -رغم ما اتّسمت به تحاليله من عناصر القوّة- إلى مقابلة ما جمعه، بالمصادر العربيّة، واللّيبيّة، لجهله بلغة الضّاد(33).

---

(31) لسنا بحاجة هنا إلى إبراز الأهميّة الّتي أوْلَتْها السّلطات الفرنسيّة (في باريس كما تونس) لموضوع التّمركز الإيطاليّ بليبيا، وما ترتّب عليه من تداعيات، انظر بهذا الخصوص: محفوظات وزارة الخارجيّة الفرنسيّة، والمصلحة التّاريخيّة لسلاح البرّ (راجع قائمة المصادر المحفوظة بالمعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنيّة).

(32) Mahmoud ABDELMOULA : **Jihad et Colonialisme**, op. cit., 73-124.

(33) André MARTEL : **La Libye (1835-1990), Essai de géo-politique historique**, Paris, P.U.F., 1991.

إنّ جهل معظم الباحثين الفرنسيّين ممّن تخصّصوا في تاريخ المغرب العربي، خلال الحقبة المعاصرة باللّغة العربيّة يعد نقيصة كبيرة.

ليس مطلوبا منّا، بعد أن نبّهنا إلى أهميّة هذه الوثائق، التّفصيل في ما تزخر به المحفوظات الفرنسيّة من معطيات أوّليّة، سواء ما ارتبط منها بالجوانب الأمنيّة، والعسكريّة، والسّياسيّة، و ما عني بالنّواحي الاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والثّقافيّة، في توطئة وجيزة مثل هذه(34)، لكن المهمّ منهجيّا هو أن نوضّح أنّنا نوّعنا مصادرنا قدر الإمكان(35)، وحاولنا التّعامل معها تعاملا نقديّا من حيث منهجها ومنطلقاتها، تأسيسا على قناعة مؤداها أنّ قلّة الإنصاف تعتور البعض من تلك الوثائق، وأنّ قسما من هذا الرّكام الهام شكل -في بعض الأحيان- مزيجا مكثّفا من أنصاف الحقائق والتّصوّرات الخاطئة عن العرب والمسلمين بمعنى آخر أنّ الأمور قد تلتبس أحيانا -ولا سيما لدى الباحث المبتدئ- في ضباب من الدّعاية، الّتي تحاول أن تظهر الأباطيل في ثوب الحقائق، من خلال التّركيز على عدوانيّة العرب، وتعصّبهم، وما إلى ذلك من الأحكام المعياريّة والأفكار المسبقة...

وليكن واضحا هنا أن تنبيهنا إلى افتقار هذه المادّة الأرشيفيّة -أحيانا- لمتطلّبات الإنصاف وعدم الانحياز، لا يعني البتّة التّنقيص من قيمتها والطّعن في إضافاتها المهمّة. على أنّه تتعيّن الإشارة كذلك إلى أنّنا لم نقتصر على مجرّد إيراد مقتبسات من هذه الوثائق، أو على مجرّد التّوظيف المباشر للظّاهر من دلالتها، بقدر ما قمنا -في بعض الأحيان- بقراءتها، انطلاقا من استفهامات معيّنة. معنى هذا أنّنا من خلال هذا التّوظيف، لا نزعم استنفاد كلّ ما اشتملت عليه من دلالات.

ضمن هذا السّياق العام، اعتمدنا في المقام الأوّل خلال تحصيل المعطيات الأوليّة الخاصّة بالشّخصيّة لمترجم لها على الوثائق المحفوظة بالأرشيف الوطنيّ التّونسيّ، وخاصّة السّلسلة E (المُعنونة : المشبوهون Gens suspects)، وتحديدا الصّندوق 550 (الاضمامات 15/30)، حيث نجد ملفّات متفاوتة

---

(34) بإمكان القارئ أن يتبيّن تلك الأهميّة، من خلال الاطّلاع على ما تضمّنته هذه الدّراسة من تفاصيل.

(35) المقصود هنا بالتّنويع المزوجة في كتابة هذا الفصل من تاريخ ليبيا بين تقارير الرّسميّين، ورؤية الكتاب والصحفيّين، وتقويم الرحّالة «المحايدين»، وحتّى أوراق الجنود «اليائسين».

القيمة والأهميّة عن الزّعامات اللّيبيّة والتّركيّة الّتي لجأت إلى القطر التّونسيّ طوعا أو كرها، وكذلك الصّندوق 478 التّابع لنفس السّلسلة. هذا فضلا عن السّلسلة A (الصّندوق 280)، المعنونة : طرابلس الغرب، والّتي اشتملت على معلومات بخصوص مجريات الأوضاع في طرابلس إبّان الاحتلال الإيطاليّ، وهجرة اللّيبيين إلى البلاد التّونسيّة الخ...(36).

كما أفدنا كثيرا من محفوظات المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنيّة، لما انطوت عليه من معلومات أوّليّة غزيرة، ذات صلة بموضوعنا، ونذكر بهذا الخصوص :

- خزينة وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة (M.A.E.)، المعروفة بالكيه دورسيه Quai d'Orsay.

- الوثائق المحفوظة بالمصلحة التّاريخيّة لجيش البرّ (S.H.A.T.)، وتحديدا بقصر فانسين Château de Vincennes.

- الأرشيف الوطنيّ (A.N.O.M.) بمدينة أكس-أون-بروفانس Aix-en-Provence(37).

واعتمدنا أيضا في تحصيل المعطيات الضّروريّة، على أعمال أنجزها ضبّاط فرنسيّون جاءت على هيئة دراسات وتقارير مستفيضة. وكان القيّمون على الشّأن الأمنيّ والعسكريّ «بالمحميّة التّونسيّة»، أناطوا بهم مهمّات استطلاع الأحوال، وتقصّي الحقائق حول مجريات الأمور بالقطر المجاور (بشتّى الطّرق) انطلاقا من المراكز الحدوديّة الجنوبيّة الشّرقيّة. ونحن نعتقد أنّهم وفّقوا في ذلك، وشاهدنا على هذا أنّ أعمالهم اتّخذت شكل متابعة مجهريّة لتطوّر الأوضاع في ليبيا

---

(36) من الملفات الهامّة الأخرى -والّتي لها صلة بموضوعنا- ما هو محفوظ بالصّندوق 208 التّابع **للسّلسلة A** وقد تسنّى لنا الاطّلاع على الملفّات 30، 61، 62 (الخاصّة بزعماء انتفاضة الودارنة)، والملفات 1194، 1195، 1202، 1674 (ملفّات قادة حركة بني زيد عام 1917).

(37) بخصوص السلاسل الّتي وقع الاطّلاع عليها انظر لائحة المصادر والمراجع.

-لا سيما ما بين 1911-1912- وتأتي في مقدّمة الأعمال المذكورة دراستا النّقيب «ديسوفو» DESEVAUX، والمقدّم «رُو» ROUX(38).

وممّا يجدر تسجيله في هذا المقام أنّ هاتين الدّراستين القيّمتين، بالإضافة إلى دفتر يوميّ أو يوميّات اجنديّ مجهول، خلال حصار أم صويغ(39)، لم تستغلّ -على حدّ علمنا- حتّى الآن.

وثمّة منبع آخر للمعلومات الأوليّة الأصليّة، حاولنا استغلاله، ما وسعنا ذلك، ونعني به كتابات بيار غرانشان Granchamp(40). وبالرّغم أنّ تحاليل هذا الأخير، واستنتاجاته كانت محكومة «بالمركزيّة الفرنسيّة»، فإنّ ما أنجزه كان عظيم الفائدة، سواء ما تعلّق منه بالمعلومات حول تطوّر الحالة الميدانيّة (الحرب الأهليّة، الحرب الإيطاليّة-الليبية)، أو حول الزّعامات القبليّة والمحليّة أو حتّى التّركيّة، أو حول علاقة السّلط الإيطاليّة بمختلف القوى الوطنيّة بالقطر المجاور...

تلك هي -باختصار شديد- أهمّ ملاحظاتنا بشأن المصادر الموظّفة في هذه الدّراسة.

لقد حرصنا في هذا العمل، جهد طاقتنا، أن نلتزم «الموضوعيّة»، وأن نتحلّى بـ«روح الإنصاف». فما أكّدنا أمرا إلاّ واستندنا إلى دليل، وما نفينا عن ابن عسكر صفة، أو درأنا عنه تهمة، إلاّ وأقمنا الحجّة على ذلك. أيّا يكُن فقد اجتهدنا، ولكلّ مجتهد نصيب من صواب أو خطأ.

ونرى من الضّروريّ، في ختام هذه التّوطئة، التّنبيه إلى أمرين يتضمّن الواحد منهما الآخر ويحيل عليه.

---

(38) انظر لائحة المصادر والمراجع.

(39) I.S.H.M.N., **S.H.A.T. (Vincennes) Série 2 H, b. S292**, d. 3, fragment du journal de Déhibat du 2 octobre au 28 novembre 1915, renseignements de première main sur le siège d'Oum Souigh, 2 octobre 1915, folios 429-447.

(40) انظر لائحة المصادر والمراجع.

أوّلا : لا ندّعي إطلاقا أنّنا من الباحثين الايكونوكلاست (من مهشّمي الايقونات Des iconoclastes)، معنى هذا أنّ ما نقدّمه في هذا العمل المتواضع لا يمكن أن يُنظر إليه على أنّه سيرة مضادّة.

إنّ أقصى ما تطمح إليه دراستنا هذه لا يتعدّى إضاءة بعض الجوانب، وجلاء بعض الغوامض في سيرة الرّجل.

ثانيا : إنّ ما توصّلت إليه هذه الدّراسة من استنتاجات، وما انكشف عنه الغطاء من حقائق -البعض منها كان غائما، والبعض الآخر مجهولا- قد يدفع «بالبعض» إلى التّراجع (أو مراجعة) عن البعض ممّا سبق له أن تبنّاه من مواقف، ورؤى، أي إلى التّخلّص من بعض أحكامه المسبقة، أو المتهافتة، وتعديل بعض التّصوّرات، ولم لا استئناف النّظر في بعض القضايا وعلى رأسها مسألة المقاومة، والتّعاون، التّواطؤ، واصطراع الزّعامات، ودور العوامل الخارجيّة في إعاقة حركة المقاومة الخ...

وليكن واضحا هنا، أنّنا لم ننشد الارتقاء بهذا العمل (بما أبان عنه من معطيات نرى أنّ البعض منها لم يكن عاريا من الجدّة والطرافة) إلى «منهجيّة للتّخلّي» Méthodologie de renoncement، بل إنّ ما صبونا إليه، لا يخرج عن إطار ارتياد آفاق جديدة، انطلاقا من هاجس المساءلة الدّائم.

محسن يوسف الكويتي

مقدّمة

« تحـيا البيـوغرافيا !» هـكذا هتف جانيني J.N. JEANNENY، عام 1979 في مستهلّ دعوته المطالبة بإعادة الاعتبار «لتاريخ الرّجالات العظام»(1) ، وهو التّاريخ الّذي أفقدته مدرسة الحوليّات L'Ecole des Annales، على عهد فـرنـان برُوديل Fernand BRAUDEL (لا سـيـمـا خـلال العـشـريّة 1960-1970) كلّ حظوة، بعـد أن قـام رموزها (شـديدُو التّـأثّر بالنمـوذج البنيوي)، بطرد الفرد من التّاريخ(2) .

والواقع، أنّ هذا النّـداء تواقَتَ مع بداية حـقـبـة سـجّلت عـودة «الأشكال التّقليديّة» للتّاريخ وتجلّى ذلك في رجوع «الحدث»، «والسّياسي»، و«السّرد» وكذا البيوغرافيا(3) ، واستعادت هذه الأخيرة في فرنسا، الكثير من ألقـها، يشهد على

(1) Daniel MADELENAT : **La biographie**, Paris, P.U.F., 1984, p. 73.

(2) عرفت محـاكمة البيوغـرافيا، هذا " العبث العلميّ " وفق عـبارة بيار بورديو P. BOURDIEU، ذروتها خلال تلك العـشريّة. ومن المهمّ الإشارة هنا إلى أنّ مدرسة الحوليّـات على عهد مؤسّسيهـا نحو لوسيان فيفر، ومارك بلوك، أي في بداياتهـا لم تتّخذ موقفا معاديا للبـيوغرافيا كما هو شائع لدى كثير من المؤرّخين والباحثين. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يجدر التّذكير أنّ المدرسة المنهجيّة (الوضعيّة) L'école méthodique، مع سنيوبوس، ولانغلوا، وهنْري برْ Henri BERR، نبّهت إلى المحاذير الملازمـة لجنس الكتابة المدعو «بيوغرافيـا»، وأدانت الحيّز الكبير الّذي احتلّه «الرجال الأفذاذ»، خلال الحقبة الرومنطقيّة، انظر :

Gilles CANDAR : "Le statut de la biographie" in **Correspondances**, n° 61, mai-juin-juillet 2000.

(3) اعتمدنا مـصطلح بيوغرافيا في عملنا هذا، بدلا من المصطلح الأدبيّ العربيّ سـيرة، حرصا منّا على اجتناب ما قـد يحيل عليه هذا الأخير من التبـاس بين ما هو سيرة حياة، ومـا هو سيرة ذاتيّة.

وينبغي التّمييز هنا بين منهج البـيوغرافيا أو السّيرة Biographie، ومنهج البيوغرافيا الذّاتية Autobiographie، ومنهج تاريخ الحياة Histoire de vie أو Life history والّذي اشتهر باسم : دراسة حالة.

والمنهج البيوغرافيّ في تعريفه العام هو ترجمة سـيرة شخصيّة ما -من الأحياء أو الأموات- ==

ذلك سيل الإصدارات، والتّرجمات، وإعادات طبع كتب تناولت طائفة من «موجديّ التّاريخ»(4)، نحو شوامخ البطولة، والإبداع، والنّبوغ، في شتّى الميادين، من القدماء كانوا أو المعاصرين، وذلك منذ مطلع الثمانينات، وهو الزّخم الّذي وصفته مجلّة فرنسيّة واسعة الانتشار آنئذ بالانفجار البيوغرافيّ(5).

== من لدن كاتب، أو باحث اعتمادا على مصادر وثائقيّة فحسب أو من خلال المزاوجة بين الوثائق المكتوبة، وتقنية المقابلات (Les interview s) مع من زاملوه، أو تعرّفوا إليه عن كثب.

ومن هذه الزّاوية يمكن تلخيص هذا النّوع من الكتابة «في محاولة التّعريف بحياة رجل (...) تعريفا يطول أو يقصر، ويتعمّق أو يبدو على السّطح»، وهذا محكوم طبعا بـ«حالة العصر الّذي كتبت فيه التّرجمة و(...) ثقافة المترجم -أي كاتب التّرجمة- ومدى قدرته على رسم صورة كاملة، واضحة، دقيقة عن مجموع المعارف والمعلومات الّتي تجمّعت لديه عن المترجم له...» انظر: محمد عبد الغنيّ حسن، **التّراجم والسّير**، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1969، ص8.

أمّا البيوغرافيا الذّاتية (الّتي ذاع استعمالها منذ مطلع السّبعينات باسم Life storyمصطلح بالانجليزيّة، وRécit de vie بالفرنسيّة، انظر بهذا الخصوص:

Daniel BERIAUX : "L'approche biographique. Sa validité méthodologique, ses potentialités" in **C.I. de Sociologie**, vol. LXIX, juillet-décembre 1980, p. 200).

والّتي يعمد فيها المؤلّف إلى ترجمة حياته بنفسه، صادرا في ذلك عن بواعث شخصيّة، وبرغبة خاصّة، فتعتبر أقلّ ائتمانا لمعطياتها، إذْ نادرا ما تعتمد في الأوساط الأكاديميّة نظرا لما تتلبّس به من ذاتية في الأعمّ الأغلب.

ويقترب منهج تاريخ الحياة جدّا من المنهج البيوغرافي، ولكن مع شرط مطلق لوجود المستجوب أو الإخباري أي وجوب حدوث لقاء، ومن ثمّ تفاعل بين المعني بالأمر، وبين الباحث. للاستزادة انظر: فضيل ديلو، «المنهج البيوغرفي: استعمال السير الذّاتية والحياتيّة في علم الاجتماع»، **مجلّة العلوم الاجتماعيّة**، الكويت، مجلس النّشر العلمي، العدد 27، 1999، ص 145-146.

(4) ليس المقصود "بموجديّ التّاريخ" الرّجال الّذين وضعوا الكتب التّاريخيّة، بل أولئك الّذين غيّروا بأعمالهم مجرى الحوادث أمثال الإسكندر الأكبر، نابليون، هتلر الخ... انظر: ف. هرنشو، **علم التّاريخ**، ط1 ترجمة وتعليق عبد الحميد العبادي، بيروت، دار الحداثة، 1988، ص 13.

(5) **Le Figaro**, 7-8 août 1981, "Clio biographe" cité par D. Madélénat... **op. cit.**, p. 74.

وبدا واضحا حينذاك، أنّ المنهج البيوغرافي، وكتابة السّير تحديدا، قد استعادت أنفاسها الثلاثينيّة.

ولقد استمرّ هذا الاهتمام، وبالأحرى هذا الشّغف، ولربّما تطوّر(6)، حتّى مطلع الألفيّة الحاليّة، وفي كلّ المجتمعات تقريبا، لا سيما الغربيّة منها، إذ استوت في ذلك الأوساط الشعبيّة، والأوساط الأكاديميّة، بحيث ظهرت «صناعة بيوغرافيّة» (على هيئة موسوعات، وقواميس مُتقنة التّقميش، وسلاسل موجّهة للجمهور العريض Clio biographe، ومؤلّفات صيغت تحت وهج الأحداث موضوعها «بطل اليوم» «Le champion du jour» أو «النّجم الصّاعد»، أو الشّخصيّة السّياسيّة البارزة، الّتي وافتها المنية الخ...) راهنت على فضول القرّاء، والرّأي العام(7) كما سيأتي بيانه.

وإذا نحن انتقلنا إلى البلدان الأنغلو-سكسونيّة، حيث حافظت البيوغرافيا، بعد الحرب العالميّة الثانية، على مكانتها ضمن مشهد البحوث، والدّراسات والإصدارات (8)، فإنّه لا بدّ من أن نلاحظ أنّ البحوث المعاصرة المعتمدة على المنهج البيوغرافي، والتّاريخ الشّفوي، أصبحت تشكّل «حركة تصوّريّة تجديديّة» متعدّدة الأقطاب، يتقدّمها اليوم ما يعرف باليسار الجديدNew Left (9)، فضلا عن باحثين متعدّدي الاختصاصات (تضافُرُ اختصاصات كثيرة نحو التّاريخ، وعلم الاجتماع، والانتروبولوجيا، وعلم الفلكلور الخ...) وبتوجّه بيوغرافي متزايد نحو الأدب والفن...»(10).

---

(6) Jean PENEFF, **La méthode biographique**, Paris, Armand-Colin, 1990, p. 5.

(7) D. Madelénat, **op. cit.**, p. 73.

(8) خلافا لفرنسا فإنّ الاهتمام بالسّير والتّراجم لم يتقلّص بشكل بيّن في هذه البلدان، ومن الأمثلة على ذلك ما عرف عن التّقليد السُّوسيولوجيّ الألمانيّ خاصّة مع ماكس فيبر، وجورج سمل، من اهتمام بالفرد، والانطلاق منه لدراسة الظّواهر الاجتماعيّة...

(9) من بين المجلات الّتي يصدرها هذا الاتّجاه الجديد يمكن ذكر:

Oral History Review ; New Left Review ; International Journal of History Review.

(10) فضيل دليو، نفس المرجع، ص 144.

وخلاصة الرّأي : لقد أتاحت البلبلة العامّة، والعارمة الّتي يرسفُ فيها العالم منذ أزيد من عشريّة، -والّتي تميّزت بتراجع بيّن للإيديولوجيّات (نهاية التّاريخ والإنسان الأخير !)- حالة موائمة للبيوغرافيا (كما الفردانيّة)، كي تستعيد وهجها في العالم بعامّة، والغرب بخاصّة(11).

ومن الطّريف الدّال، بهذا الصّدد أن ينبريَ المؤرّخ بيار شونو Pierre CHAUNU، أحد روّاد التّاريخ المتسلسل L'histoire serielle، للإشادة بسلسلة Clio biographe إذ كتب مثمّنا المبادرة : «أليس من السّليم، والمشروع أن يبذل تيّار آخر [إلى جوار «التّاريخ الجديد»، الّذي أوقف نفسه للمجموعة] قُصاراهُ ليتعرّف إلى اختلاجات الكائن الحيّ، والقدر الفرديّ، ومأساة الضّمير...»(12).

ومن الأهمّية بمكان التّذكير هنا أنّ الغاية الأساسيّة لعلم الاجتماع، والانتروبولوجيا، والتّاريخ ظلّت حتّى وقت قريب جدًّا، في محاولة الوصول إلى قواعد عامّة، وتعميمات ذهنيّة عن الواقع، ومن ثمّ كان الاتّجاه العام الّذي سارت عليه هذه العلوم، يميل أكثر فأكثر إلى دراسة الأطر العامّة، والظّواهر الكليّة، على حساب التّجارب الشّخصيّة، والتّصوّرات الذّاتيّة المكوّنة عن المجتمع(13).

وفي عبارة أخرى مجملة : لقد انصبّ الاهتمام على كلّ ما هو شامل وكليّ، في حين نظر إلى كلّ ما هو ذاتيّ، على أنّه لا عقلانيّ، وبالتّالي أضعف ائتمانا

---

(11) لا يسمح المقام ضمن مقدّمة صغيرة مثل هذه بالحديث، ولو بإيجاز مخلّ، عن المكانة الهامّة الّتي احتلّتها السّير والتّراجم في الثّقافة العربيّة منذ القرن الثّاني للهجرة «حتّى بلغت من الكثرة في التّراث العربيّ حدًّا لا تبلغه في أيّ تراث لأمّة أخرى معروفة في التّاريخ القديم والحديث...» انظر : محمد عبد الغنيّ حسن، نفس المرجع ص 11.

(12) **Le Figaro**, 7-8 août 1981 "Clio biographe", cité par D. Madélenat... op. cit., p. 74.

(13) D. Madélenat, "La biographie", in **Encyclopeadia Universalis**, 1988, Corpus 3, pp. 640-641, Voir aussi : **La biographie...** op. cit., pp. 107-109.

لمعطياته، واعتبر «كلّ ما هو غير قابل لـلتّجريد، والقياس، أو الاختزال في مفاهيم نظريّة ومجرّدة، غير موجود، أو غير مهمّ...»(14) .

وخلاصة الرّأي : لقد أثبت «التّـاريخ البيوغرافيّ» قدرة عجيبة على الثّبات، والمقاومة، وسط مـناخات ثقافيّة مـعادية، إذ غالبا مـا وُصم هذا النّوع من الكتابة بالهُزال والتّفاهة، وبأنّه «تاريخ ضعيف لا يتضمّن معقوليّته الخاصّة به، بحيث لا يمكن إدراكه، إلاّ إذا وضعناه بمجمله في إطار تاريخ أكثر منه قوّة...»(15) .

وهنا يعنّ السّؤال : ما هو السرّ الكامن وراء هذه الدّيمومة ؟

إذا نحن تركنا جانبا ما جلجلت به نهاية القرن العشرين من أحداث وتقلّبات، وما انتـهى إليه بعض الـباحثين قـبل ذلك بقليل، من أنّ التّـاريخ الاجتمـاعيّ سلَب «الحدث التّاريخيّ فرادتَهُ...»(16) . (ومن ثمّ غدا عاجزا عن تـفسير «كلّ شيء»)، وأنّ العلوم الإنسـانيّة دشّنت اليـوم «طورا تعـدّديًا»، تمّ القطع فيـه مع التّفـاسيـر الأحادية، والأسـاليب الواحدة(17) . وأنّ انتعـاش البيوغرافـيا التّاريخـيّة، وثيق الصّلة بالمكانة الّتي أصبح يحتلّها الميكروتاريخ La microhistoire اليوم(18) ، فإنّ السّبب يكمن برأينا في نوع من الفضول المضاعف : فضول المؤرّخ، وفضول القارئ.

لا مجـادلة أنّ من بين مواصفـات المؤرّخ «الألمعيّ»، تَوافرُهُ على قَـدْر مُهمّ من الفضــول، وإذا نحن أبحْنا لأنفسنَا شـيئا من الاطمـئنان لما كثّفَـهُ بول فاين Paul

---

(14) فضيل دليو، نفس المرجع، ص 146.

(15) Paul VEYNE, **Comment on écrit l'histoire**, Paris, Seuil, 1979, p. 22.

(16)Andreas SUTER, "Histoire sociale et événements historiques, pour une nouvelle approche", in **Annales H.S.S.**, mai-juin, 1997, n° 3, p. 551.

(17) Daniel BERTAUX, "L'approche biographique..." op. cit., pp. 199-200.

(18) Gilles CANDAR, op. cit..., p. 15.

VEYNE من آراء حول هذا الموضوع في كتابه المعروف : كيف نكتب التّاريخ ؟، فإنّ التّاريخ مشروع يحرّكه الفضول وحده(19) .

أمّا القارئ، فإنّه كأيّ إنسان آخر، فضوليّ لما يتّصل بالآخر، ذلك أنّه لدى المرء رغبة في الاطّلاع على ما هو خفيّ، وغامض، وغريب في حياة النّاس، لا سيما إذا تعلّق الأمر بنساء ورجال ممّن درجنا على تسميتهم بخارقيّ المألوف.

***

على الرّغم من الطّابع المعقّد للبيوغرافيا، وعلى الرّغم أيضا من جملة المحاذير الملازمة لعمليّة التّعاطي مع هذا الضّرب من الدراسات والبحوث، فإنّنا نعتبر أنّ البيوغرافيا تشتمل على جملة من العناصر الإيجابيّة، وهي عناصر لا مجال اليوم لنكرانها، أو الإشاحة عنها بوجوهنا، ويأتي على رأسها ما يقوم به الباحث في هذا الحقل من «إعادة الاعتبار للجزئيّ والمهمّش».

نعم، لقد غدت البيوغرافيا ضروريّة لكلّ مؤرّخ، أو عالم اجتماع، يريد أن يتعرّف إلى «الوقائع الصّغيرة الحقيقيّة...»(20) ، أي مجموع الوقائع الّتي لم تدوّن من لدن معاصريها «لكونها لم ترق في نظرهم إلى مستوى الحدث، رغم ما لها من صلات بممارسات المجتمع وقيمه...»(21) .

والأهمّ من ذلك -باعتقادنا- أنّ البيوغرافيا «تطلعنا على الممارسات الّتي انحرفت عن المعايير السّائدة، وشكّلت الهامش في مجتمعها، أو رفعت لواء العصيان، في أي شكل من أشكاله. كما تساعد في التّعرّف إلى النزاعات الّتي لم يفسح لها المجال كي تتحوّل إلى صراعات مكشوفة...»(22) .

---

(19) Paul VEYNE,**Comment on écrit l'histoire**,op.cit., pp.59-60.

(20) Dominique ARON-SCHNAPPER, Danièle HANET, "Archives arabes et histoires des institutions sociales", in **Revue Française de Sociologie**, vol. XIX, n° 2, avril-juin, 1978 p. 262, cité par Moktar HARRAS... op. cit., p. 93.

(21) نفس المرجع والصّفحة.

(22) نفس المرجع والصّفحة.

ما في نيّتنا التّدقيق في أصول كتابة البيوغرافيا. كما ليس مطلوبا منا التّفصيلُ في اتّجاهاتها، وذلك لاعتبارات منهجيّة تقتضيها حُدود هذه المقدّمة، وأقصى ما نريد الخلوص إليه هنا هو أنّ الباحث ليس بحاجة إلى قراءة كلّ ما كتب من أعمال بيوغرافيّة حتّى يكوّن فكرة عن الرّؤية الّتي أطرت جلّ تلك التّأليفات، وعن المنطق الّذي حكمها، وحدّد وجهة الكثرة الكاثرة منها.

ونحن لا نعدو الحقيقة إذ نقول أنّ جلّ تلك الكتابات قد تأرجحت بين السّير الّتي طغى عليها النّفس المنقبيّ على نحو بيِّن، والسّير الّتي كانت أقرب إلى قرارات الاتّهام Réquisitoires، منها إلى أيّ شيء آخر.

إنّ البيوغرافيّ «المنصف»، أو «الموضوعيّ»، باعتقادنا، ليس ذاك الّذي يبذل قصارى جُهده كي يمزج المناقب بالمثالب، ويقرن المدائح بالمعايب، ولا ذاك الّذي لا يأتي بحسنة إلاّ بعد أن ينقّب عن سيّئة تمحوها أو تقلّل منها، تقوده في ذلك رُؤية تقميشيّة ساذجة.

لا مريّة في أنّ سير بعض الشّخصيّات تتلاءم مع هذا التّمشّي على نحو كبير، وتتناسب مع هذه المقاربة الّتي تبدو -للوهلة الأولى- أقرب إلى الموضوعيّة، ولكن لا مناص من التّأكيد أنّ جلّ الأعمال الّتي نهجت هذه الطّريقة، لم تخرج برأينا، عن إطار التّلفيق، ذلك أنّها ظلّت محكومة بأسلوب التقاط الشّوارد، وغالبا ما كانت مُتلهّفة على هذا الالتقاط، وهنا تكمن هنتها الكبرى -باعتقادنا- وقد استوى في ذلك تقريبا، كتّابُ «قرارات الاتّهام»، وكتّاب «المناقب».

وإذا نحن سلّمنا، أو سالمنا بالقولة الّتي مُؤدّاها أنّ طبيعة الموضوع -أي موضوع- هي الّتي تفرض الأخذ بمنهج معيّن، فإنّه يجوز لنا القول أنّ «أصالة الشّخصيّة»، وطرافتها، ومن ثمّ الدّور الّذي نهضت له، هي الّتي تحدّد في نهاية التّحليل نوعيّة المقاربة وشكلها.

لا ضَيْرَ في تقديرنا، بعد استنفاد جملة من الشّروط، نحو توضيح المفاهيم (= عرض الجهاز المفاهيميّ) وضبط الإشكاليّة، وتسويغِ اعتماد نوع من المصادر، واستبعاد نوع آخر، والتّنبيه إلى المزالق، وإبراز جملة المحاذير الملازمة للشّخصيّة

المترجم لها، من أن تسود بعض الأعمال نفحة إطرائيّة، أو تغلب على البعض الآخر نبرة «تجريميّة» أو «تثريبيّة».

أيًا يكن، فإنّ العمل البيوغرافيّ عادة ما يكون ثلاثيّ الأقطاب، إذ يشتمل على قطب «نموذجيّ» Un pôle typique (23)، وقطب «مفرط في بيوغرافيته» Un pôle hyperbiographique (24)، وقطب «تاريخيّ» Un pôle historique، وتزداد أهميّة القطب الأخير طردا مع تعاظم مكانة الشّخصيّة موضوع العمل، في المجتمع...(25).

ولأنّ مقدّمتنا هذه لا ترشح بالجديد والأصيل بخصوص موضوع البيوغرافيا (وهو الموضوع الذي قتل بحثا أو يكاد)، ولا تدّعي ذلك، إذ ليس في حجمها وأُفقها ما يسوّغ هذا، فإنّنا نكتفي بالإشارة إلى أنّ المقاربة التّحليليّة تستوجب -في المقام الأوّل- امتلاك القدرة على إعادة وضع الفرد في إطاره العام (= زمانه)، وتجنّب الإسقاطات، ويكون من الضّروريّ هنا، لفت النّظر إلى :

أوّلا : صعوبة «الحياد» خلال التّعاطي مع المادّة البيوغرافيّة. معنى هذا أنّه مهما سعى الباحث لتوخّي «الأمانة»، فإنّه لا بدّ أن يمارس، شاء ذلك أم أبى، نوعا من الحذف والانتقاء، والإبراز، والتّقديم، والتّأخير، والتّضخيم الخ... وهذه من الأشياء المعروفة، الّتي أصبحت، تدخل في نافلة القول.

ثانيا : لعلّه من الأهميّة بمكان التّمييز تمييزا واضحا بين مستويات الواقع خلال عمليّة بناء السّيرة. وعادة ما يتفرّع هذا الواقع -أي واقع- إلى واقع متمثّل Une réalité représentée وواقع مقنّن، وواقع معيش.

(23) البحث البلُوتاركيّ (نسبة إلى المؤرّخ بلوتارك PLUTARQUE) عن الأعمال المثاليّة Les faits paradygmatiques. ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن بلُوتارك نبّه قُرّاءه فيما كتبه عن حياة الإسكندر الأكبر أنّه لا يكتب تاريخا، بل تراجمَ، وأنّ أهمّ ما يصبو إليه من خلال عمله ذاك هو جلاءُ الشّخصيّة والكشف عن سرائر النّفس.

(24) المقصود بالقطب المفرط في بيوغرافيّته الحياة الخاصّة، الخالصة في أدقّ دقائقها وجزئيّاتها.

(25) للاستزادة بخصوص القطب التّاريخي، انظر :
Daniel Madélenat, **La biographie**... op. cit. p. 113.

والمقصود بالواقع المتمثّل هنا ما صدر عن «البطل»، من أقوال، وتصريحات (ينبغي أن تكون مدوّنة)، عكست جانبا من أفكاره، وتصوّراته، في أثناء مراحل حياته المختلفة...

أمّا الواقع المقنّن، فيهمّ الكلام عن «مجمل القيم، والمعايير، والأعراف، والمبادئ الأخلاقيّة والدّينيّة والضّوابط الاجتماعيّة الّتي كانت توجّه سلوكه باعتباره عضوا في الجماعة...»(26). ويتجسّد الواقع المعيش أساسا في الممارسات الفعليّة، والعلاقات الاجتماعيّة، التي تعتبر -مبدئيًا- تطبيقا لمختلف أشكال التّقنين الاجتماعيّ(27).

ومهما اجتهد المؤرّخ في التّحلّي بالصّرامة المنهجيّة اللازمة، ومهما أوتي له -فضلا عن ذلك- من سعة خيال، وفطنة، فإنّ البواعث الحقيقيّة للشّخصيّة موضوع الدّراسة غالبا ما تفوته أو تفلت عنه. وهو أوّل من يعلم أنّ هناك أشياء لن يعرفها البتّة، وألاّ سبيل أمامه لبلوغها.

حقّا، إنّه بالإمكان وصف أعمال «البطل»، ولكن «الدّوافع الحقيقيّة»، تظلّ، في الأعمّ الأغلب، مجهولة، إذ من الصّعب على البيوغرافيّ أن ينفذ إلى أغوار نفسه، ويبحر بين تجاويفها، ويتعرّف إلى كلّ ما كان يجول بها من خوالج، ونوازع، وتطلّعات ساعة إقدامه على اتّخاذ قرار ما. فالإنسان يحفظ البعض من أسراره، ثم يحملها معه إلى مثواه الأخير.

وصفوة ما تقدّم أنّ حياة الفرد متميّزة بالغنى، والتّشابك، والتّعقيد بحيث إنّ ما نراه، -وما تشكف عنه الوثائق- في الغالب لا يتعدّى الجزء البارز من جبل الثّلج الرّاسخ في أعماق البحر (Iceberg).

ومن المهمّ التّنبيه هنا إلى ضرورة الاحتراس، من بعض التّأويلات المتهافتة، المستوحاة من علم النّفس. ذلك أنّ بعض كتّاب البيوغرافيا توسّلوا في بحوثهم،

(26) مختار الهراس، **نفس المرجع**، ص 95.

(27) **نفس المرجع والصّفحة**.

بمعطيات من علم النّفس التّحليلي. وغير خاف أنّ هذا التّمشّي محفوف بالمخاطر، كما سبق أنّ شدّد على ذلك ريمون أرون Raymond ARON (28)، وعليه وجب التّحذير من الانزلاق إلى استنتاجات نهائيّة، استنادا إلى إشارات غائمة، واردة في كتب مفرطة في التّبسيط، متّجهة إلى الجمهور العريض.

***

نستطيع أن ندلف، بعد هذا التّنبيه الّذي هو كناية عن مدخل عام، أردناه تأطيرا لهذه المساهمة، إلى الهوامش الخاصّة بموضوعنا، من خلال رسم حدود دراستنا، وتبيان آفاقها، وفقا لما تقتضيه أركان المقدّمات.

ثلاثة أسئلة (أحدها مضاعف)، كوّنت عصب إشكاليتنا، ومرتكز بنائها :

أين تكمن فرادة القائد العسكريّ، والزّعيم السّياسي خليفة بن عسكر، ضمن المشهد الزّعاماتيّ، «بالقطر الليبيّ»، ما بين 1914 و1922 ؟

لماذا أخفق ابن عسكر العسكري، في جلّ ما خطّط له، ولماذا تاهَ ابن عسكر السّياسي في خضمّ «لعبة السياسة» ؟

إلى أيّ مدى يصحّ القول، أنّ النّهاية الدراماتيكيّة لهذا القائد الغامض، عكست (أو كثفت) مأساة جيل كامل، من الزّعامات الوطنيّة بطرابلس الغرب على امتداد الحقبة 1913-1926 ؟(29).

انقسمت هذه الدّراسة إلى ثلاثة أبواب :

– في الباب الأوّل حاولنا التماس الجواب عن طائفة من الأسئلة : كيف خرج

(28) Raymond ARON : **Introduction à la philosophie de l'histoire. Essai sur les limites de l'objectivité historique**. Gallimard, 1981, p. 110 ; cité par : Guy THUILLIER et Jean TULARD, **La méthode en Histoire**, Paris, P.U.F., 1993, p. 37.

(29) يبدو جليّا من خلال هذه الإضاءات الأوليّة الواردة بالإشكاليّة أنّ بحثنا قد تجاوز –أحيانا– إطار البيوغرافيا، إلى نوع من تقاطع البيوغرافيات.

هذا القائد العسكري من إهاب «جبالي وديع» سليل عائلات كدودة، لم يكن لها البأس خلقا والشّجاعة سجيّة، وفق العبارة الخلدونيّة ؟

كيف انتقل خليفة بن عسكر من «الهمّ الأصغر» إلى «الهمّ الأكبر» ؟ بعبارة أخرى : كيف تطوّر من حال كان يحمل فيها قضيّة مفردة، إلى حال أخرى أرقى، بذل فيها نفسه من أجل الجماعة (=القبيلة، الوطن) وانبرى يحميها غائلة الغازي الإيطاليّ ؟ ما خصيصة حركة ابن عسكر خلال طورها الأوّل ؟

– أمّا الباب الثّاني فأفردناه للبحث في خصال القائد العسكري خليفة بن عسكر، ومثالبه. لقد شكّلت الفترة المتراوحة بين ربيع 1915 ونهاية 1918، أهمّ حقبة في حياة هذا القائد، إذ عرف الانتصارات، كما انقاد إلى بعض الهزائم.

ضمن هذا السّياق العام، توقفنا عند البدايات الموفّقة للرّجل ضدّ الإيطاليّين. وبحثنا في خلفيّات إعلان حربه على الفرنسيّين في خريف 1915. وأبرز أطوار تلك الحركة، ثمّ ركّزنا على انخراطه في الحرب الأهليّة بالجبل الغربيّ عام 1916 وأولى اندحاراته أمام الإيطاليّين عام 1917.

كما لم يفتنا التّوقّف عند علاقته المضطربة والغامضة بقادة الحركة السنوسيّة زمن الحرب العالميّة الأولى.

على أنّ السّؤال المركزيّ الّذي ضغط علينا كثيرا في هذا الباب، وحاولنا التماس الإجابة عنه هو : لماذا حرّض ابن عسكر قبيلة الودارنة التّونسيّة على الثّورة عام 1915، ولماذا خذل قادتها عام 1916 ؟

– وانصرفنا في الباب الثّالث لمعالجة لحظة التّقارب بين الزّعامات الوطنيّة الطرابلسيّة (ومن بينها خليفة بن عسكر)، والحكومة الإيطاليّة، ابتداء من عام 1919.

كما تمّ التّطرّق لظروف انغماس منطقة الجبل الغربيّ في الحرب الأهليّة، وما تخلّل ذلك من تطوّرات سياسيّة، وعسكريّة، وتبدّل مواقع بخريطة الزّعامات. وقد قدّمنا، ضمن المبحث المخصّص لهذه الحرب (المسكوت عنها)، تسمية أخرى للفرقاء اعتبرناها أكثر دقّة.

وخصّصنا حيّزا هاما ضمن هذا الباب للإجابة عن سؤال مركزيّ آخر (مربك!)، لا شكّ أنّه جال في ذهن كلّ من عكف على البحث في سيرة هذه الشّخصيّة الإشكاليّة، إنّه الاستفهام الّذي يمكن صياغته كالآتي : ما هو جانب الحقيقة، وما مجال البهتان، بخصوص ضلوع الرّجل مع الطّليان ؟ علما وأنّه تمّت -بعديّا- مُرادفة الاتّصال والحوار بين الزّعامات الوطنيّة والمراجع الإيطاليّة، بالعمالة والتّواطؤ.

تلك هي أهمّ الأسئلة الّتي ستحاول هذه الدّراسة التماس الجواب عنها.

ومثلما سيلاحظ القارئ، فإنّ دراستنا هذه تجاوزت أحيانا ملاحقة أبرز تعرّجات «حياة نضال»، المترجم له، وأطوارها المليئة بالتّقلّبات، لتلقي الضّوء على الأحوال الاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والسّياسيّة بالجبل الغربي، وعلى ظروف انطلاق حركة المقاومة، وخلفيّاتها، وما كان يشقّ الصفّ الوطنيّ من تناقضات عميقة. وهذا «الانحراف المنهجيّ» (إن جازت العبارة)، ليس في الحقيقة سوى مظهر من مظاهر التّنازلات المتعدّدة الأشكال الّتي يقتضيها القطب التّاريخي «Le Pôle historique» للسّيرة، ويهمّ في قضيّة الحال «البُنَى - الأبدال» Les structures - relais بين الفرد والمجتمع(30).

وجوهر الجوهر، فقد كان طموحنا في هذا العمل تقديم «بيوغرافيا مُمشْكَلَة» Biographie problématisée، ركّزنا فيها على المترجم له باعتباره فردا اجتماعيا، لا موضوع معرفة تامّة.

وبعد، لا ريب أنّ هناك أمورا لا تزال طيّ الكتمان، كما أنّ هناك أحداثا ما زالت بحاجة إلى مزيد الحفر، والتّدليل، والتّدبّر والتّقويم، وهو أمر نبّهنا إليه في متون هذه الدّراسة. وكلّ ما نأمله أن نتصدّى نحن، أو غيرنا من الباحثين لهذه المهمّات في أعمال لاحقة. وعندما يكبر الأمل يستحيل إلى رجاء.

---

(30) المقصود بالبنى - الأبدال، العائلات، والمجموعات، والأجيال، والحركات الخ...

الباب الأوّل

«الصْعلوك الشّريف»
أو
زمن العصيان

«إنّ قيمــة البطل التّاريخيّ لا تكمن في ما فــعل، بل في ما تركه ليفــعل، فأيّة شخــصيّة مــهمــا كان مجــدها تهمّنا في حــدود ما تمكّنت من تحــريكه من قدرات سوسيولوجيّة...»

جاك بيرك Jacques BERQUE
«المدّ الوطنيّ والديموقراطيّة العربيّة
1915-1925» في :
جوليان (وآخرون)، **الخطابي وجمهوريّة الرّيف**، ترجمة صالح بشير،
بيروت، دار ابن رشد، 1980، ص 38.

«ولعلّكم تظنّون أنّنا لا نحــارب إلاّ بالترك، وتريدون التّجــربة ولو بمحاربة واحدة. فإن كان كذلك فإنّ أهالينا يعتقدون أيضا أنّ عسـاكركم، ما وقفت أمامهم إلاّ بحمــاية الأسطول، وأبراج المدافع الكبيــرة، فهم جــازمون بالانتــصار في المواطن البــعيدة عــن البحــر. ولكن هل يصـــحّ لي ولكم أن نتــلاعب بدمــاء أبناء طرابلس، وإيطاليا لمجرّد التّجربة ؟ اللّهمّ إنّ هذا مــا تمجّه العقول المتنوّرة، والأذواق السّليمة، وإن أبيتم إلاّ ذلك فنحن حاضرون للدّفاع، واللّه والنّاس معنا...»

من **رسالة سليمان الباروني إلى الجنرال لكويوا**،
مركز الجبل، 20 محرّم 1331 هـ (1913م)

مقدّمة

محوران أساسيّان شكّلا عَصَب هذا الباب :

1- كيف ظهر «الجباليّ العفريت»(1) المدعو خليفة بن عسكر ؟ بعبارة أخرى : هل شكّلت شخصيّة خليفة بن عسكر حالة شاذّة في إطار ما كان يعرف عن العائلات الجباليّة من اهتمام كبير بالمناشط الاقتصاديّة، ونزوع إلى السّلم ؟ وما هي مظاهر ذلك الانحراف ؟، وما هي الأسباب والملابسات الّتي جعلت ابن عسكر يسلك نهجا مختلفا -على الأقلّ في مراحله الأولى- عمّا سار عليه أسلافه العساكرة ؟ وهل نكتفي بالصّدمة النّفسيّة الّتي تعرّض لها الرّجل عام 1913، لتفسير البروز السّريع لهذه الشّخصيّة الّتي امتزج في إطارها، وبشكل غامض، «الصّعلوك الشّريف»(2) ، و«الوطنيّ»، والمحبّ للعدل، والمُحسن الّذي يضع الإحسان في موضعه ؟

---

(1) «الجباليّ العفريت» نعت أطلقته بعض الوجاهات الودرنيّة (جهة تطاوين) على خليفة بن عسكر، عام 1975. وكان هؤلاء الشّيوخ أسرّوا إلى عالم الأناسة الفرنسيّ جياني ألبرغوني Gianni ALBERGONI أنّ زعيم نالوت ساوَقَ بشجاعته، وبطولاته الفرسان العرب من الزنتان، والرجبان، وورغمة، وأنّ جباليّة نفوسة «يتميّزون عن جباليّة الجنوب التّونسيّ (جبل دمر، والجبل الأبيض) من حيث الشّجاعة وقوّة الشّكيمة...» انظر :

Gianni ALBERGONI "Mémoire gentilice et histoire nationale : figures et enjeux du récit d'une insurrection bédouine anti coloniale" in **Cahiers d'Etudes Africaines**, 119, XXX-3, 1990, p. 318.

(2) فتحي ليسير، **من «الصّعلكة الشّريفة» إلى البطولة الوطنيّة**، دراسة في سير بعض «المستبعدين» من تاريخ تونس المعاصر، تونس، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس، مدياكوم، 1999، ص 14-82.

2- ما هي الخصيصة الأساسيّة لحركة خليفة بن عسكر خلال دورها الأوّل، أي في أثناء الفترة الواقعة بين خريف 1914 وصيف 1915 ؟

على أنّه قبل التّعرّض فترة تنشئة الرّجل ومحدّداتها، أي ما يعرف بتنزيل «البطل» في حيّزه الاجتماعي الضيّق، سنعمد -ضمن عنصر أوّل- إلى محاولة رصد البعض من المميّزات الخاصّة بالبيئة النفوسيّة على أعتاب الاحتلال الإيطاليّ. وسنلاحظ أنّ سكّان إقليم طرابلس بعامّة، والجبل الغربيّ بخاصّة، قد توافروا (ما بين 1835 و1911)، على حدّ أدنى من التماسّ الحضاريّ، والاحتكاك الاجتماعيّ بالعالم الخارجيّ سواء عن طريق التّسرّب الأجنبيّ، أو الهجرة، إذ قامت في هذه البيئة حالات من الأخذ والعطاء، والتّكيّف، وهو ما لم يحدث بالإقليمين الآخرين (ونعني بهما برقة وفزّان)، ومن ثمّ ديناميّتها، وتميّزها عنهما.

المبحث الأوّل : الوسط والتّنشئة

I - نالوت موطن العساكرة ضمن "بيئتها الجبليّة"، على أعتاب الاحتلال الإيطالي :

تقع نالوت أو لالوت (هكذا كان يدعوها سكّانها في نهاية القرن الماضي ومطلع هذا القرن)(1) ، مسقط رأس خليفة بن عسكر وموطن العساكرة، غربي سلسلة الجبال الصّخريّة المتقطّعة المسمّاة جبل نفوسة (أو الجبل الغربي وفق التّسميّة الحديثة)، والّتي تنتهي بحدود غريان الشّرقيّة مكوّنة قوسا جبليّا يبلغ طوله زهاء 200 كم وعمقه نحو 20 كم بحيث تصل مساحة هذه الوحدة التّضاريسيّة إلى 4000 كم مربّع.

ويتألّف الجبل الغربي من عدّة سلاسل جبليّة صغيرة. وفي هذا الإطار تردّد اسم جبل نالوت (وهي تسمية محلّية أساسا) والمقصود به المرتفعات الكائنة في طرف نفوسة الغربي(2) ، والّتي ستتحوّل ابتداء من عام 1914 إلى وكر مهمّ من أوكار مقاومة الحضور الإيطاليّ بأقصى الشّمال الغربي لإيالة طرابلس الغرب.

وممّا هو حريّ بالتّسجيل هنا أن الجبل الغربيّ يعدّ ثالث منطقة جغرافيّة ضمن إقليم طرابلس المؤلّف أيضا من شريط ساحليّ (من زوارة غربا إلى مصراته شرقا)، وسهل رسوبي يدعى سهل الجفارة (وهو امتداد لسهل الجفارة التّونسيّ).

---

(1) H.M. de MATUISIEULS, **La Tripolitaine d'hier et de demain**, Paris, Hachette, 1912, p. 44.

(2) DEAMBROGGIO (dit Kaddour Ben Larbi), "Notes succintes sur les tribus tripolitaines situées entre la frontière tunisienne et le méridien de Tripoli", **Revue Tunisienne**, 1902, p. 266.

ويشار هنا إلى أنّ سكّان جبل نفوسة (أو الجبل الغربي كما أسلفنا) في قسميه الغربيّ (نالوت، كاباو، الحرابة...) والشّرقي (الرحيبات، جادو، الرجبان، الزنتان، الرياينة، يفرن، ككله...)، أطلقوا على مراكز القيادات الإداريّة العسكريّة العائدين إليها بالنّظر "أسماء جبال". هكذا تردّدت تسميات : جبل يفرن، جبل فساطو، جبل الزنتان، جبل غريان... انظر : نفس المرجع والصّفحة.

قـــرى جبـــل نفـــوســـة

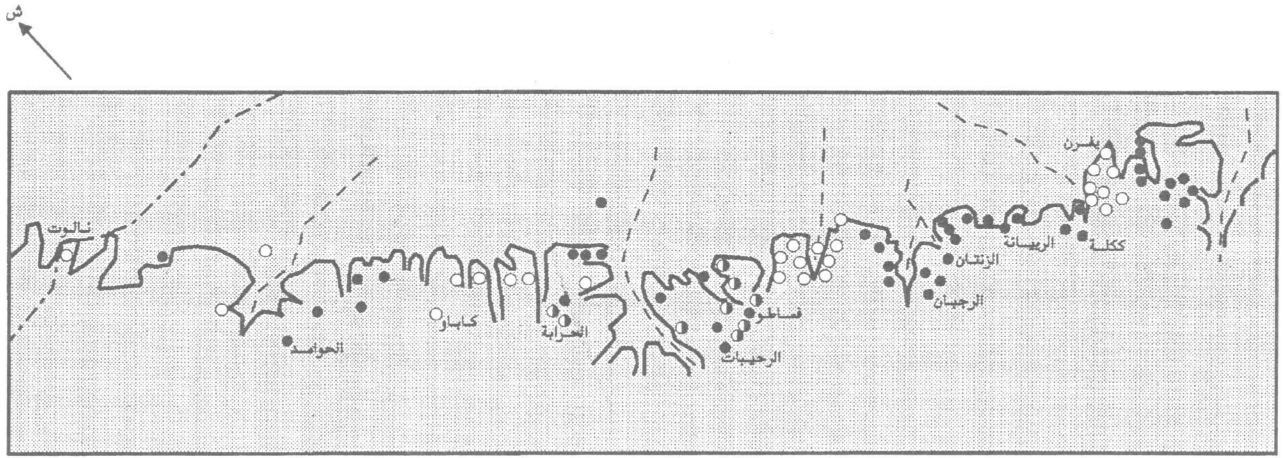

المفتاح

○ قرى ذوات سكان ناطقين بالبربرية

● قرى ذوات سكان ناطقين بالعربية

◐ قرى ذوات سكان مزدوجي اللسان

إنجاز : مخبر الخرائطية

كلية الآداب والعلوم الانسانية بصفاقس

ويكوّن هذا الإقليم (إقليم طرابلس) إلى جوار إقليمي برقة (في الشّرق)، وفزّان (في الجنوب الغربي) - على أعتاب الاحتلال الإيطاليّ في موفّى عام 1911) وحدة سياسيّة - إداريّة أطلق عليها العثمانيّون (منذ 1551) اسم طرابلس الغرب علما وأنّ اسم ليبيا لم يكن متداولا حينذاك.

ويعتبر الجبل الغربيّ من أكثر مناطق إقليم طرابلس رطوبة (تتلقى مرتفعاته ما بين 250 و300 مم من الأمطار سنويّا)، هذا علاوة على توافر عيون ماء مهمّة نسبيّا بالمنطقة، الأمر الّذي سهّل أكثر تعاطي زراعات مستقرّة. وجدير بالذّكر أنّ كمّيّات التّساقطات تتضاءل كلّما توغّلنا باتّجاه نفوسة الغربيّة ولا سيما ضواحي نالوت حيث تكون التّأثيرات ما قبل الصّحراويّة أكثر وضوحا.

لقد سبق لجان ديبوا Jean DESPOIS أن بيّن في دراسته المتأنّية حول المنطقة أنّ حضارة المجتمع الزّراعيّ في نفوسة هي محصلة تفاعل خلاق بين ثلاث بيئات جغرافيّة مختلفة ولكن متكاملة في آن معا هي : الجفارة، والظّاهر، والجبل(3) ، ومن هنا نفهم لماذا جمعت تلك الحضارة البالغة التّعقيد بين الزّراعة المستقرّة، والبداوة، والتّنقّل المؤقّت الطّارئ.

ويبدو واضحا من كلّ مفاصل وتفاصيل تاريخ الأقوام الّذين استوطنوا هذه البيئة الجبليّة أنّهم عاشوا -إن قليلا أو كثيرا- على نبض الفتوحات القادمة إليهم من السّهل أو البحر أو الغزوات الّتي أتتهم من الصّحراء. وتأسيسا على هذه العوامل التّاريخيّة -والّتي لا يسمح المقام بالإسهاب في الحديث عنها- يمكننا القول أنّه تشكّلت شخصيّة جباليّة أو نفوسيّة متميّزة على مرّ الأحقاب (وذلك بالرّغم من الأواصر والصّلات العديدة الّتي كانت تشدهم إلى المجتمع الأكبر المحيط بهم) كانت وليدة الطّبيعة الأيكولوجيّة والاجتماعيّة للمنطقة والّتي طبعت نظامهم الاقتصادي ونمط حياتهم وتطلّعاتهم و" فلسفتهم ". وقد تجلّى ذلك بالخصوص في طراز العيش والحياة الخلقيّة والرّوحيّة والثّقافيّة (في اللّغة والعقيدة وبعض الطّقوس الخ...).

(3) Jean DESPOIS, **Le Djebel Nefousa**, Paris, Larose, 1935, p. 135.

عاش سكّان الجبل على غراسة الأشجار وتعهّدها، نحو الزّيتون (تازمورت بالبربريّة) والتّين (تمديث بالبربريّة)، وبدرجة أقلّ شجر النّخيل (قازديت بالبربريّة).

وبالتّدريج شهدت بطون الأودية، وسفوح المرتفعات من وراء "الجسور" المشيّدة لحجز التّربة ومياه السّيلان، ظهور بساتين جبليّة داكنة الخضرة لفتت انتباه الرحّالة، وكلّ الغرباء الّذين مرّوا بالمنطقة.

كما مارس الجباليّة، عند مصبّات الوديان، وفي الأحواض الخصبة نسبيّا (نحو القرعة، والبحيرة...) زراعة الحبوب ولا سيما القمح، بحيث أضافوا إلى موارد الأشجار مورد الحراثة الموسميّة.

أمّا تربية الماشية وخاصّة الأغنام (الطلي بالبربريّة) والماعز (تغاط بالبربريّة) فإنّها شكّلت ركيزة هامّة في اقتصاد سكّان نفوسة الغربيّة. وتموقعت أهمّ المراعي في الظّاهر والجفارة وتخصّص في هذا المنشط الاقتصادي بدو رعاة أصيلو قبائل الحوامد والحرابة، والرجبان والزنتان والمشاشة... وكان هؤلاء الرّعاة يرعون مواشي سكّان القرى الجبليّة نظير مكافآت عينيّة ونقديّة متّفق بشأنها.

وممّا هو حريّ بالتّسجيل أيضا تعوّد الجباليّة -منذ عهود قديمة نسبيّا- على سلوك طريق الهجرة إلى إيالة تونس (لا سيما مدينة تونس وبعض مدن الشّمال الأخرى)، إذ شكّل هذا القطر المجاور البلد الوحيد الّذي يجأ إليه سكّان نالوت (كما بقيّة الجباليّة)(4) خلال الأزمات وسنوات المساغب، وذلك طلبا للرّزق أو حرصا على تحسين دخل العائلة (التي غالبا ما يتركها المهاجر بالقرية الأم)، بفضل تلك الموارد الإضافيّة.

ويعيش النالوتي في مهجره على التّقشّف والادّخار، حتّى إذا ما تجمّع لديه قدر "معتبر" من المال يسمح له بشراء أصول زيتون أو تين، أو بتجديد قطيع من الأغنام هلك بفعل سنة جدباء، أو شراء عقار، يقفل راجعا إلى مسقط رأسه.

---

(4) محمّد حسن، **المدينة والبادية بإفريقيّة في العهد الحفصي**، ط. 1، تونس، منشورات كلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، 1999، ص 287.

كما تعاطى الجباليّة النّشاط التّجاري، وإن بشكل محدود، إذ كان السكّان يستوردون بعض السّلع المحلّيّة من المناطق البعيدة نسبيًا (نحو الشّعير والتّمور) وكذا السّلع المسمّاة "استعماريّة" (مثل الشّاي والسكّر والقطن)، ويبيعون البعض من منتوجاتهم مثل زيت الزّيتون، أو المنسوجات (مثل "الوزرة" الّتي اشتهرت بها كلّ من نالوت وفساطو) وكذا الماشية.

واشتهر بالجبل الغربي سوقا يفرن وغريان. وكان سواد السكّان يفضّلون التّزوّد من الأسواق السّاحليّة القريبة مثل زوارة، والعجيلات، وصرمان، والزّاوية. كما كان يتردّد على الأسواق الصّغيرة للجبل، تجّار من فزّان كانوا يأتون لمقايضة التّمور بالزّيت والماشية والحبوب.

يقودنا استعراض أهمّ ما جاء في هذا العنصر المعقود لاقتصاد سكّان الجبل الغربي إلى تقرير ما يلي : لقد تميّز اقتصاد الجباليّة على عتبة الاحتلال الإيطاليّ بازدواج القطاعات، وبالتّنوّع في مصادر الدّخل.

وإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على التّنظيم الإداريّ للمنطقة في نهاية القرن التّاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، فإنّنا نلاحظ أن الأتراك جعلوا من يفرن مركز سنجق (متصرفية) الجبل الغربي. وانقسم السّنجق المذكور إلى عدّة أقضية (قائمقاميات) وهي : يفرن، فساطو، نالوت، الحوض، الزّاوية، بوعجيلة ومزدة.

أمّا قضاء غدامس، وقضاء زوارة فكانا يتبعان والي طرابلس مباشرة(5). كما تأسّست مراكز ناحيات بوازن، وكاباو، وبقيليلة، والزّنتان، والرياينة وككلة.

ونرى من الضّروري التّذكير هنا أنّه نجم عن التّدخّل التّركي المباشر في إيالة طرابلس الغرب عام 1835، وإنهاء حكم أسرة القرمنلي بها، فرض أسلوب مركزي في إدارة شؤون الولاية بدا متناقضا مع ما كان سائدا فيها من استقلال ذاتي وهامش حريّة كبير (وامتيازات) للقبائل. وكانت هذه السّياسة المركزيّة أكثر

---

(5) DEAMBROGIO, "Notes...", **op. cit.**, p. 207-208.

سكان أهمّ القرى البربريّة بإقليم طرابلس عام 1920

المنطقة	العرب	القبائل العربيّة المرابطة	البربر الأباضيّون	البربر المالكيون	«العرب البربر» (كذا)	القبائل المرابطة البربرية أو العربية البربريّة	اليهود	المجموع	المستقرّون	أنصاف البدو	البدو
زوارة	3.690	436	4.566	"	1448	1185	"	11.345	7.655	3690	"
يفرن	5.440	100	9.410	1.85	1270	1030	900	20.000	19.900	"	100
فسّاطو	6.520	670	10.150	800	"	200	"	18.340	13.540	450	4350
نالوت	3.625	730	9.130	250	"	"	"	13.735	11.025	"	2710

المصدر : Camille Fidel : **Une mission en Tripolitaine (septembre 1920)** Paris, Société Générale d'Imprimerie, 1920, pp. 12-13.

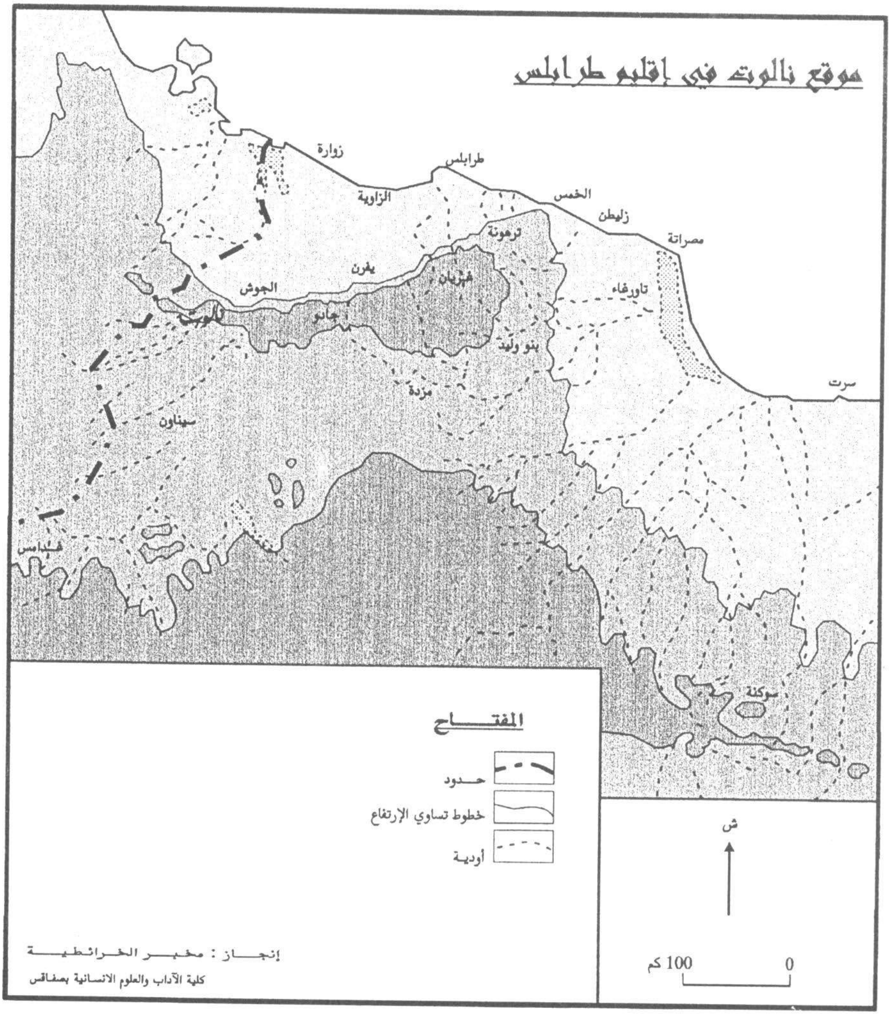

موقع نالوت في إقليم طرابلس
زوارة
طرابلس
الزاوية
الخمس
زليطن
مصراتة
ترهونة
يفرن
غريان
الجوش
تاورغاء
جادو
نالوت
بنو وليد
مزدة
سيناون
سرت
غدامس
سوكنة
المفتاح
حدود
خطوط تساوي الإرتفاع
أودية
ش
100 كم
0
إنجاز : مخبر الخرائطية
كلية الآداب والعلوم الانسانية بصفاقس

جـلاء بإقليم طرابلس(6) . وطـبيعي، والحـالة هذه، أن يتكثّف الحـضور التّـركي بالجبل الغـربيّ. ومن مظاهر ذلك تثبـيت الجهاز الإداري وتنظيـمه(7) ، وتعـزيز الحضـور العسكري (تألّفت الحـاميـة من 800 رجل)، وبعث أجهـزة اتّصال بين مراكز القرار وسائر الأقضية، والنّواحي، وتيسير حركة النّقل(8) .

ومن المهمّ الإشارة هنا إلى أنّ الـنّزعة المسمّاة الـصفوفيّـة، وكذا التّحـالفات القبليّـة الملازمة لهـا، قد بقيت حـيّة ومـتأصّلة في المجتـمع الجبليّ رغم التـبدّلات المذكورة. ومن أهمّ الصفوف الذبليّة في نفوسة خلال القرن التّاسع عشر نجد صف يوسف (الّذي ضمّ أولاد بوسـف، والمشاشيـة، وسكان القرى البـربريّة : جادو، وفساطو، ونالوت)، يقابله صف شدّاد (ضمّ قبـائل الزنتان، والرجبان، والمحاميد وتحديدا الغنايمة والسّبعة، وغيرات...)(9) .

وستـتوافـر لنا الفـرصة في أحـد الأبواب القادمـة كي نبيّن أنّ هذه النّـزعة الحزبيّة ظلّت قـويّة بالجبل الغربي حتّى مطلع القـرن العشرين، وهو ما سـيحاول الإيطاليّون توظيفه لصالحهم كما سيأتي بيانه.

---

(6) ظلّ الحضور التّركي ضعيفا ببرقة (حيث امتدّ سلطان الحركة السنوسيّة) وفزان.

(7) **الأرشـيف الوطنيّ التّـونسيّ**، سلسلة A، صندوق **280**، ملف 2 1/2 رسـالة الجنرال سـان مارك Saint Marc قائد جـيش الاحتـلال إلى المقيم العام، تـونس، 20 جانفي 1890.

(8) DEAMBROGIO, "Notes...", **op. cit.**, p. 268.

(9) علي عبد اللّطيف حـميدة، **المجتمع والدّولة والاستعـمار في ليبيا**، دراسة فـي الأصول الاجتـماعـيّة والاقـتصاديّـة والثّقافـيّة لحـركات وسـياسات التّـواطؤ ومقـاومة الاسـتعـمار (1830-1935) ط. 1، بيروت مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1995، ص 85.

الصّفوف بإقليم طرابلس (غربيّ الإقليم، الجبل الغربيّ، القبلة، شرقي الإقليم)

-1-

صف قبائل :

- المحاميد : أولاد سعيد بن صوله
- أولاد يوسيف
- المشاشية
- سكان بلدتي جادو وفسّاطو

(يوسف)

صف قبائل :

- الزّنتان
- الرجبان
- المحاميد : غنايمة والسّبعة
- الصيعان

(شدّاد)

-2-

الصفّ الفوقي

- الصّيعان : أولاد محمّد
- النوايل
- أولاد سليمان
- قدادفه
- ورفله

صفّ البحر

- أولاد سالم
- المحاميد الشرقيّين
- المقارحة
- الرحيبات
- الصّيعان
- الحرابة
- سكّان مدن : زليطن، الخمس، مصراته

المرجع :

- André MARTEL : "Soulevements tribaux et ingérences étrangères dans les Steppes Tunisiennes", in **La résistance armée en Tunisie aux XIXe et XXe siècles**, publications de l'I.S.H.N.N. (Actes du VII colloque international), Tunis, 1995, p. 145.

- علي عبد اللّطيف حميدة : **المجتمع والدّولة والاستعمار في ليبيا (1830-1936)**، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1995، ص 85.

تلكم بإيجاز شديد - نحن مضطرّون إليه اضطرارا - لمحة أوّلية عن البيئة النفوسيّة. وبوسعنا القول اختزالا لكلّ ما ذكر حتّى الآن، إنّ لفظة نفوسة قد كثّفت عدّة أشياء وصفات منها ما يتعلّق بالوسط الطّبيعي وتحديدا الجبل (ومن هنا عبارة جباليّة)، ومنها ما له صلة بالأصول العرقيّة وبالجوانب الانتروبولوجيّة (أقوام بربر لهم مميّزات تتعلّق بنمط العيش فضلا عن خصائص عرقيّة...)، ومنها أيضا جملة من الخصائص الثّقافيّة (استعمال اللّغة البربريّة، واعتناق المذهب الإباضيّ...)(10).

وتتعيّن الإشارة هنا إلى أنّ اعتبارات إجرائيّة (محاولة تبسيط واقع اقتصادي واجتماعيّ وسياسيّ بالغ التّعقيد)، دفعت عموم الباحثين إلى التّمييز بين نوعين من السكّان ضمن هذا الإقليم المهمّ:

- البربر/الإباضيّون، أي الجباليّة، وهم في الأعم الأغلب من الأقوام المستقرّين.

- العرب/السنّيون (المالكيّون)، وهم في كثرتهم الكاثرة ممّن يتعاطى البداوة أو نصف البداوة.

إنّنا لا نرمي إلى التّشكيك في هذه الثّنائيّة (أو الزوج) أو إلى التّهوين من قوّتها الإجرائيّة (على الأقل في خطوطها الكبرى)، وأقصى ما نريد تأكيده هنا هو صفة التّعدّديّة الّتي طبعت المجتمع النفوسيّ عشيّة الغزو الإيطاليّ: بربر/عرب، مسلمون اباضيّون خوارج/ مسلمون مالكيون سنّيون/أقلية يهوديّة منغلقة على نفسها، أقليّة زنجيّة قابعة في أسفل الهرم الاجتماعي، مستقرّون/أنصاف بدو، تجّار مرتبطون بالسّاحل/تجار مرتبطون بالصّحراء، أعيان ارتبطوا بالوظائف/ ملاكون زراعيون/طبقة فلاحين قوامها الخماسة والمغارسيّة الخ...

والحقيقة إنّ هذه التّعدّدية لم تكن سوى أحد وجوه تعقد واقع الحياة الاجتماعيّة بهذا الإقليم، ومن هنا فرادته بالمقارنة مع الإقليمين الآخرين (ولا سيما برقة) وتميّزه عنهما(11).

---

(10) Jean DESPOIS : **Le Djebel Nefousa**.. op. cit., p.p. 150-155.

(11) André MARTEL : **La Libye (1835-1990)**, op. cit., p. 81.

فعلا، لقد كان التّنظيم الاقتصادي والاجتماعيّ والسّياسيّ الّذي وسم حياة سكّان إقليمي فزّان وبرقة (استوى في ذلك البدو، وأنصاف البدو، والمستقرّون) «عتيقا»(12) إذا ما قُورن بالجبل الغربي (ابتداء من منتصف القرن التّاسع عشر) والمعطيات التّالية توضح ذلك بصفة ملموسة :

أوّلا : انجذاب منطقة الجبل على نحو واضح في دائرة الاقتصاد النّقدي ابتداء من منتصف القرن التّاسع عشر(13) ، وتمّ ذلك طردا مع ازدياد حاجة السكّان إلى القطع النّقديّة بسبب الحرص الّذي أبداه الأتراك قصد استخلاص الضّرائب نقدا. ولقد اضطرّت تلك الحاجة الفلاّحين إلى بيع القدر الأكبر من إنتاجهم في أسواق طرابلس، وغريان، ومصراته، والزاوية بغية الحصول على أكثر ما يمكن من النّقود(14) .

ثانيا : التّطوّر الملحوظ للملكيّة العقاريّة الفرديّة بالجبل بعد عام 1858، أي إثر الشّروع في تطبيق قانون الأراضي الصّادر في نفس العام(15) .

وممّا يجدر تسجيله هنا أن القانون المذكور أعطى الأفراد، والعائلات الحقّ في الملكيّة الشّاملة أو حقّ الاستعمال والتّصرّف. وبعبارة مجملة منحهم حقّ استغلال الأرض وبيعها وشرائها(16) .

وكان من بين النّتائج المترتّبة على تطبيق هذا القانون ظهور شريحة مهمّة نسبيّا من كبار مالكي الأرض، تألّفت من الأعيان وشيوخ القبائل(17) . كما ساهم تطبيق هذا التّشريع في اتّضاح الشّروخ في الجبل الغربيّ بين طبقة موسرة، وأخرى تكوّنت من فلاّحين معدمين بلا أرض(18) .

(12) الطاهر أحمد الزّاوي، **جهاد الابطال في طرابلس الغرب**، ط 1، القاهرة، مطبعة الفجالة الجديدة، 1951، ص 188.

(13) علي عبد اللّطيف حميدة. **المجتمع والدّولة والاستعمار في ليبيا**، مرجع سابق، ص 79

(14) **نفس المرجع** والصّفحة.

(15) **نفس المرجع** ص 63، وص 101.

(16) **نفس المرجع**، ص 63.

(17) **نفس المرجع**، ص 64.

(18) **نفس المرجع** والصّفحة.

ثالثا : لقد انعكست التّدلوّرات المار ذكرها على مستوى التراتبيّة الاجتماعيّة للمنطقة الّتي غدت أكثر تعقيدا من ذي قبل. وتكفينا الإشارة هنا إلى أنّ جهود السّلطة المركزيّة الهادفة إلى تعزيز حضورها في الجبل الغربي بعد انكسار ثورة المحاميد، ومحاولتها بناء الإدارة على أسس جديدة، فضلا عن نشر التّعليم، والتّشجيع على تسجيل الأراضي، وسعي الوالي راسم باشا (1882-1897) إلى توطين البدو، وأنصاف البدو، وبناء مساكن دائمة لهم أي أن قسما منهم تحوّل عن حياة البدو الظّاعنة... قد أفرزت ظهور فئة من المحظوظين (أعيان وشيوخ قبائل...) اندمجت مصالحهم في الجهاز الإداري الجديد (برزوا في خطط القضاء والتّدريس والإدارة لقاء رواتب شهريّة مجزية نسبيا)(19).

ويشار إلى أنّ بعض الزّعامات الجبليّة الّتي سيكون لها شأن فيما بعد، كما سنرى تفصيلا، قد استمدّت جانبا مهمّا من وجاهتها، من انتمائها للجيش العثماني (بصفتهم ضباطا)، أو انتسابها إلى مجلس المبعوثان (البرلمان العثماني).

كما أنّ عددا من الأعيان المحلّيّين، استغلّوا وضعهم في الإدارة بصفتهم متصرّفين، أو قائمقاميّين، أو مديرين لتدعيم نفوذهم الاقتصادي والاجتماعي(20).

أمّا أسفل الهرم الاجتماعي، فقد عرف تضخّما في طبقة الفلاّحين لا سيما أولئك الّذين ارتبطوا بالأرض بشكل مباشر بصفتهم ملاّكين صغار أو فلاّحين معدمين نحو الخماسة والمغارسيّة، أو بصفتهم رعاة لدى بعض القبائل الثريّة(21).

كما شهدت نفس هذه الحقبة نشوء طبقة عماليّة استقطبها قطاع الحلفاء، إذ تخصّصت أقسام هامّة نسبيّا من سكّان الجبل في قلع الحلفاء، وتجميعها، وكبسها، ونقلها إلى أهمّ المرافئ مثل صبراته، وزوارة، وطرابلس، نظير مقابل نقديّ.

---

(19) **نفس المرجع**، ص 65.

(20) **نفس المرجع**، ص 100.

(21) **نفس المرجع**، ص 101.

رابعا : تعاظم التّبعيّة إزاء المدن القريبة (لا سيما مدينة طرابلس) بل واستحكامها على المستوى السّياسيّ، بحيث لم تعد المنطقة مقطوعة الأواصر مع مركز القرار بعاصمة الولاية (وخاصّة بعد اندراس حركة غومة المحمودي، 1835-1885، والّتي شملت أهمّ مناطق الجبل الغربي مثل غريان، ويفرن، وفساطو، ونالوت)(22)، وتجلّى ذلك في إعادة ترتيب شؤون الجبل بعد أن رسف في "الفوضى" (إقرأ : عاش استقلاليّة فعليّة وطويلة عن السّلطة المركزيّة)، وتعزيز الحضور العسكري فيه(23) وإحكام ربطه بمدينة طرابلس (إنشاء نظام بريديّ وبرقيّ في الجبل منذ عام 1868)، أضف إلى ذلك ما جدّ على المستوى الاقتصاديّ، بعد اتّساع نطاق الاقتصاد النّقديّ والمبادلات التّجاريّة، وتبلور تأثيرات الاقتصاد الرّأسمالي.

يقودنا استعراض هذه المعطيات إلى تقرير ما يلي : لقد كان إقليم طرابلس (لا سيما منطقة الجبل مركز اهتمامنا هنا) أكثر «تطوّرا» وديناميّة من إقليمي ولاية طرابلس الغرب الآخرين(24) ونعني بذلك إقليمي برقة بالمنطقة الشّرقيّة (حيث نشرت الحركة السنوسيّة جناحيها على ذلك المجال، إلاّ فيما ندر)، وفزّان في الجنوب الغربي، إذ ظلّ حضور الدّولة هناك ضعيفا وهامشيّا(25)، ولكم يكن لقانون ملكيّة الأراضي الصّادر عام 1858 أي تأثير يذكر(26). كما أنّ التّأثيرات الرّأسماليّة الّتي عرفها السّاحل، والمنطقة الغربيّة كانت شبه منعدمة(27).

---

(22) محمد امحمّد الطوير، **مقاومة الشّيخ غومة المحمودي للحكم العثماني في إيالة طرابلس الغرب (1835-1858)**، ط 1، طرابلس، مركز الجهاد، 1988، ص 48.

(23) H.M. de MATUISIEULS : **La Tripolitaine... op. cit.**, pp. 55-56.

(24) André MARTEL : **La Libye..., op. cit.**, p. 81.

(25) علي عبد اللّطيف حميدة، **نفس المرجع**، ص 102.

(26) **نفس المرجع**، ص 64-65.

(27) **نفس المرجع**، ص 102.

وقد اختزل الشّيخ الطّاهر أحمد الزّاوي الفروق المشار إليها، في أثناء حديثه عن الصّعوبات الّتي كان يلاقيها السنوسيّون في التّسرّب إلى طرابلس، إذ كتب يقول:

«وكان أكثر أنصار صفيّ الدّين، ومحمّد العابد، ممّن قضّوا جلّ حياتهم في الصّحراء، حيث تنتشر الأميّة، وتسيطر على العقول عادات البداوة، وكلّما امتدّ بهم الشّوط إلى حيث توجد مبادئ الحضارة والعلم (= إقليم طرابلس)، وجدوا أُناسا يزنون الحياة بغير الموازين الّتي عرفوها في باديتهم، فوقفوا منهم موقف العاجز عن مجاراتهم...»(28).

ولعلّ السّؤال الّذي يملي نفسه هنا، هو: ما علاقة ما ذكر حتّى الآن بموضوع بحثنا، وبتعبير آخر: لماذا تمّت إثارة جملة هذه القضايا (ولو بشكل برقي) ضمن هذا العنصر؟

إنّنا نعتقد أنّ أيّة محاولة لفهم خلفيّات حرب الزّعامات بالجبل الغربيّ (الّتي ستستحكم خلال الفترة 1920-1921 وسيكون ابن عسكر فاعلا فيها)، وكذا الأصول الاجتماعيّة لحركات المقاومة والتّواطؤ (ما بين 1911 ونهاية العشرينات)، ستكون ناقصة إلى حدود الإخلال، ونتائجها مضلّلة، ما لم نأخذ بعين الاعتبار التّحوّلات العميقة الّتي كانت جهة الجبل الغربيّ الطرابلسيّ مسرحا لها منذ 1835، والّتي ستكون لنا عودة إليها في الباب الثّالث من هذه الدّراسة، خلال الحديث عن لحظة التّعاون بين خليفة بن عسكر والإيطاليّين.

بعد هذه الإيضاحات -الضّروريّة باعتقادنا- نعود إلى ما بدأنا به الكلام في مقدّمة هذا الباب، حتّى يتّصل ما سبق، بما سيأتي وذلك من خلال طرح السّؤال التّالي: ما هي السّمات الخاصّة بالبيئة النالوتيّة زمن نشأة خليفة بن عسكر؟

---

(28) الطّاهر أحمد الزّاوي. **نفس المصدر**، ص 188.

II - شابٌ جباليٌ شاذٌ ؟

ولد خليفة بن سعيد بن علي بن عسكر بنالوت في حدود عام 1878[29]، في بيت من أشهر بيوتات قبيلة العساكرة، إحدى أكبر قبائل نالوت[30] ، والّتي استقلّت بحيّ هام من أحياء القرية.

ويذكر العقيد الإيطالي دي أغوستيني DE AGOSTINI في دراسته حول سكّان إقليم طرابلس أنّ العساكرة[31] يرجعون في الأصل إلى بلدة الجحيش من مديريّة ككلة التّابعة لمتصرّفية غريان[32] ، وتحديدا إلى قبيلة أولاد عمر[33].

وقد أكّدت الرّوايات الشّفويّة الّتي اعتمدها محمد سعيد القشاط في دراسته عن الرّجل ما ورد في كتاب دي أغوستيني حول هجرة العساكرة من الجحيش إلى نالوت، بيد أنّ هذه الدّراسة وتلك الرّوايات الشّفويّة لم تشر بدقّة إلى زمن هذه الهجرة، وكذا إلى الأسباب الّتي دعت إليها.

كانت بلدة نالوت عشيّة مولد خليفة بن عسكر تعيش على نبض التّحوّلات العميقة الّتي عرفها الجبل الغربي كما أسلفنا القول. وكان موقع نالوت الثّالثة (أو الجديدة) قد بدأ بالبروز إذ امتدّت يد التّهيئة إلى مكان يقع على ارتفاع 750 متر

---

(29) P. GRANCHAMP : "Khalifa ben Saïd ben Asker" in **Chronique de Libye (chez le voisin)**, articles parus dans la Tunisie Française, 3ème année (1923), Tunis, La Rapide, 1924, p. 151.

(30) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 15.

(31) عرّف آجي AGET مدير مصالح الأمن بتونس العساكرة بقوله «العساكرة هم الفرع القبلي الّذي أنجب خليفة بن عسكر، محرّض ثورة 1915»، انظر : **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 9/1 32**، تقرير آجي AGET، تونس، 21 نوفمبر 1939.

(32) E. De AGOSTINI, **Le popolazioni della Tripolitana, notizie etniche e storiche**, Gov, della Tripoli, Officio politico-militare, Tripoli 1917, pp. 331 et suivantes, cité par J. DESPOIS, Le Djebel... op. cit., pp. 296.

(33) Ibid.

تقريبا. وجدير بالإيماء هنا أن المواقع الثّلاثة الّتي انتقلت إليها نالوت قد أبانت عن المراحل التّاريخيّة المختلفة الّتي عرفتها البلدة منذ تأسيسها (ربّما كان ذلك في نهاية العهد الرّوماني أو مطلع العهد البيزنطي). ويقرّ الباحثون بصعوبة تحديد بداية كلّ فترة ونهايتها على نحو دقيق(34).

ليس في نيّتنا التّفصيل في هذه المراحل، أو التّدقيق في أبرز التّعرّجات الّتي شهدتها هذه البلدة منذ نشأتها، وأقصى ما نرومه خلال إشارتنا لنالوت المركز، التّوقّف قليلا عند قصرها (ا قصرُو بلهجة سكّان البلدة أو تَميديلْتْ بالبربريّة). وهذا الطّراز من العمارة - كما هو معروف - كناية عن مخَازن جماعيّة محصّنة(35) اختصّت بها القبائل الّتي تعاطت نصف البداوة، وكذا بعض القبائل المستقرّة الّتي كانت أكثر حرصا على فلح الأرض كما هو الحال بالنّسبة لنفوسة.

ويعتبر قصر نالوت - إلى جوار قصر كاباو - من أهمّ قصور القسم الغربي لنفوسة وأكثرها طرافة(36)

ويتألّف القصر من طوابق من الغرف، لكلّ واحدة منها باب واحد، وتفتح جميعها على حوش تتجمّع فيه الحيوانات ليلا.

وقد تميّز قصر نالوت بغرفه الواسعة المؤلّفة من مستويين، يكون الأوّل مخزنا للمؤن بمختلف أنواعها. أمّا الثّاني فتوضع فيه بعض الأغراض الخاصّة والأدوات القديمة وما إلى ذلك

ولدينا شهادة دقيقة للصّحفيّ الفرنسيّ جورج رُومُون Georges REMOND، عن نالوت الّتي أقام بها مدّة قصيرة زمن اندلاع الحرب الإيطاليّة التّركيّة نخالها جديرة بالإحالة على متنها ونحن بصدد رسم صورة سريعة للبلدة على عتبة الاحتلال. كتب رومون في ورقة مؤرّخة في 19 جانفي 1912، يقول:

---

(34) عبد الجليل الطاهر، **المجتمع اللّيبيّ، دراسات اجتماعيّة وانتروبولوجيّة**، بيروت، المكتبة العصريّة، 1969، ص 4.

(35) J. DESPOIS : **Le Djebel Nefousa**, op. cit., p. 180-185.

(36) Jean DESPOIS : "L'habitation dans le Djebel Nefousa" in **Revue Tunisienne**, n° 19-20, 1934, p. 279.

«ثمّ تجلّت أمامنا بلدةُ نالوت الّتي لم نلمح منها في البداية سوى بضعة منازل بيضاء، أعقبها نمط آخر من المساكن ذات الدهاليز المحفورة في الأرض، ثم تلتها فجأة بلدة محصّنة بنيت مساكنها على جانبي واد عميق، بحيث بدت تلك المساكن كما لو كانت تتسلّق الصّخور أو تتدحرج منها. وكانت جميع تلك المساكن في وضع مائل [...]، وبدَا في الوسط قصر شامخ بني سوره من صخور هائلة [...].

وفي صباح اليوم تجوّلت في أزقّة نالوت في صحبة رفاقي، ثمّ ولجنا من تحت قبّة واطئة إلى داخل قصرها الكبير [...]، وكان سعةُ تلك الأزقّة لا تزيد على متر واحد، بل أقلّ من ذلك، وكانت تقوم على جوانبها سلالم ودرج تفضي إلى غرف شبيهة بالثّقوب المنقورة في الصّخور. والنّاس هنا يستعملون هذه الغرف الفريدة كمساكن لهم أو كمخازن لحاصيلهم من القمح والشّعير [...]، ويبلغ تعداد سكّان بلدة نالوت حوالي أربعة آلاف نسمة...»(37).

كانت قرية نالوت مؤلّفة (على غرار بقيّة قرى نفوسة الأخرى) من عدّة أحياء. وتتراوح المسافة الفاصلة بين حيّ وآخر ما بين 50 و150 مترا.

وتوزع سكن أهالي البلدة في نهاية القرن التّاسع عشر ومطلع القرن العشرين بين الدور المبنيّة على هيئة كهوف (وايدجان بالبربريّة)، والمنازل المشيّدة من الحجارة(38) فوق هضبة تشرف على الأطلال والخرائب العديدة.

وبخصوص سكن الكهوف المنحوتة المسماة غيرانا (ج. غار)، والّتي اشتهر بها أهالي نفوسة نشير إلى أنّ كهوف نالوت الجديدة كانت تنتمي إلى النّموذج العمودي ذي الحوش الصّغير أو نموذج نالوت كما دعاه جان ديبْوا J. DESPOIS(39). وغالبا ما تكون هذه الكهوف مظلمة وسيّئة التّهوئة.

---

(37) جورج رومون، **من داخل مُعسكرات الجهاد في ليبيا (1912)**، نقله عن الفرنسيّة وعلّق عليه محمّد عبد الكريم الوافي، ط2، طرابلس، المنشأة العامّة للنشر والتّوزيع والإعلان، 1983، ص 30-31.

(38) اشتهرت نالوت بحجر الكلس. وكان سكّان القرى القريبة يستوردونه لبناء دورهم.

(39) J. DESPOIS : "L'habitation...", **op. cit.**, pp. 279-280.

تلك هي السّمات العامة للإطار الّذي فتح فيه "بطلنا" عينيه ونشأ ثمّ شبّ. ونرى من الضّروري الإيماء هنا إلى أنّ خليفة بن عسكر الشّاب كان كثير الاختلاف إلى أرباض نالوت ودساكرها كما سيأتي بيانه.

عندما استنفذ ابن عسكر طفولته، الّتي لا نكاد نعرف عنها شيئا (وهو ما يشكّل أحد البياضات البارزة في سيرته)، وباشر السّنوات الأولى من شبابه، كان إيقاع الحياة في نالوت قد بدأ بالتّبدّل منذ مدّة. أشياء كثيرة تغيّرت منذ تشديد الأتراك قبضتهم على منطقة الجبل الغربي(40)، بعد القضاء على حركة غومة المحمودي عام 1858 (شيّد الأتراك قلعة جديدة على أنقاض القصر الّذي احتجز فيه غومة المحموديّ الحامية التّركيّة عام 1850 ملحقا هزيمة نكراء بمن كان يدعوهم بالغزاة)، وانفتاح المنطقة على الاقتصاد النقدي وبداية انجذابها في دائرة الاقتصاد العصري كما أسلفنا. أضف إلى كلّ ذلك النّتائج الأوليّة لتمركز الفرنسيّين بالجنوب التّونسيّ منذ 1888 وبداية تحسّسهم السّبل نحو المناطق القريبة من نالوت (لا سيما غدامس)، والّتي ليس أقلّها التّراخي الشّديد في علاقات الصّحبة الّتي جمعت فرق الدغاغرة العربيّة من قبيلة الودارنة بعشائر وعائلات نالوتيّة(41). إذ كان الفرسان الودارنة يؤمنون حماية جبالية نالوت ضدّ تحرّشات البدو وأنصاف البدو نظير إتاوات عينيّة(42).

وحريّ بالتّسجيل هنا أنّ ابتزاز الودارنة "لأصحابهم" المذكورين قد احتدّ موازاة مع تضاؤل الموارد الذاتيّة من التّجارة الصّحراويّة إذ كانت القبائل التّونسيّة تؤمن خفر القوافل وحمايتها لقاء أعطيات عينيّة في الغالب(43).

---

(40) A. MARTEL : **La Libye... op. cit.**, pp. 55-56 ; J. DESPOIS : "L'habitation... **op. cit.**, p. 278.

(41) G. FOREST : **Coutumes des populations de la circonscription de Tataouine**, Paris, C.H.E.A.M., 1942, p. 36.

(42) **Ibid.**

(43) A. GOGUYER, "Le servage dans le Sahara Tunisien", in **Revue Tunisienne (II)**, 1895, pp. 308-318.

كانت نالوت إذن، في غمرة التّحوّلات، عندما بدأ خليفة بن عسكر النّجل الأصغر لسعيد بن عسكر يفقه البعض من أسرار الحياة وشؤونها. الحظ، أو القدر، أو أشياء أخرى شاءت أن يولد هذا الغلام في عائلة موسرة(44). ولسنا ندري بالضّبط من أين استمدّت هذه العائلة وجاهتها الاجتماعيّة وقتئذ. ولكنّ الثّابت لدينا أنّ والده كان من أشهر ملاّك الأرض في نالوت(45). وتكفينا الإشارة هنا إلى أنّ امتلاك البساتين المشجّرة لا سيما زيتونا (طبعت هذه الشّجرة الجبل الغربي بطابعها الخاص وميّزته عن «الجفارة والقبلة» حيث لا ينمو سوى النّخيل والتّين)، يكلّف غاليا. وإذن فامتلاك شجر الزّيتون كان بدون ريب علامة من علامات اليسار. وكان الزّيت يستخدم وسيلة للتّبادل التّجاري فضلا عن دوره كعنصر أساسي في الغذاء المحليّ. هل نفهم من هذا أنّ عائلة سعيد بن عسكر كانت من بين العائلات الّتي استفادت من تطبيق قانون الأراضي (الصّادر عام 1858) بمنطقة نفوسة؟(46).

اختلف الصّبيّ خليفة خلال مرحلة هامّة من طفولته، إلى أحد كتاتيب نالوت (أسوة بصبية البلدة) حيث تسنّى له حفظ قسم من القرءان إلى جانب حذق الكتابة العربيّة وشاهدنا على ذلك الرّسائل الّتي خطّها القائد ابن عسكر بيده خلال حقبة نضاله سواء للزّعامات القبليّة اللّيبيّة أو لمحاوريه من الضبّاط الفرنسيّين أو الإيطاليّين(47).

---

(44) Pierre GRANCHAMP, "Khalifa ben Asker...", **op. cit.**, p. 151.

(45) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 15.

(46) علي عبد اللّطيف حميدة، **نفس المرجع**، ص 79.

(47) بوسعنا معاينة التّحسّن الواضح في أسلوب كتابة خليفة بن عسكر وخطّه ما بين 1915 و1922 من خلال الاطّلاع على بعض النّماذج من كتاباته ومراسلاته. انظر على سبيل المثال الرّسالة الّتي خطّها إلى خليفة بن أحمد بن ابراهيم العزابي (أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف 15/30 - 756 وثيقة عدد 58)، والرّسالة - الإنذار الّتي وجهها إلى النّقيب باري Barre رئيس فرع ذهيبة للشّؤون الأهليّة بتاريخ 16 أوت 1915 : (S.H.A.T., Vincennes, 2 H 57, d. 15) وأخيرا الرّسالة الأخيرة له والّتي وجّهها من سجنه لشقيقه عمرو بن عسكر وهي مؤرّخة في 11 جويلية 1922، (16 من ذي القعدة 1340)، راجع القشاط، **نفس المرجع**، ص 391.

ولسنا ندري هل وجد بالجبل الغربي كتاتيب «خارجيّة أباضيّة»، وأخرى «سنيّة مالكيّة». كما أنّنا نجهل الدّور الّذي نهضت له الزّوايا بإقليم طرابلس بعامّة والجبل بخاصّة (إذا ما قُورن بالدّور الهام الّذي لعبته في إقليم برقة).

وبالجملة فإنّ هذا الجانب المتعلّق بالتّعليم والحياة الفكريّة بمعناها الواسع قمين بمزيد الحفر لما له من أهميّة في إلقاء الضّوء على جوانب مهمّة من «الشّخصيّة الجباليّة». بيد أنّ الأمر الثّابت هنا، هو عدم وجود مدارس حديثة بالجبل الغربيّ، على عكس الجهات القريبة من مدينة طرابلس(48).

وإذا نحن أبحنا لأنفسنا شيئا من الاطمئنان لصحّة ما جاء في الرّوايات الشّفويّة الّتي جمعها سعيد القشّاط، فإنّ خليفة بن عسكر الشّاب كان فتى مطبوعا على الاستهتار والعبث، إذ يبدو أنّه باشر تلك المرحلة واستنفدها في متعة اللّهو ولذّة الانطلاق والمجون. وربّما فسر انتماؤه إلى وسط ذي يسار ميله الشّديد إلى «التّبذير والإنفاق على رفاقه في الصّبا...» كما يتجلّى ذلك من شهادات أقرانه في مرحلتي الطّفولة والشّباب وفي مقدّمتهم أقربهم إليه المدعو محمد بن يوسف بوصوّة(49). وعبثا حاول أخواه، لا سيما المدعو عمرو إقناعه بالإقلاع عن غيّه ولكنّ الشّاب النّزق لم يَرْتَدِعْ ولم يَزْدَجِر الأمر الّذي اضطرّ أهله أن «يقسّموا له نصيبه من الأرض والأشجار (مخافة أن يتلف ممتلكاتهم) الّتي باع معظمها...»(50).

إنّ فشل عائلة سعيد بن عسكر في فَرْمَلَة جُموح ابنها الأصغر لدليل على مدى عناد هذا الشّاب، واستخفافه بالسّائد من القيم والسّوالف حينذاك.

ولم ترد في ذات الرّوايات الشّفويّة (مصدرنا الرّئيسيّ بالنّسبة لهذه الحقبة الغامضة في حياة الرّجل)، ولو إشارة واحدة تفيد أنّه امتهن حرفة معيّنة أو باشر عملا أو وظيفة ما، خلافا لإخوته ولسائر جباليّة نالوت الّذين ارتقوا بالشّغل اليدويّ إلى درجة التّقديس اتّساقا مع "الذّهنيّة البربريّة". وأغلب الظنّ أنّه أنفق

(48) فرانشيسكو كورو Francesco CORO. **ليبيا أثناء العهد العثماني الثّاني**. تعريب خليفة محمد التليسيّ، طرابلس، دار الفرجاني [د.ت.]، ص 23.

(49) القشاط، **نفس المرجع**، ص 16.

(50) **نفس المرجع**، ص 15.

القسم الأعظم من شبابه في صيد الودان بجبل نالوت مما أكسبه براعة في الصّيد، ومهارة في إصابة المرمى لم يضارعه فيها أحد (والعهدة دائما على نفس الرّواية الشّفويّة). كما عرف عن الرّجل حبّه للخيل، وشغفه بركوبها ومواظبته على المشاركة في المسابقات والألعاب الفروسيّة(51)، وأنّه ذوّاقة للشّعر، محبّ للجيّد منه وإن لم يقله. وخلاصة هذا كلّه هو أنّ هذا الشّاب تميّز تميّزا واضحا عن إخوته وذوي قُرباه من العساكرة وجبالية نالوت.

تزوّج خليفة بن عسكر (وفق المصادر الشّفويّة) أربع نساء(52). ولسنا ندري متى بنَى بالأولى من زوجاته (وتسري نفس الملاحظة على الأخريات أيضا). كما أنّنا لا نتوافر على بيان واف عن النّساء اللاّئي تزوّج بهنّ لا سيما ما يتعلّق بسنّهنّ ومنبتهنّ الاجتماعي الخ...

ومهما يكن من شيء، فإنّنا نستبعد أن يكون الرّجل قد استجمع هذا العدد من الزّوجات في وقت واحد. وشاهدنا على ذلك إشارة مهمّة وردت ضمن رسالة للمقيم العام وجّهها إلى الجنرال قائد فرقة الاحتلال بتونس بتاريخ 16 نوفمبر 1915 (يشعره فيها بقراره تحويل عائلة ابن عسكر المحتجزة بقبلي إلى سجن تونس)، تفيد أنّ للرّجل زوجتين هما: زازية (كذا) بنت سليمان بن خميس الّتي أنجب منها ثلاثة أبناء هم: ابراهيم (تسع سنوات)، وفاطمة (أربع سنوات)، وسليمة (ستّ سنوات)، ومبروكة بنت أحمد بن ابراهيم الّتي أنجب منها ابنه عمر (أربع سنوات)(53).

وبإمكاننا أن نستنتج اعتمادا على الإضاءات الواردة في المصادر الفرنسيّة أمرين: أوّلهما أنّ خليفة بن عسكر تزوّج مرّتين قبل 1914، وثانيهما أنّ الزّوجتين أجمعتا على رفض العودة إلى نالوت (في حالة إطلاق سراح المحتجزين بالمحتشد)، وأعربتا عن رغبتهما الشّديدة في الطّلاق من خليفة بن عسكر(54).

(51) **نفس المرجع**، ص 15-16.

(52) **نفس المرجع**، ص 16.

(53) أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف: 15/30، 756، وثيقة 32 انظر كذلك نفس المصدر، وثيقة 53.

(54) **Q.O.** Fonds nominatif. Papiers G. Alapetite, lettre à Peretti de la Rocca, 16 août 1916, bobine 494, d.3, f. 139.

وقد علّلت الزّوجتان رغبتهما البقاء في تونس، وطلب الطّلاق منه «بقسوة طباعه وجفافها، وبغلظته وفظاظته الشّديدة...»(55).

هل نخلد إلى الاستنتاج أنّ خليفة بن عسكر تجاوز العقوبات الّتي سوّغها النّصّ القرآنيّ(56) في حالة النّشوز -هذا طبعا إذا ثبت نشوز الزّوجتين- وهي العظة والهجر في المضاجع، والضّرب، والتّسريح بإحسان، إلى عقوبات أشدّ إمعانا في الإذلال والتّحقير ؟

قد تبدو هذه الشّهادة الواردة في أوراق "غابريال ألابتيت" Gabriel ALAPETITE مغرضة، ولكنّ ما جاء في الرّواية الشّفويّة الأهليّة يعضد تماما كلام المرأتين من حيث تأكيده على «قسوته المبالغ فيها إزاء زوجاته...»(57). تقودنا الملاحظة الأخيرة إلى الخوض في طباع الرّجل وصفاته وخلقه كما أبانت عنها شهادات الّذين تعرّفوا إليه عن كثب.

ابتداء نشير إلى أنّ الصورة الوحيدة الّتي توفّرت لنا عن الرّجل، تفصح للرّائي عن ملامح صارمة : ضيق في العينين، وفطس خفيف في الأنف، وشارب غزير ورقبة غليظة(58).

ويتّفق أصدقاؤه، وكذا بعض الشّهادات الصّادرة عن عدد من الضبّاط الفرنسيّين والإيطاليين على القول أنّه كان حادّ الطّبع، عصبيّ المزاج، شديد القسوة على معارضيه وخصومه وشانئيه(59). وقد وصم رودولفو غراتسياني Ro-dolfo GRAZIANI زعيم نالوت «باللّص المخادع» قبل أن يخلص للحديث عن طباعه، والتّأكيد على أنّه كان رجلا «متقلّبا، شريرا، قاسيا، ضعيف الإيمان»(60).

---

(55) **Ibid.**

(56) تنبغي الإشارة هنا إلى أنّ خليفة بن عسكر أطنب منذ إعلان ثورته عام 1913 في الاستشهاد بالآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة.

(57) القشاط، **نفس المرجع**، ص 16.

(58) محمد المرزوقي، **دماء على الحدود**، تونس، الدّار العربيّة للكتاب، 1975 (انظر لائحة الصّور ضمن الملحق).

(59) سعيد القشّاط، نفس المرجع، ص 15.

(60) رودلفو غراتسياني، **نحو فزان**، نقلا عن القشاط، نفس المرجع، ص 115.

ويذهب ضابط فرنسيّ في تقرير أبعد ما يكون عن الموضوعيّة إلى أنّه «أخرق، مندفع، عنيد، سطحيّ ومكابر...» وذلك في إشارة إلى «أعمال الرّجل البربريّة» الّتي اقترفها في منطقة الجبل الغربيّ ابتداء من عام 1917، إذ ضجّ النّاس من فعاله واندفاعه غير المحسوب(61).

والحقّ أنّ أعداء الرّجل وشانئيه قد أقرّوا له في المقابل بالشّجاعة: فهو في عيني الضّابط الإيطاليّ غراتسياني «محارب ممتاز»(62) و«رجل خطير جدًّا...»(63). وهو في نظر النّقيب الفرنسيّ "بوفي" BOUVET «مقدام، نشيط، صبور... ومحرّض خطير قادر على إتيان أسوأ الأعمال الجنونيّة...»(64). وهو أخيرا –وليس آخرًا– رجل «قويّ الشّكيمة...» برأي أحد صحفيي جريدة تونس الفرنسيّة "La Tunisie Française"(65). وستوافر لنا الفرصة في الباب الثاني، وتحديدا في المبحث المعقود لتقويم «ابن عسكر القائد العسكري»، كي نتعرّف إلى آراء عدد آخر من الضبّاط الفرنسيّين في خصاله القتاليّة.

إنّ قراءة سريعة في هذه "الأعوام الظّليلة" من حياة خليفة بن عسكر –تأسيسا على الرّواية الشّفويّة– من شأنها أن تغري على القول أن النّجل الأصغر لسعيد بن عسكر قد جسّد نموذج الشّاب الجبالي الشّاذ عشية الغزو الإيطاليّ لإيالة طرابلس الغرب، وهذا الرّأي تزكّيه المعطيات التّالية على نحو ملموس: لقد كان الرّأي دائما(66) أنّ الجباليّة قوم مجدّون عاشوا على فلح الأرض، واتّسم اقتصاد هؤلاء

(61) **I.S.H.M.N., M.A.E., Quai d'Orsay, série Guerre 1914-1918**, vol. 1586, rapport juin 1917.

(62) شهادة غراتسياني في خليفة بن عسكر، انظر: خليفة التليسيّ، **بعد القرضابيّة**، ط2، تونس، الدار العربيّة للكتاب، 1978، ص 81.

(63) الطاهر الزّاويّ، **جهاد الأبطال**، ص 292.

(64) **I.S.H.M.N., S.H.A.T. (Château de Vincennes)**, 2 H 57, d. 5, Le capitaine BOUVET au colonel commandant militaire du territoire du sud, Kebili, 18 juillet 1915.

(65) Chronique de Libye... **op. cit.**, 1ère année (1921), p. 17.

(66) DEAMBROGGIO, **op. cit.**, p. 266 ; H.M. de MATUISIEULS, **op. cit.**, p. 171.

السكّان المستقرّين بالازدواج بين القطاعات، وبتنوّع المداخيل، وبالتّقاليد العريقة في الهجرة إلى مدن تونس كما سبق أن أومأنا(67) .

ويضيق المجال هنا بذكر الأسباب الّتي أرغمت البربر الأباضيّين لولاية طرابلس الغرب على التّحصّن بالمرتفعات الجبليّة لنفوسة، والاضطرار إلى التّكيّف مع المحيط الايكولوجيّ القاسيّ للإقليم(68) .

إنّ ما يهمّنا في هذا المقام أنّ لفظة جباليّة أو نفوسة قد أصبحت بمرور الزّمن مرادفا للمستقرّين من سكّان الجبل الغربيّ الّذين اشتهروا بجلدهم، ودأبهم المتواصل. كما تلبس هذا اللّفظ بدلالات حافّة تهجينيّة أو تحقيريّة : فالجبالي رجل محبّ للمال مقتّر، بخيل، اختار حياة التّقشّف(69) ، وضرب صفحا عن كلّ مباهج الدّنيا(70) . ليس هذا فحسب، بل إنّ ذكره غدا صنْوا للشّخص المسالم الوديع بله الجبان الذّليل(71) الواهن العزيمة والمسلوب الشّرف والإرادة(72) إلى غير ذلك من مرذول الأوصاف والنّعوت.

تلك كانت السّمات العامّة "للشّخصيّة الجباليّة" كما صورتها لنا المصادر،

---

(67) للاستزادة يمكن الرّجوع إلى :

Jean DESPOIS, **Le Djebel Nefousa, op. cit.**, p.p. 93-123, 165-169.

(68) **Ibid.**, p. 93.

(69) H.M. de MATUISIEULS, **op. cit.**, p. 42.

(70) **Ibid.**

(71) DEAMBROGGIO, **op. cit.**, p. 266.

(72) يقول عمر بن عبد الملك وهو أصيل قبيلة المرازيق (وقع اختياره عام 1915 لتمثيل جهة نفزاوة بالجمعيّة الشوريّة) في معرض حديثه عن الجباليّة الّذين أقاموا بين ظهرانيهم بجهة قبلّي عام 1914 : «إنّ جباليّة الجنوب التونسيّ وإقليم طرابلس عديمو الشّجاعة... إنّنا نعتبرهم مثل النّساء...» **أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف 15/30**، 756، وثيقة 36. تقرير محمد الزواري (خليفة حامة بني زيد بالنيابة) إلى الكاتب العام للحكومة التونسيّة، 11 جانفي 1915.

وهي ملامح صحيحة في مجملها(73) ، إلاّ أنّ بعض الكتابات أساءت توظيفها أو تعمّدت اختزالها على نحو مجحف بل كاريكاتوري أحيانا.

بعد هذا التّوضيح -الضّروري برأينا- سيصبح من السّهل علينا تحسّس "مواطن الشّذوذ" في شخصيّة خليفة بن عسكر : إنّ إعراض الرّجل عن العمل، واستنكافه امتهان أي شغل (لقناعته أنّ المهنة من المهانة اتّساقا مع فكر "الارستقراطيّة العربيّة" المعروف)، وتعمّده بيع حصّته من الأشجار وقسما من عقاراته(74) ، فضلا عن كرمه وإيثاريته، ونزوعه إلى حياة اللّهو وشغفه بالصّيد وركوب الخيل، دع عنك أنفته، وشجاعته، وفظاظته وإباءه الضّيم، قد جعلته أقرب إلى السّلوك والذّهنيّة البدويّة والّتي ستمثّل عدّته الأساسيّة الّتي سيستمدّ سنها وجاهته فيما بعد (لكأنّه كرع من منهل القيم البدويّة النّبيلة ومستودعها)، وأبعد ما يكون عن صفات الجباليّة من المحامد كانت أو العيوب، إذ شكّل بحق حالة شاذّة بالنّسبة لعائلة سعيد بن عسكر(75) وأبناء جلدته عموما على ما سيزداد اتّضاحا في العنصر المعقود لخلفيّات ثورته ومقدّماتها.

كان خليفة بن عسكر قد استوى على الرّابعة والثّلاثين من عمره عندما نزلت الجيوش الإيطاليّة بإيالة طرابلس الغرب، وسيمثّل هذا الاحتلال حدثا مفصليّا في حياة مترجمنا.

---

(73) تعد هذه المسألة من القضايا البالغة التّعقيد والشّديدة الحساسيّة. وهي جديرة بدراسة (بل بدراسات) متأنّية تكون نقيّة من التّعصّب والغرض. ولعلّ الأمر الّذي يؤسف له اليوم أنّ "جميع الأطراف" (من جبالية وأنصاف بدو من العرب) تعارض النّبش في هذا الماضي "البغيض" (كذا) بعد أن ترسّب في أعماق سواد النّاس أنّ التّضاد العربي-البربري (الّذي لا مجال لنكرته) هو من اختراع الاستعمار. والأنكى من ذلك اتّهام الباحثين بدس المفتريات وإحياء نعرات قديمة وتوظيفها، وذلك تحت غطاء البحث العلمي والدقّة في الاستقصاء والدّراسة.

(74) سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 15.

(75) **نفس المرجع**، ص 17.

المبحث الثّاني : إعلان العصيان

I - خليفة بن عسكر وبداية الاحتلال الإيطاليّ :

1- بدء الاحتلال الإيطاليّ وانطلاق حركة المقاومة (1911-1913) :

أقدمت إيطاليا في خريف 1911 على غزو طرابلس الغرب وضمّها رسميًا إلى ممتلكاتها التّرابيّة في 5 نوفمبر 1911(76) ، مستغلّة في ذلك الصّعوبات الكبيرة الّتي كانت تعيشها الامبراطوريّة العثمانيّة(77) ، ومتذرّعة ببعض المزاعم(78) .

(76) أعلن قرار ضمّ طرابلس وبرقة إلى المملكة الإيطاليّة عن طريق أمر ملكيّ مؤرّخ في 5 نوفمبر 1911 جاء فيه : «إنّ ملك إيطاليا عمّانويل الثّالث بعد موافقة رئيس وأعضاء مجلس الوزراء، وبناء على المادّة الخامسة من القانون الأساسي للمملكة يعلن بأنّ طرابلس وبرقة قد وضعتا تحت السّيادة الكاملة والتّامّة للمملكة الإيطاليّة...» راجع بهذا الخصوص : فرانشسكو مالجيري، **الحرب اللّيبيّة 1911-1912**، ترجمة وهبي البوريّ، تونس، الدّار العربيّة للكتاب، 1978، ص 479 (ملحق رقم 7) وص 480-481 (ملحق رقم 8).

ويذكر هنا أنّ هذا الأمر حول في 25 فيفري 1912 إلى «قانون رقم 83 من قوانين الدّولة، واجب التّنفيذ...».

(77) يمكن اختزال أهمّ صعوبات الباب العالي عام 1911 في احتداد مشكل اليقظات القوميّة أي اشتداد ساعد الحركات الانفصاليّة في شبه جزيرة البلقان، واندلاع انتفاضة اليمن الأمر الّذي حتّم على الاتّحاديين سحب قسم من جنودهم بإيالة طرابلس الغرب وإرساله إلى جنوب شبه الجزيرة العربيّة (كما أرسلوا قسما آخر من جندهم إلى ألبانيا)، ومن ثمّ لم يبق في الإيالة سوى أربعة آلاف جندي من أصل أربعين ألفا كانوا مرابطين فيها. ويمكن القول أنّ البلاد كانت خالية أو شبه خالية من كلّ وسائل الدّفاع عشيّة تنفيذ الهجوم الإيطاليّ عليها. انظر على سبيل المثال :

I.S.H.M.N., S.H.A.T. (château de Vincennes), Série 2H, bobine S 289, d.2, Le commandant Delon attaché militaire à l'Ambassade de France en Turquie à M. le ministre de la Guerre, Constantinople le 15 mars 1910, folios 464-486

(78) استغلت إيطاليا رسو النقالة لبحريّة العسكريّة العثمانيّة المسمّاة "أدرنه" خلال خريف 1911 (كانت محمّلة بخمسة عشر ألف بندقيّة من نوع موزر Mauser وكميّات هامّة من الذّخيرة)، لتوجّه إنذارا إلى الباب العالي (إذ اعتبرت وصول الباخرة المذكورة عملا عدائيًا موجّها ضدّها)، اتّهمته فيه بإهمال أحوال السكّان الأهالي، وبعرقلة المشاريع الإيطاليّة، وبعدم توفير=

ولقد كشف الردّ العثمانيّ على الإنذار الإيطاليّ للدّولة العليّة والمؤرّخ في 27 سبتمبر 1911 عن مدى الضّعف الّذي ألمّ بالباب العالي حينئذ الأمر الّذي ألجأ سعيد باشا أحد الصّدور العظام القدماء المشهورين إلى ردّ الفعل، قائلا : «ليس يعقل أن تستسلم الامبراطوريّة بهذه الصّورة المخزية...»(79).

وبالجملة، فقد توّجت إيطاليا من خلال إعلانها الحرب على الدّولة العثمانيّة في 29 سبتمبر 1911، وإنزالها العسكري على الشّواطئ اللّيبيّة في أكتوبر 1911، جهود ثلاث عشريّات من العمل الدّؤوب قصد الحصول على تعويض كاف عن خسارة إيالة تونس الّتي سلبتها إياها فرنسا عام 1881، من ناحية، وتأكيد جدارتها بالانتماء إلى معسكر القوى العظمى من ناحية أخرى.

ولقد كان الاعتقاد السّائد في الأوساط العسكريّة الإيطاليّة العليا إبّان مساحلة قطع الأسطول الإيطاليّ لموانئ طرابلس، وبنغازي، ودرنه، وطبرق، والخمس، ومصراته، وزواره أنّ عمليّة احتلال الدّواخل ستكون كناية عن «نزهة عسكريّة». ولكنّ ردّة فعل الأهالي (والأتراك الّذين ظلّوا في الإيالة) العنيفة على هذا الغزو(80) قد أقنعتهم باستحالة السّيطرة على البلاد وفق الخطّة

= الأمن للرّعايا الإيطاليّين والأجانب إلى غير ذلك من المسوّغات الّتي اعتمدت عليها في التّعجيل بالغزو. للاستزادة بخصوص الإنذار الإيطالي (26-9-1911)، والرّدّ العثماني على هذا الإنذار (27-9-1911) يمكن العودة إلى :

– الطاهر أحمد الزاوي، جهاد... ص 26-31، فرانشسكو مالجيري، **نفس المرجع**، ص 466-471.

- Capitaine DESEVAUX : **La guerre italo-turque en Tripolitaine... op. cit.**, pp. 3-5.

(79) عبد المنصف حافظ البوري، **الغزو الإيطاليّ لليبيا**، الكويت، كاظمة للنّظر، 1986، ص 164.

(80) يجدر التّنبيه هنا إلى الحالة المعنويّة المنهارة الّتي غدت عليها بعض الفرق لا سيما فرق الاحتياط الّتي استجلبت من إيطاليا (على مراحل) مثل فرقة 1889 وفرقة 1891.

وتشير دراسة النّقيب الفرنسيّ "ديسوفو" DESEVAUX الّتي هي أبعد ما يكون عن التّعاطف مع المقاومة اللّيبيّة، إلى حالة الإحباط الّتي أضحى عليها الجنود الإيطاليّون إثر المعارك الأولى الّتي جمعتهم برجال المقاومة. ومن بين ما ذكر الضّابط الفرنسيّ بهذا الخصوص : ==

المرسومة(81) . واضطرّ الجنرال "كارلو كانيفا" Carlo CANEVA قائد الحملة إلى طلب المزيد من الدّعم والمدد(82) . وهكذا أرغم مهندسو مشروع الاحتلال على دراسة سبل مواجهة مقتضيات الوضع الجديد النّاجم عن المقاومة من خلال تصوّرات أقل تهافتًا(83) .

وفي هذه الأثناء -وإزاء الصّعوبات العسكريّة الّتي واجهها الإيطاليّون- أرسل الأتراك العثمانيّون إلى ولايتهم الإفريقيّة ضباطا وخبراء عسكريّين قصد إحكام المقاومة وتأطيرها. وقد تسلّل معظم هؤلاء الضبّاط إلى الإيالة عبر تونس أو مصر مستفيدين في ذلك من تغاضي الفرنسيّين والانجليز عن تحرّكاتهم(84) .

== «يبدو أنّ كلمتي "عربي" و"صحراء" قد زرعت الذّعر في نفوس هؤلاء [الإيطاليّين] وقتلت لديهم أيّ إحساس بالشّجاعة والإقدام والفداء.

وخلاصة القول لقد استبدّ الخوف بالجنديّ الإيطاليّ...» راجع :

Cap. DESEVAUX, **op. cit.**, p. 26.

(81) الطاهر الزّاوي، **جهاد**، ص 63.

(82) Capitaine DESEVAUX, **La guerre .. op. cit.**, p. 22.

(83) من بين النّتائج المترتّبة على المقاومة العنيفة الّتي واجهها الإيطاليّون إقدامهم على إصدار مرسوم الضمّ الآنف ذكره. وتكمن وراء هذا الإجراء أهداف ثلاثة هي :

– أوّلا إقناع الدّول الأوروبيّة، والرّأي العام الإيطاليّ والأوروبيّ بأنّ إيطاليا تسيطر على البلاد وأنّ أعمالها تتّسم بالقانونيّة والشّرعيّة.

– ثانيا : وضع الباب العالي أمام الأمر الواقع، ومن ثمّ إرغام استانبول على الاعتراف بسيادة إيطاليا على طرابلس الغرب.

– ثالثا : كانت إيطاليا تأمل في أن يتسبّب هذا الإعلان في إيقاف المعارك الحربيّة من جانب المقاومين اللّيبيّين باعتبار أنّ حركتهم تلك ستصبح غير قانونيّة أو شرعيّة في ظلّ الدّولة الجديدة صاحبة السّيادة، ذلك أنّ تطبيق القانون الدّاخليّ الإيطاليّ سيجعل منهم متمرّدين أو خارجين عن القانون.

وفوق كلّ هذا، فإنّ المرسوم المذكور أراد أن يجعل من "حوادث طرابلس" شأنا إيطاليا داخليّا بهدف قطع الطّريق أمام أيّ محاولة أوروبيّة للتّدخّل في شؤون البلد المحتمل، راجع عبد المنصف حافظ البوري، **الغزو الإيطاليّ لليبيا**، ص 169.

(84) André MARTEL : **La Libye... op. cit.**, p. 88.

ويمكن القول أنّ النّجاعة الّتي اكتسبتها المقاومة اللّيبيّة خلال مرحلة الغزو الأولى كانت -في جانب مهم منها- بفضل تفاني و "صدق وطنيّة" طائفة من الضبّاط نحو أنور باشا، ونشأت باشا، وخليل باشا، ممّا جعل سكّان طرابلس الغرب يغيّرون موقفهم من العسكريّين الأتراك، وهذا ما عبّر عنه المقدم يوسف جمال في هذه الشّهادة الّتي أسرّ بها إلى الصّحفي الفرنسيّ جورج رومون مراسل صحيفة "المصوّر" "L'illustration" إذ أكّد ما يلي : «كانوا [اللّيبيّين] يتّهموننا بأنّنا قد بعنا طرابلس الغرب للإيطاليّين. وكانوا يرفضون الوقوف بجانبنا أو تزويدنا بالمؤن والجمال. ولكن ما إن نجح الضبّاطُ العثمانيّون في تنظيم أولى المناوشات مع العدو الإيطاليّ حتّى تغيّر رأي اللّيبيين فينا وأدركوا أنّنا لم نخن قضيّتهم...»(85) .

وجدير بالإيماء أيضا، أنّ صفّ المقاومة تعضّد بانضمام ضباط أوروبيين إليه. ويذكر النّقيب "ديسُوفو" DESEVAUX بهذا الخصوص التحاق ثلاثة ضبّاط بريطانيين، وأربعة ضباط ألمان بحركة المقاومة الطرابلسيّة(86) .

وبإزاء هذه التّطوّرات، اضطرّ الإيطاليّون إلى الضّغط على الدّولة العثمانيّة من خلال توسيع رقعة حربهم ضدّها. وفي هذا الإطار يتنزّل ضرب الأسطول الإيطاليّ القنفدة في 12 جانفي 1912 ومساعدة محمد الإدريسيّ (في عسير) بالسّلاح كي يعلن الثّورة على الإمبراطوريّة العثمانيّة. وفعلا فقد قام بحصار أبْهَا قاعدة عسير الّتي كانت تتبع الباب العالي.

وكان من بين النّتائج المترتّبة على هذا التّمشّي التّصعيدي، تدخّل القوى العظمى (أنجلترا، ألمانيا، روسيا، فرنسا والنّمسا) بواسطة سفرائها في روما والآستانة قصد تقريب وجهات النّظر بين الطّرفين المتنازعين. ولكن الإمبراطوريّة العثمانيّة رفضت شروط إيطاليا وعلى رأسها اعتراف تركيا بضمّ ولاية طرابلس الغرب إلى إيطاليا وملكيتها لها.

(85) جورج رومون، **نفس المصدر**، ص 69.

(86) Cap. DESEVAUX, **op. cit.**, p. 19.

والحقّ أنّ الرّفض العثـ ـاني لم يرض الدّول الأوروبيّـة الّتي رأت فيه رفـضا لوساطتها، ومن ثمّ أوعزت إلى إيطاليا بضـرب السّواحل التّركيّة شرقي المتوسّط، وهذا ما تمّ فعلا خلال ربيع 1912 : ففي أواسط أفريل 1912 هاجم الأسطول الإيطاليّ سـاموس ورودس. وفي 19 منه ضـرب مراكـز الجيش العـثمـاني في الدردنيل. ولم يـأت منتـصف ـاي، حـتّـى احـتلّ الإيطاليّـون عـددا من جـزائر الدوديكانيز في بحر إيجه.

ولئن لم يثن هذا التّطـور الدراماتيكي من عـزم الدّولة العـثمـانيّة، فـإنّ كلّ المؤشّرات كـانت تدلّ في مطلع صـيف 1912 على أنّ الطّرفين المتنازعين اقتـنعا (بسبب الظّـروف الدّاخليّة في كلّ من المملكة الإيطاليّـة والإمبراطوريّة الـعثمـانيّة) بضـرورة التّوصّل إلى " حلّ مـرض "(87) للمـسألة والقـبول ببعـض المبادرات الدّوليّة، وانطلقت مفاوضات سـرّيّة في لوزان بسويسرا في 12 جويلية 1912.

وفي حين كانت المفاوضـات تسير وئيدة، شـهدت منطقة البـلقان في أكتوبر تدهورا خطيـرا للوضـع، وباتت الامبـراطوريّة تواجه خطر هزيمة في الحـرب الّتي تجمعها بتحالف الدّول البلقانيّة (الجبل الأسود، بلغاريا، صربيا، اليونان). وحيال تلك المستجـدّات الخطرة، أرغمت الحكومة الاتّحاديّة فـي 18 أكتوبر 1912 على التّخلّي رسـميًا عن آخـر ولاية لها بشمال إفـريقيا، وذلك بموجب مـعاهدة أوشي Ouchy (لوزان) الموقّعة مع إيطاليا(88) .

هكذا نتبيّن أنّ إيطاليا كسبت حربها ضدّ الامبراطوريّة العثمانيّة في البحـر لا في البرّ، وبفضـل التّهديدات البلقانيّة لا نتيجة لانتصاراتها المحدودة على السّواحل اللّيبيّة(89) . ولقد وضعـها توقيع المعاهدة المذكـور أمام تحدٍّ جديد وجـديّ قوامه

(87) عبد المنصف البوري، **الغزو الإيطاليّ...**، ص 190-193.

(88) سبق لـلسّلطان محـمّد الخامس أن أعلـن يوم 16 أكتوبر عـجزه عن الدّفـاع عن طرابلس الغرب وبرقـة وأصدر فرمـانا يمنح الاستـقلال الذّاتي لإيالة طرابلس الغـرب. وفي اليوم الموالي (17 اكـتوبر) صـدر مرسـوم عن ملك إيطاليـا فكتور عـمانوئيل الـثّاني أكّـد السّيـادة الكاملة والشّاملة لملكـة إيطاليا على ولاية طرابلس الغرب. بخـصوص نصّ معـاهدة أوشي وملاحقـها والاتّفاق السرّي المرافق لها، انظر : الطّاهر الزّاوي، **جهاد...**، ص 99-106.

(89) Capitaine DESEVAUX, La guerre... op. cit., p. 89-90.

إثبات قدرتها على التّحكّم في دواخل الإيالة المترامية الأطراف والمتنوّعة الأقاليم.

وعلى العموم، وكائنة ما كانت الظّروف الحافّة بتخلّي الامبراطوريّة عن ولايتها الإفريقيّة، فإنّ المهمّ بالنّسبة لموضوعنا أنّ سكّان الإيالة أعلنوا عن رفضهم القطعيّ لأيّ تسوية تتمّ على حسابهم وذلك منذ أن تناهى إلى علمهم مباشرة الطرفين عمليّة التّفاوض السريّ(90).

وتدلّ دلائل كثيرة على أنّ قادة المقاومة في طرابلس الغرب بعثوا رسائل عديدة إلى الحكومة العثمانيّة مؤكّدين عزمهم وإصرارهم على مواصلة القتال، «وعدم الاستسلام، وموضّحين أيضا أنّهم لن يعترفوا بأيّ اتّفاق...»(91).

وحيال هذه المعارضة العنيدة(92) جرت محاولات من لدن الحكومة الاتّحاديّة بغرض إرسال وفود «لتهدئة السكّان في ولاية طرابلس»، ولكن لم تكن لتلك المساعي من ذيول بسبب الرّفض في البرلمان لمثل هذا التّمشّي(93).

ولا ينبغي أن نغفل هنا عن ذكر «المواقف المشرّفة» لعدد من الضبّاط العثمانيّين في هذا الظّرف بالذّات «إذ ما إن أبلغ القائد العسكري لطرابلس

(90) نلمح هذا التّصميم في هذا التّصريح الّذي أسرّ به فرحات بي إلى جورج رومون: «إذا عنّ للحكومة التّركيّة أن تتخلّى عنّا في هذه الظّروف، فإنّنا سنعلن من جانبنا أنّه لم يعد لها أيّ حقوق في بلادنا ليبيا، ولسوف نعلن الجمهوريّة الطرابلسيّة. وسترى أنّنا سنثبت للعالم أجمع أنّنا بقوّتنا وحدها لقادرون على الذّود عن حمى أرضنا كما كانت تفعل بلادك فرنسا كلّما تعرّضت لغزو خارجي...» **نفس المصدر**، ص 144.

(91) عبد المنصف البوري، **نفس المرجع**، ص 199.

(92) يؤخذ من تقرير مطوّل للملازم أوّل فيتز WITZ رئيس مركز الذهيبات إلى المقيم العام بتونس أنّ سكّان الجبل الغربي متيقّنون أنّ المقاومة ستكون جدّ صعبة في غياب المساعدة التّركيّة. وبالرّغم من ذلك فإنّهم صرّحوا برفضهم القاطع الاستسلام للإيطاليّين، وبعزمهم على بذل قصاراهم في قتالهم، انظر:

I.S.H.M.N., A.N.O.M., Série H, sous série 26 H, Tunisie, bobine 38, rapport du lieutenant WITZ, chef du poste de Déhibat à M. le R.G. de France à Tunis, Déhibat, 6 novembre 1912.

(93) عبد المنصف البوري، **نفس المرجع**، ص 199.

بالمفاوضات، حتّى أبرق إلى استانبول بأنّه سيستمرّ في الحرب حتّى لو تمّ الصّلح...»(94).

ولنا أن نتصوّر بعد كلّ هذا، وقع الإعلان عن مثل اتّفاقيّة أوشي-لوزان على سكّان البلاد. وتكفي الإشارة هنا إلى أنّ موجة من النّقمة والسّخط على دولة الخلافة، لم يسبق لها مثيل، قد عمّت مختلف أرجاء الإيالة ساعة شيوع خبر إبرام المعاهدة(95).

والحقّ أن تفريط الأتراك في طرابلس الغرب، واعتراف القوى العظمى بأحقّيّة إيطاليا فيها(96)، قد أضعف المقاومة في هذا القطر، وفتّ في عضدها.

حقّا، لقد برز الانقسام في صفّ رجال المقاومة أثناء مؤتمر العزيزيّة المنعقد في شهر نوفمبر 1912 بغية تقويم مرحلة ما بعد صلح أوشي-لوزان، والخروج بموقف واضح من الاستقلال الذاتي المزعوم الّذي ألمح إليه الصّلح المذكور.

وعلى ضوء الحقائق الّتي أصبحت معروفة، فقد تبلور موقفان: أمّا الأوّل، فمعتدل، قابل بالتّفاوض، إذ أيّدت مجموعة من الزّعامات الحاضرة ما جاء في بنود الصّلح المذكور(97). ومن أبرز القادة الّذين دافعوا عن ضرورة الحوار مع إيطاليا نذكر الشّيخ محمد بن فرحات الزّاوي (نائب الزّاوية)، والحاج محمّد بن خليفة فكيني (قائمقام فساطو)، وطائفة هامّة من زعامات قبليّة أخرى تنتمي إلى الزنتان

(94) نفس المرجع والصّفحة.

(95) **I.S.H.M.N., A.N.O.M. (Aix-en-Provence), Série H, Sous série 26 H, Tunisie**, bobine 69, rapport, octobre 1912.

انظر كذلك بخصوص أصداء تخلّي الدّولة العثمانيّة عن طرابلس الغرب لدى سكّان الإيالة:
أ.و.ت. سلسلة A، صندوق 280، ملف 1.

(96) اعترفت الدّول الأروبيّة بالسيادة الإيطاليّة في ليبيا خلال اكتوبر 1912 وذلك وفق التّرتيب التّالي: روسيا (16 اكتوبر)، النّمسا - المجر (18 اكتوبر)، انجلترا (19 اكتوبر)، فرنسا (22 اكتوبر).

(97) كانت لازمة هذا «الشقّ المؤيّد» أنّ المقاومة اللّيبيّة لا قبل لها بالوقوف في وجه قوّة عظمى مثل إيطاليا، وأنّه من العبث الزجّ بآلاف الرّجال في المحرقة الإيطاليّة. انظر الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 244.

وككلة والأصابعة(98).

وأمّا الثّاني، فتجسّد في "جبـهة الرّافضين" بقيادة سليمان الباروني(99) زعيم الجبل الغربي المشهور(100) ومن بين الوجوه المعارضة الأخرى نذكر محمّد بن عبد الله البوسيفي، وعبد الله البـاروني (شقيق سليمان البـاروني) وفرحات

---

(98) Rosalba DAVICO, "La guérilla libyenne 1911-1932", in **Abdelkrim et la République du Rif**, Paris, Maspéro, 1976, p. 410.

(99) Capitaine DESEVAUX, **La guerre italo-turque... op. cit.**, p. 12 ; p. 91.

(100) هو سليمان بن عـبد الله الباروني. ولد بفساطو عام 1872. وهو سليل أشـهر عائلة اباضيّة بإقليم طرابلس، إذ كان أبوه الشّيخ عبد الله بن يحي بن أحمد الباروني (المتوفّى في 16 أفريل 1913، عن سنّ ناهزت 92 عاما)، علاّمة المذهب الإباضيّ بالجبل الغربي، وكانت لديه حظوة عظيمة في بلاد مزاب وجربة، وكذا في الأوساط السنيّة بإقليم طرابلس.

اختلف الباروني إلى مدارس الجبل قبل الالتحاق بجامعي الزّيتونة بتونس، والأزهر بالقاهرة حيث استكمل تكوينه العلمي. وقد أبدى سليمان البـاروني فضولا بالشّأن السّياسي، الأمر الّذي جعله يخبر مداخلها في سنّ مبكّرة. وطبيعي أن يجلب له اشتغاله بالسّياسة عديد المتاعب. وحسبنا هنا أنّه سجن ثلاث مرّات قبل عام 1906 : مرّة باستنابول، ومرّتين بطرابلس بسبب ما أسمته السّلطة التّركيّة بـ «أعمال التّحريض على الثّورة بالجبل»، والدّسائس المتمثّلة في «مشروعه الرّامي إلى تأسيس إمارة إباضيّة بجبل نفوسة».

لجأ البـاروني إلى القاهرة عام 1906، حيث أنشأ جريدة «أسد الإسلام»، وكانت له فيها اتّصالات مع المعارضين الأتراك والشّوام للحكم الحميدي. وعلى إثر الانقلاب الدّستوري في استانبول عام 1908، انتُخب سليمان الباروني نائبا عن منطقة الجبل بمجلس المبعوثان العثماني.

عاد البـاروني إلى إيالة طرابلس عام 1911 بعد شيوع أخبار حول استعدادات إيطاليا لغزو الإيالة، وأعلن نفسه «قائد الاتّحاد والتّرقي بإقليم طرابلس» واضعا خبرته، ورصيد علاقاته، وقدراته التّعبويّة على ذمّة الوالي.

وإثر وقوع الغزو، جسّد البـاروني رفقة نفر من الوجاهات المحليّة نبضة البدء في المقاومة. وقد أهّلته جملة خصاله الموما إليها آنفا، للعب دور سياسي مرموق ابتداء من عام 1912.

باي(101) ، وسوف المحمودي(102) ومحمد مهدي السنّي(103) ، فضلا عن زعامات قبليّة أخرى من النوايل، والمحاميد، والجبل الغربي(104) .

لقد كان الخلاف بين الاتّجاهين من العمق والخطورة بحيث أثّر ذلك بصورة واضحة في مجريات الأمور فيما بعد، وفقدت المقاومة الكثير من عناصر تماسكها وقوّتها، والأنكى من كلّ ذلك ما ران على العلاقات بين الزّعماء (بعد ذلك التّاريخ) من أزمة ثقة.

واستغلّ الإيطاليّون حالة التّشرذم الّتي أصبحت عليها حركة المقاومة ليشرعوا في تنفيذ ما سيعرف لاحقا بـ «سياسة الزّعماء»، إذ قاموا بإذكاء النّعرات القبليّة، والعرقيّة، ونبش لحساسيّات الحزبيّة القديمة (نزعة الصنوفيّة)، بالتّوازي مع شراء الذّمم، واجتذاب عدد من الوجاهات المدينيّة الّتي غدت مصالحها وثيقة الارتباط بالاقتصاد الأوروبيّ، و«السّلم الإيطاليّة»(105) .

---

(101) هو فرحات محمد باي، من أصل تركيّ، بدأ حياته السّياسيّة في باريس، ثمّ انتخب نائبا عن جهة الزّاوية بمجلس المبعوثان عام 1908. لفت إليه الأنظار في مارس 1921 من خلال قيادته وفد غريان إلى روما وهو الوفد الّذي رفع مطلب "إمارة طرابلسيّة".

(102) سوف المحمودي: زعيم قبيلة المحاميد، وحفيد المقاوم الشّهير غومة المحمودي الّذي أعلن الثّورة على الأتراك ما بين 1835 و1858. أقفل سوف العقد السّادس من عمره عام نزول الإيطاليين بإيالة طرابلس. وقد شكّل الرّجل الّذي كان متصرّفا على الجبل في أواخر العهد العثمانيّ الثّاني، أحد أبرز الوجوه الرّافضة للاحتلال. التحق سوف المحمودي باستانبول إثر توقيع الامبراطوريّة العثمانيّة صلح أوشي (لوزان) مع إيطاليا في 18 أكتوبر 1912.

(103) محمد المهدي السني: ولد في حدود عام 1890. أمن إدارة الزّاوية السنوسيّة بمزدة بعد وفاة عمّه عبد السّلام السنيّ كانت له مشاركة لافتة للأنظار في حوادث 1915-1916 بالغرب الطرابلسيّ وأقصى الجنوب التّونسيّ.

(104) Rosalba DAVICO, "La guerilla..." op cit., p. 410 ; Cap. DESEVAUX, **La guerre... op. cit.**, p. 12.

(105) جورج رومون، **من داخل معسكرات الجهاد**، ص 70، وص 108. انظر أيضا:
Rosalba DAVICO, op. cit., pp. 407 et 409 ; Cap. DESEVAUX, **op. cit.**, p. 8.

وهَنَتْ المقاومة، واسترخت حوافزُها إذن، ولكنّ أصداء المعارك المدوّية، الّتي خاضهـا المقاومون في المنشيـة، والهاني(106) ، والشط، وقـرقـاش، وجنزور، وسيدي سعيد، وسيدي عبد الصّـمد، والعجيلات، وسواني بن آدم، وقصر أحمد، وأبي كماش وغيرها... ما بين أكتوبر 1911 وديسمبر 1912(107) لم تخفت، وظلّ المقاتلون -الّذين تمرّسوا بالعمل الحربي في أثناء الفترة المذكورة- ينتظرون تبدّل الظّروف، لاستئناف «الجهاد ضدّ النصارى». وهذا ما سيتوافر لهم بعد 1914، على نحو ما سنرى تفصيلا في الباب القادم.

استغلّ الإيطاليّون -والحالة هذه- الوضع على الوجه الأكمل، وقاموا بالإطباق على جيوب المقاومة بكماشة كانت ذراعها الأولى في جنوب شرقيّ بنغازي، وذراعها الثّانية في الجبل الغربيّ، وذراعها الثّالثة في فزّان.

وفي هذا الإطار يمكن إدراج زحف الجنرال لوكيو Loquio على منطقة جبل نفوسة و"تهدئتها" (معركة الأصابعة / جندوبة، في 22 مارس 1913، ويفرن في 27 مارس، والزّنتان في 5 أفريل، وجادو في 6 أفريل)، من ذلك احتلال نالوت في 12 أفريل 1913(108) بعد هروب سليمان الباروني، زعيم المقاومة في الجبل الغربيّ، ولجوئه إلى مركز ذهيبة الحدودي بالتّراب التّونسيّ في 5 أفريل(109) ، ثمّ التحاقه بمدينة تونس في السّابع من نفس الشّهر(110) .

---

(106) ذكر الصّحفي الانجليزي "فرانز ماكولا" فيما كتبه عن معركة الهاني أنّها مواجهة «رمى فيها الإيطالي سلاحه وركن إلى الفرار...». انظر، الطاهر الزّاوي، **جهاد**، ص 66.

(107) بخصوص هذه المعارك وغيرها، انظر : خليفة محمد التليسيّ، **معجم معارك الجهاد في ليبيا 1911-1931**، مرجع سابق، وكذلك : الطاهر أحمد الزاوي، **جهاد**، ص 60-79.

(108) **I.S.H.M.N., A.N.O.M. (Aix-en-Provence), Série H, sous Série 26 H, Tunisie**, Bobine 69, rapport, avril 1913.

(109) **Ibid.**

(110) **Ibid**, voir aussi

أ.و.ت. سلسلة E، صندوق 550، ملف 15/30 - 171 (سليمان الباروني).

وقد اتّخذ الإيطاليّون من نالوت، الّتي وجدوا فيها كلّ التّعاون من لدن القائمقام ابراهيم بولحباس والبعض من صداقاته(111)، قاعدة لزحفهم نحو غدامس (27 أفريل)، وبذلك يكون كلّ الجبل الغربيّ قد دَان للإيطاليين.

ويُشار في هذا الصّدد إلى أنّ منطقة الجبل قد شهدت في نهاية 1912، وأوائل 1913، تعيينات في المناصب الإداريّة، ومن ثمّ مراقبة مباشرة من قبل سليمان الباروني الّذي قام بتثبيت ستّة أعيان بصفة قائمقاميين في المنطقة. ومن بين هؤلاء ابراهيم بولحباس قائمقام نالوت(112).

السّؤال الّذي يملي نفسه الآن، وقد كثّفْنا أهمّ أحداث الفترة الواقعة بين نهاية 1911 و1913، ورسمنا الإطار العام الّذي تنزّلت فيه عمليّة الاحتلال، وما ترتّب عليها من ردود أفعال، هي الآتي :

هل انخرط خليفة بن عسكر في حركة المقاومة الوطنيّة أثناء الحرب التّركية-الإيطاليّة (أكتوبر 1911 - أكتوبر 1912)، وهل شارك في الدّفاع عن منطقة الجبل الغربيّ خلال الحملة الإيطاليّة عليها في ربيع 1913 ؟

2- هل شارك خليفة بن عسكر في حركة المقاومة الأوليّة ؟

الحقّ إنّ من يريد التماس الجواب عن هذا السّؤال سيلاحظ اختلاف المصادر والمراجع بشأن هذه النّقطة اختلافا بيّنا : فمن ناحية، أكّد كلّ من محمّد سعيد القشاط، ورُوزَلْبَا دافيكو Rosalba Davico، وعبد الرّحمان البريكي، مشاركة الرّجل في الحرب المذكورة، إذ زعم الأوّل في دراسته المومإ إليها أنّ ابن عسكر كان : «طيلة هذه الفترة (1911-1912)، مجاهدا عاديا، سار تحت لواء كبار

(111) **Ibid.**

(112) الموظّفون السّتّة هم :

ساسي خزام على رأس يفرن، أحمد بولحباس على رأس فساطو، إبراهيم بولحباس على رأس نالوت، سوف المحموديّ على رأس لصيعان، الحاج ساسي بن عاشور على زوارة المنشقّين (في مواجهة "حزب إيطاليا" الزواريّ)، وأحمد الباروني على رأس غدامس، انظر :

Ibid., rapport, janvier 1913.

المجاهدين، وحارب تحت رايتهم، وكان مجاهدا شجاعا، ولم تظهر زعامته لكثرة المجاهدين، يقاسمهم البطولة، ويندفع إلى الاستشهاد كما يندفعون...»(113).

كما أشارت دافيكو إلى أنّ نجم الرّجل سطع في تلك الفترة بالذّات، وذلك في غمرة تشكّل «محلات قبائل الدّواخل» تحت إمرة عدد من القادة(114).

أمّا عبد الرحمان البريكي، فقد أكّد مساهمة خليفة بن عسكر في حركة المقاومة الأوليّة، ومن أهمّ المعارك الّتي شارك فيها معركة الهاني عام 1911(115). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نرى أنّ المدعو عمر بن عبد الملك وهو أحد أعيان المرازيق بجهة نفزاوة التّونسيّة (كان ممثّلا لتلك الجهة بالجمعيّة الشوريّة وقتذاك) الّذين تعرّفوا إلى العساكرة خلال إقامتهم بجهة قبلي خلال الفترة 1914-1915(116) ينفي -بشدّة- أيّ مشاركة لخليفة بن عسكر في الحرب الإيطاليّة التّركيّة(117).

ويهمّنا أن نلاحظ هنا أنّ شهادة هذا الرّجل تعدّ من البراهين القويّة لما عرف عن شخص صاحبها من معرفة عميقة بالشّأن الطرابلسيّ، وما اشتهر به من رزانة ومصداقيّة.

أمّا ما جاء في المصادر الفرنسيّة، فإنّه لم يتعدّ بعض الإشارات الغائمة الّتي لا تشبع فضول الباحث المتقصّي من ذلك إلحاح تقارير العسكريّين والدّيبلوماسيّين على كره خليفة بن عسكر الشّديد للإيطاليين، مُذْ وَطئُوا أرض طرابلس الغرب،

---

(113) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 17.

(114) Rosalba DAVICO, **op. cit.**, pp. 407-408.

(115) عبد الرحمان البريكي، «من معارك الجهاد : بئر الجويبية»، **مجلّة الشّهيد**، العدد 11، 1990، ص 367.

(116) تقرير محمد الزواري، خليفة خامة بني زيد بالنّيابة إلى الكاتب العام للحكومة التّونسيّة بتاريخ 11-1-1915،

انظر : **أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف 15/30 - 756** (خليفة بن عسكر)، وثيقة 36، ص 1.

(117) نفس المصدر، ص 3.

وتأكيدها أنّ الرّجل كان خلال فترة الحرب التّركيّة - الإيطاليّة وبعدها (إلى حدود عام 1913) في عداد الموالين للزّعيم الوطنيّ سليمان الباروني(118) رمز الرّفض والمقاومة آنئذ(119).

وبالرّغم من صعوبة البتّ في هذه المسألة، فإنّنا نجازف بالقول أنّه من المستبعد أن يكون خليفة بن عسكر شارك في الحرب الإيطاليّة - التّركيّة. وممّا يزكّي ما ذهبنا إليه تلك الإشارات الواردة في بعض المصادر الشّفويّة(120).

ولئن لم ترق هذه الإشارات إلى مرتبة الدّلائل النّاهضة، والقرائن القاطعة، فإنّها تبدو متّسقة إلى حدّ كبير مع شخصيّة الرّجل ومزاجه و«فلسفته في الحياة» الّتي سار عليها حتّى الآن (أي إلى حدود عام 1913). ولكن عن أيّ شيء أبانت هذه الإضاءات؟ لقد أفادتنا أنّ خليفة بن عسكر انطوى على نفسه بعد الاحتلال الإيطاليّ بوادي الثلث، بعيدا عن عيون أصحاب السّلطة الجدد «مفضّلا الصّيد على جوارهم...»(121).

أمّا شقيقه الأكبر عمرو بن عسكر (وكان من أكبر أثرياء نالوت)، فقد حاز ثقة الإيطاليّين الّذين عيّنوه عميدا لبلديّة نالوت(122). وجدير بالتسجيل هنا أن خليفة لم يخف امتعاضه من قبول عمرو بهذا المنصب(123)، إلاّ أنّ القطيعة لم

(118) Pierre GRANCHAMP : **Chronique de Libye**... op. cit., p. 151.

(119) **I.S.H.M.N., M.A.E. : Quai d'Orsay, Série : nouvelle série Tunisie**, bobine p. 38, lettre de M. BOPPE, chargé d'affaire de la République Française à Canstantinophe, à S. excellence M. DOUMERGUE, président du conseil, misistre des A.E. Pera, 28 janvier 1914.

(120) لا مندوحة عن التّنبيه هنا إلى التّضارب الوارد في دراسة القشاط : فمن ناحية نراه يؤكّد مشاركة خليفة بن عسكر في القتال منذ بداية الغزو، ومن ناحية أخرى نجده ينفي ذلك، انظر على سبيل المثال ما جاء بالصّفحة : 17.

(121) **نفس المرجع والصّفحة**.

(122) **نفس المرجع والصّفحة**.

(123) **نفس المرجع**، ص 21.

تحصل بين الشّقيقين بسبب هذا التّعيين.

يقودنا ما جاء في هذه الشّهادات إلى تدوين بعض الاستنتاجات :

– **أوّلا** : لم تكن عائلة سعيد بن عسكر من بين الأسر العديدة الّتي هجرت جبل نفوسة، ويمّمت شطر تونس. وقد نيّف المهاجرون من الجبل الغربي وفق المصادر الفرنسيّة عن 35000 نسمة في أفريل 1913(124).

– **ثانيا** : لم يؤد تمركز الإيطاليّين بجهة نالوت إلى تبديل أسلوب عيش خليفة بن عسكر إذ ظلّ يمارس الصّيد، ويستمرئ حياة الدّعة، ومتعة الانطلاق والحركة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنّ بقاء الاتّصال بينه وبين شقيقه عمرو الّذي غدا موضع ثقة الإيطاليّين من شأنه أن يدحض الرّأي القائل بأنّ الرّجل كان من غلاة المناهضين للاحتلال وللمتعاونين معه من السّكّان. إنّنا نعتبر هذا الرّأي مجرّد تخمين لا يستند إلى وقائع كافية، وحجج مقنعة.

– **ثالثا** : لا ينبغي النّظر إلى تعاون عمرو بن عسكر مع الإيطاليّين على أنّه حالة شاذّة أو مبادرة معزولة، إذ أكّدت المصادر الفرنسيّة أنّ قسما مهمّا من «بربر الجبل»، قد ارتاح للإيطاليّين(125). واعتبرهم البعض بمثابة «المحرّرين للنّفوسيين من هيمنة البدو العرب وسطوتهم...». ولقد عكس هذا الموقف –دائما وفق نفس المصادر– عمق الهوة الّتي كانت تفصل «البربر الإباضيّين»، عن «العرب المالكيّين» في منطقة الجبل الغربيّ خلال مطلع هذا القرن(126).

إلاّ أنّنا وقبل أن نطوي الكلام على هذه المسألة، نرى من الضّروريّ التّأكيد على أنّه بالرّغم من تسليمنا بصحّة البعض ممّا جاء في «تحليلات» الفرنسيّين، فإنّ

---

(124) **I.S.H.M.N., A.N.O.M. (Aix-en-Provence), Série H, sous série 26 H, Tunisie**, bobine 69, rapport du Résident Général à M.S. PICHON, ministre des Affaires Etrangères, Tunis, 9 mai 1913.

(125) **Ibid.**, rapports, avril, mai 1913.

(126) DEAMBROGGIO, "Notes...", **op. cit.**, pp. 266-267 ; J. DESPOIS, **Le Djebel Nefousa**... op. cit., pp. 143-155.

موضـوع التّعاون مع سلطة الاحتـلال ورموزها شاسع وبالغ التّـعقيد. فـالمسألة -فيما نعـتقد- أعمق من أن تـحصر في أسبـاب عرقيّة مذهبيّـة، وتختزل على نحو فجّ، وبكثيـر من الغلوّ في بعض «النّتائج» بغيـة الخلوص إلى أهداف لم تعد خافـية على أحد.

ويجمـل بنا أن نشدّد هنا على أنّ الأعـيان والوجـاهات المحلّيّة المعـروفة أو «الفئـة المحظوظة» (بالمعنى الواسع للعـبارة) هي الّتي أبدت ارتيـاحها لـنبأ نزول الجيش الإيطاليّ بالإيالة(127): ألم يعبّـر أغلب أعيان مدينة طرابلس (من النّـخبة القديمة) ودَفْتَـرْ دَارهَا عن معـرضتهم الشّـديدة تسليح «الغوغاء»، عشيّـة اقتراب قطع الأسـطول من ميناء طرابلس؟(128).

ألم يسـتجب 119 وجـيهـا محلّيـا للدّعوة الّتي وجّـههـا لهم الجنرال بُريَا ريتشي Borea RICCI لحضور حـفل الاستقبـال الّذي انتظم بسراي طرابلس بمناسـبـة نجـاح الإنـزال الإيطالي. وكـان من بين الـحضـور عـدد مـن القناصل الأجانب؟(129).

ألم يرافق الوجيه المعروف عـمر المنتصر(130) القوّة الإيطاليّـة الّتي احتلّت سرت، وأطردت نوري بك (شقيق أنور باشـا) منها في مطلع عام 1913، ويقبل

---

(127) زعم رومون REMOND اعتـمادا على مقـابلة أجراها مع فرحـات باي أنّ طائفة من كـبار وجـاهات طرابلس أظهـرت شواهـد الإخلاص لإيطاليـا، نجـد من بينهم: حـسونة باشـا قرمانلي، أمين القرقني، محمد البوصيري، عبد الرحمان البوصيري، أحمد بن المنتصر باي، عمر بن المنتصر، شريف قنابة، مصباح الشّريف...، انظر:

G. REMON, **Aux camps turco-arabes**, Paris, Hachette, 1913, p. 29, cité par Rosalba DAVICO, op. cit., p. 409.

(128) **Ibid**, p. 406.

(129) **Ibid**.

(130) تعتـبر عائلـة المنتصر من أشـهر العائلات المـصراتيّة على العـهد التّركـي. ولكن المركز الاجتماعي لهذه الأسـرة تضرّر خلال العهد العثماني الثّاني لا سيـما بعد وصول الاتّحاديّين إلى سدّة الحكـم في إستانـبول عام 1908. انظر: لـيزا اندرسـون، «جـمـهـوريّة طرابلس»، **مجلّة الشّهيد**، العدد 11، 1990، ص 188.

بمنصب قائمقام تلك المنطقة الّذي عرض عليه(131).

ألم يخطر كبار التجّار بغدامس يوم 25 أفريل 1913 الجنرال الإيطالي قائد الحملة أنّه «سيلقى التّرحيب وحسن الوفادة حال وصوله إلى مدينتهم...»؟(132).

كان بالإمكان أن نسترسل في سرد الأمثلة ولكن هدفنا هنا لا يتمثّل في حشد أكثر ما يمكن من البراهين لإبراز الهوس الّذي ينتاب «ذوي الامتيازات» كلّما اضطرب حبل الأمن (ومن ثمّ تخوين هذا الطّرف وإظهار عمالته). غاية ما في الأمر أنّنا أردنا وضع بعض النقط على بعض الحروف، ونبهنا -ما وسعنا التّنبيه- إلى ضرورة مزيد الحفر فيما يخصّ خلفيّات التّعاون مع المحتلّ(133) وبذلك نضع حدّا لهذا الاستطراد القصير.

وعلى ضوء هذا الّذي ذكرنا إلى حدّ الآن يعنّ السّؤال : إذن متى أعلن خليفة بن عسكر تمرّده على الإيطاليّين، وعلى كلّ من سار في ركابهم ؟

II – بدء التّمرّد :

1- بصدد البواعث :

انطلق تمرّد الرّجل على إثر حادثة بسيطة جدّت في بلدة نالوت خلال خريف 1913. وصورة هذه الحادثة -باقتضاب شديد- أنّ أحد الضبّاط المشرفين على القوّات المتواجدة بمنطقة نالوت، طلب من " قائمقام البلدة خليفة بغني(134) وعميد بلديّتها عمرو بن عسكر، وبعض الأعيان، الزّواج «بفتاة نالوتيّة...»(135).

(131) الطّاهر أحمد الزاوي، **جهاد**، ص 114-115.

(132) **I.S.H.M.N., A.N.O.M. (Aix-en-Provence), Série H, Sous série 26 H, Tunisie**, bobine 69, rapport avril 1913.

(133) علي عبد اللّطيف حميدة، **نفس المرجع**، ص 173 وما يليها.

(134) ورد في بعض المصادر الفرنسيّة أن قائمقام نالوت في تلك الفترة هو إبراهيم بولحباس لا خليفة بغني كما تؤكّد ذلك الرّواية الشّفويّة.

(135) سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 19.

وقد ثارت ثائرة خليفة بن عسكر إثر سماعه هذا الخبر، واعتبر امتثال الأعيان لهذا الطّلب قمّة العار، وأبشع أشكال الإهانة. ولـم يقف عند هذا الحدّ بل عمد إلى توبيخ القائمقام، وعميد البلدة (أي شقيقه عمرو). ولم يتورّع عن تهديدهما بإثارة الأهالي ضدّ كلّ من قبل الإهانة. ويبدو أنّه أقسم أن يغسل ذلك العار بيده(136).

وفي خريف 1914 بـرّ الرّجل بقسمـه، بمعنى أنّه وضع تهـديده موضع التّنفيذ مكوّنا عصابة مسلّحة من تسعة أنفار(137) على إثر اجتماع تمّ في قصبة أيْجُـوجين الكائنة نحو 4 كلم غربي نالوت(138). وقـد أخذ هؤلاء الرّجـال على عاتقهم الإخلال بالأمن، الأمر الّذي أكسب زعيمهم أي خليفة بن عسكر «شعبيّة في أوساط قطّاع الطّرق بالمنطقة... (139).

والرّاجح لدينا أنّ شعـورا جارفا قد سـيطر على "بطلنا" وقتئذ ومؤدّاه أنّ القدر قـد أعدّه لدور خـاصّ يتمثّل في تطهـير بلدته من «رجس المسـتعـمر ودنس المتعاونين والخونة (كذا)».

وبوسع الباحث المتقصّي أن ينتبـه إلى أنّه مرّت حوالي سنة كاملة بين تلويح ابن عسكر بتهـديده، وبين تزعّمه لعصابة مهـيبة قامت بتدبير الهجـومات المسلّحة وقطع الطّرق بجبل نالوت(140). علام يدلّ كلّ هذا التّأخير في تنفيذ التّهديد؟

---

(136) تكرّرت خلال تلك الفتـرة طلبات الزّواج من فتيات أهليّات من قـبل الضبّاط الإيطاليّين. ويذكر سليـمان الباروني في رسـالة بعث بها من اسـتانبول إلى الكونت الإيطالي سـفورزا (4 محرم 1332هـ) نوفمبر 1913) ثلاث حالات حـصلت في نالوت، وفساطو، والرحيبات، راجع سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 19.

(137) رجال العصابة هم: عيسى فوشيت، خليـفة قرقاب، سعيد بن صالح بن عسكر، علي بن الحاج، يحي الناكوع، سـالم القلال، سعيد بن أحمـد، ومحمد يوسف بوصوة، أحـمد مبارك، والصويعي المحمودي.

(138) سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 20.

(139) **أ.ت.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف 15/30 - 756** وثيقة 36، تقرير محمّد الزواري، مصدر سابق، ص 3.

(140) نفس المصـدر، ص 3. وجاء في هذه الوثيـقة أن جـمـيع أتبـاع الرّجل «مطلوبون من العدالة...».

الحقّ أنّ المصادر لم تسعفنا بمعلومات أو إشارات تسمح بإلقاء الضّوء على هذا الجانب المهمّ من المسألة. ولن يمنعنا هذا من القول أنّ بطلنا، الّذي تملّكته سورة الفروسيّة، ونهض لغسل العار وتقويم المعوجّ، قد تفطّن -بلا ريب- بعد أن ثاب إليه هدوؤه، إلى أنّ وسائله لم تكن في مستوى أهدافه. وكان لزاما عليه -وهو أصبح يحمل قضيّة مفردة- أن يحسّس (أو يقنع) بقيّة رفاقه بعدالة قضيّته بخاصّة و "بالهمّ الوطنيّ" بعامّة(141)، وهذا ما كان يستلزم وقتا غير قليل.

ويمكن القول أنّ الرّجل وفّق في مسعاه المذكور بدليل نجاحه في استنهاض رجال لا يقلّون عنه دراية بفنون القتال(142).

وصفوة ما تقدّم، أنّ الحادثة المذكورة، والّتي تعدّ حدثا مفصليّا في حياة الرّجل، أبرزت الوجه الآخر من شخصيّة خليفة بن عسكر، وفجّرت جوانب من قدراته، وشكّلت بالتّالي بداية دور عسكريّ هام، إذ أصبح في غضون وقت قصير سيّد المنطقة المتراوحة بين كاباو، ونالوت، والحدّ الجنوبيّ الشّرقيّ لتونس، الّتي دانت له بالكامل(143).

2- بصدد معاني التّمرّد:

إنّ الظّروف الّتي حفّت بإعلان خليفة بن عسكر العصيان تقتضي منّا تدوين جملة من الملاحظات:

---

(141) يقول جورج رمون في مذكّراته بخصوص "الوطنيّة اللّيبيّة":
«لا شكّ في أنّ هناك دوافع عاطفيّة أخرى تضاف إلى العاطفة الدّينيّة وأهمّها عاطفة المواطنة والانتماء إلى وطن ليبيّ هو امتداد للوطن العربي. هذه عاطفة خاصّة يتميّز بها العرب تميّزا واضحا، زد على ذلك ما اقترفه الإيطاليّون من تقتيل من أهل طرابلس يوم بدأت عمليّات غزوهم...» **نفس المصدر**، ص 138.

(142) أ.ت.ت.، سلسلة E، صندوق **550**، ملف **15/30 - 756**، وثيقة 36، ص 3.

(143) Pierre GRANCHAMP:"Khalifat ben Asker...",**op. cit**., p. 151.

أولا : لقد شكّل طلب الضابط الإيطاليّ المسؤول عن بلدة نالوت، وإذعان الأعيان وعلى رأسهم القائمقام وعميد البلديّة، صدمة عنيفة لخليفة بن عسكر. ولعلّ مردّ ذلك، أو مردّ شيء منه إلى نفسيّة الرّجل، وشخصيّته المشبعة بمثل الفروسيّة وأخلاقيّاتها كما مرّ بنا. فالمستعمر -بعد اغتصاب الأرض- تجرّأ على انتهاك العرض وهذا ما كان خليفة بن عسكر يأباه.

إنّ هبّة الرّجل قد أملتها عليه شهامته وفتوّته، وكانت بذلك تجسيدا لموقف فروسيّ نبيل، موقف من ضاق ذرعا بانتهاكات المحتلّ النصرانيّ لتقاليد المجتمع القبليّ وقيمه الإسلاميّة، وإمعانه في إذلال أهاليه والاستخفاف بأعرافهم وتقاليدهم.

لقد أكّدت الحادثة المذكورة، أنّ "صاحبنا" ظلّ متّصل الحنين إلى فترة ما قبل الاحتلال، حين كانت القبائل تصون شرفها بنفسها.

وعلى ضوء هذا الّذي ذكرنا يمكن الخلوص إلى نتيجة قوامها أنّ غيرة ابن عسكر على الشّرف والعرض لم تكن في حقيقة الأمر سوى وجه من أوجه غيرته على كلّ حوزة وحرم.

هكذا هيّأت هذه الحادثة البسيطة الظّروف "لبطلنا" كي يتحوّل إلى "صعلوك شريف" (144) نَدَب نفسه لإعادة الحقّ إلى نصابه، وتأمين الحماية للضّعفاء ومساعدتهم. كما انبرى للاقتصاص من الّذين تطاولوا على نواميس المجتمع وأعرافه واجترؤوا عليها، ومن ثمّ فإنّه لم يكن يبالي أن يسمّيه رجال النّظام الجديد منشقّا أو مجرما اعتبارا إلى أنّ البيئة الّتي يعيش فيها ترفض هذه التّسميات. وهي في نظره أعدل من قانون المحتل حكما، وأصدق رأيا. وبالتّدريج غدا الرّجل محلّ توقير، بعد أن خلع عليه النّاس أردية الشّهامة والشّجاعة وعلوّ النّفس.

تحوّل خطير ذلك الّذي عاشه ابن عسكر في منتهى عام 1913 إذ أنّ الحصان والبندقيّة، بعد أن كانا لألعاب الفروسيّة أصبحا للوطن (نالوت، الجبل الغربي، طرابلس الغرب، دار الإسلام الخ...).

(144) فتحي ليسير، **من "الصّعلكة الشّريفة" إلى البطولة الوطنيّة**، تونس، ميدياكوم، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس، 1999، ص 23-44.

ثانيا : يجمل بنا في هذه المرحلة من البحث أن نبرّر أمرين : أمّا الأوّل فوثيق الصّلة بدوافع التّمرّد لدى سكّان إيالة طرابلس الغرب إبّان الاحتلال الإيطاليّ : لقد ركّزت جلّ الكتابات على العوامل الدّينيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة وهذا منطقيّ فيما نعتقد.

بيد أنّ إهمال النّواحي الثّقافيّة في مفهومها الواسع أو العام وبعض الجوانب الاجتماعيّة للعمليّة من شأنه أن يجعل نتائج هذه التّحاليل منقوصة بعض الشّيء. إنّ ما جرّنا لإبداء هذا التّوضيح ما لاحظناه من قلّة توقّف الباحثين عند ما بَدَر من الإيطاليّين من اعتداء على التّقاليد والأعراف القبليّة، واستخفاف بالأخلاق والآداب العامّة للمجتمع المحتلّ، ويأتي في مقدّمة ذلك عدم احترامهم للمرأة وكلّ ما يمتّ للشّرف بصلة، وهو ما كان يتنافى والوعود الّتي قطعها الملك إبّان الاحتلال(145).

ولقد نبّه القناصل الأجانب ومراسلو الصّحف من الأوروبيّين وضبّاط الشّؤون الأهليّة إلى ذلك التّطاول الفاضح(146) ، وأشاروا إلى ما نجم عن استباحة الحرمات والاعتداء المباشر على الكرامة، من ردود أفعال أهليّة، والّتي ليس أقلّها هجرة عديد العائلات نحو تونس، ومصر، والجزائر، وتشاد.

وإذا نحن عدنا إلى ما جرى في الجبل الغربي إبّان الاحتلال الإيطاليّ في ربيع 1913 لأمكننا أن نلاحظ أنّ الحادثة الّتي كانت وراء "انشقاق" ابن عسكر لم تكن حركة معزولة إذ تذكر المصادر أنّ حالات اغتصاب النّساء المتزوّجات والفتيات تواترت على نحو لافت للنّظر (فاقت مئات الحالات) وهي لم تصدر عن جنود عاديين فحسب، بل بَدَرت كذلك من ضبّاط معروفين ومن بين هؤلاء نذكر -على سبيل المثال- الرّائد مَادْيا MADIA والنّقيب أَليسي ALISI والرّقيب كُوميرْساتُو COMIRSATO (147) .

(145) راجع بهذا الخصوص وعود ملك إيطاليا لأهالي طرابلس كما جاءت بالمنشور الّذي وزّعه كارلو كانيفا القائد الأعلى للجيش الإيطاليّ بطرابلس الغرب، انظر : الطاهر الزاوي، **جهاد**...، ص 50-52.

(146) Capitaine DESEVAUX : **La guerre..., op. cit.**, pp. 66-67.

(147) عبد الرّحمان عزام، «كفاح الشّعب اللّيبيّ في سبيل الحريّة»، **مجلّة الوثائق والمخطوطات**، ترجمة عماد الدين غانم، منشورات مركز الجهاد، طرابلس، السّنة الأولى، العدد 1، 1986، ص 50.

وفي نفس هذه الفترة «سبطت القوّة العسكريّة الإيطاليّة قائمة في 40 فتاة من كاباو، و30 فتاة من نالوت بغرض ترحيلهنّ مع فرق الجيش ليؤثّثن نوعا من "المواخير المتنقّلة" والّتي كانت ترافق الحاميات.

وأمّا الأمر الثّاني فله صلة بالجانب النّفسي للأفراد الّذي ينبغي أن ينال حظّه من الدّرس والاهتمام. ولسنا نرى من الضّروري الإسهاب في الحديث هنا عن أشياء باتت معروفة كالتّأكيد على أنّ التمرّد هو أوّلا (وقبل كلّ شيء) فرديّ وهدّام. أو أنّه من العسير استئصال "فيروس" التّمرّد إذا استوطن نفس صاحبه الخ...

إنّ أقصى ما نودّ القيام به هنا، هو التّنبيه إلى ما توصّلت إليه بعض الدّراسات العلميّة الحديثة (تأسيسا على نماذج محددة)، من أنّ الزّعماء الثّوريّين «يميلون إلى أن يكونوا من الأطفال المولودين بعد عدد من الإخوة في أسر كبيرة العدد. وأنّ صغار الذّكور الّذين يتعرّضون لعلاقات لا تتّسم بالتّآلف والانسجام مع آبائهم وأخوتهم تنمو فيهم شخصيّة متمرّدة عليها أن تنتظر مجيء مرحلة الرّشد المبكّرة لتعبّر بعنف عن سخطها ضدّ من يحكمون المجتمع...»(148)، وهو ما ينطبق على بطلنا إلى حدّ بعيد كما سبق ورأينا.

ثالثا: إنّ الصّدمة / الجرح التي قمنا أعلاه باستبصار أبعادها ما كانت لتكون منطلقا فعليّا لتفجير طاقات الرّجل وإبراز قدراته، ولا حافزا كافيا للارتقاء إلى الزّعامة والبطولة لو لم يكن الوضع الأمني قد شهد تدهورا كبيرا إثر هزيمة الأتراك، ولولا الغياب شبه الكلي لرموز الدّولة بالجبل الغربي بعد عام 1912 لا سيما خلال الفترة الانتقاليّة من الحكم العثماني إلى الإدارة الإيطاليّة، وما ترتّب على ذلك من فوضى وانفلات زمام، ولولا سهولة الحصول على الأسلحة والذّخيرة (الجبخانة) بما في ذلك البندقية الأوروبيّة العصريّة، ذات الطّلقات السّريعة، والدقّة

---

(148) ديث كيث سايمنتن D.K. SIMONTON، **العبقريّة والإبداع والقيادة**، (ترجمة شاكر عبد الحميد)، الكويت، عالم المعرفة، أ.و.ت. 1993، ص 256. ويجدر التّذكير هنا أنّ خليفة بن عسكر نشأ ثامنَ ثمانية من الأبناء: ثلاثة ذكور وخمس إناث.

المتناهية(149).

وبكلمة أخرى: إنّ تركيزنا على فاعليّة العامل النّفسي لا يعني أنّنا نسقط التّفسيرات السيوسولوجيّة والتّاريخيّة من مقاربتنا لظاهرة بزوغ هذا الرّهط من العناصر الرّافضة، وهل نحن بحاجة هنا إلى التّذكير بما سبق أن أومأنا إليه من أزمة بنيويّة ألّمت بالمجتمع الجبليّ الغربيّ منذ نهاية القرن التّاسع عشر، وما أفرزته المنبّهات الخارجيّة، من تبدّلات. أضف إلى ذلك ما ساد المنطقة من "فراغ سياسيّ"، وانكماش في سلطة "المخزن"، وبلبلة شاملة(150)، وما اعترى الهياكل القديمة من مظاهر تأزّم، وعليه فقد أتاحت تلك اللّحظة الانعطافيّة لعناصر التّمرّد والثّورة، من جميع الفئات، أن تطلّ برؤوسها على نحو لافت للأنظار.

معنى هذا أنّ الباعث على الثّورة لدى ابن عسكر لا يمكن تعميمه على بقيّة الثّائرين الّذين برزوا بكثرة خلال الحقبة 1912-1914(151)، وانبروا للاقتصاص من الهيئات السّياسيّة والاجتماعيّة القائمة، وذلك وفق أسلوبهم الخاص.

إن السّؤال الّذي يفرض نفسه، قبل أن نطوي الكلام عن معاني ثورة ابن عسكر، هو: كيف أوتي لهذا الجباليّ أن يصبح قائدا عسكريّا مَرْهُوبَ الجانب في جهة نالوت، بل الجبل الغربي قاطبة؟

(149) يجدر التّذكير هنا باستيلاء "الغوغاء" في طرابلس الغرب على محتويات الباخرة التّركيّة أدرنه (15000 بندقيّة من نوع موزر Mauser، وحوالي مليوني خرطوشة). كما حصل "العامّة" على الأسلحة والذّخيرة عن طريق عمليّات التّهريب الّتي استشرت حينذاك مستفيدة من حالة الفلتان الأمنيّ.

(150) Robalsa DAVICO : **op. cit.**, p. 407.

(151) نورد هنا هذه الشّهادة المهمّة بخصوص انضمام "الهامشيّين" لحركة المقاومة، والّتي جاءت في مذكّرات جورج رمون، وكان برفقة نوري باي: «... وتعرف "نوري بي" على أحدهم [المتطوّعة] فوصفه لي بإصبعه قائلا: انظر إنّ هذا الرّجل كان قاطع طريق، ولكنّه ما إن علم بنزول الطّليان على أرض بلاده حتّى أسرع إلى معسكرنا، وطلب مقابلة "خليل بي" حيث قال له: أنت أبو المجاهدين، فهل تعفو عنّي، وتصفح عمّا اقترفته في حياتي الماضية وتقبلني كأحد جنودك؟ ورد عليه القائد قائلا: إنّني أصفح عنك، ومنذ ذلك اليوم، وهو يقاتل دائما في صفوف المجاهدين الأولى...». انظر، جورج رومون، نفس المصدر، ص 182.

كنّا توقّفنا عند البـعض من مظاهر شذوذ الرّجل، ولكن ما ذكر يـظلّ بحاجة إلى مزيد الإغناء ومن ثمّ التّدقيق.

من المقطوع به أنّ بربر نفوسـة (على الأقل خـلال القرون القليلة الّتي سبقت الاحتلال)، لم يولدوا على السّروج، والبنادق في أيديهم، مثـلما كان الحال بالنّسبة للبعض من أبناء "فرسان العرب".

وإذا نحن تركنا جـانبا كلّ هذه الأدبيّات المـجوجة، فـإنّه لا بدّ أن نلاحظ أنّ هناك استثناءات مهمّة في هذا الخصوص، ممّا يـقيم الدّليل على أنّ حقيقة الأشياء لم تكن بمثل الفجاجة الّتي صوّرتها (وتعهّدتها) المرويّات الشّعبيّة في رتابة مملّة.

ويعد خلـيفة بن عـسكر (وقد يبـدو في هذا شـيء من التّكرار)، من بين هذه الاستثناءات المهمّة. والسّؤال الفرعي الأوّل هنا، هو: كيف نظرت «جميع الأطراف» إلى بزوغ هذه العبقريّة الحربيّة؟ بتعبير آخر: كيف بَدَا خليفة بن عسكر في ميزان خُلّصائه وخصومه؟

عندما سـأل عالم الأناسة (الانتروبولوجـيا) الفرنسـيّ البعض من الـشّيوخ سليلي الفرق الودرنيّـة المهيبة عن سـرّ تزعّم جبالي لفرسان الودارنـة «المسمّين» (كذا) عام 1915، أجابوه: «قد كان خليفة بـن عسكر جباليًا عفريتا...»(152). ثمّ أردفوا قولهم: «لا مجال للمقارنة بين جباليّة نفوسة الشّجعان، وجبالية ورغمة الجبناء...»(153).

ويبدو هذا الرّأي بعيـدا عن الحقيقـة والصّواب إذا ما قورن بشـهـادة الوجيه المرزوقي عمر بن عـبد الملك المار ذكرها، والّتي وضـع فيـها جباليّة تونس وجـباليّة طرابلس في نفس الخانة مشبّها إيّاهم بالنّساء(154).

---

(152) Gianni ALBERGONI : "Mémoire gentilice et histoire nationale : figures et enjeux de récit d'une insurrection bédouine anticoloniale.", in **Cahiers d'Etudes Africaines**, 119, XXX-3, 1990, pp. 315-318.

والمقصود بعبارة "جبالي عفريت" أنّ الرّجل كان شيطانا مريدا وبطلا صنديدا.

(153) **Ibid** : p. 318.

(154) أ.ت.ت.، سلسلة E، صندوق **550**، ملف **15/30**، **756**، وثيقة 36، ص 3.

أمّا إذا انتقلنا إلى الجانب الطرابلسيّ، فإنّنا نلاحظ نفس التّضارب في الرّؤية وإن كان الرّأي السّائد يميل إلى اعتبار الجباليّة أناسا عديمي التّجربة الحربيّة، والرّوح الفروسيّة(155). ولا بأس هنا من ذكر بعض النّماذج الّتي من شأنها أن تعضد هذه الفكرة: فخلال صيف 1917، صدرت مواقف عن نفر من مشايخ قبيلة الصيعان استكثروا على الرّجل السّمعة العسكريّة الّتي أصبح يحظى بها، وكذا تحوّله إلى سلطة «ترفع وتضع». وقد تحدّث هؤلاء الأعيان بشأن «غريمهم» مع البعض من ضبّاط الشّؤون الأهليّة بتطاوين بكثير من الازدراء، والاحتقار باعتباره جباليّا، كما استفظعوا تعمّده إهانة عدد من رجال قبيلتهم(156).

ومن الطّريف أن يتحدّث ضابط فرنسيّ عن ابن عسكر بنفس النّبرة التي كانت تسم خطاب زعماء القبائل العربيّة (أي بكثير من الازدراء والسّخريّة باعتبار أصوله غير النّبيلة)، إذ كتب العقيد "فورش" FOURCHES في جوان 1919، يقول: «لا يجب أن نولي هذا **الجبالي** أكثر ما يستحقّ من الأهميّة»(157).

وما قيل عن ابن عسكر، يصدق أيضا على سليمان الباروني. وعلى سبيل المثال، فقد رفض الشّيخ محمد بن عبد الله البُوسيفيّ (إحدى أكبر الزّعامات القبليّة البدويّة) الخضوع لأوامر سليمان الباروني خلال معارك الرّابطة والأصابعة عام 1912 بتعلّة «أنّه شيخ علم ولا يصلح لقيادة المجاهدين...»(158).

---

(155) نفس المصدر.

(156) **I.S.H.M.N., S.H.A.T. (Vincennes, Série H**, dossier 1, bobine S. 292. télégramme du commandant militaire au résident général (Medenine, 20 août 1917) f. 341.

(157) **I.S.H.M.N., M.A.E., Quai d'Orsay (Paris), Série Tunisie 1917-1940**, bobine 11, A. 31, folio 25.

(158) محمد امحمّد الطوير، «مقاومة العرب اللّيبيّة للاستعمار الإيطاليّ: 1911-1932»، في أشغال مؤتمر التّاريخ: الاستعمار في العالم العربي في القرنين التّاسع عشر والعشرين، **المجلّة التّونسيّة للعلوم الاجتماعيّة**، العدد 72-75، تونس 1983، ص 44.

والحقّ أنّ الباحث اللّيبيّ الّذي أورد هذه الشّهادة تحاشى ذكر الأسباب الحقيقيّة الّتي جعلت الوجيه لبدويّ يعارض العمل تحت إمرة الباروني، والّتي يمكن إرجاعها إلى الأصول غير الشّريفة لهذا الأخير (إقرأ: الخضوع لقيادة جبالي كناية عن إهانة أو ضرب من ضروب العار).

وتتبدّل هذه الصّورة -إن قليلا أو كثيرا- بعد الاطّلاع على إشارات عدد من الرحّالة والضبّاط الفرنسيّين لعارفين بشؤون الجبل الغربي على نحو جيّد (في أواخر القرن الماضي، وأوائل لقرن العشرين): كتب ديمبروجيو DEAM-BROGGIO (المعروف لدى أهالي جهة بنقردان باسم قدور بن العربي)، عام 1902، يقول: «بالرّغم من نواري الجبالي خلف العربي البدوي [فإنّ هذا الأخير] سينهض يوما، وسيستعيد شجاعته، وسيدافع عن نفسه بكلّ حزم إذا ما تعرّض بيته للخطر...»(159)

ومن ناحيته، أكّد دي ماتويسيال DE MATUISIEULS، الّذي تمكّن بفضل إقاماته المتكرّرة بإيالة طرابلس عامّة، وإقليم الجبل الغربي خاصّة ما بين 1901 و1907، من التّعرّف إلى السّمات الرّئيسيّة للذّهنيّة الجباليّة، أنّ الجباليّة سيُقاومُون المحتلّ بكلّ حزم وشدّة في صورة وقوع هجوم إيطاليّ على منطقة نفوسة(160). ويستشفّ القارئ لكلامه أنّ لدى النفوسيّين المستقرّين إحساسا حربيّا غريزيّا.

هذا بخصوص السّؤال الفرعي الأوّل. أمّا السّؤال الفرعي الثّاني، فيمكن صياغته على النّحو التّالي: كيف أمكن لابن عسكر، ورفاقه الحصول على الأسلحة النّاريّة الحديثة، والتّدرّب على استعمالها، علما وأنّ الأتراك منعوا النفوسيّين من امتلاك مثل تلك الأسلحة بعد إخماد ثورة غومة المحمودي عام 1858، وتشدّدوا في ذلك؟(161). يأتينا الرّدّ على هذا السّؤال بقلم الضّابط «قدور بن العربي»

(159) DEAMBROGGIO (dit Kaddour Ben Larbi), **op. cit.**, p. 269.

(160) H.M. de MATUISIEULS, **op. cit.**, p. 179.

(161) **Ibid.**, p. 42.

الذي أكّد في دراسته الآنف ذكرها أنّ «جميع السكّان، بلا استثناء، يتمّ استدعاؤهم سنويًا لفترة تدريب عسكريّ، وللتعوّد على حذق استعمال الأسلحة ذات الطّلقات السّريعة...»(162).

وهذه المعلومات المهمّة عن تنظيم قوّات الرديف المحليّة تنقض كليّة، ما جاء بقلم باحث ليبيّ زعم أنّ «عسكريّي الرديف أو الاحتياطي»، لم يخضعوا لتدريبات في مطلع القرن العشرين(163).

ولقد خمّن الضّابط الفرنسيّ عدد النفوسيّين الّذين كان يشملهم التّدريب العسكري في أوائل هذا القرن بعشرة آلاف رجل (ثمانية آلاف من المشاة وألفين من الفرسان)(164).

والرّاجح لدينا أنّ هذه العمليّة، تعزّزت بعد حدث الانقلاب الدّستوري في استانبول عام 1908 طردًا مع تعاظم دسائس إيطاليا ومكايدها ضدّ الدّولة العثمانيّة، وتبلور نواياها الاستعماريّة تجاه إيالتها الإفريقيّة.

وعلى العموم، وكائنة ما كانت الظّروف الّتي هيّأت لولادة هذا القائد، فإنّ الأمر الثّابت أنّ بروز خليفة بن عسكر، على مسرح العمليّات الحربيّة، قد ساهم في تعديل بعض المسلّمات، وتصحيح صورة قديمة للجباليّة، شكّلت مبتدعات السمّار، ومخترعات الرّواة من الأفكار الخاطئة سداها ولحمتها.

سندلف، بعد هذه التّوضيحات، إلى العنصر المتعلّق ببدايات صراع ابن عسكر مع الإيطاليّين، وسنتوقّف أدناه، عند أشهر عمليّتين طبعتا هذه الحقبة من نضاله، ونعني بهما : كمين وادي نالوت، وحصار بلدة نالوت الّذي استمر زهاء خمسة عشر يوما.

---

(162) DEAMBROGGIO, **op. cit.**, p. 268.

(163) محمد مصطفى بازامه. **العدوان، أو الحرب بين إيطاليا وتركيا في ليبيا**، الجزء 1، طرابلس، مكتبة الفرجاني، 1965، ص 48-51.

(164) DEAMBROGGIO, **op. cit.**, p. 269.

III - خليفة بن عسكر وانطلاق "حرب الغوّار" ضدّ الإيطاليّين بالقسم الغربيّ لجبل نفوسة :

1- كمين وادي نالوت : 28 نوفمبر 1914

عمد النّقيب أليسي ALESSI حاكم نالوت(165) في نهاية نوفمبر 1914 إلى مصادرة معظم جمال سكّان المنطقة(166) ، الأمر الّذي جعلهم لا يخرجون لحراثة أراضيهم خلال ذلك الموسم(167) . وكان الهدف من عمليّة المصادرة المذكورة، استعمال الجمال في نقل السّلاح والذّخيرة من مستودعات نالوت إلى بلدة مصراته، في إطار الاستعداد لحملة القرضابيّة(168) . وكان من بين تداعيات عمليّة المصادرة، فرار أعداد من سكّان جهة نالوت باتّجاه الحدود التّونسيّة اللّيبيّة، خشية حجز حيواناتهم.

ويشير الملازم أوّل "باري" BARRE، رئيس مركز ذهيبة للشّؤون الأهليّة، في تقرير له بتاريخ 26 نوفمبر 1914 إلى أنّ الطرابلسيّين الفارّين، عسكروا ما بين العلامتين الكيلومتريتين 211-212 وكذا شرقي المكان المعروف "بأم الدود". كما أكّد «أنّهم ليسوا مسلّحين، وليس لديهم نوايا عدوانيّة [تجاه الفرنسيّين]...»(169) .

(165) نرى من الضّروري الإشارة إلى أنّ جهة نالوت أصبحت منذ التّقسيم الإداريّ لإقليم طرابلس (فيفري 1914) جزءا من منطقة التّراب المدنيّ (خلافا لغدامس ويفرن اللّتين احتفظ بهما ضمن منطقة التّراب المدني)، وبالرغم من ذلك فإنّ شؤونها ظلّت تدار من قبل ضابط برتبة نقيب، انظر :

I.S.H.M.N., M.A.E., Quai d'Orsay (Paris), N^lle^ série Tunisie (1882-1919), bobine 39 N.S 76 le lieutenant EURARD à Résidence, Déhibat, 8 mars 1914.

(166) **Ibid.**, rapport, décembre 1914.

(167) **أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف 15/30 - 756**، وثيقة 36، تقرير محمد الزواري، ص 1.

(168) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 19.

(169) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 5/11**، وثيقة 7، تقرير الملازم أول باري Barre، رئيس مركز ذهيبة للشّؤون الأهليّة إلى المقيم العام، ذهيبة، 26 نوفمبر 1914.

وطبيعي أن يثير الإجراء الّذي أقدمت عليه السّلطة الإيطاليّة سخط السكّان المتضرّرين. على أنّ الأمر الأصيل هنا هو تزعّم عمرو بن عسكر عميد البلديّة (أي الموظّف الحكوميّ وشقيق مترجمنا) حركة الاحتجاج هذه.(170) .

وما إن علم خليفة بن عسكر بتفاصيل الحادثة، وما أثارته من ردود أفعال، حتّى قرّر نصب كمين لقافلة الأسلحة الإيطاليّة. وخلال غروب يوم 28 نوفمبر 1914، نفذ الرّجل خطّته في مستوى وادي نالوت، وتحديدا في موضع يقع نحو 4 كم شرقي البلدة(171) ، وكان جمع للغرض متطوّعة من قبائل الحوامد، والمجابرة، علاوة على بعض الأنفار من نالوت لا سيما من عائلته(172) .

وعلى إثر مواجهة عنيفة، استمرّت عدّة ساعات، سقطت القافلة بالكامل في أيدي المهاجمين الّذين غنموا كمّيات هامّة من الأسلحة والذّخيرة، فضلا عن معدّات للتّلغراف(173) . كما أسفرت هذه المعركة عن عديد القتلى من الجانبين، إذ تفيدنا المصادر أنّ ضابطين وثمانية جنود من بين خفر القافلة الإيطاليّة، لقوا حتفهم في هذا الكمين(174) .

لقد أدخلت هذه العمليّة الجريئة البلبلة في صفّ الجيش الإيطالي، وشاهدنا على ذلك إقدام السّلطة العسكريّة في اليومين التّاليين لحادثة الكمين، على إصدار الأوامر إلى جنود مراكز "لحيمَر"، و"رقدالين"، و"زليتن"، بالانكفاء نحو مدينة

---

(170) **I.S.H.M.N., M.A.E., Quai d'Orsai (Paris), Série, Nlle Série Tunisie, 1882-1919**, bobine 39, rapport, décembre 1914.

(171) **Ibid.**, rapport, novembre 1914.

(172) **Ibid.**

وممّا يجدر ذكره هنا أنّ المصدر الشّفوي الأهلي خمّن عدد المهاجمين بأربعين رجلا، أنظر : محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 20.

(173) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q. O., Nlle Série Tunisie, op. cit.**, rapport, novembre 1914.

(174) **Ibid.**

زوارة. كما أمر حرس مركز "أبي الشُول" باللّجوء إلى الجوش، وطلب من حرس مركز "طويل الحلاب"، الالتحاق بمنطقة الجبل(175).

إنّ من يدقّق النّظر في أطوار الحادثة موضوع هذا العنصر الفرعي، وتفاصيلها، وتداعياتها، لا بدّ أن ينتبه إلى أمرين:

أوّلا: تعمد خليفة بن عسكر إضرام النّار في الذّخائر الّتي غنمها رفقة رجاله(176)، وهو أمر لم نجد له تفسيرا لا سيما وأنّ عصابته كانت تفتقر للسّلاح والذّخيرة.

ثانيا: محاولة خليفة بن عسكر قتل أخيه عمرو، عميد بلديّة نالوت، وذلك بعد أن قام الإيطاليّون، على إثر حادثة الكمين بإخراج سكّان القرية لقتال العصابة المسلّحة(177)، وكان عمرو الأخ الأكبر لابن عسكر، وإبراهيم بولحباس، قائمقام نالوت في مقدّمة من تمّ استنفارهم للغرض.

ولنا أن نذكر هنا، أنّ عمرو بن عسكر، لم يخف استياءه من عمليّة مصادرة جمال أهالي جهة نالوت، وكان في طليعة المحتجّين على ذلك الإجراء، كما أسلفنا القول.

2- حصار بلدة نالوت (النّصف الأوّل من ديسمبر 1914):

بعد النّصر الّذي حقّقه في وادي نالوت، ضرب خليفة بن عسكر ورجاله، في مطلع ديسمبر 1914، حصارا على بلدة نالوت، حيث الحامية الإيطاليّة، استمرّ حوالي أسبوعين. ولم يقع فكّ الحصار إلاّ عشيّة يوم 15 ديسمبر، على إثر قرار خليفة بن عسكر التّوجّه إلى وادي الجويبيّة، لاعتراض طريق جحفل إيطاليّ قوامه ألف وثلاثمائة رجل، تحت إمرة العقيد روفرسي ROVERSI، خفّ لكسر الطّوق على نالوت(178).

---

(175) **Ibid.**, rapport décembre 1914.

(176) القشاط، **نفس المرجع**، ص 21.

(177) **نفس المرجع والصّفحة**

(178) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., N^{lle} Série Tunisie, op. cit.**, B. 39, rapport décembre 1914.

وبالرّغم من أنّ عدد رجال ابن عسكر لم يتجاوز السّبعين(179) (تألفوا في معظمهم من مقاتلين من نالوت، والصّيعان، والغزاية، والحوامد، وأولاد محمود...)، فإنّهم استطاعوا إعاقة تقدّم القوّة الإيطاليّة.

وقد لقي ستّة عشر مهاجما طرابلسيّا مصرعهم خلال هذه المواجهة العنيفة(180) أمّا خسائر الجانب الإيطاليّ فكانت هامّة أيضا(181) لا سيما في صفوف الفرقة الأريتريّة «والمجنّدين العرب» أصيلي جهة جادو(182).

وعلى إثر هذه المواجهة التي انتهت بانتصار عصابة خليفة بن عسكر(183)، لم يتورّع الجيش الإيطاليّ عن قصف قصر أولاد محمود وتدميره بالكامل. كما أقدم الإيطاليّون في نالوت على مصادرة ممتلكات الثّائرين وبيعها(184).

---

(179) القشاط، **نفس المرجع**، ص 22.

(180) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, rapport décembre 1914.

وجدير بالإشارة هنا إلى أنّ الباحث عبد الرّحمان البريكي ذكر في دراسته المعنونة «من معارك الجهاد: معركة الجويبيّة» أنّ عدد الّذين استشهدوا في الصفّ الوطنيّ قدر بثلاثة رجال من بينهم الشريف بن الحاج أحمد الأسود، وسعيد صالح فيتوره. انظر: مجلّة **الشهيد**، العدد 11، 1990، ص 366.

(181) I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., **op. cit.**, rapport décembre 1914.

(182) القشاط، **نفس المرجع**، ص 22.

(183) لم يكن الجنرال درويتي DRVETTI حاكم إقليم طرابلس راضيا على ما لحق الجيش الإيطاليّ من هزائم مذلّة بجهة نالوت وآية ذلك قراره القاضي تعويض النّقيب اليسي ALESSI بالنّقيب ستروبا STROPPA على رأس إدارة البلدة في مطلع جانفي 1915. انظر:

I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit., rapport janvier 1915.

وبالرّغم من ذلك فإنّ الاوضاع لم تهدأ في الجبل وفزان (Ibid, rapport février 1915). الأمر الّذي اضطرّ القيادة الإيطاليّة إلى تعويض الجنرال درويتي بالجنرال تاسوني على رأس طرابلس في مطلع فيفري 1915 (Ibid).

(184) **Ibid.**, rapport décembre 1914.

وخلال الأيّام القليلة الّتي تلت هذه الحادثة، شرعت آلة جيش الاحتلال بالإطباق على ابن عسكر وعائلته وقسم من الّذين التحقوا بحركته، ممّا اضطرّهم إلى الهجرة نحو الجنوب التّونسي.

أمّا الّذين صمّموا على البقاء بإقليم طرابلس، فقد يمّموا شطر الجنوب واجتمعوا بسانية جرجير(185).

IV - اللّجوء إلى القطر التّونسيّ :

1- ظروف الهجرة وخصائصها :

احتشد الفارّون ابتداء من 24 ديسمبر 1914 أمام مركز ذهيبة الحدوديّ في ظروف صعبة(186)، وكانوا مؤلّفين في معظمهم من ستّ وستّين عائلة نالوتيّة وثماني وعشرين عائلة من أولاد محمود(187). ولم يصطحب هؤلاء اللاجئون إلاّ ما خفّ حمله من الامتعة والحيوانات.

وفور وصولهم، امتثل المهاجرون لطلب ضبّاط الشّؤون الأهليّة بتسليم أسلحتهم. وممّا هو جدير بالتّسجيل هنا، أنّ شرط تسليم السّلاح، لمن أراد دخول التّراب التّونسيّ من الطرابلسيّين قد أقرّه الفرنسيّون منذ الأيّام الأولى لاندلاع الحرب التركيّة-الإيطاليّة في القطر المجاور عام 1911(188).

(185) **Ibid.**

(186) أشارت مختلف التّقارير إلى الأوضاع المأسويّة للمهاجرين الطرابلسيّين في تونس انطلاقا من خريف 1911 (الهلاك جوعا، حالة الإملاق الشّامل، ظاهرة التّسوّل الخ...)، انظر على سبيل المثال رسالة عامل الأعراض إلى الوزير الأكبر بتاريخ 12 ديسمبر 1911. **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 8/4**، وثيقة 1287.

(187) بلغ عدد المهاجرين من نالوت 219 نفرا، ومن أولاد محمود 149 نفرا. انظر :

Ibid., rapport février 1915.

(188) I.S.H.M.N., S.H.A.T., Série 2 H, E. S 289, d. 2. Ministre des A.E. à M. le ministre de la Guerre, Paris, 26 septembre 1911, f. 245.

ويشير الشيخ الطّاهر الزّاوي في مذكّراته إلى أنّ فرنسا كانت تطالب النّازحين اللّيبيّين باتّجاه القطر التّونسيّ «تسليم سلاحهم قبل كلّ شيء...»، **نفس المصدر**، ص 126. ==

وتستوقف الباحث في مقدّمات هذه الهجرة ومراحلها عدّة أشياء :

أوّلا : القلق الشّديد الّذي أبداه المهاجرون بشأن مسألة نزع سلاحهم، إذ عدّوا ذلك «أمرا غير مقبول»، وجاء هذا «التّبرّم» ضمن خطاب أرسلته وجاهات نالوتيّة إلى شيخ قبيلة الدغاغرة (من عمل ورغمة) المدعو أحمد العربي. كما ورد في الرّسالة، الّتي تكفّل بنقلها «مبعوث طرابلسيّ» (كذا)، أنّ المهاجرين قاتلوا الإيطاليّين في نالوت، وتعرّضوا لظلم «الفقير خليفة بُغْني» كما الإيطاليّين(189) .

وناشد النّالوتيّون، ومن معهم من الأقسام القبليّة الأخرى، الدغاغرة التّدخّل لمساعدتهم باسم «علاقات الصّحبة الّتي كانت تجمع قبائل الدغاغرة بأهل نالوت»(190) ، وفي ذلك إشارة واضحة لعقود الحماية الّتي كانت تربط القبائل البدويّة الودرنيّة بمحميّيها من جبالية نفوسة. ومن بين الّذين وقعوا على هذا الخطاب-النّداء، خليفة بن عسكر، وجماعة من رجال نالوت، وأولاد محمود، والشّيخ سعيد بن الحاج المحموديّ، وجماعة من الحوامد الخ»»

وواضح من خلال مضمون هذه الرّسالة أنّ أهالي نالوت كانوا يجهلون حقيقة وضع الودارنة إذ ذاك لا سيما التّبدّلات الضّخمة الّتي شهدتها منطقة الثغور الجنوبيّة لتونس إثر توطيد «السّلام الفرنسي» بعد 1888 ، وما رافق ذلك من خضد لشوكة الأرستقراطيّة الودرنيّة، وفي مقدّمتها قبائل الحرابة نحو الدغاغرة.

== ومن ناحيته علّق جورج ريمون على مسألة اللّجوء إلى تونس ونزع سلاح اللاّجئين. وممّا قاله بهذا الخصوص : «إنّ فرنسا حرّمت اجتياز الحدود التّونسيّة على جميع الضبّاط المسلّحين القادمين من والدّاخلين إلى الأراضي اللّيبيّة. وراقبت بكلّ ما في وسعها جميع قوافل البادية الّتي تعبر الحدود بين البلدين محتجزة تلك الّتي تجد في حوزتها أسلحة أو عتادا، إلى درجة أن الأتراك قد اتّهمونا من ناحيتهم بالتّحيّز وأعتقد أنّ معهم بعض الحقّ في ذلك...»، جورج ريمون، **نفس المصدر**، ص 151.

(189) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 4/11**، وثيقة 22، برقية الملازم أوّل ريسلر RISLER إلى الإقامة العامّة، تطاوين 21 ديسمبر 1914.

(190) نفس المصدر، أنظر كذلك :

Capitaine FOREST, **Coutumes des populations de la circonscription de Tataouine**, C.H.E.A.M., 1942, p. 36.

وشاهدنا على ذلك ردّ الشيخ حمد العربي الّذي نصح المهاجرين بضرورة الامتثال لأوامر رئيس مركز ذهيبة(191).

ثانيا: وجود عمرو بن عسكر عميد بلديّة نالوت والشّقيق الأكبر لخليفة من بين المهاجرين وهو ما يبرهن على أنّ لحظة الودّ والتّعاون الّتي جمعت الإيطاليّين بهذا الوجيه الجبالي كانت قصيرة، إذ حصلت القطيعة بين الطّرفين على إثر قرار مصادرة جمال سكّان جهة نالوت في نوفمبر 1914 كما أسلفنا القول.

ثالثا: بوسعنا اعتبار هذه الهجرة -إلى حدّ ما- موجة الحراك السكاني الثّانية نحو تونس الّتي تتمّ بعد الاحتلال الإيطاليّ. ومعلوم أنّ الموجة الأولى قد حدثت خلال أفريل 1913 (وشملت أكثر من 35000 نسمة). وكان آخر «منشقّي» تلك الحركة قد عادوا إلى مجالاتهم في غضون شهر ديسمبر 1913(192).

ومن نافلة القول هنا، أنّ حجم هذه الهجرة وأهمّيتها كانت أقلّ من الأولى بكثير. على أنّه تنبغي الملاحظة أنّ مكان الإقامة الّذي خصّصه الفرنسيّون لمهاجري الدّفعة الثّانية كان أكثر بُعدا من الحدود الطرابلسيّة من المكان الّذي أرغم مهاجرو الدّفعة الأولى على الإقامة فيه(193).

2- خليفة بن عسكر أحد رعايا إيطاليا؟

سبقت الإشارة إلى أنّ هجرة سكّان إقليم طرابلس، لا سيما النفوسيّين منهم، نحو تونس قديمة نسبيًا.

---

(191) نفس المصدر.

(192) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, rapport décembre 1913.

(193) تجدر الإشارة هنا إلى أنّ عودة أولئك المهاجرين بدأت بعد أسابيع قليلة من لجوئهم إلى القطر التّونسيّ بفضل جهود إبراهيم بولحباس قائمقام نالوت أنظر:

Ibid., rapport mai 1913.

ويمكن القول –بهذا الخصوص– أنّ القطر التّونسيّ قد توافر خلال الفترة المعاصرة على قدرات مُهمّة خوّلت له استيعاب أدفاق المهاجرين من الإيالة المجاورة. كما أنّ الطرابلسيّين لم يلاقوا صعوبات تذكر في التّكيّف مع مستقرّاتهم الجديدة شمال البلاد، ووسطها، وجنوبها(194). بعبارة أخرى مجملة: إنّ موجات الحراك السكاني هذه لم تتسبّب في خلق مشاكل بين البلد الطّارد والبلد المُضيّف.

وبعيد تمركز الإيطاليّين بإيالة طرابلس الغرب، طفت على السّطح مشكلة قانونيّة بين القيّمين على مقدرات البلدين مدارها المهاجرون اللّيبيّون في تونس. إذ كانت إيطاليا تصرّ على اعتبار كلّ اللّيبيّين المقيمين في تونس «رعايا إيطاليّين».

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أنّه غداة احتلال إيطاليا لطرابلس الغرب، أعربت روما عن رغبتها في أن يتمتّع أصيلو مستعمرتها الجديدة القاطنين في تونس بما جاء في الفقرة الثّانية من بروتوكول الاتّفاقيّة القنصليّة لعام 1896 والّتي نصّت على أنّ «للأهليّين المحميّين، المسجّلين حاليا بالقنصليّة العامّة الإيطاليّة بتونس، الحقّ في البلاد التّونسيّة لنفس المعاملة الّتي يتمتّع بها الإيطاليّون أنفسهم»(195).

أمّا موقف الجانب الفرنسيّ، فقد كان مغايرا: إذ عدّ الفرنسيّون أفراد الجالية الإيطاليّة لاجئين ضمن إطار الحماية الفرنسيّة.

لقد كان الطّرف الفرنسيّ مدركا تمام الإدراك لما قد يترتّب على القبول بالطّلب الإيطاليّ من مشاكل عديدة، والّتي ليس أقلّها إعفاء طرابلسيّي تونس من ضريبة المجبى، و«انتقالهم» من المحاكم التّونسيّة إلى الفرنسيّة. وعدم تبعيّتهم من النّاحية الإداريّة، مستقبلا، للشّيوخ والقيّاد (لا سيما فيما يخصّ الشّأن الأمنيّ)، بل للممثّلين الرّسميّين للملك فكتور عمانوئيل الثّالث.

---

(194) J. DESPOIS, **Le Djebel Nefousa**... op. cit., p.

انظر كذلك: محمّد حسن، **نفس المرجع**، ص 287.

(195) RODD BALEK, **La Tunisie après la Guerre (1919-1921), problèmes politiques**. Publication de l'Afrique française, Paris, 1922, p. 133.

وبما أنّ الجالية الطرابلسيّة "بالمحميّة" التّونسيّة كانت مبثوثة في كلّ أرجاء البلاد تقريبا، فإنّه سيصبح بإمكان الموظّفين الإيطاليّين التّدخّل في أيّ وقت كان، في الشّؤون الفرنسيّة و لأهليّة. وهذا ما كان الفرنسيّون يعارضونه، مؤكّدين تمسّكهم باتّفاقيّة 1896 نصّا وروحا وهي الاتّفاقيّة الّتي تعلّقت فقط بالمحميّين الإيطاليّين الّذين كانوا مسجّلين ساعة توقيع بروتوكول 1896(196).

وسرعان ما تحوّلت هذه القضيّة إلى مادّة جدال قانوني بين الدّولتين. وعقدت عديد الاجتماعات في مدينة تونس لتدارس هذه المسألة. واضطرّ المتفاوضون إلى الرّجوع إمّا إلى روما، أو باريس في عديد المرّات التماسا للمشورة.

وبعد لأي، توصّل الطّرفان إلى اتّفاق بهذا الشّأن، تمّ توقيعه في 25 جوان 1914(197) ومن أهمّ ما جاء في بنود هذا الاتّفاق أنّ رعايا إيطاليا في تونس هم اللّيبيّون الّذين استقرّو في تونس بعد 28 أكتوبر 1912(198)، وكذا الحاملون لجوازات سفر إيطاليّة مسلّمة من لدن السلطات القنصليّة الإيطاليّة.

إنّ المعطيات السّابقة تجعلنا في وضع يسمح لنا بالقول إنّ خليفة بن عسكر وعائلته، كانوا من النّاحية القانونيّة، "رعايا إيطاليّين" عند لجوئهم إلى القطر التّونسيّ في أواخر عام 1914.

ولعلّ السّؤال الّذي يعنّ هنا هو: هل كان ابن عسكر، ومن معه (لا سيما شقيقه عمرو) على دراية بوضعهم القانوني هذا؟

الحقّ أنّنا لا نتوافر على معلومات بخصوص هذه النّاحية المهمّة من المسألة.

---

(196) **Ibid.**, p. 134.

(197) إبراهيم أحمد أبو القاسم، **المهاجرون اللّيبيّون بالبلاد التونسيّة (1911-1957)**، مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله للنّشر، سوسة (تونس)، 1992، ص 118.

(198) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 1 و16**، والسلسلة E، صندوق 440، ملف 38.

بيد أنّ الأمر الثّابت يتمثّل فيما التـزم به المهاجرون من استعداد لا مشروط لاحترام قوانين البلد المضيّف، وهم في الطّريق إلى معسكر إقامتهم بقبلي.

3- معتقل قبلّي :

قام ضبّاط الشّؤون الأهليّة بتوجيه جموع المهاجرين اللّيبيّين الّذين نيّف عددهم على ثلاثمائة وثمانية وستّين نسمة إلى عمل نفزاوة بالجنوب التّونسيّ. وخصّص لإقامة هذا الحشد مكان حذاء أرض سبخة يدعى عين تزو، غير بعيد عن بلدة قبلّي(199) .

لا مندوحة لنا هنا عن الإشارة إلى أنّ ظروف استقرار هؤلاء المهاجرين النفوسيّين، تذكر الباحث المتقصّي -إن قليلا أو كثيرا- بما حفّ بلجوء الثّائر غومة المحمودي إلى جهة نفزاوة قبل نصف قرن من ذلك التّاريخ. الشّيء الّذي يغري على طرح الاستفهام : هل تحوّل هذا الإقليم التّونسيّ إلى ملجأ للزّعامات الثّائرة بالجبل الغربيّ لإقليم طرابلس، وذوي قُرباهم ؟.

ليس في نيّتنا تفصيل القول في هذا الموضوع المهمّ، وذلك لاعتبارات منهجيّة، لا نراها تخفى على القارئ، وأقصى ما نريد تسجيله هنا، لا يتعدّى الإشارة إلى أنّ استقرار غومة بنفزاوة كان «قرارا حرًا». في حين أرغم ابن عسكر، ومرافقوه على التّوجّه إلى قبلّي، أي أنّهم لم يختاروا ذلك المكان لاستقرارهم(200).

وأيّا ما كان الأمر، فإنّ المهاجرين الجباليّة بنفزاوة أبْدَوا من «حسن السّلوك» و«الانضباط»(201) ، ما جعل ضبّاط الشّؤون الأهليّة بمكتب قبلّي، يسمحون لهم

(199) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, rapport, janvier 1915.

(200) ألح الشّيخ الطّاهر أحمد الزّاوي في مذكّراته أنّ الفرنسيّين كانوا يخيّرون المهاجرين الطرابلسيّين بين «أن تختار لهم الحكومة مكانا يقيمون فيه مجتمعين أو يختاروا لأنفسهم بلدا آخر يذهبون إليه...» **نفس المصدر**، ص 126.

(201) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, rapport, janvier 1915.

بالتّنقّل رفقة أنعامهم إلى بعض المواضع. هكذا تحوّل المهاجرون -تباعا- إلى عين صفرة، وعرق حماد، وشرقي دوز، وطويلة أحمد بن راشد، وبئر سلطان، وزميط، والعوينة...(202).

ويبدو أنّ خليفة بن عسكر ضاق ذرعا بظروف الإقامة القاسية داخل المعتقل(203)، الّذي حشر فيه ممّا جعله يقرّر الفرار.

ويزعم خليفة بن أحمد بن ابراهيم العَزابي أنّ الشّيخ عمرو بن عسكر هو الّذي حرّض شقيقه على الفرار(204).

ونحبّ أن نشير هنا إلى أنّه من المعروف أنّ من يعيش حياة اليقظة والتّوثّب والاندفاع والحريّة، وفي كلمة حياة التّمرّد ردحا من الزّمن، يصعب عليه التّكيّف فيما بعد مع وقع الحياة العادية الرّتيبة ناهيك بحياة «الفراغ» والحدّ من الحركة، وتلك حالات معروفة في سيكولوجيا الحروب والثّورات.

4- الفرار من المعتقل :

بعد أن صمّم على الفرار، شافه خليفة بن عسكر عددا من رفاقه في الموضوع، فاستصوب الفكرة بعضٌ ممّن زاملوه عن كثب.

وتختلف المصادر اختلافا بيّنا بخصوص عدد الرّجال الّذين فرّوا معه من معسكر الاعتقال : فالرّواية الشّفويّة تحدّثت عن أربعة أنفار، نجد من بينهم علي بن الحاج يحي الناكوع وعيسى نفوشيت(205).

(202) أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف 15/30، تقرير محمد الزواري، مصدر سابق.

(203) أصبحت ظروف الإقامة بالمحتشد صعبة بعد تفشّي وباء الجدري بالجهة ابتداء من شهر فيفري 1915 انظر :

I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit., rapport mars 1915.

(204) أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف 30/15 - 756، وثيقة 43، رسالة خليفة بن أحمد بن ابراهيم العزابي المقيم بالسّجن المدنيّ بتونس إلى الكاتب العام للحكومة، تونس، 10 أوت 1916.

(205) القشاط، نفس المرجع، ص 24.

أمّا تقارير الضبّاط الفرنسيّين فإنّها ألمحت إلى أن ابن عسكر كان مرفوقا برجل واحد هو المدعو عمر بن علي بن عمر الختالي(206).

ويؤكّد عمر بن عبد الملك ممثّل عمل نفزاوة في الجمعيّة الشّوريّة، والّذي تعرّف إلى العساكرة خلال إقامتهم بقبلّي كما مرّ بنا أعلاه، أنّ خليفة بن عسكر اصطحب معه خلال عمليّة فراره رجلين : الأوّل جباليّ من جهة فساطو، والثّاني يدعى قرقاب(207).

ونقع في رسالة وجّهها المدعو خليفة بن أحمد بن ابراهيم العزابي إلى الكاتب العام للحكومة على ما يفيد أنّ عدد الّذين «هربوا من النّجع أربعة أشخاص...»(208).

وبالجملة، وكائنا ما كان عدد الفارّين معه، فإنّ العمليّة تمّت بنجاح(209) بالرّغم من الحراسة المشدّدة الّتي فرضها الجنود الفرنسيّون ونظاميّوهم من الأهالي على المعسكر.

وينبغي أن نشير هنا إلى أنّ السّلطة العسكريّة قامت فور إخطارها بعمليّة الهروب، بسجن كامل عائلة خليفة بن عسكر(210).

---

(206) **I.S.H.M.N., S.H.A.T. (Vincennes)**, 2 H 57, d. 5, rapport du Capitaine BOUVET chef du Bureau des A.I au Colonel Commandant Militaire des Territoires du Sud, Kébili, 26 mars 1915.

(207) **أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف 30/15** - 756، تقرير محمد الزواري الموما إليه أعلاه.

(208) **نفس المصدر**، وثيقة 42، رسالة خليفة بن أحمد العزابي إلى الكاتب العام للحكومة، تونس، 12 اكتوبر 1916.

(209) **I.S.H.M.N., S.H.A.T. (Vincennes)**, S. 292, 2 H 53, d. 3, Historique des opérations..., op. cit., f. 572-573.

(210) **القشاط، نفس المرجع**، ص 24.

كما تعرّض لعقوبة السّجن خمسة ممّن زاملوا الرّجل، هُمْ: سعيد صالح بن عسكر، وأحمد النّاكوع، وسعيد بلقاسم، وخليفة بن إبراهيم العزابيّ وأحمد الصويعي المحمودي(211).

ومن ناحية أخرى، صدرت الأوامر لرئيس مكتب قبلّي للشّؤون الأهليّة بـ«مصادرة أملاك خليفة بن عسكر وأمتعته وحيواناته...». كما اقترحت السّلطة العسكريّة على الجنرال قائد فرقة الاحتلال، إصدار حكم غيابي على ابن عسكر بالسّجن لمدّة ستّة أشهر وبخديّة مالية مقدارها 500 فرنك(212).

***

شكّل فرار الرّجل من محتشد قبلّي بالجنوب التّونسيّ في ربيع 1915 فارقة هامّة ضمن هذا الدّور الأوّل من سيرته، إذ أعلنت تلك العمليّة عن نهاية فصل وبداية فصل جديد في حركة خليفة بن عسكر، الّذي سيعود إلى موطنه نالوت وكلّه إصْرار على الانتقام من الفرنسيّين الّذي سجنوا أفراد عائلته.

كما حَميَت الرّغبة لديه في مُواصلة حرب الإيطاليّين، وهو ما سيكون شأننا في الباب الآتي.

---

(211) **نفس المرجع** والصّفحة.

(212) **I.S.H.M.N., S.H.A.T., (Vincennes)**, rapport du capitaine BOUVET, op. cit.

ما يشبه خاتمة الباب

تواقَتَ الانطلاق الفعليّ لحركة القائد الجباليّ خليفة بن عسكر مع ما عرف في الأدبيّات الوطنيّة اللّيبيّة بمرحلة حرب العصابات أو «الغزو على الطّليان»، وفق العبارة المتداولة في قاموس «حركة الجهاد»(213) ، أو الدّور الثّاني للمقاومة(214) . وقد نشطت هذه الحركة بالمناطق الجبليّة الّتي توفّر بطبيعتها المجال الحقيقيّ (أو المثاليّ) لهذه الحرب.

ومن المعلوم أنّ الدّور الأوّل للمقاومة المذكورة (أكتوبر 1911 - مارس 1914) قد شهد حقبتين متمايزتين اشتهرت الأولى بالحرب التّركيّة - الإيطاليّة (أكتوبر 1911 - أكتوبر 1912)، وعرفت الثّانية بالحرب الطرابلسيّة - الإيطاليّة (أكتوبر 1912 - ربيع 1914)، بعد أن اضطرّ الانسحاب التّركي سكّان الإيالة لمواجهة مصيرهم بأنفسهم.

ومثلما قدّمنا، فقد انتهى هذا الدّور باندحار المقاومة الأهليّة بحيث أمكن للقوّات الإيطاليّة بسط جناحيها على المجالات الواقعة بين طرابلس وفزّان، إثر احتلال مرزق في مطلع مارس 1914.

***

بزغ نجم خليفة بن عسكر في وقت بدأت فيه دعائم «عالم قديم» (بقيَمه ومقوّماته، ورموزه، وأسلحته...) بالتّصدّع والتّفكّك بفعل وابل مركّز من الضّربات الإيطاليّة، فضلا عن جملة من المنبّهات الخارجيّة الأخرى متعدّدة الأشكال.

وغالبا ما تفرز مثل تلك اللّحظات الانعطافيّة، وما يلازمها من قلاقل، واضطرابات، طوائف من الأبطال الرّافضين، تعكس حركاتهم، ردّ الفعل الشّعبيّ التّلقائيّ على محاولات العسف، والقهر، والاستعباد وغالبا أيضا ما يكون ردّ الفعل

(213) الطّاهر الزّواي، **نفس المصدر**، ص 141.

(214) نفس المصدر، ص 139، انظر كذلك : خليفة محمّد التليسي، **معجم معارك الجهاد**... ص 37.

هذا -على الأقل خلال طوره الأوّل- عاريا من أيّة خلفيّة سياسيّة واضحة، الشّيء الّذي يغري على القول أنّ جلّ الثّائرين الأوائل «ركبُوا المغامرة» أي أنّهم سلكوا دروب المجهول والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

لم يشذّ خليفة بن عسكر عن هذه القاعدة، وبوسعنا القول أنّ القادحَ الّذي فجّر ثورته كان نوعا من النّوستالجيا (Nostaglie) والّتي هي كناية «عن توق غير سويّ للماضيّ، أو إلى استعادة وضع يتعذّر استرداده...»(215). وتنتج هذه الحالة، الّتي هي في نهاية التّحليل ضرب من ضروب اغتراب الذّات عن عدم قدرة الشّخص على التّكيّف مع ما تفرزه القطائع الكبرى من متغيّرات، وتبدّلات.

إنّ هذا الحنين الشّديد إلى زمن بدأ بالاندثار بوتائر سريعة وعنيفة، وليس بالإمكان عودته، قد كشف النّقاب عن ذهنيّة محافظة(216)، ظلّت مُلتفتةً إلى ما كان، وغالبا ما يحتدّ هذا الحُلُم بالماضي بعد فوات الأوان.

---

(215) تركي الحمد «هل من جديد في الفكر السّياسيّ؟» مجلّة **عالم الفكر**، المجلّد 25، العدد 2، اكتوبر - ديسمبر 1996، ص 18.

(216) فتحي ليسير، **نفس المرجع**، ص 76-81.

الباب الثّاني

المحارب المتوثّب
أو
زمن الثّورة

«يجب علينا أن نعترف أنّ خليفة بن عسكر [...] متشبّع بالأسلوب النابوليوني، فهو لا يقسّم قوّاته، بل يحشدها كلّها، ويباغت بها عدوّه الموزّع الفرق، والّذي لا يقوى على جمعها في الوقت المناسب، نظرا إلى أنّه أقلّ منه سرعة...»

Gabriel ALAPETITE المقيم العام غابريال ألابتيت

M.A.E., Q.O. Guerre 1914-1918,b.69, Vol.1598, d.3, **Papiers Alapetite. Lettres à Peretti de la Rocca**, 27 juin 1916, f. 99

«إنّ ظهور قائد لامعٍ قد يجبر جيشا بكامله على التّقهقر...»

بونتش بروفيتش

مَنْ فَرَانْسَا لِجيشْ طَلْيَانْ   مَا طَال وَاحدْ يطُولَــهْ
بَأمحَالْ وَنْظَامْ سُلْطَــانْ   وَتريسْ يَعْجبْ قبُولَــهْ
قَبْ جيشْهُمْ رَاحْ طُشَّــانْ   مَقْبَوضْ عَطْشَــانْ
بسْلاَحْ مَغْنُومْ غَنْمَــانْ   منْ عَسْكَرَه فَكْهُولَــهْ
هَرْبُوا عَلْ شَبَحْ لَعْيَــانْ   هَيْهَاتْ مَا وَاجْهُولَــهْ
أنْفضُّوا كمَا فرقْ شُعْرَانْ   شَارقْ وَعرْيَــانْ
مَقْبُوضْ مَا صَابْ عرْكَانْ   مَغْصُورْ عَلْ مَا لجُولَــهْ
وَبيهْ طَاقَةْ أوْلاَدْ شُبَّــانْ   نَافقْ عَلْ حُكْمْ سُلْطَــانْ
لَهْ هَبْهبْ النَّصرْ وانْعَــانْ   وَلُّوا لَعْدَاء يبَايْعُولَــه

شعر : خليفة الكرديّ (1922)

مقدمة

عاد خليفة بن عسكر إلى ضواحي نالوت حيث تمكّن في أرضه من جديد. وتحلّق حوله رجال آمنوا به، وبما انتوى مباشرته من أعمال حربيّة ضدّ الإيطاليّين(1) رغم اقتناعهم بأنّ إيطاليا دولة ذات حول وطول.

وبالتّدريج، تبلورت صفات القيادة لدى هذا الرّجل الّذي انبرى يتحرّش بالإيطاليّين بعقليّة القائد العسكري المحنّك، مؤكّدا بالمناسبة أنّه علم من فنون الحرب بالإلهام، في غضون وقت وجيز، ما لم يعلمه قادة الجيوش العصريّة بالدّرس والمرانة(2)، تشهد على ذلك الهزائم المتكرّرة الّتي أوقعها بجيش الاحتلال ممّا اضطرّه إلى الجلاء عن كلّ مواقعه بالجبل الغربي. ولولا النّجدة الّتي قدّمها ضبّاط الشّؤون الأهليّة الفرنسيّون لنظرائهم الإيطاليّين لتمكّن ابن عسكر من إبادة ألوية بكاملها.

وستتّسع حركة الرّجل خلال صيف 1915 إثر إعلانه الحرب على الفرنسيّين، بحيث أصبح الزّعيم النالوتيّ يُصاول في آن معا، قوّتين أوروبيّتين جمعهما فضلا عن الجوار، حلف الحرب العالميّة وقتئذ الأمر الّذي استعدى عليه عددا من رموز السنوسيّة.

---

(1) اعترف رُودولفُو غراتسياني بشدّة إخلاص اتباع ابن عسكر لقائدهم وأكّد أنّهم «كانوا يطيعونه طاعة عمياء...»، راجع، الزاوي، **جهاد...**، ص 291.

(2) وقعنا في المصادر الفرنسيّة على إشارات حبّرها الضبّاط الفرنسيّون، أقرّت أنّ لدى الرّجل إحساسا "حربيّا غريزيّا" في منتهى الدقّة. وقديما قيل : «الفضل ما شهدت به الأعداء» راجع على سبيل الذكر لا الحصر :

- **I.S.H.M.N., Q.O., b. 494, d. 3, Papiers Gabriel Alapetite**. Lettres à Peretti de la Rocca, f. 99.

- **I.S.H.M.N., S.H.A.T., b. s. 292, S. 2 H., d. 3, fragment du journal de Déhibat** (2 octobre - 28 novembre 1915), f. 432.

سنهتم في هذا الباب المعقود لاستجلاء خصائص هذه الحقبة الّتي بلغ فيها خليفة بن عسكر شأوَهُ، بالانتصارات المدوّية الّتي حقّقها الرّجل ضدّ الإيطاليّين خلال ربيع-صيف 1915، وسنعنى بخلفيّات إعلانه الحرب على فرنسا، وأهمّ أطوار تلك المواجهة خلال دوْريْهَا: خريف 1915 وصيف 1916، حتّى نجلوَ، بعد ذلك، أسباب خذلانه قبائل الودارنة التّونسيّة، وإبرامه الصّلح مع الفرنسيّين في مطلع 1919.

على أنّنا لن نتمكّن من إدراك بدايات تبدّل رؤى الرّجل ومواقفه ممّا كان يجري في ساحات القتال ومعابر السّياسة، إلاّ إذا ألممنا بشيء من «أسرار» علاقته المضطربة مع قادة الحركة السنوسيّة، وانخراطه في حرب تيّار «المطلينين»، وهزائمه الأولى أمام الجيش الإيطاليّ، وهي القضايا الّتي سنفرد لها مبحثين اثنين في بابنا هذا.

المبحث الأوّل :

استئناف الحرب ضدّ الإيطاليّين ومولد قائد عسكريّ ملهم

استقـرّ خليفة بن عسكر في نهـاية مارس 1915 بوادي أوال بين غدامس ودرج(3) ، بحيث لم تعـد تفصله عن خيـام أولاد محمود (الّذين هاجـر قسم منهم معه) سوى مسافة قصيرة(4) .

وجاء فـي الرّواية الشّفـويّة أن ابن عسكر اتّجـه (ومن معـه) فور وصـوله المنطقة الحدوديّة إلى وادي الثلث حيث قـام باستخراج أسلحة(5) كان أخفاها في نهاية ديسمـبر 1914 ، قبل أن يتقدّم إلى مركـز ذهيبة للشّؤون الأهليّة ملتـمسا الإذن له (ولمن كان في رفقته) ، باللّجوء إلى التّراب التّونسيّ كما سبق ورأينا.

وبالرّغم من عدم وجود أدلّة تؤكّد صحّة هذه الرّواية من عدمها ، في المصـادر المكتوبة الإيطاليّة والفرنسـيّة ، فإنّنا لا نستبعد إطلاقـا تعمّد الرّجل دفن أسلحة في الوادي المذكور ، لا سيما وأنّه كان يعلم بأنّ عـمليّة نزع الأسلحة قد طالت جميع من هاجروا باتّجاه تونس وعلى رأسهم لاجئو الدّفعة الأولى خلال أفريل 1913 .

ونتوافر بخصوص مسألة إخـفاء الأسلحة من قبل المهاجرين الطرابلسيّين ، على شهادة طريفة هـي كناية عن أبيات شعريّة لخليفة الرّبعي (ضـمن قصيدة له) الّذي قال مـتحسّرا على بندقـيّته الّتي تسلّمهـا منه الفرنسيّون علـى الحدود خلال دخوله التّراب التونسيّ مع طائفة من النّازحين في أواخر ديسمبر 1913 :

خَلّيتْهَا مَدْفُونَــــــــــهْ   وعَايِشْ بلاَ هَا عيشْتي مَغْبُونَـــه
إبْنَادمْ يحَكِّرْ في الغَلَبْ بعْيُونَه   وَلاَ عَادشْ إنْديرْ وَرَا صَرَاحـــي
مَقَاديرْ رَبِّي والعَدُوّ لَزُّونَـــا   ويَا نفْسْ رُومي للصَّغَى وارْتَاحـي

---

(3) القشـاط ، نفس المرجع ، ص 29 . محمد المرزوقي ، **دماء على الحدود** ، تونس ، الدار العربيّة للكتاب ، ص 313-314.

(4) P. Granchamp, "Khalifat ben Asker"..., **op. cit.**, p. 151.

(5) القشاط ، **نفس المرجع** ، ص 23 ، وص 29.

والحق أنّ التحاق ابن عسكر بوادي أوال قد أملته عليه ظروف موضوعيّة ليس أقلّها وجود نواة للمقاومة تحت إمرة المهدي بن كنيفو(6) ، دأبت على مهاجمة القوافل الإيطاليّة المنطلقة من نالوت باتّجاه سيناون وغدامس.

ولم ينقض وقت طويل على استقراره هناك حتّى قام محمّد السنّي(7) بتعيينه قائدا على المجموعة الفدائيّة بوادي أوال، بدلا من مهدي بن كنيفو الّذي التحق بفزان(8).

هكذا انتظم الرّجل ضمن أطر حركة المقاومة الّتي كانت ترعاها السنوسيّة (ولو بشكل غائم أحيانا). وتدلّ دلائل كثيرة على أنّه كان يدين بالولاء -ولو ظاهريا- لقادة هذه الحركة(9).

وبالجملة، وكائنة ما كانت المظلّة الّتي استظلّ تحتها، فإنّ الرّجل جدّد العهد مع حرب الإيطاليّين بعد انقطاع استمرّ ما يربو عن أربعة أشهر. وسيتحوّل إلى أحد كبار قادة المقاومة بإقليم طرابلس، بعد أن أصبح اسمه يطفح بدلالات التّمرّد، على ما سيزداد اتّضاحا في عناصر هذا المبحث.

---

(6) **نفس المرجع**، ص 28.

(7) أحمد بن محمد السنّيّ، ولد عام 1890. تولّى إدارة الزّاوية السنوسيّة بمزدة بعد وفاة عمّه عبد السّلام السنيّ. كان صاحب حظوة وتأثير كبيرين ممّا خوّل له تزعّم سرايا المقاومة الّتي تشكّلت بغرب إقليم طرابلس عامي 1915 و1916، والّتي قامت بمهاجمة مواقع الجيش الفرنسيّ بالجنوب التونسيّ انظر : P. Grandchamp. op. cit., p. 164

(8) القشّاط، نفس المرجع، ص 28.

(9) تشهد على ذلك هذه الجملة الّتي ختم بها الرّسالة - الإنذار الّتي وجّهها إلى عامل نفزاوة بتاريخ 1 اكتوبر 1915، إذ كتب يقول «والسّلام من سيدي العابد ومعينه للأمور الحربيّة [خليفة بن عسكر]» انظر :

I.S.H.M.N., **S.H.A.T.**, b. s. 292, s. 2 H, d. 3, **Historique des opérations... op. cit.**, f. 575.

I – حرب عصابات نشيطة :

جمع ابن عسكر حوله في وادي أوال (الّذي أصبح كناية عن قاعدة لتخطيط العمليّات الحربيّة)، عدّة عشرات من المتطوّعة (بعد أن شكّل ما يشبه «مجلس الحرب» أو «هيئة الأركان»، وفق الاصطلاح العسكري)، وطفق يتحرّش بالإيطاليّين في مواقعهم (مراكز الحاميات، والمعسكرات والحصون الخ...)، عبر عمليّات انقضاض جريئة.

كما ركّز على مهاجمة قوافل التّموين، والأسلحة المتّجهة من نالوت نحو كلّ من سيناون وغدامس، الأمر الّذي أربك الجيش الإيطاليّ وجعله يتكبّد خسائر كبيرة، واضطرّه بالتّالي إلى إخلاء الموقع تلو الموقع، قبل الجلاء نهائيّا عن منطقة الجبل الغربي، والتّحوّل إمّا إلى جهة زوارة، أو الفرار باتّجاه مركز ذهيبة الفرنسيّ.

ليس في نيّتنا هنا التّوقّف عند كلّ عمليّات السّرايا والزّمر الّتي قادها ابن عسكر باقتدار ما بين 11 أفريل 1915 (تاريخ وقعة سوينية يعقوب)، و10 جويلية 1915 (تاريخ سقوط نالوت). بل إنّ أقصى ما نريد تسجيله لا يتعدّى ذكر أهمّ العمليّات العسكريّة وأبعدها صدى.

1- عمليّة سوينية يعقوب (11 افريل 1915) :

من الضّروري أن نشير إلى أنّ خليفة بن عسكر وجّه همّه قبل تنفيذ هذه العمليّة، لاحتلال بلدة غدامس ذات العمق الاستراتيجي الكبير. ويبدو أنّ أهميّة الحامية العسكريّة الإيطاليّة المرابطة بتلك البلدة جعلته يتراجع عن خطّته هذه(10)، ويقرّر عدم المخاطرة بالهجوم على موقع محصّن على نحو جيّد(11).

(10) لم نجد في الوثائق المكتوبة، وكذا في الرّوايات الشّفويّة، معلومات تؤكّد وقوع مواجهة في مطلع جوان 1915 على أبواب غدامس بين ابن عسكر، وقسم من مهاري الإيطاليّين كما زعم غرانشان Granchamp، ذلك. راجع :

P. Granchamp, **Chronique de Libye**, 2ème année, 1922, op. cit., p. 151.

(11) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Tunisie, Nlle Série**, b. 39, rapport avril 1915.

وفي 10 أفريل، تحوّل على رأس كتيبة قوامها مائة رجل إلى سوينيّة يعقوب، حيث كمن في اليوم الموالي (11 أفريل 1915) لقافلة إبل إيطاليّة كانت في طريق العودة من غدامس ولقافلة أخرى (تألّفت أساسا من قطيع أغنام) كانت متّجهة إلى نفس البلدة في إطار عمليّة تموين روتينيّة لمراكز الحاميات. وقد غنم ابن عسكر خلال هذه العمليّة مائة وأربعة عشر جملا، ومائة وخمسين رأسا من الأغنام(12).

ومباشرة إثر تنفيذ العمليّة، الّتي نجح فيها «بطلنا» في تحييد جحفل إيطالي قوامه خمسمائة عسكري (أي أنّ نسبة رجاله إلى رجال الإيطاليّين كانت نسبة واحد إلى خمسة)، لاذ بقرية الجرد(13).

وغنيّ عن القول أنّ السّهولة الكبيرة الّتي أنجز بها ابن عسكر هجومه الخاطف، والأسلوب الّذي تحدّى به قوتهم، علاوة على أهمّيّة الغنيمة الّتي ظفر بها، قد نظر إليها من الجانب الإيطالي على أنّها مهانة، خدشت كبرياءَهُم، وأفقدتهم شرفهم، ولطّخت صورتهم كجيش عصري، ومن ثمّ فقد باتت معاقبة منفّذيها أمرا مؤكّدا.

وفي هذا الإطار يمكن تنزيل قرار الكولونيل نيغرا NIGRA، بملاحقة المهاجمين في الجرد: ففي يوم 18 أفريل زحف الكولونيل الإيطالي على رأس لواء قوامه ألفا رجل على القرية المذكورة، ولكنّه فوجئ عند بلوغه البلدة (20 أفريل) بوجودها خالية، ذلك أنّ ابن عسكر، ورجاله عمدوا إلى الجلاء عن الجرد قبل وصول الإيطاليّين(14)، وقفلوا راجعين إلى ماترس(15)، حيث تفرّقوا، وعاد كلّ واحد منهم إلى حيّه. ولم يبق مع القائد ابن عسكر إلاّ أربعة عشر نفرا، من بينهم سعيد بن عسكر، ومسعود بن عسكر، وعيسى تفوشيت من نالوت وعمرُو غنغانة،

---

(12) **Ibid.**

(13) **Ibid.**

(14) **Ibid.**

(15) القشاط، **نفس المرجع**، ص 20.

وأحمد بن الحاج، وخليفة التمتام، من فساطو، وبلقاسم خيشة من المحاميد...(16) .

وبالرّغم من انكماش عصابته، فإنّ الرّجل واصل عملياته الصّغيرة (شمال قرية الجرد)، ضدّ قوافل التّموين الإيطاليّة. وهي عمليّات أزعجت عدوّه كثيرا وجعلته عاجزا عن السّيطرة على الوضع(17) .

2- حصار سيناون (5-11 جوان 1915)

أقدم خليفة بن عسكر في 5 جوان 1915 على ضرب حصار على بلدة سيناون وذلك وفقا لاستراتيجيّته الرّامية آنئذ إلى مهاجمة تجمّعات الإيطاليّين المعزولة، وضرب الحاميات، والإغارة على المخازن، وقوافل التّموين بغية زرع البلبلة في صفوف العدوّ، والنّيل من معنويّاته وانهاكه.

وتألّفت كتيبة ابن عسكر الّتي انطلقت من ضواحي الجرد لتضرب نطاقا حول سيناون من مائة وخمسين رجلا.

أمّا الحامية الإيطاليّة المحاصرة فتكوّنت من مائة وثمانين جنديّ كانوا تحت إمرة النّقيب غالياني GALLIANI (18) ، ومساعديه وهما الملازم أول توكانتي TOCANTI والملازم أوّل FONGOLI.

وقد استمرّ حصار سيناون ستّة أيّام. وخلال اللّيلة الفاصلة بين 10 و11 جوان، تمكّن غالياني ورجاله من الفرار من الحصن والالتحاق بالمركز الحدوديّ الفرنسيّ الواقع بحصن بارفنكيير Pervinquière (19) بعد نفاذ مؤونتهم، وتأكّدهم أنّ بقاءهم، معناه فناؤهم المحقّق عن آخرهم إمّا جوعا وعطشا، أو على يد قوّات ابن عسكر(20) .

---

(16) نفس المرجع والصّفحة.

(17) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, rapport avril 1915.

(18) **ا.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 1، وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة** (Q.O.)، تقرير جوان 1915.

(19) **نفس المصدر.**

(20) **نفس المصدر.**

وممّا هو حريّ بالتّسجيل أنّ المهاجمين استولوا على نقاط الماء القريبة من الحصن(21) قبل إحكام الحصار عليه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، و لم يتسنّ للملازم أوّل مايولي MAYOLI الّذي كان يخفر قافلة تموين ضخمة مرسلة إلى رجال الحامية من دخول سيناون. إذ ما إن علم بحصار الحصن، حتّى لاذ بحصن برفنكيير على رأس فصيله المؤلّف من أربعين من رجال المهاري، وتسعين عسكريّا(22).

وخلال عمليّة الانسحاب تعرّضت كتيبة غالياني GALLIANI لملاحقة ابن عسكر ورجاله. وقد أوقع المتعقّبون بالإيطاليّين خسائر مهمّة خمّنت بثلاثة وثلاثين قتيلا وثلاثة عشر جريحا، كان من بينهم النّقيب غالياني والملازم أوّل فنغولي FONGOLI(23). وفوق ذلك غنموا كمّيات كبيرة من السّلاح والذّخيرة.

وكما سبق أن أومأنا فإنّ هذه الفرقة كادت تتعرّض للإبادة لولا النّجدة الفرنسيّة. وشاهدنا على ذلك عتراف غالياني نفسه لنظرائه الفرنسيّين أنّه «لولا وجود مركزكم هذا، لكان مصير كتيبتي الفناء التّام...»(24).

3- احتلال كاباو (26-27 جوان 1915):

بعد مرور حوالي أسبوع على سقوط سيناون، أخذ ابن عسكر يعد العدّة لاحتلال كلّ من كباو، والجوش، ونالوت.

وسعيا منه لتأمين كلّ ظروف النّجاح لخطّته الطّموحة تلك، عمد الرّجل يوم 23 جوان إلى التّمركز في وادي شيحان (الواقع بظاهر أولاد محمود)، بعد أسر من كان فيه من الإيطاليّين(25). ويشكّل هذا الموضع الاستراتيجي نقطة وسطا على الخطّ الّذي يصل حاميتي كباو ونالوت.

(21) **Chronique de Libye**, année 1924, op. cit., p. 58.

(22) **Ibid.**

(23) **Ibid.**

(24) **Ibid.**

(25) احمد مدلل «معركة كباو 26 جوان 1915»، **مجلة الشّهيد**، العدد 11، اكتوبر 1990، مركز الجهاد، طرابلس، ص 378.

وحينما كان ابن عسكر منهمكا في ترتيب مقرّ قيادته الجديد، تقاطر على مثابته متطوّعة جدد من قبائل الصّيعان، والحوامد، وأولاد محمود، وكاباو، والحرابة، وفساطو، ودرج، وماترس، والرجبان، والزنتان، والتوارق، وبعض الأفراد من قبائل الجنوب التّونسيّ..

هكذا نلاحظ أنّ حركة المقاومة غربيّ نفوسة قد تعضّدت، بمرور الوقت، على نحو جيّد، وهو ما جعل ابن عسكر ينوّع أسلوب تحرّشه بالحاميات الإيطاليّة، بالتّوازي مع تعزّز التّنسيق بين الضباط الإيطاليّين الّذين تمثّلت خطّتهم في مطلع صيف 1915 في «ضمّ الحاميات القريبة من بعضها لتسند بعضها البعض...»(26) ، أملا في الحدّ من اتّساع رقعة التّمرّد بالجبل الغربي، لا سيما بعد ازدياد وتيرة الهجمات، وبلوغها درجة كبيرة من الجرأة في اقتحام التّحصينات الإيطاليّة.

وفي إطار هذا الأسلوب الجديد، يمكننا تنزيل قرار القائد الجبالي بتقسيم رجاله إلى مجموعتين. وقد كلّف ابن عسكر أبا القاسم خيشة المحمودي بقيادة المجموعة الّتي عهد لها بمهاجمة كباو. أمّا هو، فقد بقي على رأس المجموعة الثّانية، الّتي تمثّل دورها في مراقبة حامية نالوت.

وفي طريقه إلى كباو، قام أبو القاسم المحمودي -وفقا لتعليمات القائد ابن عسكر- بتقسيم مجموعته إلى ثلاث زمر : تمركزت الأولى -وكانت تحت قيادته- بالتّلال الشّرقيّة للبلدة. واحتلّت الثّانية التلّ الجنوبي. أمّا الثّالثة فتفرّعت إلى مجموعتين تكفّلتا بالجهة الغربيّة، والجهة الجنوبيّة الغربيّة للحامية الإيطاليّة.

انطلق الهجوم على كاباو خلال ظهيرة يوم 26 جوان، واحتدم القتال في اليوم الموالي، واضطرّ رجال فرق الجيش الإيطاليّ -الّذين هكلت منهم أعداد هامّة خلال هذه المواجهة- إمّا إلى الاستسلام، وإمّا إلى الانسحاب باتّجاه بلدة الجوش.

---

(26) نفس المرجع، ص 388.

وقد خمّنت المصادر الفرنسيّة الخسائر البشريّة من الجانب الإيطاليّ بتسعة وثلاثين رجلا من بينهم ضابط برتبة نقيب، وآخر برتبة ملازم أوّل(27).

أمّا في صفّ المهاجمين، فقد قدّر عدد القتلى بأحد عشر رجلا، كان من بينهم متطوّع تونسيّ من ورغمّة هو المدعو عبد الله بن منصور الورغمّي(28).

4- الهجوم على الجوش (28-29 جوان 1915):

شنّ خليفة بن عسكر يوم 28 جوان، هجوما على حامية الجوش. وكان اشتبك قبل تنفيذ هجومه هذا في القطفة (مكان قريب من الجوش) مع كتيبة إيطاليّة قوامها أربعون رجلا، وأوقع بها خسائر جسيمة(29).

وبالرّغم من تواتر الضّربات الّتي وجّهت لحامية الجوش، وتلاحقها (29 جوان)، فإنّ الإيطاليّين استطاعوا الصّمود في وجه رجال ابن عسكر، الّذين كانوا في حدود مائتي مهاجم(30).

ويمكن تفسير هذه المقاومة العنيدة بتعضّد حامية الحصن برجال مركزي تيجي وأبي الشول الّذين لاذوا بالجوش يومي 27 و28 جويلية(31)، فضلا عن النّاجين من كباو، والّذين قدر عددهم بخمسين رجلا(32).

وسيتواصل صمود حامية الجوش حتّى 10 جويلية، وهو اليوم الّذي صدرت فيه الأوامر بالجلاء عن المركز بعد حرق جميع محتوياته(32).

---

(27) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 1، وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة (Q.O.)**، تقرير جوان 1915، ص. 4. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ أحمد مدلل أشار في دراسته الآنف ذكرها إلى أنّ حصيلة القتلى الإيطاليّين نيفت على أربعمائة وخمسة رجال، انظر: نفس المرجع، ص 393.

(28) أحمد مدلّل، **نفس المرجع**، ص 394.

(29) **أ.و.ت.، سلسلة A**، صندوق 280، ملف 1، تقرير جوان 1915.

(30) **نفس المصدر**، ص 4.

(31) **نفس المصدر** والصفحة.

(32) أحمد مدلل، **نفس المرجع**، ص 394.

ولعلّنا لا نخطئ إذا قلنا إنّ فشل ابن عسكر في اقتحام حصن الجوش لم يفت في عضده، ذلك أنّ الرّجل كان دائم التّفكير -منذ تمركزه بمثابته الجديدة في وادي شيحان- في الخطّة الّتي تخوّل له احتلال نالوت، بعد أن جعل له، ولرجاله قضيّة واحدة قوامها الاستيلاء على أهمّ نقطة أقصى غربيّ نفوسة.

II - خليفة بن عسكر سيّد نالوت :

كان تطهير نالوت من الحضور الإيطالي ينطوي على أكثر من مغزى بالنّسبة لخليفة بن عسكر : فنالوت هي مسقط رأسه، وهي «معقل» العساكرة الّذين اضطرّوا صاغرين للجلاء عنها ليقعوا بعد ذلك في أسر الجيش الفرنسيّ بمنطقة نفزاوة وتحديدا بجهة قبلي. وهي فوق كلّ ذلك «بلدة شهيدة» (كذا)، طعن فيها الشرف العربيّ وفق عبارة محمد سعيد القشاط(33) ، بعد قبول أعيانها تزويج إحدى بناتهم لضابط إيطالي، كما مرّ بنا.

والحقّ أنّ القائد العسكري لحامية نالوت الماجور كيزيني CHISINI، كان يتوقّع منذ 30 جوان، هجوما على البلدة يشنه خليفة بن عسكر، تشهد على ذلك الرّسائل العديدة الّتي بعث بها هذا الضّابط الإيطاليّ لنظرائه الفرنسيّين بمراكز الجنوب التّونسيّ(34) .

وكان أمام كيزيني خياران اثنان : إمّا إخلاء البلدة والالتحاق بمدينة زوارة رفقة جحفله المكوّن من تسعمائة رجل (وكان كيزيني خاطب العقيد الفرنسي جول لوبوف Jules le BŒUF في شأن مسألة انسحابه من نالوت منذ أواخر جوان 1915، كما يتجلّى ذلك من خلال وثائق الشّؤون الأهليّة الفرنسيّة)، وإمّا الصّمود والردّ على تحرّشات محلّة خليفة بن عسكر ومناوشاتها، وهذا معناه ضرورة إرسال تعزيزات هامّة إلى حامية نالوت.

---

(33) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 1، وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة** (Q.O.) تقرير جويلية 1915، ص 2.

(34) **Chronique de Libye**, année 1924, **op. cit.**, p. 59.

وقد شكّل إرسال هذه التّعزيزات، موضوع رسالة وجّهها كيزيني إلى حكومة طرابلس بتاريخ 3 جويلية 1915(35) .

وفي 7 جويلية صدرت الأوامر إلى كيزيني بالالتحاق بزوارة وإن تعذّر عليه ذلك، باللّجوء لمركز ذهيبة التّابع للجيش الفرنسي شرط الحصول على موافقة السّلطة الفرنسيّة(36) .

والواقع أنّ الضّابط الإيطالي كان يتلهّف لإخلاء المركز، وآية ذلك قراره العاجل خلال اللّيلة الفاصلة بين 9 و10 جويلية التّحصّن بذهيبة القريبة من نالوت عوضا عن زوارة(37) .

وخلال عمليّة انكفائه نحو المركز الحدوديّ الفرنسيّ، استهدف اللّواء الإيطالي إلى عمليّة انقضاض مفاجئة نفّذها مائة وخمسون مقاتلا بقيادة خليفة بن عسكر(38) . وقد أدخلت حركة الالتفاف المباغتة هذه البلبلة والهلع في صفّ هذا اللّواء الّذي انفرط عقده، إذ فرّ ضبّاطه وجنوده باتّجاه مركز ذهيبة كيفما اتّفق(39) .

ولقد سهّل هذا الاندحار مهمّة ابن عسكر ورجاله الّذين انقسموا إلى زمر قامت بملاحقة الهاربين موقعة بهم خسائر جسيمة.

وممّا ينبغي تسجيله هنا مشاركة سبعة وأربعين مقاتلا تونسيّا (قام ابن عسكر بتأطيرهم إثر التحاقهم بمنطقة نفوسة المتاخمة للحدود التّونسيّة)، في عمليّات المطاردة كان من بينهم المقاوم المعروف محمد بن مذكور الشهيدي(40) .

---

(35) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 1، وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة** (Q.O.)، تقرير جويلية 1915، ص 4.

(36) **نفس المصدر والصّفحة.**

(37) **نفس المصدر والصّفحة.**

(38) **نفس المصدر**، ص 5.

(39) **نفس المصدر والصّفحة.**

(40) محمد المرزوقي، **دماء على الحدود**... ص 304.

ونجد في المصادر الفرنسيّة وصفا دقيقا لحالة البؤس الّتي كان عليها النّاجون من الضبّاط والجنود الإيطاليّين ساعة وصولهم منطقة الحدود التّونسيّة، إذ لاحوا جدُّ مُنهكين من فرط التّعب وشدّة العطش(41).

وبالجملة فقد خمّن حصاد هذا الانسحاب الدراماتيكي، وما أعقبه من مطاردة دامية، استمرّت كامل ليلة 9 جويلية، وصبيحة يوم 10 جويلية بنحو ثلاثمائة وخمسة قتلى من بينهم خمسة ضبّاط(42). كما أسر ابن عسكر مائة وثلاثة وثمانين رجلا من حامية نالوت، كان من بينهم سبعة ضبّاط(43).

أمّا النّاجون من رجال نفس الحامية فقد أربوا على أربعمائة رجل(44). ويهمّنا أن نسجّل -ونحن نستعرض هزيمة جيش نظامي عصري أروبي أمام عصابات قليلة العدد، على نحو شائن مُخز- أنّ ظروف الانكسار أقلقت السّلطة العسكريّة الفرنسيّة بالجنوب التّونسيّ، وأرغمتها على الخروج عن دور «المشاهد المتابع للأحداث».

وفي إطار هذا التّحرّك (إن جازت العبارة)، أرسل ضبّاط الشّؤون الأهليّة في 15 جويلية 1915 المترجم العسكري بمركز ذهيبة النّقيب رغاغري RAGA-GRU إلى نالوت للتّباحث مع خليفة بن عسكر بشأن إطلاق سراح الأسرى الإيطاليّين.

والحقيقة أنّ الغاية من تلك المبادرة كانت «معرفة نوايا الرّجل...» بعد انتصاراته الباهرة. وبعبارة مجملة محاولة الوقوف على مشاريعه في المستقبل المنظور كما يتجلّى ذلك بوضوح من تقارير أولئك الضبّاط(45). ولكنّ تلك الجهود

(41) **Chronique de Libye**, 1924, p. 59.

(42) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 1، وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة (Q.O.)** تقرير جويلية 1915، ص 5. هذا وقد بلغ عدد الجرحى الإيطاليّين الّذين تمّت معالجتهم بمركز ذهيبة نحو ستّين رجل، انظر: نفس المصدر والصّفحة.

(43) **نفس المصدر والصّفحة.**

(44) **نفس المصدر والصّفحة.**

(45) **I.S.H.M.N., S.H.A.T., S. 2H, b. s 292**, d. 1, rapport du commandant HARLE sur les événements ayant précédé le mouvement insurrectionnel dans le sud tunisien, f. 20.

كان محكوما عليها بالفشل منذ البداية كما سنعرض لذلك أدناه.

لنعد -بعد هذه الإيضادات- إلى خلفيّات الانسحاب الإيطالي من خلال طرح السّؤال الآتي : لماذا ارتفعت خسائر الجيش الإيطاليّ على هذا النّحو خلال عمليّات الانسحاب من مواقعه وتحصناته بالجبل الغربي في صيف 1915 ؟

لقد أتاح لنا تقصّي أهمّ أطوار المواجهة بين حركة المقاومة والإيطاليّين الخلوص إلى استنتاجات قوامها أنّ قادة الثّوّار، وعلى رأسهم ابن عسكر، قد تفطّنوا لحيل الدّفاع الّتي كان الإيطاليّون يلجؤون إليها كلّما اشتدّ الطّوق على مواقعهم، وهو ما جعل المهاجمين (بكسر الجيم) يتوقّعون توقّعات صائبة، «سيناريوهات الفرار» ومن ثمّ يستبقون الأمور. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى لا بدّ أن نلاحظ أنّ حامية كاباو، كانت أكثر بعد عن المراكز الحدوديّة الفرنسيّة بحيث تعرض معظم رجالها للقتل أو الأسر.

ومن المهم أخيرا أن نشير إلى أنّ المواجهات المذكورة (لا سيما معركة كاباو)، جرت في ظروف مناخية غاية في الصّعوبة بالنّسبة للإيطاليّين، إذ سجّلت حرارة الطّقس أرقاما شبه قياسيّة، ممّا جعل أغلب جنود الحامية لا يقوون على القتال من فرط العطش الّذي نال منهم على نحو شديد، بعد أن سيطرت عصابات الثّوّار على الآبار، وصهاريج المياه...

وبعد انقضاء عشرة أيّام على الانسحاب الكارثيّ لحامية نالوت، أصدرت الحكومة الإيطاليّة بطرابلس، الامر لقائد حامية غدامس النّقيب إركونالي HERCONALI، بالجلاء عن البلد (46) ، وقد يمّم الجحفل الإيطاليّ، الّذي كان قوامه عشرة ضبّاط، وأربعمائة وخمسين جنديّا(47) ، شطر الحصن الحدودي «برج مسعودة» (الّذي يبعد 12 كم عن غدامس) يوم 12 جويلية، حيث كان المقدّم مينيي MEYNIER، رئيس مركز برفنكيير PERVINQUIERE في

---

(46) أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 1، وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة (Q.O.)، تقرير جويلية 1915، ص 6.

(47) نفس المصدر والصّفحة.

انتظاره(48) . وقد تحوّلت هذه القوّة الإيطاليّة إلى مركز بئر بيستور BIR PIS-TOR، ثمّ اتّخذت طريقها إلى جرجيس، حيث أبحرت نحو طرابلس.

وجدير بالتّسجيل هنا أن المقدّم مينيي التّابع حينذاك للمناطق الصّحراويّة بالجزائر، قد سارع بالالتحاق بهذا المركز الحدودي على رأس فيلقين صحراويين يوم 13 جويلية بغية عضد ضبّاط الشّؤون الأهلية لتونس في مهمّتهم المتمثّلة في تأمين الدّفاع عن المنطقة الصّحراويّة «للمحميّة»(49) .

وبانسحابهم عن آخر معقل لهم بغدامس خلال الثّلث الأخير لشهر جويلية 1915، يكون الإيطاليّون قد أخلوا كامل منطقة الجبل الغربي (بعد استسلامهم في ورفلة، وهزيمتهم في مزدة وترهونة في مطلع نفس الشّهر)، الّتي دانتْ لرجال المقاومة، وغدت -وفق التّقارير الإيطاليّة والفرنسيّة- مرتعا للفوضى (إقرأ: مستقلّة تحت قيادة الزّعامات القبليّة للمنطقة).

ويهمّنا أن نشير هنا إلى أنّ حرب العصابات الّتي شنّتها حركة المقاومة باقتدار كبير، خلال صيف 1915، قد ألحقت الهزيمة بالإيطاليّين في العزيزية وسرت. كما اضطرّتهم إلى إخلاء الزّاوية وزوارة (في منتصف جويلية)، بحيث اقتصر الحضور الإيطاليّ، بإقليم طرابلس في نهاية جويلية 1915، على النّطاق الضيّق لمدينتي طرابلس والخمس.

وفي نهاية نفس الشّهر، دخل خليفة بن عسكر قصر نالوت، على رأس رجاله، دخول القادة الظّافرين. وقام فور نزوله بالبلدة بجمع الغنائم، وجردها (وكان معظمها من مخلّفات الجيش الإيطالي)(50) ، ثم أعلن نفسه قائما على مسقط رأسه بدلا من خليفة بغني وحظي قراره هذا بدعم الشيخ سوف المحمودي في أوت 1915(51) .

(48) **نفس المصدر والصّفحة**.

(49) **I.S.H.M.N., S.H.A.T., b. s. 292, s. 2 H 53**, d. 3, Historique des opérations... op. cit., f. 573.

(50) القشّاط، **نفس المرجع**، ص 42.

(51) P. Granchamp, "Khalifat ben Asker", op. cit., p. 151.

زحف القوات الإيطالية على الجبل الغربي سنة 1913

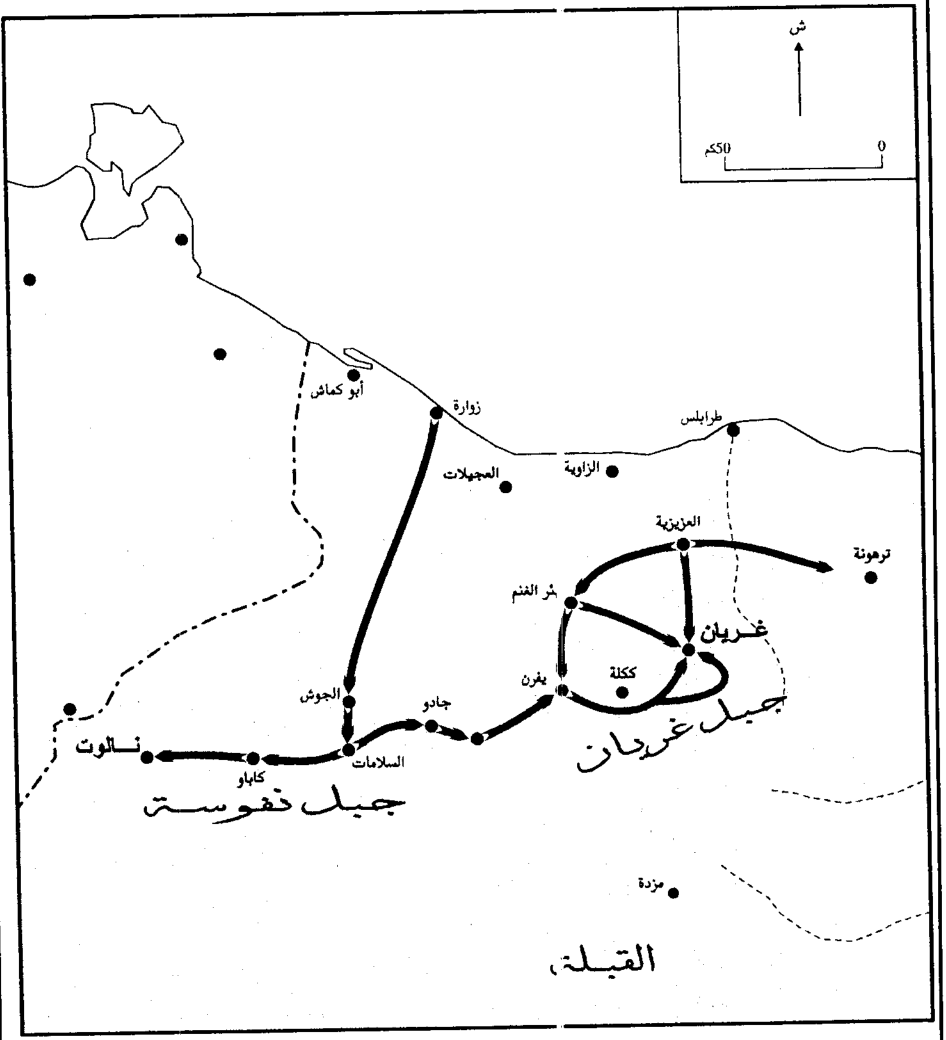

المفتــــاح

إحتلال جبل نفوسة

إحتلال غريان

حـدود

مـدن

إنجـاز : مخبـر الخـرائطيـة

كلية الآداب والعلوم الانسانية بصفاقس

كما عمد إلى عزل الموظّفين الّذي نصّبهم الإيطاليّون وأجزلوا لهم العطاء، وعيّن مكانهم نفرا من أتباعه أمثال الحاج أحمد أيّوب الّذي أصبح عميدا لبلدة نالوت(52) ، ومن بين شيوخ القبائل الّذين عيّنهم يمكن ذكر عيسى بن تفوشيت، ويحي التّمتام، وأيّوب بن مسعود، وموسى بالحاج سعيد(53) .

إنّ المتابعة المتمعّنة لمختلف مراحل انتصار المقاومة غربيّ إقليم طرابلس بعامّة، وجهة نالوت بخاصّة تحضّنا على إبداء ملاحظة، وطرح سؤال.

أمّا الملاحظة فقوامها أنّ ابن عسكر لم يلاق صعوبات تذكر في فرض سلطانه على منطقة نالوت مثلما ألمحت إلى ذلك تقارير ضبّاط الشّؤون الأهليّة(54) . ونستطيع الجزم دون مواربة، أن نوعا من الإجماع قد نشأ حول شخصه منذ السّاعات الأولى لحلوله بالبلدة المذكورة.

وأمّا السّؤال فيمكن صياغته على النّحو التّالي : هل طبق الحاكم الجديد، بعد اختفاء الأتراك وهزيمة الإيطاليّين، الشّريعة الإسلاميّة على حرفيّتها أسوة بما سار عليه بعض زعماء الجبل الغربيّ حينذاك في المناطق الرّاجعة إليهم بالنّظر، ولا سيما رمضان السويحلي سيّد مصراتة(55) ؟

لا بدّ أن نقرّ في البداية أنّ المصادر شحيحة بهذا الخصوص، ومن هنا يصعب إصدار حكم أو ما يشبه الحكم في هذا الشّأن. بيد أنّه بوسعنا القول أنّ خليفة بن عسكر كان انتقائيّا في هذا المجال ذلك أنّه جهد في تطبيق أحكام الشّريعة في بعض المسائل، وغضّ الطّرف عن ذلك بخصوص مسائل أخرى(56) .

(52) القشاط، **نفس المرجع**، ص 42.

(53) **نفس المرجع والصّفحة**.

(54) **I.N.H.M.N., M.A.E., Q.O., Série N^lle^ Série Tunisie**, b. 38, rapport août 1915.

(55) شهادة الطّاهر الزّاوي، راجع حسن علي خشيم، **صفحات من جهادنا الوطنيّ**، ط2، طرابلس، دار مكتبة الفكر، 1974، ص 21.

(56) من الأمثلة على ذلك تمسّك ابن عسكر بأحكام الشّريعة الإسلاميّة فيما يخصّ الغنائم (انظر ادناه)، بيد أنّه لم يعمد إلى جلد شاربي المسكرات مثلما فعل رمضان السويحلي، أنظر : حسن علي خشيم، **نفس المرجع**، ص 22.

ومهما يكن من شيء، فقد تمّ الأمر لخليفة بن عسكر الّذي أصبح في وقت وجيز سيّد نالوت الأوّل، وتحوّل في نفس الوقت إلى أحد زعماء الجبل الغربي البارزين. وبالتّدريج أخذت خدلوات الرّجل تتّسع، ومطامحه السّياسيّة تزداد، على نحو ما سنرى تفصيلا في الأبواب القادمة.

إلاّ أنّنا وقبل أن نطوي كلامنا على هذا العنصر الخاص بحرب خليفة بن عسكر ضدّ الإيطاليّين خلال الفترة الواقعة بين نوفمبر 1914 وجويلية 1915، نرى من الضّروري تسجيل ما يلي :

أوّلا : إنّنا لا نبخس خليفة بن عسكر حقّه، ولا نطمس دوره في إيقاع الهزائم بالإيطاليّين، عندما نؤكّد أنّ الانتصارات الّتي حقّقها جاءت في فترة بدأ فيها الحضور الإيطاليّ بالانحسار على نحو ملحوظ. وحسبك أنّ الإيطاليّين انجلوا عن البلاد كلّها -ما خلا طرابلس والخمس كما أسلفنا- في غضون مدّة وجيزة بدأت في 29 أفريل 1915 (بهزيمة القرضابيّة الشّهيرة)، وانتهت في موفّى جويلية 1915 (بالجلاء عن غدامس)

وجدير بالإشارة هنا إلى أنّ اندلاع الحرب العالميّة الأولى في خريف 1914، وانحياز الامبراطوريّة العثمانيّة في 31 أكتوبر 1914 إلى صفّ دول الوسط (ألمانيا والنّمسا - المجر)، وإعلان السّلطان العثماني محمد الخامس (خليفة المسلمين)، الجهاد ضدّ دول التّحالف (فرنسا، أنجلترا، روسيا)، وأخيرا انضمام إيطاليا إلى الحلفاء (في ربيع 1915 إثر ميثاق لندن في 26 أفريل 1915) قد ألقت بظلالها على طرابلس الغرب، إذ نظرت ألمانيا وتركيا إلى هذا البلد الشّاسع ذي العمق الاستراتيجيّ الهام كرأس جسر، أو قاعدة انطلاق لبث القلاقل (عبر الدّعاية المركّزة والخبراء العسكريّين ونحوهم...) في المستعمرات الفرنسيّة والأنجليزيّة بإفريقيا بعامّة وبشمالها بخاصّة. وفي هذا الإطار يمكن تنزيل قرار الأتراك والألمان القاضي بإعانة المقاومة في هذا البلد من خلال إرسال ضباط وخبراء عسكريّين، قصد الإشراف على تنظيم العمليّات الحربية(57).

(57) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 1، وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة (Q.O.)**، تقرير سبتمبر 1915. انظر كذلك :

كما أمر الأتراك العثمانيّون عددا من الزّعماء الطرابلسيّين المقيمين باستانبول بالعودة إلى إقليم طرابلس، وعهدوا إليهم بمهمّة «تجديد الثّورة على الطّليان...»(58)، وتنظيم المقاومة هناك وإحكامها.

وكان من بين هؤلاء العائدين سليمان الباروني، نائب منطقة الجبل في مجلس المبعوثان (البرلمان التّركي)(59)، والشّيخ سوف المحمودي(60).

واجتهد الرّجلان، كلّ من جهته (نظرا للخلاف الّذي نشب بينهما)(61)، في كسب تأييد خليفة بن عسكر وجعله يخضع لتعاليمهما.

وفي إطار حركة «الإغواء» تلك، سارع سوف المحمودي، في أوت 1915 بإعلان تأييده لقرار خليفة بن عسكر القاضي بتعيين نفسه قائمقاما على نالوت(62). وسينسج سليمان الباروني على منواله في نوفمبر 1916(63).

ومجل الأمر، فإنّ انتصارات ابن عسكر، خلال صيف 1915، قد جاءت في فترة بلغت فيها الرّهانات محلّيا ودوليّا شأوا كبيرا من التّشعّب والتّعقيد.

ثانيا : بَرْهَن خليفة بن عسكر أثناء العمليّات الّتي قادها ضدّ الإيطاليّين، ابتداء من أفريل 1915، على أنّه حذق فنون حرب العصابات، وتمثّل أسرارها

== - **نفس المصدر**، ملف 3، تقرير جوسلين JOUSSELIN قنصل فرنسا بطرابلس إلى ديلكاس DELCASSE، وزير الشّؤون الخارجيّة بتاريخ 30 جانفي 1915 وثيقة عدد 10، وكذلك تقرير باربر BARRERE السّفير الفرنسيّ بروما إلى ديلكاس بتاريخ 9 ماي 1915 وثيقة عدد 212.

(58) الطاهر الزاوي، **جهاد**، ص 169.

(59) Pierre Granchamp, "Notes tripolitaines, Sliman El Barouni", in **Les Cahiers de Tunisie**, T. XIII, 1956, p. 181.

(60) الطاهر الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 169-170.

(61) **Chronique de Libye**, 2ème année, 1922, p. 159.

(62) **Ibid.**, p. 151.

(63) **Ibid.**, p. 160.

على نحو جيّد (طبق باقتدار تكتيك هذه الحرب المسمّاة بانهاك الإعياء(64)، المعتمدة على عنصر الانقضاض المفاجئ، والمخاتلة، وسرعة المناورة والمبادرة حينا، وعلى عنصر المناوشة والتحرّش، حينا آخر...). كما أظهر هو ورجاله، كفاءة عالية في حسن إدارة النّيران و لتّسديد(65)، وهو ما شهد به الإيطاليّون أنفسهم وكذا الفرنسيّون(66).

إنّ حصول المقاومين على السّلاح الأروبي العصري، السّريع الطّلقات، والّذي يصيب الهدف من بعيد وبدقّة متناهية، هو الّذي يفسّر -إلى حدّ كبير- ضخامة الخسائر البشريّة الّتي تكبّدها الإيطاليّون، مما جعل مركزهم في طرابلس الغرب يتزعزع يوما بعد يوم. ويتأتّى معظم السّلاح المذكور، إمّا بفضل الإعانات التّركيّة الّتي كانت تصل ميناء مصراتة (قصر حمد)، بشكل منتظم، أو من غنائم رجال المقاومة من الإيطاليّين إثر جلاء هؤلاء عن جلّ مواقعهم.

يقول الجنرال رودولفو غراتسياني في هذا الصّدد :

«... وقد استطاع العرب الاستيلاء على مقادير كبيرة من الأسلحة والذّخيرة الّتي كانت موجودة في مخازننا في شتّى المراكز حيث رجعت قواتنا منها بسرعة، دون أن يمكنها نقل ما معها. وقد قدر ما استولى عليه العصاة بنحو أربعين ألف بندقيّة حربيّة، ونحو مائة رشّاشة، ونحو ثلاثين مدفعا، وزد عليها مقدارا كبيرا من الأسلحة الّتي دخلت وقت الحرب العظمى...»(67).

---

(64) المقدّم الرّكن رياض تقي الدين، **نافذة على الفكر العسكريّ**، بيروت، دار النّهار، 1986 ص 244-251.

(65) جاء في إحدى الرّوايات الشّفويّة أنّ أحد رجال ابن عسكر وهو المدعو محمد المسعودي لم يكن يضاهيه أحد في حسن التّسديد و إصابة المرمى، انظر : القشاط، **نفس المرجع**، ص 33.

(66) **I.S.H.M.N. (Q.O.), Fonds nominatifs**. Papiers d'Etat, papiers Gabriel Alapetite. Lettres à Peretti de la Rocca, lettre du 27 juin 1916, f. 99.

(67) رودولفو غراتسياني، **نحو فزان**، نقلا عن الطّاهر الزّاوي، نفس المصدر، ص 171.

وجدير بالإيماء هنا أن أبـرز أسماء قطع السّـلاح الّتي اشتهـرت عند رجال المقاومة، بندقيّة الموزر Mauser(68) ، وهو سلاح أحـضره الأتراك من ألمـانيا، وأطلق السكّان على هذه البندقـيّة إسم «أم عشـرة» لأنّها ذات عشـر طلقات(69) ، وكذلك بندقـيّة إيطاليّـة ذات ستّ طلقات، عرفت عند الأهالي بـاسم «أبو حشطة»، فضـلا عن الدقرة (بندقيّة إيطالـيّة ذات ستّ طلقات)، و«بوصوانة» و«أم حـربية» (نوعان من البنادق ذات 6 طلقات) ومسـدس «بوستّة» أو «بوجرارة»(وهو إيطالي الصّنع أيضا) الخ(70) .

ونرى من المهمّ، قـبل طي الحديث عن هذا الدّور الهـام من حركة ابـن عسكر ضدّ الإيطاليّين، الإشارة إلى أنّ زعـيم نالوت ورجاله جنحوا إلى السّلب والنّهب في أحايين كثيرة(71) ، إمّا في أثـناء عمليّـاتهم الحربيّـة، أو لمعاقـبة بعض الوجـهاء والتجّار الأهالي القريبين من السّلطة الإيطاليّـة. بمعنى آخر، فإنّ رجال ابن عسـكر، أتوا من الأعمال إذّاك ما هو خليق بقطّاع الطّرق والصّعاليك.

وممّا هو حـريّ بالتّسـجـيل هنا أنّ الشّيخ الطّـاهر أحمـد الزّاوي، اعتـرف بحصول مثل تلك التّجاوزات (وقد اسـتوى في ذلك جلّ الزّعامات تقريبا...) بلغة لا تقبل المـاحكة، إذ أكّد أنّ المجاهدين توسّعـوا «في الإغارة، فلم يفرّقـوا بين الطّليان وغيـرهم، فأصيب كـثير من النّاس في حـيواناتهم، فـضجّ النّاس من هذه الحال، وكثرت شكاياتهم...»(72) .

---

(68) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 1، وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة (Q.O.)** تقرير افريل 1913.

(69) محمد امحمّد الطوير، «مقاومـة العرب اللّيبيين للاستعمار الإيطالي 1911-1932»، في **المجلّة التّونسيّة للعلوم الاجتماعيّة**، عدد 72-73، تونس 1983، ص 49.

(70) نفس المرجع والصّفحة. انظر كـذلك : علي مصطفى المصراتي، **سعدون البطل الشّهيد**، بيروت، المكتب التّجاري للطباعة والنّشر، 1964، ص 254.

(71) القشاط، **نفس المرجع**، ص 35.

(72) الطّاهر الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 144.

ومن الأمثلة على البعض من تلك الممارسات، الهجوم الّذي شنّه رجال ابن عسكر (بأمر منه) يوم 28 جوان 1915 على "رتبة" أولاد سلام من قبيلة الصيعان بالمكان المعروف بالعجمية (30 كم إلى الغرب من الجوش)، ونهب كلّ ما أودع فيها من محاصيل وأمتعة(73).

وعثرنا في الوثائق على ما يفيد أنّ خليفة بن عسكر كان يخمس «مال الله» في «المُطلينين»، والمتعاونين مع السّلطة الإيطاليّة(74)، وذلك تطبيقا للآية الكريمة: «واعلموا أنّ ما غنمتم من شيء فإنّ للّه خمسه وللرّسول ولذي القربى واليتامى وابن السّبيل» (الأنفال 41).

وواضح من خلال هذه الإشارات المهمّة أنّ ابن عسكر (ويصدق نفس هذا الكلام على زعامات قبليّة أخرى بإقليم طرابلس)، كان ممّن «تشبّعوا» "بفقه السّرقة"، أي تبرير أعمال السّلب والنّهب والإغارة تبريرا دينيّا.

ومن الطّريف الدّال بهذا الخصوص، أن تقسيم الغنائم، كان يتمّ في منتهى الشّفافيّة والعدالة. ولم يكن «البي» خليفة كما كان يسمّيه أتباعه(75)، يستأثر لنفسه بحصّة أكبر أو بأيّ امتياز آخر(76)، وهي لعمري خلّة من خلال الفروسيّة النّبيلة.

وستفجّر مسألة الغنائم هذه، أزمة حادّة بينه وبين زعماء السنوسيّة خلال خريف 1915 على ما سيزداد اتّضاحا في فصل تال.

***

---

(73) أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 1، وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة (Q.O.)، تقرير جوان 1915.

(74) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Série Guerre 1914-1918**, d. 1603, télégramme du Commandant Militaire au Résident Général, Medenine, 6 juin 1917, f. 285.

(75) القشاط، **نفس المرجع**، ص 16.

(76) **أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف 30/15 - 756**، تقرير محمد الزاوي الآنف ذكره (11 جانفي 1915) وثيقة 36، ص 3.

أعلن خليفة بن عسكر على غير انتظار، الحرب على فرنسا في خريف 1915. وشكّلت تلك الخطوة الّتي أقدم عليها القائد الجبالي، في حماسة ودأب، مبدأ دور جديد، وفاتحة عهد مهمّ، في حياته كقائد عسكريّ ورمز سياسيّ، وجعلت منه بالتّالي الزّعيم اللّيبي الوحيد الّذي يستعدي عليه الفرنسيين، في وقت كانت المقاومة اللّيبيّة فيه في أمسّ الحاجة إلى سند خارجي من لدن القوى العظمى.

سنحاول في المبحث التّالي، الّذي عقدناه لحرب خليفة بن عسكر مع الفرنسيّين، أن نجيب عن ثلاثة أسئلة يتضمّن كلّ واحد منها السّؤالين الآخرين ويحيل عليهما: هل كان لحركة خليفة بن عسكر ضدّ الفرنسيّين فعلا، سمات العمل الفرديّ المعزول، دون أفق محدّد؟

وهل أفلح ابن عسكر في إقناع الزّعامات الجبليّة والقبليّة من ناحية، وأتباعه من ناحية أخرى (بعد جهد تعبويّ محدود لأهالي الجبل ونالوت والودارنة التونسيين) أن ما انتوى القيام به هو من قبيل «الجهاد ضدّ النصارى»، وليس من قبيل أعمال الانتقام الشّخصيّة؟

وأخيرا: لماذا خذل خليفة بن عسكر زعماء قبائل الودارنة الّذين استجابوا لندائه، وانضمّوا إلى حركته معلنين الثّورة على الفرنسيّين؟ ومعلوم أنّ الانتفاضة المذكورة، والّتي ستشتهر باسم انتفاضة الودارنة، ستكبّد فرنسا خسائر بشريّة خمّنت بـ 2626 قتيلا وفق المصادر الفرنسيّة نفسها.

المبحث الثّاني :
حرب خليفة بن عسكر مع الفرنسيّين وتدهور علاقته بزعماء السنوسيّة (سبتمبر 1915 - نهاية 1918)

ساءت العلاقة بين قائمقام نالوت والفرنسيّين على نحو فجائيّ ابتداء من أوت 1915. وتوّجت سيرورة تردي العلاقة بين الطّرفين خلال خريف 1915 وصيف 1916، باندلاع عدّة معارك كانت المنطقة الحدوديّة التّونسيّة - الطرابلسيّة مسرحا لها. ولم يتوصّل الجانبان إلى إبرام الصّلح إلاّ في نهاية عام 1918.

I - لماذا أعلن خليفة بن عسكر الحرب على فرنسا ؟

1- أسباب عدّة ؟

إذا أبحنا لأنفسنا شيئا من الاطمئنان لصحّة ما جاء في وثائق ضبّاط الشّؤون الأهليّة الفرنسيّين، قلنا أنّ أسباب «غضب خليفة بن عسكر على فرنسا»، وتهديده لها، تعود أساسا إلى حتجاز عائلته ببلدة قبلي، وإقفال السّلطة العسكريّة الأسواق الحدوديّة (وخاصّة سوق بنقردان)، في وجه سكّان الجبل الغربي، وأخيرا بيع حيوانات «بطلنا»، إثر فراره من المحتشد(77).

ويستشهد الضبّاط في هذا الصّدد بنصّي رسالتين، بعث بهما ابن عسكر خلال شهر أوت 1915(78) إلى رئيس مركز ذهيبة للشّؤون الأهليّة، النّقيب باري BARRE(79). وقد طلب ابن عسكر فرنسا الدخول معه في مفاوضات

---

(77) صرح الشّيخ حرب النّايلي، زعيم قبيلة النوايل، في زوارة في مطلع صيف 1915 انّ سبب «حنق خليفة بن عسكر على الفرنسيّين يعود إلى احتجاز عائلته، وبيع حيواناته...» انظر : **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 3**، تقرير النّقيب ريسلر RISLER إلى المقيم العام، تطاوين، 2 اوت 1915.

(78) لم تحمل الرّسالة الأولى تاريخا محدّدا. امّا الثّانية، فقد حرّرت بتاريخ 16 اوت 1915 انظر :

I.S.H.M.N., S.H.A.T., b. s. 292, c. 2 H 53, d. 3, f. 573.

(79) **Ibid.**

جدّية، محدّدا مطالبه كالآتي :

- **أولا** : سراح عائلته، وعائلة شقيقه عمرو العميد السّابق لبلديّة نالوت (بالإضافة إلى عمرو نفسه)، وجميع مساجين محتشد قبلي، وتسهيل عودتهم إلى نالوت.

- **ثانيا** : فتح إحدى الأسواق التّونسيّة الحدوديّة في وجه الأشخاص المذكورين أعلاه، بما في ذلك رجال المقاومة من الطرابلسيّين كي يتسنّى لهم قضاء شؤونهم، وضرورة التّعامل معهم بصفتهم العثمانيّة القديمة.

- **ثالثا** : سراح مساجين تطاوين الّذين أودعوا السّجن ظلما وبدون أيّ جرم أو جريرة، وهؤلاء المساجين هم : سليم بن خليفة القلال، وسليم فليفيل، ومحمد بن يوسف.

- رابعا : السّماح له [خليفة بن عسكر] ببيع بعض الحيوانات الّتي غنمها من الإيطاليّين إثر احتلال كاباو، بالأسواق التّونسيّة.

وفي مقابل هذه الشّروط، تعهّد ابن عسكر بإطلاق النّظاميّين الإيطاليّين الّذين وقعوا في الأسر إثر سقوط نالوت، وكباو، وسيناون، والمقدر عددهم بمائتين وثلاثين رجلا بين ضبّاط، وضبّاط صفّ، وجنود(80) ، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى التزم سيّد نالوت بضمان أمن المنطقة الحدوديّة (إقرأ : قطع دابر عمليّات الإغارة والسّعي).

لا تفوت الإشارة هنا إلى أنّ خليفة بن عسكر ختم هذه الرّسالة - الإنذار (والعبارة للرّائد هارلي HARLE)، بالفقرة التّالية :

«وإن تأبت (كذا) الدّولة ذلك كذلك، رجع لنا الجواب لأجل المقابلة بالحرب (كذا)، وكافة الإسلام وفاق واحد (كذا) وانت انتظر نفسك والسّلام من خديم الحضرت (كذا) السنوسيّة خليفة بن سعيد بن عسكر...»(81) .

(80) **Chronique de Libye, op. cit.**, 4ème année, 1925, p. 60.

(81) انظر نسخة طبق الأصل لهذه الرّسالة ضمن ملاحق هذا الكتاب، راجع أيضا :
I.S.H.M.N., S.H.A.T., b. 292, c. 2 H 57, d. 15.

وبدل الاستجابة إلى طلبه، أمعن ضبّاط مكتب قبلي للشّؤون الأهلية في التّضييق على المعتقلين لا سيما بعد حالة الهياج والتّململ الّتي عرفها المحتشد في مطلع شهر أوت 1915(82).

ومن جهة أخرى، أورد محمّد المرزوقي في كتابه الموسوم دماء على الحدود، سببا آخر دفع ابن عسكر إلى التّعجيل بإعلان الحرب، إذ قال:

«كان السّبب... أنّ جواسيسه بلّغوه عزم الفرنسيّين بالجنوب على احتلال قرية وازن اللّيبيّة، وأنّهم، ربّما فكّروا في التّقدّم إلى مراكز أخرى، خاصّة غدامس الّتي كانوا دائما ينظرون إليها بعين الشّره والقرم، بل إنّ الجواسيس حدّدوا له حتّى السّاعة الّتي تنطلق منها حامية ذهبية إلى احتلال وازن، فلم يبق لديه صبر على الاصطدام بالفرنسيّين، وهكذا اعترضهم بقوّته...»(83).

تلك هي -على وجه الإجمال- أبرز الأسباب الّتي اضطرّت ابن عسكر إلى شنّ الحرب على مواقع الجيش الفرنسيّ بأقصى الجنوب التّونسي في خريف 1915، ذكرناها كما وردت في تقارير الفرنسيّين، وكما جاءت في الرّواية الشّفويّة الّتي عُني المرزوقي بجمعها.

ومن خلال مقابلة المصادر الآنف ذكرها، يمكننا تكثيف أسباب انقلاب ابن عسكر على الفرنسيّين ضمن عنصرين أساسيّين: أمّا الأوّل فيهم ما يمكن تسميته -بمعنى من المعاني- بالبواعث الشّخصيّة. وأمّا الثّاني، فيدخل ضمن خانة الأسباب الموضوعيّة، وتحديدا الاقتصاديّة، وهي من صميم الحالة الكارثيّة الّتي غدت عليها منطقة الجبل الغربي بعامة، ونالوت بخاصّة، كنتيجة من نتائج الحصار الإيطالي الّذي فرض على السّواحل الطرابلسيّة من زوارة إلى سرت.

---

(82) أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق **282**، ملف **1**، **وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة (Q.O.)**، تقرير أوت 1915.

(83) محمد المرزوقي، **دماء**... ص 54.

2- البواعث الشّخصيّة أو مسألة سراح عائلته ورهائن محتشد قبلي :

شكّل طلب إطلاق سراح نزلاء محتشد قبلي من النالوتيين (وبخاصّة عائلة العساكرة الموسّعة، وعلى رأسها عائلة خليفة بن سعيد بن عسكر) ما يشبه اللازمة، في شكاوى قائمقام نالوت إلى رموز السّلطة العسكريّة الفرنسيّة الحدوديّة.

وجاء هذا الطّلب مرفقا حينا بلوم للفرنسيّين على تأمينهم التّغطية لحامية غدامس الّتي تحصّنت بالمراكز الحدوديّة التّونسيّة (كان قوامها مائتين وخمسين رجلا، ومائتين من المهاري...)(84)، وحينا آخر مقرونا بالتماس السّماح له ببيع ما غنم من حيوانات في كباو، بالأسواق التّونسيّة التي أقفلت في وجوه الطرابلسيّين(85).

وسبق أن ذكرنا أنّ خليفة بن عسكر، ضمّن الرّسالة - الإنذار الّتي وجّهها إلى النّقيب باري BARRE، رئيس مركز ذهيبة بتاريخ 16 أوت 1915 نفس هذا الطّلب.

وكانت القيادة العسكريّة بأقصى الجنوب التّونسيّ أوفدت في 15 جويلية 1915، المترجم العسكري راغاغري RAGAGRU، التّابع لمركز ذهيبة، إلى نالوت، قصد استطلاع الأحوال من ناحية والتّدخّل لدى الزّعيم الجبالي، كي يفرج عن الأسرى والجرحى الإيطاليّين(86)، من ناحية أخرى. وجاء ردّ ابن عسكر يحمل القبول شرط الإفراج عن عائلته (لا كلّ الرّهائن)، وفتح الأسواق الحدوديّة أمام الطرابلسيّين، وتمكينه من بيع ما غنم من حيوانات في كباو، بنفس هذه الأسواق.

(84) **I.S.H.M.N., S.H.A.T., b. s. 292**, C. 2 H 53, d. 3, **Historique des opérations**, op. cit., f. 4.

(85) **Ibid.**, C. 2H, d. 1, rapport sur les événements ayant précédé le mouvement insurrectionnel dans le Sud Tunisien, par le Commandant HARLE du Service des Affaires Indigènes, f. 18.

(86) **Ibid.**, f. 20.

وقد تعهّد الطّرف الفرنسيّ بنقل مقترحات قائمقام نالوت إلي الحكومة(87).

وفي نفس هذه الفترة التي دشّن فيها الفرنسيّون اتّصالا مباشرا بخليفة بن عسكر، تقدّم نزلاء محتشد قبلي بطلب إلى المراجع الفرنسيّة كي يسمح لهم بالعودة إلى ديارهم(88)، وكانت خيبة هؤلاء كبيرة عندما تلقّوا ردّا رافضا، الأمر الّذي أدّى إلى اندلاع حركة احتجاج بالمعسكر اضطرّت السّلطة العسكريّة على إثرها، إلى تشديد قبضتها على المحتجزين(89).

وبالرّغم من تلك الإجراءات الزّجريّة، فقد تمكّن رجلان من الفرار من المحتشد، كان من بينهما المدعو يحي بن سعيد بن عمر(90).

ومن الجدير بالتّسجيل هنا، أنّ ضبّاط الشّؤون الأهليّة اعترفوا بأنّ ظروف إقامة النالوتيّين كانت جدّ صعبة بالنّسبة لبعض العائلات(91)، مما يحمل على الاستنتاج أنّ ذلك الطّلب، وتلك الحركة الاحتجاجيّة كان لهما ما يسوغهما، حتّى في نظر أعوان السّلطة الفرنسيّة.

وبعد انقضاء عشرة أيّام على محادثة راغاغري - ابن عسكر، تيقّن هذا الأخير أنّ السّلطة العسكريّة الفرنسيّة سلكت معه مسلك المراوغة، وأنّ تلك المقابلة لا تعدو أن تندرج ضمن خطّة جاسوسيّة(92). وبناء على ذلك، قام بإشعار

(87) **Ibid.**

(88) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 1، وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة (Q.O.)**، تقرير اوت 1915.

(89) **نفس المصدر.**

(90) **أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف 15/30 - 756**، وثيقة 26، تقرير النّقيب بوفي BOUVET إلى الإقامة العامّة الآنف ذكره.

(91) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 1، وثائق وزارة الشّؤون الخارجيّة الفرنسيّة (Q.O.)**، تقرير اوت 1915.

(92) **I.S.H.M.N., S.H.A.T., b. s. 292,** s. 2 H, d. 1, rapport du Commandant HARLE, op. cit.

الطّرف الفرنسيّ، بقراره قطع المفاوضات وقَبْرَ مشروع المقايضة الآنف ذكره(93).

ثم طفق يحضّ أقساما من قبيلة الودارنة التّونسيّة (من أولاد دباب، والمخالبة، وأولاد شهيدة، وأولاد سلطان، والزرقان، والحميدية، والدغاغرة الخ...) على «الانشقاق» والالتحاق بحركته(94).

هكذا نلاحظ أنّ أزمة ثقة رَانَتْ على العلاقة بين الفرنسيّين وخليفة بن عسكر بعد فشل تجربة الحوار في 25 جويلية 1915، الأمر الّذي اضطرّ هذا الأخير إلى التّصرّف بشكل صداميّ.

ولعلّنا لا نخطئ إذا قلنا أنّ الانتصارات الّتي حقّقها الرّجل ضدّ الإيطاليّين، قد أنشأت لديه إحساسا بالتّفوّق والثّقة المفرطة وخاصّة بعد أن دانَتْ له جهة نالوت بالكامل، الأمر الّذي جعله يتحوّل إلى مُحاور كُفء وشرعيّ في نظر الفرنسيّين، ثم جاءت الخيبة المذكورة، فكانت مبعث حرج شديد لديه. وبالتّدريج حَمِيَت الرّغبةُ عند ابن عسكر في معاقبة الفرنسيّين، ومن ثمّ تملّكته الرّغبة في الانتقام على نحو مكين.

والسّؤال الّذي يملي نفسه هنا: ماذا كان موقف المحتجزين حيال تدهور العلاقة بين خليفة بن عسكر والفرنسيّين؟

ابتداء نلفت الانتباه إلى أنّ ما وصلنا من ردود أفعال، جاء بأقلام الضبّاط الفرنسيّين. وكما هو معروف، فإنّ هؤلاء العسكريّين دأبوا، من خلال تعاطيهم مع أقوال السكّان إلى طمس الكثير من الحقائق، وتغييب العديد من الأشياء.

يقول المدعو خليفة بن أحمد بن إبراهيم العزابي النالوتي معاتبا ابن عمّه، وصهره خليفة بن عسكر، في رسالة حرّرت في 23 نوفمبر 1916:

«فعلى هاذ (كذا) تعلم يا أخي حين فرين (كذا) هاربين من دولة طاليه ودخلنا

(93) Ibid.

(94) Ibid.

إلى تراب الدولة الفرنساوية بـ لعمالة التونسيّة وحين سمعو [بياض] الدّولة فرحو بينا أشد الفرح... وفعلوا معان كذا) إلا المليح...»

ويضيف في موضع آخر:

«الموراد (كـــذا) منك أن تقـبـل كـلامي إنّك اتـبع الملاحـة مع جـناب الدولة الفرنسـاوية رَاهُ أحسن وليس تقـبل كلام ناس ورغمـة... وتأخذ رأيي خـير راهم يظروك (كذا) وليس ينفعوك...»(95).

وواضح من خلال كلام خليفة العزابي ابـن عم خليفة وصـهره، ومن مواقف عمرو بن عـسكر، لاحقا، بعد أن شمله الفرنـسيون برعايتهم، وسمـحوا له بحرية الحركة وتعاطي التجارة ومختلف الأعمال(96)، أن قسما من المحـتجزين لم يكن على رأي قائمقام نالوت في تعـاطيه مع الجانب الفرنسـيّ.

هل يفـهم من هذا أن خلـفـة بن عسكر كـان ناكرا للجـميل، وأن "مكـافأة" فرنسا –نظير احتضانها للمهاجرين النالوتيين– كانت من قبيل «جزاء سنمار»؟

ليـست الأشياء بمـثل هذه البســاطة (بله الفجـاجة)، ولكن الثّـابت لدينا أنّ الأخطاء الّتي ارتكبها ابن عسكر، ومن بينهما ما عرف عنه من اندفاع غير محسوب. قد أتاح للفرنسيّـين "تلطيخ" صورته وتشويهها لدى بعض الزّعامـات اللّيبيّة ولا سيـما لدى الشّـيخ سوف المحـمودي وممثّلي السنوسيّـة بإقليم طرابلس(97)، وبالتّالي اجـتذاب قسم مـنها إلى طروحاتهم، وذلك بفـضل ما أوتي لهم من لبـاقة وديبلوماسيّة.

---

(95) أ.و.ت.، سلسلة E، صـدوق **550**، ملـف **30/15 - 756**، وثيـقة 49 (انظر الملاحق).

(96) **نفس المصدر**، راجع ملف 30/15 - 694 (ملف عمرو بن عسكر). انظر على سبيل المثال الوثيقة 50 وكذا رسالة العقيد دولافو DELAVEAU القائد العسكري لمناطق الجنوب إلى المقيم العام بتونس المؤرّخة في 17 ديسمبر 1920.

(97) **نفس المصـدر، سلسلة A، صندوق 280، مـلف 3**، تقريـر النّقيب ريسـلر RISLER إلى المقيم العام، تطاوين، 2 أوت 1915.

3- إقفال الأسواق الحدوديّة التّونسيّة في وجه أهالي الجبل الغربي الطرابلسيّ :

أصبحت الأسواق الحدوديّة التّونسيّة المتنفّس الوحيد لسكّان الجبل الغربي بعد الحصار الّذي فرضه الإيطاليّون على السّواحل الطرابلسيّة. وكان سكّان هذا الإقليم يبيعون بهذه الأسواق الحيوانات والأمتعة وما هم في غنى عنه، أو مضطرون لبيعه، ويشترون بالمقابل ما هم في حاجة إليه من المواد الغذائيّة والأثاث والمتاع...

وعلى إثر تنحي الإيطاليّين عن إدارة منطقة الجبل الغربيّ جرّاء هزيمتهم المارّ ذكرها، وكذا اندلاع الحرب العالميّة الأولى، وإعلان السّلطان خليفة المسلمين الجهاد ضدّ دول التّحالف، اضطرّ الفرنسيّون إلى غلق الأسواق الحدوديّة في وجه مرتاديها من الطرابلسيّين خشية انتشار الدّعوة إلى الجهاد في صفوف قبائل التوازين والودارنة الحدوديّة.

وجاء في أحد تقارير ضبّاط الشّؤون الأهليّة تسويغ الأسباب الّتي حدت بهم إلى اتّخاذ مثل ذلك الإجراء. تقول الوثيقة :

«لم يترتّب على جلاء الإيطاليّين كشف حدودنا فقط، بل تسبّب ذلك في إحداث تبدّل ملموس في موقف قبائلنا. ومردّ هذا التّغيّر عاملان. أوّلهما إعلان الجهاد المقدّس من لدن الأتراك، وثانيهما الأخبار الّتي يروّجها الطرابلسيّون الّذين يتردّدون على أسواقنا، وفيها إشادة بانتصارات المتمرّدين، وتنظيمهم، وبمقام القائد السنوسي الكبير، والعزم على مهاجمة تونس قريبا...»(98).

لقد نجم عن هذا التّقرير الفرنسيّ ترد واضح في ظروف عيش أهالي الجبل الغربي، إذ نفد عام 1915 ما كان بحوزة سكّان جهة نالوت من الأرزاق أو كاد. وانتشرت حالة العوز والفاقة بين رجال ابن عسكر نفسه، إذ أصيبت خيولهم

(98) **I.S.H.M.N., S.H.A.T., b. s 292**, C. 2 H 53, d. 3, **Historique des opérations... op. cit.**, f. 573.

بالهزال الشّديد، كما جاع أغلبهم جرّاء النّقص الكبير في التّموين(99).

وبناء على هذه المعطيات نفهم سبب حرص ابن عسكر بخصوص فتح الأسواق الحدوديّة التّونسيّة ناهيك أنّه غنم حيوانات من الإيطاليّين كان يريد مقايضتها بالمواد الغذائيّة في سوق بنقردان.

وعلى العموم، وكائنة ما كانت طبيعة الدوافع الّتي جعلت ابن عسكر يبادر بالحرب، فإنّ الطّرف الفرنسيّ لم ينكر «الطّابع السّياسيّ للقطيعة» التي حصلت بين زعيم نالوت والفرنسيّين في منتصف صيف 1915(100). وهذا ما سيتسبّب في فتح «جبهة تونسيّة» ستبتلع المئات من رجالهم.

II - أهم وقائع خريف 1915 : الهجوم على ذهيبة وحصار أم صويغ أو فتح جبهة جديدة من جبهات الحرب العالميّة الأولى

ينبغي أن نشير منذ البداية إلى أنّ انطلاق العمليّات الحربيّة ضدّ المواقع الحدوديّة الفرنسيّة جاء نتيجة اتّفاق بين خليفة بن عسكر، وقادة قبائل الودارنة التّونسيّة (خلافة تطاوين).

وكان عدد من وجهاء(101) هذه القبيلة المهيبة (من أحياء أولاد دباب،

---

(99) أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف 30/15 - 756، وثيقة 23، ووثيقة 27 ص 2. تصريح القوميّة الأسرى خلال معركة أم صويغ، وهي تصريحات مؤرّخة بـ 10 اكتوبر 1915 ومن بين ما جاء في هذه التصريحات أن حصّة الطّعام المقرّرة لخمسة رجال (على الأقل) خلال يوم واحد لا يتعدّى «رغيف خبز واحد...».

(100) P. Granchamp, **Chronique de Libye, op. cit.**, 3ème année, 1923, p. 60.

(101) أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف 30/15، قاد هذه الحركة ثلاثة وجهاء هم:

- **سعيد بن حمد بن عبد اللّطيف**: من قبيلة أولاد دباب (ودارنة)، من أبرز وجاهات جهة تطاوين (قصر أولاد دبّاب) قبل 1915، عيّن ممثّلا للمنطقة العسكريّة لأقصى الجنوب بالجمعيّة الشّوريّة قبل أن ينهض لقيادة الانتفاضة.

وأولاد شهيدة، والكراشوة، والزرقان، والحميدية، والعجاردة، والمخالبة، والدغاغرة الخ...)، قد شرعوا منذ ربيع 1915 في ترتيب أمر تحرّك مسلّح ضدّ الحضور الفرنسيّ بجهتهم، في ظرف اتّسم باحتداد الدّعوة إلى الجهاد، وبالأصداء الإيجابيّة لانتصارات المقاومة الطرابلسيّة لدى سكّان القبائل الحدوديّة التّونسيّة وأخيرا، "بانكشاف" تلك الحدود الحديثة العهد بالتّرسيم(102)، بعد جلاء الإيطاليّين عن كامل الشّريط الحدودي.

ليس في نيّتنا التّعرّض لأسباب هذه الحركة ومقدّماتها وأطوارها، وذلك لاعتبارات منهجيّة تقتضيها حدود الموضوع الّذي نبحث فيه. وأقصى ما نودّ التّأكيد عليه هنا هو ذلك التّنسيق الّذي نشأ بين القبائل الحدوديّة التّونسيّة، وقبائل الجبل الغربي الطرابلسيّ بغرض مهاجمة عدد من مراكز الحاميات الفرنسيّة، والدّور الّذي نهض له خليفة بن عسكر في استنفار المقاتلين والتّخطيط للعمليّات العسكريّة وتوجيهها.

كما أنّنا لا نعتزم القيام بمتابعة مجهريّة لكلّ الوقائق الحربيّة، نظرا لكثرتها من ناحية، وعدم رغبتنا التّورّط في نوع من التّاريخ - المعركة L'hisotire-bataille، من ناحية أخرى.

ويبقى غرضنا هنا، التّوقّف عند أهمّ المعارك، والانتقال فوق قممها. ولولا ضيق المجال لكنّا «خاطَرْنا» خلال وصف معارك خريف 1915، وصيف

==

- **علي بن عبد اللّطيف الدبابي** : كان يشغل خطّة شيخ على قبيلة أولاد دبّاب ساعة تزعمه حركة الانتفاضة رفقة شقيقه سعيد.
- **عمر الأبيض** : كان يشغل خطّة شيخ كرشاو (قرية تقع نحو 22 كم إلى الجنوب الشّرقي من تطاوين)، حين التحاقه بسعيد وعلي بن عبد اللّطيف زعيمي انتفاضة الودارنة الرّئيسيين، وهو القيادي الوحيد للانتفاضة الّذي لم يستشهد في واقعة أم صويغ (2-9 اكتوبر 1915).

(102) André MARTEL, **Les confins saharo-tripolitains de la Tunisie (1881-1911)**, Paris, P.U.F., 1965, T. 2, pp. 266-319.

1916، بتطبيق «وصفة» الحدث التّاريخيّ بالبطيء : L'événement historique dans la perspective du ralenti (Zitlupe) الّتي ابتدعها اندرياس سوتر Andreas SUTER، والمتمثّلة أساسا في تركيز العدسة المكبّرة على معارك منتقاة «وابطاء» النّسق الكرونولوجي الطّبيعي، بحيث يتسنّى إدراك سير الحدث على نحو جيّد، كلّ ذلك من أجل اكْتناه معاني الخطط الحربيّة، وحيل الدّفاع، والذهنيّة القتاليّة، والاتّجاه العام الّذي حدّدها الخ...

1- الهجوم على مركز ذهيبة (18-23 سبتمبر 1915) :

قبل الخوض في تفاصيل الهجوم على مركز ذهيبة، نرى من الضّروري تدوين الملاحظات التّالية على هيئة عنصر فرعي صغير.

أ- عندما تناقض السّلطة الفرنسيّة نفسها :

من المقطوع به أن ضبّاط الشّؤون الأهليّة كانوا يبذلون الوسع للتّستّر على أخطائهم وتجاوزاتهم (الإداريّة كما العسكريّة) في التّقارير المرسلة إلى رؤسائهم المباشرين. ولقد جلب هذا «النّهج التّضليلي» -أحيانا- بعض المتاعب لأصحابه.

وتعدّ الحوادث الّتي سبقت الحركة المسلّحة لخريف 1915 عيّنة معبّرة عن التّمشّي المذكور، إذ كشفت بجلاء التّناقض الّذي وسَمَ السّياسة الفرنسيّة بخصوص المسألة الأمنيّة الحدوديّة، وأبْرزَ بالتّالي تهافُتَ الحديث عن «تهدئة شاملة» بتلك الأصقاع النائية.

وتجد أطروحتنا هذه سندا لها -على نحو مستوف- في وثائق سلطة الاحتلال نفسها، ولعلّ السؤال المهمّ الّذي يواجهنا هنا هو : هل شكّل اندلاع «حوادث أقصى الجنوب» (كذا) مفاجأة بالنّسبة للقيّمين على الشّأن الأمنيّ «بالمحميّة التّونسيّة» بعامّة، وضبّاط الشّؤون الأهليّة بخاصّة ؟

باستقرائنا الوثائق المشار إليها تبيّن لنا أنّه استحال على الضبّاط -خلال الحقبة 1914-1915- الفكاك من أسر الأدبيّات المجوجة الّتي سار عليها أسلافهم مُذْ تمّ تركيز الإدارة العسكريّة بالمنطقة، والّتي لم تخرج على لازمة متانة

دعائم «السّلام الفرنسيّ»، وهم يكونون بذلك قد مارسوا سياسة النّعامة أو الهروب إلى الأمام دون اكتراث بسوء العاقبة كما تجلّى ذلك بعديا، وعلى نحو ساطع.

ومن السّهل جدّا الكشف عن تلك التّناقضات من ناحية، وإبراز البعض من أباطيلهم من ناحية أخرى، وهذا ما سنحاول اختصاره في :

أوّلا : إن ما كان يَرِدُ في التّقارير المذكورة كان يجافي ما يجري على الميدان وقتذاك من استعدادات و«إجراءات وقائيّة». وحسبنا الإشارة هنا إلى أنّ منشور 1 أوت 1914، قد جاء منظّما للتّعبئة في مصلحة الشّؤون الأهليّة(103)، وأنّه أنشأ قوّة رَديف في 23 سبتمبر 1914كانت تتبع الوحدات العسكريّة الفرنسيّة، وأنّ وزارة الحرب سمحت، بعد الإعلان عن اندلاع الحرب العالميّة الأولى بتجنيد خمسمائة من القوميّة من أقسام ورغمّة وذلك تحسّبا لنشوب اضطرابات على الحدود الجنوبيّة الشّرقيّة لا سيما إثر وصول أنباء عن هزائم الجيوش الإيطاليّة في إقليم طرابلس(104).

ولعلّ الأهمّ من كلّ ذلك ما تمّ إقراره خلال شهر أفريل 1915 من إعادة تنظيم للمناطق الواقعة جنوب ذهيبة إذ تحوّل مركز ذهيبة إلى فرع مستقلّ للشّؤون الأهليّة بعد أن كان تابعا لفرع تطاوين(105)، ويرجع رئيس ذهيبة بالنّظر إلى رئيس مركز برفنكيير، قائد المنطقة الحدوديّة الممتدّة بين بئر زَارْ وضواحي غدامس(106).

---

(103) Capitaine CHAVANNE, **Historique du Service des Affaires Indigènes de Tunisie, 1888-1930**, Bourg, 1931, p. 60.

(104) **Ibid.**, p. 70.

(105) شملت إدارة الفرع الجديد المجالات الواقعة بين الجنين وغدامس، فضلا عن المنطقة العسكريّة لذهيبة.

(106) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 193، ملف 7**، الرّائد الرّسميّ، 7 أفريل 1915، المرسوم عدد 17 الصّادر عن الإقامة العامّة، 3 أفريل 1915.

ثانيا : الإشارات الّتي كانت ترد من حين إلى آخر بشأن تعاطف سكّان أقصى الجنوب التّونسيّ مع «المجاهدين الطرابلسيّين»(107) ، وكذا إقرارهم بالتحاق نفر (أنفار) منهم بالمقاومة الطرابلسيّة، ولا سيما بجهة الجبل الغربي(108) .

ويجتمع ممّا تقدّم من المسوّغات ما يسمح بطرح السّؤال : لماذا إذن أصرّت جلّ تقارير الضبّاط ومراسلاتهم على «الطّابع الفجائي» لحركة الودارنة المسلّحة ؟

لا ريب أنّ العسكريّين الفرنسيّين كانوا يريدون التّستّر –ما وسعهم ذلك– على «وهن ملاحظاتهم»، وسوء تقديراتهم، وتقويمهم للأوضاع. وفي عبارة مجملة تقصيرهم بإزاء ما جدّ من أحداث لا سيما وأنّ التّقارير الّتي حبّروها قبل اندلاع الانتفاضة بأسابيع قليلة، كانت تؤكّد في شيء من الثّقة «أنّ قيام ثورة محلّيّة أمر مستبعد...»(109) وأنّ «الوضع السّياسيّ العامّ في تحسّن كبير...»(110) .

وتذكّرنا هذه التّنبّؤات غير الصّائبة، و«التّحليلات» المتهافتة للعسكريّين، بما بدر عن الديبلوماسيّين الفرنسيّين من أخطاء تقديريّة مماثلة قبيل تلك الفترة. لنقتصر على مثال واحد، ولكنّه غنيّ بالدّلالة باعتقادنا.

كتب جوسلين JOUSSELIN القنصل الفرنسيّ بطرابلس إلى ديلكاسي DELCASSE، وزير الخارجيّة في مطلع ديسمبر 1914 –في وقت بلغت فيه حرب العصابات ذروتها بعد الهزيمة النّكراء للإيطاليّين في فزان خلال صيف 1914– ما يلي : «إنّه من المستبعد حدوث انتفاضة عامّة بتقديرنا...»(111) .

(107) **نفس المصدر**، صندوق 196، ملف 1، تقرير جوان 1915.

(108) **نفس المصدر**، تقرير جويلية 1915.

(109) **نفس المصدر**.

(110) **نفس المصدر**، تقرير أوت 1915. وجدير بالإشارة إلى أنّ هذا التّقرير لم يذكر مغادرة ثلاثمائة نفر من فرق الودارنة ميادينهم بالجنوب التّونسيّ قاصدين جهة نالوت بنيّة الالتحاق بحركة إبن عسكر.

(111) **ا.و.ت.، سلسلة A، صندوق 208، ملف 4/11**، وثيقة 19، رسالة جوسلين JOUSSELIN قنصل فرنسا بطرابلس إلى ديلكساي DELCASSE وزير الخارجيّة، طرابلس، 8 ديسمبر 1914.

ولسنا بحاجة إلى التّذكير بالانكسارات الّتي ألـمّت بالإيطاليّين بعد ذلك التّاريخ الأمر الّذي جعلهم يفقدون الموقع تلو الموقع، بحيث اقتصر حضورهم -بكامل إقليم طرابلس في صيف 1915- على الشّريط الضيّق طرابلس - الخمس.

نستطيع أن ندلف، بعد هذه الملاحظات، إلى تفاصيل الهجوم على مركز ذهيبة.

ب- معركة ذهيبة الأولى : 18-23 سبتمبر 1915

سبقت هذه الواقعة ثلاث مواجهات جمعت رجال خليفة بن عسكر بفرق الجيش الفرنسيّ :

- في 13 سبتمبر رتّب المقاوم الودرني محمد بن مذكور الشهيدي (وكان على رأس أربعين فارسا من قبيلة الودارنة التّونسيّة) أمر كمين لفصيل من «الشاسور دافريك»، كان بصدد القيام بمهمّة استطلاعيّة بوادي المرطبة، تحت إمرة الملازم لوفيفر LE FEBVRE. وفي الحال طيّر الفرنسيّون خبر الكمين المذكور باللاّسلكي إلى الرّائد أبات ABBAT، الّذي أرسل كتيبة مطاردة وسريّة، بغرض فكّ الحصار. وهذا ما تمّ فعلا، وبأخفّ الأضرار، إذ لم يخلف الفرنسيّون سوى قتيل واحد(112) .

- في اليوم التّالي، اصطدمت وحدات من الجيش الفرنسيّ (فرقتان من قوميّة نفزاوة وذهيبة، وسرية من الفوج الخامس عشر، وفصيل مدفعيّة)، كانت في مهمّة استطلاعيّة بقيادة النّقيب ميقريي MEGRIER في مستوى جبل عفينة بحوالي خمسمائة فارس من رجال المقاومة.

(112) **I.S.H.M.N., S.H.A.T., b. s. 292**, c. 2 H 53, d. 3, Historique... op. cit., f. 573.

انظر كذلك : **أ.و.ت. سلسلة A، صندوق 280، ملف 1**، تقرير سبتمبر 1915، ص 2-3.

وأسفرت هذه المواجهة عن اثني عشر قتيلا وعشرة جرحى في صفّ القوّة الفرنسيّة.

وخمّنت مصادر الشّؤون الأهليّة الضّحايا من جانب رجال ابن عسكر بمائة رجل بين قتيل وجريح(113).

- في صبيحة يوم 15 سبتمبر، يمّمت حامية ذهيبة شطر قرية وازن بغية معاقبة الثّوّار، أي الانتقام لقتلى اليوم الفائت، وكانت تحت إمرة الرّائد أبات AB-BAT (شاركت في هذا الهجوم بالخصوص فرقة من "الشاسور دافريك"، وفصيل رشاش).

وفي طريقها إلى وازن اصطدمت القوّة الفرنسيّة بعدد كبير من رجال المقاومة كانوا يترصّدون تحرّكها، واندلعت مواجهة عنيفة استمرّت من السّابعة صباحا إلى حدود الثّانية ظهر. واضطرّ الفرنسيّون إلى الارتداد على أعقابهم، نتيجة الصّلابة وقوّة البأس الّتي أبداها الثّوّار. ولولا عمليّة التّغطية الجيّدة الّتي أمّنها الرّائدان لامبرت LAMBERT، ومرسيل MARCEL، والنّقيب ابن داود BEN DAOUD، لكانت حصيلة الضحايا من الجانب الفرنسي أكبر.

ويذكر بهذا الخصوص أنّ الفرنسيّين فقدوا خلال هذه المواجهة ثمانية وعشرين رجلا (كان من ضمنهم الملازم أوّل ماريي MARIET)، فضلا عن سبعة وثلاثين جريحا (كان من بينهم النّقيب مقريي MEGRIER، والنّقيب بيتي PETIT، والملازم أوّل جانيل JANNE).

ومن جهة أخرى قدّر الضبّاط الفرنسيّون خسائر صفّ المقاومة بمائة وخمسين رجلا بين قتيل وجريح(114).

هكذا نتبيّن أنّ الوضع الأمنيّ قد تردّى على نحو خطير، وأنّ المواجهات بين الطّرفين، أصبحت شبه يوميّة، الأمر الّذي اضطرّ العقيد تريستورنيل TRES-TOURNEL إلى مغادرة مدنين، والالتحاق بذهيبة حيث سيجسد طيلة أشهر

(113) **Ibid.**

(114) **Ibid.**

طويلة «روح الدّفاع...» (كذا)(115) .

- خلال يوم 16 سبتمبر، توقّف الاتّصال بين تطاوين وذهيبة إثر قطع خطوط الهاتف من قبل الثوّار. وستكون هذه الأخيرة يوم 18 هدفا لهجوم جديد أسفر عن هلاك رجلين (كان من بينهما الملازم أوّل بلتييه PELTIER) وجرح عشرة آخرين(116) .

وبدا واضحا للضبّاط الفرنسيّين، أنّ تلك المناوشات، وأعمال التّحرّش ليست في حقيقة الأمر، سوى مؤشّر لحركة كبيرة، سيجلجل بها الوضع الأمني الحدوديّ الجديد. وتعضد هذا الاعتقاد بما ترامى إليهم من أنباء حول اعتزام أقسام من أولاد شهيدة، وأولاد دباب، والحميدية، والعجاردة، والكراشوة، مهاجمة مركز تطاوين(117) . وبما شرعوا في معاينته من قلّة انضباط أعوان المخزن بالمراكز الحدوديّة.

وبالفعل، فقد شهد يوم 23 سبتمبر حادثة اعتبرها القيّمون على الشّأن الأمنيّ غاية في الخطورة، إذ أقدم مخزن مشهد صالح، وقوامه ثمانية وعشرون فارسا، يتقدّمهم الباش شاوش رئيس الفرقة، على إخلاء المركز المذكور بعد أخذ جميع محتوياته من سلاح ومتاع، معلنين التحاقهم بحركة التّمرّد(118) . وقد حذا حذوهم، في نفس اليوم، ستّة رجال من مخزن الشقيقة(119) .

وتأسيسا على تلك المستجدّات، قرّرت القيادة الفرنسيّة، الجلاء عن مراكز بئر بيستور BIR PISTOR، وحصن برفنكيير PERVINQUIERE، والجنين.

---

(115) **Ibid.**

(116) **Ibid.**

(117) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280**. ملف 1. تقرير سبتمبر 1915، ص 5.

(118) **نفس المصدر والصّفحة.**

(119) **نفس المصدر والصّفحة.**

وصدرت الأوامر في هذا الشّأن لرجال مختلف الحاميات. وهكذا اضطرّ الفرنسيّون إلى التّخلّي عن العرق والظّاهر وجنوبي خط يصل ذهيبة برمادة(120).

وفي 25 سبتمبر، حاصرت مجموعة كبيرة من الثوّار الودارنة (تراوح عددهم بين خمسمائة وستمائة فارس) بقيادة عمر الأبيض شيخ الكراشوة، وسعيد بن عبد اللّطيف الدبّابي، حامية رمثة. واستمرّ التّراشق النّاري بين المحاصرين والمحاصَرين (تحت إمرة النّقيب سينيغا SENEGAS) زهاء سبع وعشرين ساعة. وفقد الفرنسيّون خلال هذه المواجهة خمسة عشر رجلا، كما جرح لهم أربعة عشر آخرين(121).

وفي صباح اليوم التّالي، خفّت فرقة من فطناسيّة (الفرقة الثّالثة للـ 126 بقيادة الملازم أول شاطون CHATTON من الطرايور الرّابع)، وأخرى من تطاوين (فصيل من السبايس) تحت إمرة النّقيب لاتييي LA TEILLAIS، وفصيل بونسيه FONCET من الفرقة التّاسعة للـ 126) بغرض فكّ الحصار على رمثة(122).

وبالفعل، فقد أفلح الفرنسيّون في دحر الودارنة الّذين اتّسمت حركتهم بشيء من الارتجال.

لقد أربكت تلك العمليّات -الّتي يطلق عليها في الاصطلاح العسكريّ عبارة "إنهاك الإعياء"، قادة جيش الاحتلال وأقلقتهم. وقد سلّم هؤلاء -بعد البطء المسجّل في وصول المدد من الجزائر-(123) بأنّ الحالة غدت جدّ حرجة وعصيبة، ومن ثمّ تسرّب إلى العسكريّين الفرنسيّين نوع من الإحباط، يشهد على ذلك اقتراح العقيد تريستورنيل TRESTOURNEL القاضي بالجلاء عن مركز ذهيبة، والانكفاء نحو تطاوين(124).

(120) **I.S.H.M.N., S.H.A.T., Historique des opérations... op. cit**., f. 573.
(121) **Ibid**. f. 574, voir aussi : Série 2 H, d 1, rapport du Commandant HARLE, f. 29.
(122) **Ibid.**
(123) **Ibid.**
(124) **Ibid.**

وبالرّغم من «وجاهة» تلك الفكرة، فإنّ سواء الضبّاط لم يستصوبوها -رغم «إشادتهم بالخصال العالية لزميلهم...»-(125)، لأنّ الدّرس الإيطاليّ، كان حاضرا في الأذهان حينذاك. وجاء في إحدى وثائق الشّؤون الأهليّة بخصوص هذه المسألة المطروحة على بساط الدّرس:

«إنّه [أي اقتراح تريستورنيل] بالبداهة الحلّ العسكريّ الّذي اعتمده الإيطاليّون في نفس هذه الظّروف. غير أنّ هيبة العلم الفرنسيّ مرهونة... وعليه، فإنّ هذا الارتداد سيؤول على أنّه انتصار للإسلام. وسيحدث لدى أعوان القوميّة وسائر قبائل الجنوب بله تونس قاطبة أثرا قد يتسبّب على الأرجح في اندلاع انتفاضة عامّة عارمة... يتعلّق الأمر إذن بنفوذ معنوي ينبغي المحافظة عليه...»(126).

وطبيعي -حيال تدهور الحالة الأمنيّة إثر تلاحق الهجمات وازدياد وتيرتها- أن تتحرّك القيادة بغية التّصدّي لمحاولات زعزعة مركزها بالمنطقة الحدوديّة التّونسيّة الّتي هي في نفس الوقت الحدود الجنوبيّة الشّرقيّة للامبراطوريّة الفرنسيّة بشمال إفريقيا.

وممّا هو جدير بالتّسجيل هنا أنّ الفرنسيّين أطلقوا العنان في نفس هذه الفترة (أي نهاية سبتمبر 1915) لإجراءات انتقاميّة غاية في الهمجيّة والوحشيّة، طالت القبائل الثّائرة(127).

وقد نجم عن سياسة الأرض المحروقة الّتي سارت عليها فرق الجيش الفرنسيّ (من ذلك هدم قصور القبائل، وإتلاف المحاصيل، وردم الآبار الخ...) هجرة ما يَرْبُو عن سبعة آلاف وردنيّ، يمّموا شطر الجبل الغربي الطرابلسيّ بقَضِّهم وقَضيضهم في ظروف جدّ صعبة(128).

---

(125) **Ibid.**

(126) **Ibid.**

(127) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Série Guerre 1914-1918**, b. 69, vol. 1597, folios 78 et 87 (Télégramme du Commandant Militaire à R.G. daté du 13 octobre 1915, et télégramme du Général Commandant, Afrique du Nord à Guerre, Cabinet E.M.M. section d'Afrique, Paris, Alger, 4 octobre 1915).

(128) A. MARTEL, **La Libye... op. cit.**, p. 95.

ج- استجلاب فرق جديدة وإمدادات ضخمة وتنظيم «جبهة الجنوب التّونسيّ» : إحدى تداعيّات معركة ذهيبة الأولى :

عيّنت القيادة الجنرال بواير BOYER على رأس جيوش الجنوب التّونسيّ (T.S.T.) ونزل الضابط المذكور بمدنين في 25 سبتمبر 1915 بعد أن أوكلت له مأموريّة تنظيم «جبهة الجنوب التّونسيّ». وكانت الوحدات الّتي تمّ استجلابها قد بدأت بالوصول إلى ميناءي قابس وجرجيس منذ أواخر شهر سبتمبر(129) .

لقد تألّفت جيوش الجنوب التّونسيّ (T.S.T.) في خريف 1915، كالآتي:

- أربع كتائب من الزواف.
- كتيبة واحدة من الطر يور.
- كتيبتان من الشاسور دافريك.
- خمس فرق من الـ125 و126.
- أربع فرق خاصة (Q S.).
- كتيبتان مطاردتان تابعتان للشاسور دافريك.
- خمس كتائب من السباييس.
- أربع فصائل 65 للجبل.
- بطاريتان عيار 90.
- بطارية 90 للمواقع.
- قوم المهاري الّذي حوّل في مرحلة لاحقة إلى اللّواء الصّحراوي(130) .

---

(129) **I.S.H.M.N., S.H.A.T.**, B. 292, C. 2H 53, **Historique... op. cit.**, f. 573.

(130) **Ibid.**, f. 574.

وبالجملة، فقد نزل بالجنوب التّونسيّ في غضـون شهر تقريبا ما يربو عن ثلاثمائة وعشـرين ضابطا وخمسـة عشر ألف جنديّ(131). وينبـغي علينا أن نضيف إلى هذا العدد مـا كان متواجدا بالمنـطقة من فرق المخازنيّة والقـوميّة، الّتي نهضت -كما هو معروف- لدور قـوات الرديف، وكانت تحت إمرة ضبّاط الشّؤون الأهليّة.

وغنيّ عن القول أنّ حضور مثل هذا العدد الهام من العساكر، قد خلق مشكلا لوجيستيّا. والحقّ أن سلطة الاحتـلال كانت -إلى حدّ ما- محظوظة في هذا الصّدد باعـتبـار أن "حـوادث الجنوب"، قـد تَوَاقَـتَـت مع تدشين الخط الحـديدي صفاقس-قابس، الأمر الّذي يسّر نقل العتاد الحربي والجنود بسرعة نسبيّة، وفي ظروف أفضل من ذي قبل(132).

وطرح آنئذ موضـوع تأمين نقل العتـاد والمؤن والرّجال -التي كـانت تنزل بقابس عن طريق البحر أو عبـر الخطّ الحديديّ المذكور- بواسطة الشّاحنات (الّتي عوّضت الجمال)، مسألة تهيـئة الطّرقات والمسالك. وبالرّغم ممّا بذل من جهود في هذا المضمار، فإنّ توجيه الرّجال والإمدادات لاقى بعض الصّعوبة.

ويهمّنا أن نسـجّل هنا أنّ الفرنسـيّين نجحوا في التّـخفيـف من حدّة المشكل اللّوجـيسـتي المذكـور بفـضل وسائل أخـرى، أثبـتت نجاعتـها، نـحو الهـاتف، والتّلغراف، والرّاديو، والحمام الزّاجل، ولا سيما الطّيران.

وبخصـوص هـذا الأخير، نشير إلى قـيام هيئة الأركـان، بإحداث مطار في قابس، قبل أن تركّـز قاعدة متـقدّمة له (Base avancée) بتطاوين، حـيث كانت تقلع الطّائرات إمّا للقيام بمهام استطلاعيّـة، واستكشـافيّة، أو لقصف مواقع الثوّار بالجنوب التّونسـيّ، أو بجهة نالوت بالجبل الغربي اللّيبيّ.

---

(131) **Ibid.**

(132) دشّن المقيـم العام غابريال الابـتيت G. ALAPETITE في 26 افـريل 1916 بمدينة قابس الخط الحديدي قـابس-صفاقس ولكن هذا لا يعني أنّه لم يشرع في اسـتغلال هذا الخطّ قبل ذلك التّاريخ. انظر : **Ibid.**, f. 578

وسبق لهيئة الأركان أن حدّدت مهمّة هذا السّلاح الجديد (والّذي سيكون حاسما على نحو فاق كلّ توقّعات قادة الجيش الفرنسيّ) كالآتي :

«يعدّ الطيران سلاحا جديدا في الحرب الاستعماريّة، ينبغي أن نقيم له كبير وزن. وللطّيران أدوار عدّة منها :

– الاستطلاع عن بعد وتزويد القيادة بالمعلومات.

– قصف التّجمّعات والقصور والقطعان.

– المشاركة في معارك الطابور، والتّنسيق مع بقيّة الأسلحة.

– مُطاردة الفارّين [من الثّوار]، ومنع محاولات تجمّعهم من جديد.

أمّا عن أسلحة الطّيران فهي السّهام الصّغيرة (Fléchettes)، والقنابل والرشيشات (Fusils mitrailleurs)، والرشّاشات (Mitrailleuses) والقنابل الخانقة...»(133).

إنّ النّاظر في جملة هذه الاستعدادات، وما رافق هذا النّزول من قعقعة سلاح (Branle-bas)، ليعن له السّؤال : هل أرهب نزول هذا الجيش الجرّار بآلياته الحديثة، الثّوار وفي مقدّمتهم خليفة بن عسكر ؟

---

(133) **I.S.H.M.N., S.H.A.T., op. cit.**, Instructions du 1er février 1917, f. 458, voir aussi : instructions pour les opérations dans le Sud Tunisien par le Colonel DELAVAU, Commandant par interim les Troupes du Sud Tunisien, Medenine, le 6 juillet 1918, folios : 499-502.

2- حصار مركز أم صويغ (2-9 اكتوبر 1915) :

حدود "عبقريّة" ابن عسكر الحربيّة، وخذلان الودارنة.

قرَّ قرار خليفة بن عسكر في مطلع أكتوبر 1915 -بالتّنسيق مع زعيمي الودارنة : علي بن عبد اللّطيف، وسعيد بن عبد اللّطيف- على مهاجمة مركز أم صويغ(134).

ونهض الرّجل بنفسه لهذه المهمّة. ونقع بالمصادر الفرنسيّة على ما يؤكّد أنّ زعيم نالوت عَسْكَرَ -قبل شنّ الهجوم- «ببئر التويس (3 كلم إلى الجنوب الشّرقيّ من مركز أم صويغ)، حيث ضربت خيمته البيضاء الّتي كانت تعلوها قماشة زرقاء. وشوهد برفقة ضابط يرتدي بزّة بيضاء، قد يكون تركيا أو ألمانيا...»(135).

وفي فاتح أكتوبر حرّر خليفة بن عسكر رسالة إلى عامل نفزاوة جاء فيها بالخصوص :

«إنّني في الطّريق إلى نواحيكم صحبة القوّات السنوسيّة.

لقد ثار كلّ الصُّلحاء والمؤمنين. وإنّ النّصر للمسلمين.

ومن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا يره.

والسّلام من وكيل الحضرة السنوسيّة سيدي العابد ومعينه للأمور الحربيّة...»(136).

لقد ظنّ ابن عسكر أن أعوان ذلك المركز الصّغير، بقيادة النّقيب برموند BERMOND لن يستطيعوا الصّمود أمام جيشه «اللّجب»، الّذي سيفوق ثلاثة آلاف رجل عند استحكام المواجهة، ولكن المقاومة العنيدة الّتي أبداها رجال الحامية، حوّلت الهجوم إلى عمليّة حصار استمرّت أسبوعا كاملا.

(134) أم صويغ : بئر تقع شمال بئر مغري، نحو أربعة عشر كيلومترا شرقيّ بلدة رمادة.

(135) I.S.H.M.N., S.H.A.T., Historique... op. cit., f. 575.

(136) Ibid.

أ- أطوار عمليّة الحصار :

- انطلق الهجوم على أمّ صويغ في صبيحة 2 أكتوبر، وشارك فيه أكثر من خمسمائة فارس(137)، وتمّ تطويق الحصن من النّاحية الشّماليّة من لدن الودارنة بقيادة شيخي أولاد دباب علي وسعيد، والشّيخ عمر الأبيض. ومن النّاحية الجنوبيّة من قبل رجال خليفة بن عسكر.

ويؤكّد الجنرال قائد جيش إفريقيا الشّماليّة في برقيّة إلى وزارة الحرب أنّ المهاجمين (بالكسر) «كانوا منظمين وخاضعين لقيادة جيّدة. وقد انقسموا إلى طوابير متراصّة وأخرى مبعثرة...»(138).

وبالرّغم من عنف الهجوم(138)، فإنّ الحامية الصّغيرة المكوّنة من فصيلة من الصبايحيّة وخمسة عشر رجلا من القوميّة، وأربعة عشر آخرين من الفرقة 125، استطاعوا الصّمود كامل يوم 2 أكتوبر إذ استمرّ التّراشق النّاري من الخامسة والنّصف صباحا إلى حدود منتصف اللّيل.

وقد انجلت تلك المواجهة الأولى -على حدّ زعم القيادة الفرنسيّة- عن اثني عشر قتيلا وثلاثين جريحا، فضلا عن هلاك كلّ خيول الحامية(139). ويبدو أنّ القيادة المذكورة سعت إلى التّنقيص من حجم الخسائر، التي نعتقد أنّها فاقت ما ذكر من إحصائيّات ودليلنا على ذلك، ما جاء في برقيّة النّقيب برموند BERMOND

(137) نشير هنا إلى عدم اتّفاق المصادر الفرنسيّة بخصوص عدد الرّجال الّذين هاجموا مركز أم صويغ يوم 2 أكتوبر إذ تراوح هذا العدد بين 300 (**S.H.A.T., s. 292, 2 H. dossier 3**, voir : renseignements de première main sur le siège d'Oum Souigh, f. 430) و500 وعدّة مئات، وربّما ألف فارس أنظر :

M.A.E. Guerre 1914-1918, b. 69, vol. 1597, f. 125 bis.

(138) **I.S.H.M.N., M.A.E. Q.O., Guerre 1914-1918**, b. 69, vol. 1597, télégramme, Général Commandant, Afrique du Nord à Guerre, Cabinet E.M.M., Section d'Afrique, Alger, 11 octobre 1915, f. 125 bis.

(139) **S.H.A.T., b. s. 292**, c. 2 H 53, Historique des opérations... op. cit., folios 575-577.

التي انطلق بها الحمام الزّاجل في السّاعة السّادسة والنّصف من صباح 2 أكتوبر (أي بعد مرور ساعة فقط على بدء المناوشات) والتي وصلت إلى الرّائد لامبارت LAMBERT بذهيبة في السّاعة العاشرة.

ومن أهمّ ما ورد في تلك البرقيّة بالخصوص:

«القتلى كثيرون. الجرحى عديدون. أنا منقطع لا اتّصال لي بالخارج قتلى جدد. أرسلوا النّجدة على الفور. برموند...»(140).

وممّا هو جدير بالتّسجيل هنا أنّ رجال حامية ذهيبة استجابوا لنداء الإغاثة المومأ إليه أعلاه. إذ أوكل العقيد تريستورنيل TRESTOURNEL، في حدود منتصف نهار نفس اليوم لفرقة برئاسة الرّائد لامبرت LAMBERT (تألّفت من كتيبتين تابعتين للشاسور دافريك، وفصيلة من السباييس الرّابع، وفصيلة من الفرقة 125، وفوج من السريّة الثانية للمجموعة الخامسة عشرة) أمر «فكّ الحصار على أمّ صويغ، وردّ الحامية [إلى ذهيبة] أو تعزيز مركزها...»(141).

وفي حدود السّاعة الرّابعة من نفس ذلك اليوم اصطدمت القوّة الفرنسيّة، وكانت على بعد 6 كلم من أم صويغ، برجال ابن عسكر، فكانت –بمعنى من المعاني– معركة مزاحمة (Bataille rangée) هلك فيها من الجانب الفرنسيّ ثمانية وأربعون رجلا، كان من بينهم الملازم أوّل لوكات LECAT. كما جرح ثلاثة عشر آخرين، كان من بينهم الملازم أول دي بو دي مولان DE BEAU DE MOULIN (142).

وخلال اللّيل اتّخذ الرّائد لامبرت قرارا بالانسحاب من ساحة المعركة بعد أن تيقّن أن رجال حاميته سينقادون إلى هزيمة محقّقة إن هم ظلّوا في موقعهم. وهذا ما تمّ فعلا في صبيحة يوم 3 أكتوبر.

(140) **Ibid.**, C. 2H, d. 3, f. 430.

(141) **Ibid., S.H.A.T., b. s. 292**, c. 2H 53, **Historique... op. cit.**, f. 575.

(142) **I.S.H.M.N., M.A.E., Guerre 1914-1918, b. 69, vol. 1597,** Télégramme du Commandant Militaire à Résident Général, Medenine, 6 octobre 1915, f. 101.

وقد لاحق الثـوّار القوّة المرتدّة على أعـقابها حـتّى حدود السّـاعة التّاسـعة والنّصف صباحا(143) وتنـــبغي الإشـارة هنا إلـى أنّ الملازم أوّل كـرينيـــك CRAIGNIC اسـتطاع التّسلّـل إلى أمْ صويغ خـلال اللّيلة الفـاصلة بين 2 و3 أكتوبر رغم إحكام الثوّار الحصار على الحصن، وبذلك تعضّدت حامية المركز بعض الشّيء(144).

– في 3 أكـتوبر عـرض خليـفة بـن عسكر على النّـقيب دي برمـو ند DE BERMOND، قائد الحصـن الاستسـلام، بواسطة رسول أوفده للتّـباحث مع الضّابط الفرنسيّ. واشترط ابن عسكر على دي برموند «التّخلّي عن كلّ ما يملك من سـلاح وذخـيـرة ومـؤن»، لقاء السّـماح لـه ولرجالـه «بالعـودة إلى تطاوين...» آمنين(145).

رفض دي برموند نزع سـلاحه والتّخلّي عن أمتـعته، لكنّه تعهّـد بألاّ يقاتل الثوّار مـستقبـلا. كما طلب مهلة بأربع وعـشرين ساعـة لمزيد التّفكير في مقـترح الاستـسلام، لكن ابن عسـكر رفض طلبه(146) وهمّ الضّـابط الفرنسيّ بقـبول العرض وهو كظيم.

في هذه الأثناء اندلعت مناوشـة داخل الحصن إثر تسلّل عناصـر من رجال ابن عسـكر والودارنة بغرض نزع أسلحـة جنود الحامـية(147). وحكمـت هذه

(143) **S.H.A.T., b. s. 292, c. 2 H 53 Historique**..., op. cit, f. 576.

(144) **M.A.E., Q.O., Guerre 1914-1918**, b. 69, vol. 1597; télégramme du Commandant Militaire à Résident Général, Medenine, 6 octobre 1915, f. 101.

(145) **S.H.A.T.**, **b. s. 292, c. 2 H, d. 3**, Fragment de journal de Déhibat... op. cit.

انظر شهادة المساعد (adjudent) بروسار BROUSSARD والجندي موتيل MOTTEL ص 433 و436.

(146) **Ibid**. f. 334.

(147) **Ibid**. f. 334.

المبادرة -الّتي اتّسـمت بكثيـر من الارتجال- على عمليّـة الاستسـلام بالفشل، إذ تراشق الجنود والثوّار بالرّصاص، ولاذ البعض بالفـرار وفي كلمة : اختلط الحابل بالنّابل.

وقـد أسفـرت هذه المواجـهة عن مـقتل الـنّقيب دي برمـوند DE BER-MOND، قائد الحصن وعدد من رجاله(148) . كما أفلح الثوار فـي التّمركز في معقلين (أو برجين صغيرين Bastions) من معاقل الحصن الأربعة(149) .

ويهمّنـا أن نتوقّف هنا قليـلا عند الحالة المعنويّة المتـردّية الّتي كانت عليـها القيـادة الفرنسيّة خـلال الأيّام الثّلاثة الأولى لحصار أم صـويغ، إذ أنشأت نداءات الاستغـاثة الصّادرة عن دي برموند أزمـة معنويّة في نفوس المقدم تريسـتورنيل TRESTOURNEL، والعـقـيـد مـارسـيل MARCEL، والنّقـيب باريBARRE، والنّقيب فين FINE، والملازم أوّل موازي MOISY ومما يؤكّد صـحّة هذا الكلام الإشـارات العمـيقـة الدّلالة الواردة في التّـقرير المخطوط حـول الحصار الآنف ذكره، والّذي نجتزئ منه الفقرة التّالية :

«نحن نشعـر أنّنا عاجزون ، ومسـمّرون هنا، ولا قدرة لنا عن مـدّ يد العون لرفيق لنا رغم رغبتنا الجامحة في ذلك وروح التّضامن الّتي تحدونا...

لقد جـهدنا في استـعراض كلّ التـوافيق والحيل، وناقـشنا وبسَطْنَا آراءنا. وكـان الاستنتـاج دائما واحـدا وحيـدا : إنّ التّوجّـه إلى أمّ صـويغ يعني ببسـاطة التّعرّض لكارثة محقّقة، وبذل تضحيّات جسيمة في الأرواح، بلا طائل.

وفوق هذا، فإنّ هذه الكارثة قد تتسبّب في أخرى من خلال تعريض وضعيّة ذهيبة [...] لخطر كبير، ذلك أنّنا سنرغم على تخفيض رجال حاميتنا لتقتصر على مـدفع واحـد وثلاثمـائة رجل... وبـعد أن وازنـنا بين الأمـر ومـا عليـه، وقـدرنا

(148) **Ibid**. f. 337.

ويذكر هنا أن قاتل دي برمـوند هو على الأرجح امحمد بسيسة الـورغمّي، راجع القشّاط، **نفس المرجع**، ص 64.

(149) **Ibid.**

الأخطار، قررنا ونحن مفعمون غمّا وحزنا ألاّ نقوم بأيّ عمل باتّجاه أم صويغ...»(150).

– تواصل التّراشق بين المحاصرين والمحاصَرين –الّذين تكدّسوا في خنادق ضيّقة– خلال كامل يومي 4 و 5 أكتوبر. وممّا زاد ظروف القوى المتقابلة سوءا الارتفاع المشطّ لدرجة الحرارة، ونفاذ المؤن المخصّصة للرّجال والجياد(151)، الأمر الّذي اضطرّ رجال ابن عسكر إلى التّخلّي عن الموقع الّذي احتلّوه.

وخلال ظهيرة يوم 5 أكتوبر، اقتبل الملازم أوّل باولينى PAOLINI مبعوثا جديدا من ابن عسكر حمل رسالة صيغت «بفرنسيّة ركيكة» (كذا). ومن أهمّ ما جاء في هذا الخطاب، مطالبة زعيم نالوت قائد الحصن بالتّخلّي عن السّلاح نظير الحفاظ على حياته، وحياة رجاله، وفي حال الرّفض، هدّد ابن عسكر بمواصلة الحصار، والتّحرّش بالحامية حتّى هلاك رجالها «جوعا وعطشا خلال أيّام...»(152).

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الجنرال قائد الجيوش لم يعلم بالوضعيّة الخطيرة الّتي غدت عليها حامية أم صويغ (بسبب صعوبات الاتّصال بين ذهيبة وفطناسيّة) إلاّ يوم 4 أكتوبر(153). وقد أثار تدهور الوضع الأمني الجنرال قائد جيش شمال إفريقيا الّذي أبرق إلى وزير الحرب واصفا خطورة الحالة، وملقيا باللائمة على الجيوش الفرنسيّة. نستمع إليه يقول:

«لقد تدهور الوضع بشكل مفاجئ بالجنوب التّونسيّ حيث تكبّدت جيوش **جدّ رديئة**، (من الفرق الخاصّة، وفيالق إفريقيا والفيالق التّرابيّة) ينقصها التّأطير على جميع المستويات خسائر جسيمة بدون جدوى...

---

(150) **S.H.A.T. b. s. 292**, c. 2 H, d. 3, f. 432.

(151) **Ibid**. f. 437 et 439.

(152) **Ibid**., b. s. 292, c. 2 H 53, **Historique... op. cit.**, f. 576.

(153) **Ibid**.

إنّ حوادث الجنوب التّونسيّ، من الخطورة، بحيث يتعيّن علينا إيجاد الحلول لها بالسّرعة والنّجاعة اللازمين، وإلاّ فإنّ نتائجها ستكون وخيمة فيما يخصّ وجودنا بإفريقيا الشّماليّة...»(154).

- في 6 أكتوبر أنشئ بتطاوين طابور تحت إمرة الكولونيل فليك FLICK، تألّف من فصيل للصبايحيّة، وفرقة من الزواف، وثلاث قطع مدفع عيار 80 وثلاث فرق للرشّاشات أوكلت إليها مُهمّة «الوصول إلى ذهيبة كلّفها ذلك ما كلّفها...»(155).

ب- خليفة بن عسكر يخذل الودارنة :

غادر خليفة بن عسكر ساحة المعركة، رفقة رجاله يوم 6 أكتوبر، وعمد إلى الاستقرار حذو نقطة ماء بنقدال(156). وحينما اشتدّ الكرب على الودارنة يوم 9 أكتوبر وتناهى إلى أسماع رجاله، وهم في موضعهم المذكور، دويّ الانفجارات، بادر هؤلاء بإخطاره، فما كان منه إلاّ أن أجاب : «لا أدري من أين تتأتّى هذه المفرقعات. ثمّ إنّه ليس من مصلحتي أن أشغل نفسي بأشياء لا تعنيني...»(157).

وهنا يعرض السّؤال : هل قرّ قرار خليفة بن عسكر على الانسحاب، ومن ثمّ ترك الودارنة يواجهون مصيرهم بعد تأكّده من صلابة موقف قائد الحصن الملازم أول باوليني، وتيقّنه أنّ النّجدة الفرنسيّة في طريقها إلى المركز المحاصر ؟

وعلى العموم، وكائنة ما كانت أسباب تلك الحركة ودوافعها، فإنّ الأمر

---

(154) **M.A.E., Q.O., Guerre 1914-1918**, B. 69, vol. 1597, télégramme, Commandant de l'Armée de l'Afrique du Nord à Ministère de la Guerre - Cabinet E.M.M., Section Afrique. Paris, Alger, 8 octobre 1915.

(155) **Ibid**, Alger, 8 octobre 1915, f. 112.

(156) سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 64.

(157) **أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف 15/30** - 756، وثيقة 36، ص 3. تقرير محمد الزواري عامل نفزاوة بالنيابة.

الثّابت أنّها عادت بالوبال على الودارنة : وبالفعل فقد اصطدمت خلال اللّيلة الفاصلة بين 8 و9 أكتوبر فرقة من طابور النّجدة بالودارنة المتحصّنين بالمرتفعات القريبة من معقل الحامية، و تحديدا بالمكان المعروف بوادي نكريف، ونشب قتال غاية في الشدّة بين المحاصرين الّذين أرْبُوا على ألف وأربعمائة رجل، وفرق الجيش الفرنسيّ الأخرى الّتي هبّت لـ مشاركة في المعركة، والّتي فاق عددها ألف وستمائة رجل (تألّفت بالخصوص من ثلاثة أقسام من الرّشّاشات تحت إمرة الكولونيل فليك FLICK).

ونقع في بعض القصائد الّتي قيلت حينذاك في وصف هذه الواقعة على ما يؤكّد قوتها وهَوْلَها. ونجتزئ هنا بعض الأبيات من قصيدة مطوّلة قالها الشّاعر المعروف خليفة الكرديّ :

صَارْ مَلْطمْ شِينْ فيكَ انْخَبَّر بَحْوَالَه
بِينْ قَرَانِيـــــنْ مَدْفَعْ نَارَه شَعَّالَه

**

صَارْ مَلطمْ شِينْ في أُمْ صُويغْ المَخْلِيَّه
بِينْ إقْرَانِيـــــنْ يَرْغِي إزْرَارْ الحَرْبِيَّه

**

منِينْ نَاظْ الغِيـمْ وَكَدُوا أَوْلاَدْ العَرْبِيَّه
حتَّى اشْوَيِيـــنْ وَثْقَتْ فيهِمْ لَزْمِيَّــه
في عَدُوّ الدِّيـــر عَرْكُوا عَرْكْ إهْلاَلِيَّه

**

مَلْطمْ مُبَـــــانْ فيك انْخَبَّرْ بامْشَاقَــه
قَبَّـــاضْ أرْوَاحْ وَاحدْ يَاسرْ مَا طَاقَـــه
غيمَه كَثَّاحْ فُـرْنْ وَحلُوا في إغْلاَقَـــــه
مِنِينْ دَارْ إصْيَـاحْ كُورْ وَحَرْبِي وطَقْطَاقَه

وبعـد انقضـاء زمن غـير طويل على احـتدام المـعركـة، اضطرّ الودارنة إلى الانسحاب من ساحة القتال كيفما اتّفق، تلاحقهم نيران المدفعيّة والمشاة بغزارة قلّ نظيرها في المواجهـات الأخرى الّتي جرت في خريف 1915. وحينمـا كان أعوان الصبايـحيّة منهمكين في «تطهـير» المرتفعات الجـبليّة من بقايا عناصـر المقاومة، اسـتـقـبل الملازم أول باوليني ورجـاله مـحـرريهـم من طابور النّجـدة بنشـيـد المارسييز(158).

لقد انجلت عمليّة فكّ الحصار عن أم صويغ على خسائر بشريّة جدّ هامّة من الجانبين إذ قدّر الفرنسيّون خسائرهـم خلال الفترة الواقعة بين 2 و9 أكتوبر (أي خلال مدّة الحصار المذكور) بأربعة وستّين قتيلا، من بينهم أربعة ضبّاط، وسبعة ضبّاط صف، وحوالي سبعين جريحا(159).

أمّا في صفّ رجال المقاومة، وتحديدا فـرق الودارنة، فإنّ عدد الضـحايا كان هامّا، لا سيـما خلال معركـة وادي نكريف، إذ خمّن الجانب الفرنسـيّ عدد القتلى بعـديد العـشـرات تكوّمـوا فـي كلّ مكان. ويذكـر هنا أنّ فـرقـة الكولونـيل فليك FLICK، عاينت عشـيّة يوم 9 أكتوبر مـا يربو عن مائة وعشرين جـثّة من جثث الثوّار الّتي كانت متناثرة حذاء الحصن. وعثـر الضبّاط الفرنسيّون على جثث قادة الانتفاضـة، من الودارنة وهم سعيد بن عبد اللّطيف، وشقيقه محمد بن عبد اللّطيف وابن عمّهما بن عزوز بن سـوفجين(160).

(158) Cap. RAFFOUX, **Le Front, op. cit.**, p. 21.

(159) **I.S.H.M.N., S.H.A.T. b. s. 292**, c. 2 H 53, **Historique... op. cit.**, folios 576-577.

Voir aussi : M.A.E., Q.O., Guerre 1914-1918, b. 69, vol. 1597, télégramme du Général Commandant les Troupes du Sud au Général de Division à Tunis, Medenine, 10 octobre 1915, f. 145, et Commandant Militaire à Résident Général, Médenine, 15 octobre 1915, f. 167.

ومما يجدر ذكره هنا أنّ برقـيّة الجنرال قائد جيوش الجنوب المؤرّخـة في 10 أكتوبر 1915 أشـارت إلى سقوط واحد وثمانين قتيلا انظر: **Ibid.**, f. 124

(160) **Ibid.**, f. 145.

ونقرأ ضمن تقرير لا.ق التّوضيح التّالي بخصوص عدم اصطحاب الثوّار النّاجين جثث قتلاهم : «إنّ الـتخلّي عن الجثث مخالف للتّقاليد الإسلاميّة، وهو مؤشّر واضح عن حالة البلبلة الشّاملة الّتي كان عليها الثوّار...»(161) .

إنّ ما يهمّنا هنا هو أنّ .خليفة بن عسكر لم يبد حراكا، أي أنّه لم يخفّ لنجدة الودارنة وهم يخوضون أعنف معركة تجمعهم بالجيش الفرنسيّ. وقد خلّف هذا الموقف مرارة لدى «المنشقّين ا تّونسيّين» كما كانت تنعتهم المصادر الفرنسيّة.

وجدير بالتّسجيل أنّ خذلان خليفة بن عسكر للثوّار قد عدّه الودارنة، وقسم من سكّان الجبل الغربي الطرا بلسي «صنيعا معيبا. ورزاية بشجاعته»، ولعلّ الأمر المهمّ ههنا. اعتراف زعيم نا وت نفسه بفراره من ساحة المعركة. كان ذلك إثر سماعه قصيدة هجاء قالها فيه الشّاعر خليفة كردي(162) . ومما جاء في مطلع هذه القصيدة الّتي جرت على الألسن وقتئذ :

منِينْ دَارْ رنيـنْ	رڤْلُوا قُلُوبْ الغَرِّيَّـه
هَا لْمَخْصُومِـينْ	هَرْبُوا رَاحُوا جِمْلِيَّـه
وهَا لمدْعي وينْ	مُولَهْ الكَلْمَهْ وَالديَّـه
بيْ الوَطْنـينْ	دَارْ عَمْلَه دُونِيَّـه
مَاهُوشْ رَزِيـنْ	قَالُوا سَلِّمْ في أُغْدَيَّه
منِينْ نَاظْ الغيـم	وَكَدُّوا أَوْلاَدْ العَرْبيَّه
حَتَّى اشْوَيِّـير	وَتْقَتْ فيهُمْ لَزْميَّـه
فِي عَدُوّ الدِّيـنْ	عَرْكُوا اعْرَاكْ اهْلاَليَّه(163)

(161) **Ibid.**, f. 167.

(162) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 250-253.

(163) تشير الأبيات إلى غدر خليفة بن عسكر بالودارنة. وجاء في البيت الثالث أنّ الرّجل أخلف بوعده، ونكث عهده مع الّذين انضمّوا إلى صفّه من القبائل التّونسية.

ومنها هذه الأبيات الّتي تصف فرار ابن عسكر من ساحة المعركة :

منينْ دارْ إصْيَـاحْ — كُورْ وَحَرْبي وَطَقْطَاقَه
هَا لمدْعــــي رَاحْ — حَرَّمْ سَلِّمْ في ارْفَاقَـــه
خَشْ الضَّحْضَاحْ — يَلْهدْ فُوقْ الحَمَّاقَـــــه
مَشْ طيرْ أُكْـلاَحْ — يَعْرفْ كَانْ العُلاَّقَــــه
كَرْكَارْ إمْسَــــاحْ — قُنْدي سَاكنْ في طَاقَـه
كُوبَارْ اتْـــرَابْ — لاَ عنْدَه حصَّه ولاَ قَابْ
وَلاَهُو حَــــارَابْ — وَعلّينا لَهْ شَنْقَالَـــــه
اثْريتَه هَـــرَّابْ — زَيّطْ منْ بَعْد الدّالَــه

ومنها أيضا هذه الأبيـات الّتي يلمّح فيها الشّاعـر إلى أن موقف الرّجل يدعو إلى الخزي، عاقـدا موازنة سريعة بينه وبين سوف المحـمودي. وبوسـع القارئ أن يلاحظ إشارة صـاحب القصـيدة إلى الأصول الجـباليّة (إقـرأ : غير الـنبيلة) لابن عسكر.

اثْريتَهْ مَنْشُــوفْ — بَعْد الدَّالَه يَا عَـــارَهْ
رَاحْ خَشْ الـرُّوفْ — منْ أُمْ صُويغْ إبْلاَ مارَه
عَلْ كُوتْ يـزُوفْ — خَرَّمْ رَوّحْ لَلْقَــــارَهْ
مشْ طيرْ الكُـوفْ — جبْلي امْصيينْ كدْوَارَه
لَوْ كَانَه «سُــوفْ» — عَنْهُمْ لاَفي يَتَهَــارَه
في امْحَالْ اصْفُوفْ — جمْلَه اعْرُوبَه نَغَــارَه
مَا تَحْسبْ خُــوفْ — وَيُومْ العَرْكَه صَبّارَه
ثَميكْ اتْشُــــوفْ — منْ هُو يُطَبْ الكُبَّــارَه...

ومما له مغـزاه أنّ «بطلنا» ردّ على الشّاعـر الّذي وصمه بـالجبن لأنّه فرّ من ساحة القتـال، ودمغه بالخيانة قائلا : «حق هربت، (كـذا)، ولكن المهاجرين ألحّوا عليّ في الابتعاد بحجّة أن القائد إذا قتل تخسر المعركة...»(164) .

ومن الطّريف الدّال بخصوص هذه الحادثة أنّ خليفـة بن عسكر أمر للشّاعر بجائزة مالية مقدارها سبعمـائة فرنك، لكن خليفة كردي رفض تسلّمها بدعوى أنّه ليس في حاجة إلى المال(165)

ونرى من المفـيـد هنا أن نذكـر برفض الرّجل مدّ يـد المساعـدة لمقـاتلين من الودارنة --خلال الهجوم على مركز ذهيبة-- كانوا يستعدوّن لملاحقة كتيبة فرنسيّة غـادرت الحصن (في 18 سـبـتمبـر 1915)، الأمر الّذي فـوّت على المهاجـمين فرصة الاسـتيلاء على المركز المذكور، وبدلا من ذلك فـضّل ابن عسكر الخُلُود «إلى الرّاحة أيّاما...»(166) ، في قـرية وازن، ممّا أتاح للفرنسـيّين التقـاط أنفاسـهم، وتعزيز موقعهم بعد وصول النّجدة.

وعلى ضوء هذا الّذي ذكرنا ينشأ لنا السّؤال الآتي :

لماذا خـذل الرّجل مـقـاتلي الودارنة (ولا سـيـمـا خلال واقـعـة أم صـويغ الحاسمـة)، بعد أن بذل قصاراه من أجل تأطيـرهم، وتوجيه عمليّـاتهم ضدّ مواقع الجيش الفرنسيّ ؟

يعزو علي بن بدر المخلبي(167) سبب فرار ابن عسكر من سـاحة المعركة بأم صويغ إلى خـبر مؤداه «أن يوسف خريبـشة، وهو من أكبر أعـوان إيطاليا على احتـلال ليبيـا (كذا)، وأعدى عدوّ لابن عـسكر قد كوّن جـيشا يسـمّى "الباندة"،

---

(164) سعيد القشّاط، نفس المرجع، ص 66.

(165) **نفس المرجع** والصّفحة.

(166) محمد المرزوقي، **دماء على الحدود**، ص 308.

(167) يعد علي بن بدر المخلبي من أهمّ الرّواة الّذين أخذ عنهم محمد المرزوقي تفاصيل المعارك (ورد اسمه 31 مرّة في كتابه **دماء على الحدود**). انظر ص 374.

وأمدّته إيطاليا بمعدّات حربيّة ثقيلة ليضرب ابن عسكر من الخلف، فاضطرّ ابن عسكر إلى سحب رجاله من أم صويغ...»(168).

والملاحظة التي نعقب بها على تعليل علي المخلبي هذا هو أنّ اصطراع الزّعامات بمنطقة الجبل الغربي حينذاك (وكان ابن عسكر أحد الأطراف الفاعلة فيه كما سنرى تفصيلا)، قد ساهم -بلا ريب- في تذبذب موقف الرّجل من حلفائه الودارنة، وجرف انتباهه -إلى حين- عمّا كان يجري داخل منطقة الشّريط الحدوديّ لتونس.

وثمّة أمر آخر لا ينبغي أن نسقطه من حسابنا ومؤداه أنّ زعماء السنوسيّة الّذين كانوا يسعون حينذاك إلى التّودّد لفرنسا وكسب تعاطفها، لم يدّخروا جهودهم لإقناع ابن عسكر بالإقلاع عن مساندة الودارنة، وكانوا يؤكّدون للفرنسيّين أنّ هؤلاء الأخيرين ورّطوا ابن عسكر، وأنّ الطرابلسيّين الّذين انخرطوا في الحرب ضدّ فرنسا، قد جرفهم التيّار لا أكثر(169) هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإنّ الفرنسيّين كانوا يؤكّدون في تقاريرهم أنّ «المنشقّين التّونسيّين هم الّذين يحرّضون الطرابلسيّين ضدّ فرنسا...»(170). كما أنّ هناك عاملا آخر لا يجب أن نغيّبه وقوامه أنّ قسما هامّا من النالوتيّين بَدَؤوا بالاحتجاج، خلال تلك الحقبة، على زعيمهم الّذي أعطى «سكّان تطاوين»(كذا)، أسلحة وذخيرة والحال أنّهم أولى بذلك، لا سيما أنّه كان أوّل من يعلم أنّهم يفتقرون إلى السّلاح(171).

هل تأثّر الرّجل بما كانت تروج له السنوسيّة، وما أصبح الفرنسيّون يشيعونه من أخبار هي أقرب إلى الأراجيف، قصد إضعاف صفّ أعدائها، وأخيرا ما شرع بمعاينته من حالة تململ في نالوت والمناطق المجاورة لها ؟

---

(168) نفس المرجع ص 69.

(169) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O.**, b. p. 38, rapports : septembre, novembre 1915.

(170) **I.S.H.M.N., S.H.A.T. (Vincennes), Série 2 H**, d. 3, F. 443.

(171) **Ibid.**

أيّا يكن، فإنّه لا مناص من الإشارة إلى أنّ «شيئا ما» قد بدأ بالتّبدّل في ذهن الرّجل خلال معركة أم صويغ والّذي يعضد هذا الاستنتاج ما صدر عنه من «لوم لزعماء الودارنة لأنّهم لم يقوموا بالواجب...»(172)، مستشهدا في هذا الخصوص بأنّه نجح في طرد الإيطاليّين كما خطّط لذلك من قبل، وآخذًا في نفس الوقت على الودارنة هزيمتهم أمام الفرنسيّين(173).

وإن نحن أبحنا لأنفسنا شيئا من الاطمئنان إلى هذه المعلومات الصّادرة عن الجانب الفرنسيّ فإنّ الحرب الّتي نحن بصددها قد تحوّلت بالتّدريج إلى حربين: حرب الودارنة ضدّ فرنسا، وحرب الطرابلسيّين ضدّ إيطاليا. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنّ ابن عسكر عاب على "المنشقّين" هزيمتهم أمام الجيش الفرنسيّ وكأنّه غير معني بذلك لا من قريب ولا من بعيد.

هل نخلد إلى الاستنتاج أنّ ابن عسكر ورّط الودارنة، من خلال وعود غائمة، ووظّفهم في "حربه" ضدّ الفرنسيّين والّتي أملتها أسباب ذاتية ليس إلاّ. ويأتي في مقدّمة الأسباب المذكورة -كما أسلفنا- تسوية حسابات شخصيّة مع الّذين احتجزوا عائلته، ولم يسمحوا له بالتّزوّد من الأسواق الحدوديّة التّونسيّة، وبيع ما غنمه من حيوانات إلخ...؟

وكيفما قلّبنا الأمر، فإنّنا لا نجد ما يبرّر تنكّر ابن عسكر للودارنة بعد أن دفع بالمئات من رجالهم ونسائهم وأطفالهم إلى المحرقة.

وصفوة ما تقدّم، إنّ زعيم نالوت لم يكن راعيا لعهده مع القبائل التّونسيّة الّتي عضدت حركته، وأضفت عليها المزيد من النّجاعة، وخرجت بها عن أفقها المحليّ الضيّق.

***

لقد أثار النّهج العدواني لزعيم نالوت تجاه الفرنسيّين من ناحية، ورفض هذا الأخير تسليم ما استولى عليه من أسلاب للمهدي السنّي، من ناحية أخرى، ممثّل الحركة السنوسيّة بإقليم طرابلس الّذين نددوا بتصرّفاته في مرحلة أولى، قبل القبض عليه وسجنه في مرحلة لاحقة.

(172) Ibid.

(173) Ibid.

3- سجن خليفة بن عسكر وتنديد ممثّلي السنوسيّة بتصرّفاته :

أ- ابن عسكر والسنوسيّة : العلاقة الغامضة

بقي انتشار السنوسيّة قبل الغزو الإيطالي في ما سيعرف لاحقا بليبيا، حبيس الكفرة والجغبوب بحيث لم يختلط أبناء مؤسّس الحركة محمد بن علي السنوسيّ وأحفاده (وكذا أتباعهم) بزعامات بقيّة الأقاليم ولا سيما بالجنوب والغرب إلاّ بعد اندلاع الحرب الطرابلسيّة - الإيطاليّة.

وخلال الحرب المذكورة، جسّدت شخصيّة أحمد الشّريف السنوسي(174) في إقليم برقة المقاومة أجلّ تجسيد(175) . وكانت بطولات هذا الأخير حافزا لشقيقه محمد العابد على منافسته، إذ غادر الكفرة باتّجاه فزّان، ليتّخذ منها قاعدة لحربه ضدّ الإيطاليّين، ومنطلقا لنشر سلطانه على البقاع القريبة منها.

ويفيدنا الطّاهر أحمد الزّاوي أنّه نشأ في هذه الفترة تنافس بين صفي الدّين(176) ومحمد العابد من أجل بسط نفوذهما عن أكبر رقعة ممكنة من إقليم

---

(174) هو **أحمد الشّريف بن محمد السنوسيّ**، ولد عام 1872. خلّف محمد المهدي على رأس الطريقة السنوسيّة عام 1909. قاد المقاومة ضدّ الإيطاليّين بجهة برقة خلال المرحلة المعروفة بالحرب الإيطاليّة التّركيّة. وخلال الحرب العظمى، عيّنه السّلطان العثماني واليا على إيالة طرابلس الغرب.

انحدر أحمد الشريف أمام الأنجليز خلال عامي 1916-1917، واضطرّ إلى اللّجوء إلى الجغبوب ثمّ الكفرة. دخل في خصومة مع قريبيه ادريس وصفي الدّين إثر دخول هذين الأخيرين في مفاوضات مع الإيطاليّين وانتهى به الأمر إلى مغادرة البلاد قاصدا تركيا على متن غواصة المانيّة (اوت 1918).

(175) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 11/4**، وثيقة 1، رسالة القنصل الفرنسيّ بالقاهرة، القاهرة، 28 سبتمبر 1912.

(176) هو **صفي الدّين بن محمد بن الشريف السنوسي**. ولد عام 1894. انخرط في العمل السّياسي بجهة برقة ابتداء من مارس 1914. وخلال صيف نفس العام قاد القوات السنوسيّة على المنطقة الحدوديّة الفاصلة بين إقليمي برقة وطرابلس مكوّنا محلّة ضخمة دأبت على تنظيم عمليّات إغارة جريئة استهدفت القوافل الإيطاليّة.

تحوّل صفي الدين في ماي 1915 إثر معركة قصر أبي هادي إلى إقليم طرابلس وتزعّم ==

طرابلس «وذلك لما رأوه من تمكّن نفوذ السيّد أحمد في برقة. وكان كلّ منهما يعمل باسمه ولنفسه...»(177).

هكذا اتّجهت همّة صفي الدّين ووكيله أحمد التواتي إلى السّيطرة على مصراته، وورفلة، ومسلاّته، في حين تمكّن محمّد العابد في فزّان -كما تقدّم بنا- وأصبح يرنو إلى بسط جناحيه على الجبل فيما بين نالوت وغريان.

ولئن توفق زعماء السنوسيّة في إحراز نجاحات مهمّة بالمناطق الصّحراويّة حيث سيطرت على عقول السكّان عادات البداوة وطباعها، فإنّهم لاقوا صعوبات في التّسرّب إلى نواحي إقليم طرابلس، والتّأصّل فيها. ومردّ ذلك أنّهم اصطدموا في هذه الأصقاع «حيث توجد مبادئ الحضارة والعلم...»، بأناس «يزنون الحياة بغير الموازين الّتي عرفوها في باديتهم، فوقفوا منهم موقف العاجز عن مجاراتهم...»(178).

لقد كانت أوجه الحياة بهذا الإقليم (كما سبق ورأينا ضمن الباب الأوّل) أكثر تعقيدا منها بإقليم برقة إذ كانت هناك مناطق نفوذ، وزعامات متأصّلة في مجالاتها، وتحالفات صفية وقبليّة، ومصالح اقتصاديّة هامّة، ورهانات محلّيّة وإقليميّة وحتّى دوليّة الخ .. وهذا ما لم يدركه صفي الدّين ومحمد العابد ووكلاؤهما الّذين كانوا يرون لأنفسهم صفة الحاكميّة(179)، وجاؤوا هذه الرّبوع وهم يتلهّفون للإشراف على مقدراتها والاستئثار بالغنائم الّتي تركها الإيطاليّون في البقاع التي أجلاهم عنها المقاومون، وفوق هذا فرض الضّرائب

== حركة المقاومة ولم يطل به المقام هناك نظرا للمعارضة الّتي لقيها ممثّلو السنوسيّة من لدن الزّعامات الطرابلسيّة ولا سيما رمضان السويحلي في جانفي 1916. وقد انهزم صفي الدّين أمام السويحلي في بني وليد، واضطرّ إلى الانتقال إلى الكفرة.

استقرّ صفي الدّين في مطلع عام 1917 بجدابيا مجدّدا العهد مع عمليّات الإغارة على القسم الشّرقيّ من طرابلس. انتخب في ماي 1921 رئيسا لبرلمان برقة وذلك كنتيجة من نتائج الاتفاقيّة المبرمة في اكتوبر 1920 بين السنوسيّة والإيطاليّين.

(177) الطاهر الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 188.

(178) **نفس المصدر والصّفحة**

(179) **نفس المصدر**، ص 160.

وجباية الزّكاة(180).

ليس في نيّتنا التّوسّع في أصول التّضاد بين السنوسيّة والزّعامات الطرابلسيّة وأطواره، وذلك لاعتبارات منهجيّة تقتضيها حدود المسألة الّتي نبحث فيها. وأقصى ما نود إبرازه هنا أنّ المواجهة المحتومة بين من سيعتبرون مستقبلا فرقاء، قد حدثت في مصراته بين زعيمها القوي رمضان السويحلي، وصفي الدّين، وانجلت المواجهة بينهما عن قتل أحمد التواتي وكيل هذا الأخير(181).

أمّا في منطقة الجبل الغربي فإنّ الخصومة ستستحكم بين محمّد العابد ووكيله المهدي السنّيّ من جهة، وخليفة بن عسكر من جهة أخرى، وهو ما سيكون شغلنا فيما يتلو من هذا العنصر.

يجمل بنا أن نومئ منذ البداية إلى أنّ قادة السنوسيّة قد بدؤوا بالتّوجّس من تحرّكات خليفة بن عسكر وتصرّفاته على الشّريط الحدودي الشمالي-الغربي لإقليم طرابلس منذ مطلع شهر أوت 1915(182).

وفي 5 سبتمبر (أي قبل انطلاق العمليّات الحربيّة ضدّ مواقع الجيش الفرنسيّ وتحصيناته) استقبل خليفة بن عسكر في مثابته بنالوت أحمد السنّي(183) نجل الشّيخ السنوسي، وكان هذا الرّجل مكلّفا مهمّة محدّدة مؤداها

(180) **نفس المصدر**، ص 172.

(181) بخصوص أسباب هذا النّزاع وأهمّ أطواره، انظر: **نفس المصدر**، ص 181-185.

(182) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280، ملف 1، وثائق وزارة الخارجيّة (Q.O.)**، تقرير أوت 1915.

(183) هو **احمد بن محمد السنّي**. ولد عام 1890. شغل خطّة شيخ الزّاوية السنوسيّة بمزدة إذ أشرف على إدارتها بعد وفاة عمّه عبد السّلام السنّي. كان له نفوذ معنوي كبير على السكّان بإقليم طرابلس لا سيما خلال عامي 1915-1916.
لعب دورا مهمّا في الهجوم على مراكز الجيش الفرنسي بالجنوب التّونسيّ خلال حركة 1915-1916.
ساءت علاقته بالأتراك عام 1916 إذ حاربوه، الأمر الّذي اضطرّه إلى الجلاء عن جهة طرابلس والتّحصّن بمزدة.
حاول تقريب الشقّة بين الفرقاء بجهة طرابلس إثر اندلاع الحرب الأهليّة عام 1920.

إقناع ابن عسكر بالكفّ عن إثارة الفرنسيّين «والتزام موقف وديّ إزاءهم...»(184).

وبعد اندلاع المعارك بين زعيم نالوت والفرنسيّين تبرّأ قادة السنوسيّة منه وشجبوا -ولا سيما ممثّلي الحركة بالمنطقة الغربيّة- أفعاله(185).

على أنّ الأمر الطّريف حقا هنا يتمثّل في أنّ الرّجل كان يعتبر نفسه «عونا» من أعوان السنوسيّة تشهد على ذلك هذه الجملة الّتي ختم بها الرّسالة - الإنذار، الّتي وجّهها إلى عامل نفزاوة بتاريخ 1 أكتوبر 1915، إذ كتب يقول : «والسّلام من سيادة سيدي العابد ومعينه للأمور الحربيّة...»(186).

والحقّ أنّ التّنديد بخليفة بن عسكر لم يكن قاصرا على قادة السنوسيّة، إذ تشير المصادر إلى أنّ الشّيخ سوف المحمودي شجب هو الآخر هجوم ابن عسكر على ذهيبة في رسالة بعث بها إلى رئيس فرع بنقردان للشّؤون الأهليّة، مؤكّدا له «أنّه بصدد التّشاور مع زعماء السنوسيّة وأنّهم سينزلون العقاب بخليفة بن عسكر والمنشقّين الودارنة...»(187).

ولقد استغلّ الفرنسيّون تنديد الشّيخ سوف المحمودي، وقادة السنوسيّة بابن عسكر ليصوّروا الرّجل على أنّه قائد منبوذ، وغوغائي أرعن، إلى غير ذلك من النّعوت.

---

(184) **أ.و.ت.، سلسلة A، صندوق 280**، ملف 1 تقرير سبتمبر 1915.

(185) **I.S.H.M.N., S.H.A.T.**, B. S. 29., Série 2 H. d. 1, rapport du Commandant HARLE, Médenine 1er octobre 1915, f. 24, **Guerre 1914-1918,** B. 69, vol. 1597, le Résident Général à M. DELCASSE, ministre des Affaires Etrangères, Paris, Tunis, 27 septembre 1915, f. 15.

(186) **I.S.H.M.N., S.H.A.T.**, b. 292, s. 2 H 53, **Historique..., op. cit.**, f. 575.

(187) Le Général Commandant en chef de l'Armée de l'Afrique du Nord à Guerre, Paris, Section Afrique, Alger, 3 octobre 1915, Q.O., **Guerre 1914-1918**, B.P. 69 d. 1598, f. 74.

والسّؤال المضاعف الّذي يملي نفسه هنا : لماذا ندّد قادة السنوسيّة بحركة ابن عسكر، وماذا أخذوا عليه بالضّبط ؟

يمكن القول -بإيجاز شديد- إجابة عن هذا السّؤال أنّ استراتيجيّة الحركة السنوسيّة لم تتضمّن إذ ذاك (أي خلال خريف 1915) إعلان الحرب على دولتين أوروبيّتين (إيطاليا وفرنسا في قضيّة الحال) في نفس الوقت(188). إذ كان السنوسيّون، وكذا جلّ قادة إقليم طرابلس، وعلى رأسهم سوف المحمودي حريصين على أن تكون علاقتهم بفرنسا طبيعيّة، كي يتسنّى لهم التّزوّد في الأسواق التّونسيّة الحدوديّة(189).

وثمّة سبب آخر لا يقلّ أهميّة، بل لعلّه السّبب الرّئيسي، جعل قادة السنوسيّة بالجهة الغربيّة يستهجنون سلوك ابن عسكر. ويتمثّل ذلك في امتناعه عن تسليم ما غنمه من أسلاب على هيئة أسلحة وأموال، بعد دخول نالوت، إلى أحد مبعوثي عابد السنوسيّ إليه.

وقد يكون سيّد نالوت توجّه بالكلام إلى المبعوث المذكور كي ينقله إلى رئيسه :

«إنّ الجهاد في السّاحل، وإذا أردت الجهاد معنا فتفضّل، أمّا أن نعطي أسلحتنا، وأرزاقنا لتحملها إلى وسط الصّحراء، ونحن نجاهد، فهذا ممّا لا

(188) **Ibid.**, B. 65, c. 1597, Télégramme du Général commandant de l'Armée de l'Afrique du Nord au Ministre de la Guerre, 14 octobre 1915.

وجدير بالإشارة هنا أنّ أحمد الشّريف القائد الأوّل للحركة السنوسيّة والمقيم ببرقة سيعلن الحرب على الأنجليز في مصر في 11 ديسمبر 1915 بتحريض من تركيا. وبذلك تكون المقاومة اللّيبيّة قد استعدت على نفسها أكثر من قوّة أوروبيّة عظمى في نهاية عام 1915. هل نفهم من هذا أنّ استنكار ممثّلي السنوسيّة لتصرّفات زعيم نالوت تجاه فرنسا بعد شتاء 1915 أصبح من قبيل المآخذ الّتي لا معنى لها ؟ أم أنّ ما حدث على الثّغور الشّرقيّة لا يسري على ما جدّ في الحدود الغربيّة نظرا لاختلاف الخصوصيّات والرّهانات الخ... ؟

(189) **S.H.A.T.**, B. S. 292, S. 2 H., d. 1, rapport du Commandant Harlé... op. cit., f. 24, voir aussi : rapport, novembre 1915.

يمكن...»(190) .

وجدير بالتّسجيل هنا أنّ مسألة تسليم الغنائم والأسلاب ستطفو على السّطح من جديد وستشكّل بالذّات موضوع هجومات عنيفة من لدن المهدي السنّي على خليفة بن عسكر خلال ربيع 1916(191) .

ب- حبس السنوسيّة لخليفة بن عسكر : حادثة ما زال يلفّها الكثير من الغموض :

وكيفما كان الحال، فإنّ انعدام «روح الانضباط» لدى ابن عسكر قد جعل ممثّلي السنوسيّة بإقليم طرابلس يعلنون أنّه «مهجور»، وأنّه معزول من وظيفته. وموازاة مع تلك الجهود الرّامية إلى الحطّ من مكانة الرّجل ومركزه، شرع هؤلاء في تدبير مكيدة للقبض عليه وحبسه.

والملاحظة الّتي نعقّب بها على موقف قادة السنوسيّة هذا، بعد التّوضيح أنّ كلمة "مهجور" كان يعاقب بها هؤلاء من يغضبون عليه من أتباعهم، هي أنّ خليفة بن عسكر لم يكن من أتباع السنوسيّة، زد على ذلك أنّ سيّد نالوت لم يكن موظّفا معيّنا من قبل محمّد العابد ولا من أتباعه أو وكلائه.

وجدير بالإيماء هنا أنّ رمضان السويحلي، سيّد مصراتة، قد لقي نفس المصير بعد رفضه تسليم ما غنمه من أموال وأسلحة لصفي الدّين بعد معركة القرضابيّة الشّهيرة(192) .

ودون التّطوح بعيدا في تفاصيل المكيدة الّتي ستتوّج بالقبض على ابن عسكر وسجنه (والّتي أفاضت فيها الرّواية الشّفويّة في شيء من المبالغة، في حين شحّت أخبارها في المصادر المكتوبة)، نكتفي بالإشارة إلى أنّ المدعو هاشم

(190) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 47.

(191) **I.S.H.M.N., M.A.E. (Q.O.) Tunisie, N^lle Série**, b. 38, extraits des rapports des Affaires Indigènes à la date du 18 juillet 1916, f. 297 ; voir aussi : rapport, mai 1916.

(192) الطاهر احمد الزاوي، **نفس المصدر**، ص 182-183.

الزوي(193) نجح في أواخر شهر نوفمبر 1915 في الإيقاع بخليفة بن عسكر في موضع ما من جبل الحرابة، وذلك تنفيذا لأمر صادر عن أحمد السنيّ(194)، وتمّ تسليمه للزنتان(195) حيث سجن بمنزل المدعو أحمد المخترش(196).

وعلى إثر ذلك تحرّك أتباع الرّجل يتقدّمهم شقيقه مسعود بن عسكر، ومحمد بن يوسف بوصوّة وعيسى تفوشيت، وخليفة قرقاب، ويحي دبسكي، وسعيد بوشنبه، من أجل تخليصه من الأسر(197).

وتكثّفت جهود هذه الجماعة ومساعيها لدى الزنتان طردا مع تردد أنباء ملحّة قوامها أنّ هؤلاء يعتزمون تسليمه للإيطاليين(198).

وبعد لأي، أفلح كلّ من مسعود بن عسكر، وعيسى تفوشيت، في تدبير عمليّة هروب ابن عسكر من السّجن(199).

ويذكر هنا أنّ خليفة بن عسكر نزل ضيفا على سوف المحمودي مباشرة بعد فراره. واستمرّت تلك الضّيافة ستّة أيّام(200)، عاد الرّجل على إثرها إلى نالوت

---

(193) **نفس المصدر**، ص 189.

(194) I.S.H.M.N., Q.O., Guerre 1914-1918, b. 69, d. 1598, Tunis, 2 décembre 1915, f. 157 (Extraits des rapports des A.I. sur la situation politique du Front Tripolitain).

(195) «يرجع الزنتان في أصولهم العربيّة إلى قبيلة الدواسر إحدى قبائل نجد الكبرى. وتمثّل تاغرمين عاصمة الزنتان بمنطقة جبل نفوسة، وتحديدا إلى الجنوب من تاردية. وقبيلة الزنتان من أكبر القبائل العربيّة في طرابلس ولها شهرة واسعة... ومنعَة بين القبائل ووقعت لها حروب كثيرة بينها وبين البربر، وبينها وبين أولاد أبي سيف...»، الطّاهر أحمد الزاوي، **معجم البلدان اللّيبيّة**، طرابلس، دار مكتبة النّور، ط 1، 1968، ص 78.

(196) القشاط، **نفس المرجع**، ص 48.

(197) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 48.

(198) **نفس المرجع**، ص 47، 49.

(199) بخصوص تفاصيل عمليّة الهروب هذه، انظر: **نفس المرجع**، ص 48 وما يليها.

(200) **نفس المرجع**، ص 58.

قصد «الإشراف على إدارة البلاد وترتيب أمورها...»(201) من جديد.

وإذا نحن جارَيْنا محمد ، سعيد القشاط فيما قاله بخصوص الحفاوة الكبيرة الّتي خصّ بها سوف المحمودي خليفة بن عسكر، فإنّ هذا يعني -بلا ريب- تبدلا في موقف زعيم المحاميد من زعيم نالوت الّذي ظلّ يجسّد العداوة لفرنسا بالجبل الغربي.

ومهما يكن من شيء، فإنّ عودة ابن عسكر إلى معقله بنالوت في مطلع عام 1916 سيشكّل نهاية فصل (أي تجربة) ما زال يلفّه الكثير من الغموض.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الباحث في دقائق هذه الحادثة كما تواترت في المرويّات الشّفويّة سيجد نفسه أمام طائفة من علامات الاستفهام : هل يعقل أن يقع الرّجل في الأسر بمثل تلك السّهولة الواردة في الرّواية ؟ وهل الباحثون في تاريخ تلك الفترة من السّذاجة بما يجعلهم يصدّقون السّهولة «الغريبة» التي رافقت عمليّة تخليصه من الأسر... ؟ إلى غير ذلك من «الأشياء» الّتي لا تتّسق مع ما عرف عن «صاحبنا» من طباع، وما اشتهر به خصومه من شدّة في معاملة أعدائهم وشانئيهم.

أيًا يكن، فإنّ عودة ابن عسكر مجدّدا إلى المسرح السّياسيّ والعسكريّ، بإقليم طرابلس ستقترن «بتورّطه» في اندلاع الحرب الأهليّة بالجبل في ربيع 1916، وباستئناف تحرّشه مراكز الحاميات الفرنسيّة الحدوديّة، ممّا أقام الدّليل، بشكل ساطع، على أنّ تجربة السّجن لم تفلّ في حدّه، ولم تزعزع قناعاته(202).

(201) **نفس المرجع**، ص 59.

(202) لكأنّه غادر السّجن وهو يردد قول الشاعر عون بُوبطنين (وهو من وجهاء الصّيعان الّذين شاركوا في حركة 1915-1916) :

بَالْكُمْ تْقُولُوا الحَبْسْ بَرّدْ نَوَّه   إِنْ الحَبسْ زَايدْني جَهَلْ وُقُوَّهْ

وجدير بالإشارة أنّ الشّاعر المذكور سجن مدّة طويلة في نهاية العهد العثماني الثاني بطرابلس (1835-1911) وقد استشهد في معركة رمادة عام 1915.

المبحث الثّالث :

انخراط خليفة بن عسكر في الحرب ضدّ «المطلينين» واستئناف حربه ضدّ الفرنسيّين (ربيع-صيف 1916)

I - مشاركة خليفة بن عسكر في حرب «معسكر المطلينين» :

1- في أسباب الحرب :

مثل اندلاع الحرب الأهليّة بالجبل الغربيّ خلال ربيع 1916 حلقة جديدة ضمن مسلسل اصطراع الزّعامات وتطاحنها بإقليم طرابلس منذ 1913(203) وشكّل بالتّالي مبتدأ عهد من «الآلام والآثام»، وفق عبارة الشّيخ الطاهر أحمد الزّاوي، استمرّ ما يربو عن ستّ سنوات.

انتظم الفرقاء في مطلع مارس 1916 ضمن حلفين : ضمّ الأوّل بالخصوص الشّيخ سوف المحمودي زعيم الحوامد، ومهدي السنّي، قائد الزّاوية السنوسيّة بمزدة، وخليفة بن عسكر سيّد نالوت وكان يقود أقساما من الرحيبات، والحرابة، وأولاد محمود، ونالوت، وكباو، والحوامد، والمجابرة، وطومزين، وكذا المهدي فكيني الّذي ساعده علي البدوي، وعلي شنطة(204) من الزّنتان وكان تحت إمرة هؤلاء كلّ من الزّنتان والرجبان(205)، وأولاد

---

(203) انطلق الصّراع بين الوجاهات المحلّيّة الطرابلسيّة بشكل خطير ابتداء من عام 1913 عندما عرض عبد النبي بالخير زعيم ورفلة خدماته على الكولونيل مياني Miani خلال حربه ضدّ الشيخ محمد بن عبد الله البوسيفي. وقد قاد بالخير «قوّات المجندين تحت إمرة الطّليان في الشبّ، واشكدة، والمحروقة بفزان»، انظر : محمد الطوير، «مقاومة العرب اللّيبيّين...»، **نفس المرجع**، ص 46.

(204) **علي شنطة** : من وجاهات الزّنتان. عيّنه السنوسيّون خلال الحرب العظمى قائمقام على غدامس، ثمّ أقالوه من منصبه بسبب سوء تصرّفه و«تعدّد ابتزازاته». كانت له حظوة كبيرة لدى قبيلة الزنتان المهيبة. تحالف علي شنطة عام 1920 مع زعيم الرجبان أحمد فكيني ضدّ خليفة بن عسكر على ما سيزداد وضوحا في الباب الثالث من هذه الدّراسة.

(205) **الرجبان** : من القبائل العربيّة المشهورة دعيت عاصمتها تاردية (تقع بجبل نفوسة وتبعد عن مدينة طرابلس إلى الجنوب الغربي بنحو 180 كم على طريق يفرن).

شبيل(206) . ومن بين الزّعامات الأخرى يجدر ذكر الحاج أحمد فكيني، وعيسى بوسهمين، وبوبكر بوسنوقة من زوارة.

أمّا الحلف المقابل فقد تزعّمه سلطان بن شعبان(207) ، وكان ذا نفوذ كبير في زوارة وما حولها ولدى البربر الأباضيّين بعامّة، وساسي خزام، زعيم يفرن، وحرب النائلي(208) زعيم قبيلة النوايل ومن انضمّ إليهم.

وإذا نحن دقّقنا النّظر في تركيب المعسكرين، فإنّنا سنلاحظ منذ الوهلة الأولى أن خليفة بن عسكر اختار الانحياز إلى معسكر أعداء بني جلدته، أي أنّه سيستعدي على نفسه الكثرة الدّاثرة من البربر الأباضيّين بنفوسة.

ومن شأن هذه المعاينة الاولـيّة أن تحضّ على الحفر في طبيعة هذه الحرب والبحث في أسبابها. ولنقلها صريحة فصيحة منذ البداية : لم تكن الحرب الّتي اندلعت بالجبل الغربي في ربيع 1916 حربا دينيّة عرقيّة كما ورد ذلك في تقارير ضبّاط الشّؤون الأهليّة في شيء من المبالغة والحذلقة اللّفظيّة المغرضة. وكما زعم جان ديبوا Jean DESPOIS (على سبيل الذّكر لا الحصر) في دراسته القيّمة الموما إليها. زد على كلّ ذلك أنّ البعد القبلي فيها كان غائما.

كذلك ليس من صائب الإدراك الجزم دون مواربة أنّ المواجهة جمعت أنصار إيطاليا وأعوانها من اللّيبيّين بمعسكر المقاومة.

وباختزال شديد نقول : كانت حرب 1916 بالجبل الغربي، في بداياتها على الأقلّ حرب مصالح ليس إلاّ.

(206) **I.S.H.M.N., Archives Nationales d'Outre-mer (Aix-en-Provence)**, Série H, sous série 26 H, Tunisie, b. 69, rapport, octobre 1916.

(207) **سلطان بن شعبان** : وجيه من وجاهات زوارة البارزين. كانت له مساهمة في حركة المقاومة إبان الغزو الإيطاليّ ولا سيما في معارك الهاني، وجنزور، وحروب زوارة. دخل في خصومة مع سوف المحمودي عام 1916 على ما سيزداد وضوحا في هذا العنصر.

(208) **الشّيخ حرب النائلي** : هو زعيم قبيلة النوائل كانت له صلات صداقة متينة زمن الاحتلال الإيطالي بأهل زوارة ورجالاتها المشهورين.

ونرى من الضّروري قبل أن نسوّغ هذا الحكم، أن نذكّر بأشياء سبق أن ألمحنا إلى البعض منها أعلاه.

قدّمنا آنفا أنّ العلاقات الاقتصاديّة والاجتماعيّة بإقليم طرابلس تميّزت بالتّعقّد و«التّطوّر» (لا سيما منذ العهد العثماني الثّاني وحتّى حدث الاحتلال)، إذا ما قورنت بطبيعة ذات العلاقات بإقليمي برقة وفزّان.

كما لم تفتنا الإشارة إلى دخول الإقليم في الاقتصاد النّقدي -ببطء ولكن على نحو أكيد- كنتيجة من نتائج ارتباط المناطق السّاحليّة بالاقتصاد العصري، وتركيز نواتات استثمار إيطاليّة وانجليزيّة بالشّريط السّاحلي في نهاية القرن التّاسع عشر موازاة مع الإصلاحات الإداريّة العثمانيّة (ومن بينها قانون الأراضي لعام 1858).

وقد أثمرت كلّ هذه الجهود والإجراءات «نتائج رأسماليّة جنينيّة في مطلع القرن العشرين...»(209).

وبالتّدريج بدأت مدينة طرابلس في فرض هيمنة سوقيّة تجاريّة على الدّواخل(210). وغني عن القول هنا، أن التّبدّلات المذكورة المُومأ إليها أشّرت لظهور شريحة من الأعيان، وبزوغ فئة من التّجّار الوسطاء(211).

كما أضفت عمليّة توطين المزارعين (بعد استصدار قانون الأراضي) غنًى على المشهد الاقتصادي والاجتماعي بالإقليم المذكور.

ومن بين أشهر العائلات الارستقراطيّة الطرابلسيّة الّتي استفادت من هذا الانفتاح الاقتصاديّ يمكن ذكر عائلة حسونة قرمانلي بمدينة طرابلس، وعائلة عمر المنتصر المصراتيّة(212)، والّتي تخصّصت في الميدان التّجاري. كما نهضت لدور

(209) علي عبد اللّطيف حميدة، **نفس المرجع**، ص 174.

(210) **نفس المرجع**، ص 153.

(211) **نفس المرجع**، ص 156.

(212) P. Granchamp, **Chronique de Libye..., op. cit.**, (année 1924) pp. 146-147.

الوساطة في ذات المجال عائلات يهوديّة طرابلسيّة من أمثال عائلة حلفون، ولاي، وأربيب، وناحوم(213).

ويهمّنا التّنبيه هنا إلى أنّ مراكز بعض العائلات قد تزعزعت بفعل التّقلّبات السّياسيّة الّتي عرفتها إيالة طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثّاني. وعلى سبيل المثال، فإنّ عائلة الأدغم فقدت نفوذها السّياسي والاقتصادي بمصراتة، وقضاء الخمس (والّذي استمرّ خلال النّصف الأوّل من القرن التّاسع عشر) بعد تورّطها في انتفاضة ضدّ الحكم العثماني(214)، ممّا فسح المجال لأسرة المنتصر كي تسدّ ذلك الفراغ وتسيطر بالتّالي على أهمّ المناصب الإداريّة(215).

وعلى إثر نجاح الانقلاب الدستوري في الامبراطوريّة العثمانيّة عام 1908، استهدف مناصرو سياسة الجامعة الإسلاميّة (الإيديولوجيّة الرّسميّة للدّولة في عهد السّلطان عبد الحميد الثّاني) بطرابلس ومن بينهم عناصر مؤثرة مثل عائلة المنتصر إلى الإقصاء و التّهميش و "التّحجيم".

وينبغي التّذكير أيضا أنّ حسونة قرمانلي ظلّ متّصل الحنين إلى العهد الّذي كان فيه أجداده حكاما لطرابلس، وكان يتعلّل بأمل العودة إلى حكم المدينة من جديد، وهذا ما جعله يدخل في اتّصال مع الحكومة الإيطاليّة منذ عام 1890، ثم يعرض على الإيطاليّين خدماته منذ السّاعات الأولى للغزو(216).

ولقد أدّى الفراغ السّياسي النّاجم عن تنحّي الأتراك عن إدارة شؤون البلاد عام 1912، وانكسار الجيش الإيطاليّة عام 1914 إلى احتداد التّنافس والصّراع بين الزّعامات الطرابلسيّة حول الأراضي، وجمع الضّرائب من السكّان، وكذا المعونات الألمانيّة، والعثمانيّة، والإيطاليّة، فضلا عن الاستئثار بمناطق

---

(213) علي عبد اللّطيف حميدة، **نفس المرجع**، ص 154-156.

(214) **نفس المرجع**، ص 155.

(215) P. Granchamp, **op. cit.**, pp. 146-147.

(216) جورج ريمون، **نفس المصدر**، ص 70.

النّفوذ، بحيث ساهمت الطّبيعة الانتقاليّة لاقتصاد المنطقة الغربيّة للإقليم في دعم مراكز بعض الوجاهات والشّيوخ(217). وقد لخّص النّقيب الفرنسيّ رافو RAFFOUX هذه الحالة في الفقرة القصيرة التّالية:

«تلاقي السّلطة السنوسيّة مقاومة في إقليم طرابلس من قبل قادة محليّين مستقلّين هم إقطاعيّون حقيقيّون، طموحون ولديهم رغبة في الاستقلال بإقطاعاتهم في بلد يفتقر إلى النّظام...»(218).

هكذا نكون قد مهّدنا بشيء من الاختصار والتّركيز، إلى فهم البعض من الملابسات الحافّة بانطلاق الحرب الأهليّة في ربيع 1916. وستكون لنا عودة لخلفيّات الحروب الأهليّة (لا سيما حرب 1920-1921) بشيء من الإفاضة خلال الباب الثّالث من هذه الدّراسة وتحديدا الفصل المعقود لحرب خليفة بن عسكر ضدّ التّحالف القبلي بالجبل الغربي.

والسّؤال الآن هو: كيف اندلعت شرارة هذه الحرب؟ بعبارة أخرى مُجملة: ماذا حدث بالضّبط في مطلع عام 1916؟

نزل الشّيخ سوف المحمودي بالجفارة الغربيّة في مستهلّ العام المذكور يحمل تعيينا من لدن الباب العالي بصفة «نائب للسّلطان العثماني في طرابلس الغرب»(219). وقد استغلّ «النائب الجديد» هذا المنصب المهم، وكذا المعونات العثمانيّة (من أسلحة وأموال) لدعم مركز عائلته (وقبيلته)، على حساب منافسيه وخصومه من العشائر الأخرى، تشهد على ذلك التّعيينات الّتي أقدم عليها فور استوائه في منصبه الجديد.

---

(217) علي عبد اللّطيف حميدة، **نفس المرجع**، ص 174.

(218) Capitaine RAFFOUX, **Le Front Sud Tunisien... op. cit.**, p. 7.

(219) P. Granchamp, Chronique de Libye... op. cit., (année 1924), pp. 148-149.

وكمثال على تجاوزاته المتمثّلة في تعيين أبناء عمومته وحلفائه في المناصب الإداريّة والسّياسيّة، نذكر تسمية عيسى بوسهمين قائمقاما على زوارة (على حساب عائلة ابن شعبان المهيبة والمتنفّذة) وتعيين أقربائه محمد بن بلقاسم المحمودي قائمقاما على النوايل، متجاهلا بذلك شيخ النوايل حرب النايلي، وأحمد باشا المحمودي متصرّفا في يفرن (على حساب ساسي خزام)، وعون بالحاج المحمودي قائمقاما على الجوش الخ...(220)

يقول الشّيخ الطّاهر أحمد الزّاوي مُعلّقا على تلك القرارات الخطيرة :

«... وكان لهذا التّعيين أثر سيّء على نفوس بعض النّاس، فكان سلطان بن شعبان يرى نفسه أحقّ بالرّئاسة في زوارة، لأنّه أكبر شأنا وأكثر شهرة من عيسى أبو سهمين. وكان حرب النايلي -وهو من رؤساء قبيلة النوايل- يرى نفسه أولى برياسة قبيلته من محمد بن أبي القاسم المحمودي. وكذلك الأمر مع ساسي خزام في يفرن فإنّه يرى نفسه أولى بحكمها من أحمد الباشا لأنّها أشهر بلاد البربر وهو من أعيانهم... وبقيت نفوس الّذين رأوا أنفسهم أولى بالأمر متأثّرة بفوات ما كانوا يؤمّلون، فحقدوا على هذا النّظام، وأخذوا يعملون لتنفيذ ما في نفوسهم على هذا النّظام، وأخذوا يعملون لتنفيذ ما في نفوسهم. وفي مقدّمة هؤلاء سلطان بن شعبان وحرب النايلي...»(221) .

---

(220) الطاهر أحمد الزاوي، **نفس المصدر**، ص 172.

(221) **نفس المصدر** والصّفحة.

أبرز الزعامات الطرابلسيّة الثّائرة عام 1916(1)

الإسم	عدد الرّجال المسلّحين	مجال النّفوذ (الطّبيعي أو البشري)	مكان الإقامة
الشيخ سوف المحمودي	2000	طرابلس الغربية، شريط تابع لعدّة قبائل	العزيزية
المرغني بن سالم	700	الورشفان	العزيزية
محمد الشّين	300	الرحيبات	الرحيبات
أبو بكر قرزة	600	أولاد عبد النّبي بوسيف	أولاد عبد النّبي بوسيف
عيسى بوسهمين	100	قسم من زوارة	جهة زوارة
محمد شتيحة	100	غريان	غريان
منصور بن كريم	100	النوايل	النوايل
الحاج محمد فكيني	200	فسّاطو	فسّاطو
علي الشنطة	200	الزنتان	الزنتان
الصويعي باي	200	النواحي الأربع	سوق الجمعة
خليفة بن عسكر	1000	نالوت، كاباو، الصيعان، الحرابة، وازن الحوامد، أولاد محمود، المجابرة...	نالوت
محمد بن بلقاسم باشا	1000	العجيلات، الورشفان	العزيزية
أحمد عرابي(2)	1000	المحاميد	العزيزية
رمضان السويحلي	2000	طرابلس الشّرقيّة، الخمس، مصراتة، ترهونة	مصراتة
عبد النّبي بالخير	1000	ترهونة، ورفلة	ورفلة
الطّاهر بن المنتصر	1000	ترهونة، ورفلة	ورفلة
مفتاح التريكي	1000	مسلاتة	مسلاتة
الحاج فرج	1000	مصراتة	مصراتة
الحاج محمد الذويب	3000	الخمس	الخمس
صالح بي	3000	ورفلة	ورفلة
سالم بن يعقوب	3000	زليطن	زليطن
أحمد سيف النّصر	2000	سرت	سرت

(1) جلّ هؤلاء القادة كانوا قريبين من سوف المحموديّ (جوان 1916).

(2) قتل يوم 16 جوان 1916 في رتبة العسّة، خلال المعركة الّتي خاضها إلى جانب الصّيعان ضدّ النوايل.

المصدر : **I.S.H.M.N., S.H.A.T., b. s. 292, 2 H, d. 1, f. 10**

زعامات قريبة من الإيطاليّين أو معارضة لسوف المحموديّ

(جوان 1916)

الإسم	عدد الرّجال المسلّحين	مجال النّفوذ (الطبيعي أو البشري)	مكان الإقامة
سلطان بن شعبان	500	زوارة	زوارة
ساسي خزام	400	يفرن	يفرن
حرب بن نصر النائلي	600	النوايل	النوايل
يوسف خربيشة	300	فسّاطو	فسّاطو
علي بن تنتوش	300	ورشفان	ورشفان
الهادي كعبار	300	غريان	غريان
الصغيّر المريّض	300	ترهونة	ترهونة

– **نفس المصدر**

إنّ المتابعة المتمعّنة لتطوّر حوادث هذه الفترة لتؤكّد أنّ سلسلة الإجراءات الّتي اتّخذها سوف المحمودي قد نبشت، بل أذكت النّزعة الحزبيّة المسمّاة بالصفوفيّة في إقليم طرابلس، وهي نزعة لا تخمد إلاّ لتعود للتّأجّج تحت وقع أحداث جديدة.

ومن المعروف أنّ الصفوفيّة، والتّحالفات القبليّة شكّلت أحد المؤشّرات الدّالّة عن نزوع القبائل إلى الاستقلاليّة، وتجلّى ذلك إمّا خلال ارتخاء قبضة السّلطة المركزيّة في الدّواخل، أو خلال فترات اضطراب حبل الأمن، وانفلات الزّمام.

هكذا «تذكّر» النوايل أنّهم حلفاء «للقبائل الاباضيّة»، والأكثر رُجْحانا في تقديرنا أنّهم أخلدوا إلى الاستنتاج (شأنهم في ذلك شأن أهالي زوارة، وفساطو، ويفرن) أنّ الشّيخ سوف المحمودي بصدد الثّأر لنفسه، وتسوية حسابات قبليّة قديمة لا غير...

ويجدر التّذكير هنا أنّه كان بالمنطقة الغربيّة صفّان كبيران : ضمّ الأوّل قبائل الاباضيّة، والمشاشية، وأولاد بوسيف والنوايل. وتألّف الثّاني من الزنتان والرجبان والمحاميد والحرابة...

إنّ ما يهمّنا من هذا كلّه هو أنّ «إصلاحات» سُوفْ وترتيباته الإداريّة والسّياسيّة لم تلحق ضررا بمصالح خليفة بن عسكر، ولم تمسّ من ركائز وجاهته الاجتماعيّة الّتي ثبّتها بجهة نالوت.

نعم، لقد كان الشّيخ سُوف المحمودي سبّاقا في إعلان تأييده لقرار خليفة بن عسكر تعيين نفسه قائمقاما على نالوت وذلك منذ شهر أوت 1915(222)، أي إبّان عودته من منفاه بالشّام، وقبل التحاقه بالمنطقة الغربيّة وسهل الجفارة، وقد ثبت على موقفه هذا بعد ذلك. وسينسج سليمان الباروني على منواله في نوفمبر 1916(223).

وعلى ضوء هذا الّذي ذكرنا إلى حدّ الآن يمكننا إدراك المعاني الثاوية وراء رفض سيّد نالوت الإصغاء إلى «نصائح»، سلطان بن شعبان، وساسي خزام،

(222) P. Granchamp., **op. cit.**, (année 1924), p. 151.

(223) **Ibid.**, voir "Sliman El Barouni", p. 159.

ويوسف خربيش(224) ، وغيرهم، والّذين كانوا يستحثّونه للالتحاق بهم باسم «العصبيّة البربريّة».

فعلا، لقد تجاهل خليفة بن عسكر التّوصيّات المنبثقة عن اجتماع زوارة المنعقد في مارس 1916 بحضور أبرز الوجاهات البربريّة الممثّلة لزوارة، وفساطو، ويفرن(225) .

وكان القادة الحاضرون طرحوا قضيّة جلبه إلى صفّهم على بساط البحث. وارتفعت أصوات خلال تلك النّدوة، مطالبة بممارسة «ضغوطات عليه» بغية ضمّه إلى تحالفهم(226) .

ولكن لا يذهبنّ في الظنّ أنّ الرّجل بموقفه هذا قد شكّل «استثناء»، أو «حالة شاذّة» (إقرأ: جبالي ضلّ الطريق بمنظار الأباضيّين البربر، وكان حريّا به الانتصار لإخوته الخ...)، إذ نجد في المصادر ما يؤكّد أنّ وجاهات جباليّة من فساطو من أمثال عمرو غنغانة، وعمرو بوبرنوصة(227) ، ومن زوارة من أمثال بوبكر بوسنوقة، وكذا القسم الأعظم من قبيلة التلالة(228) ، كانت ضمن قوّة سوف المحمودي، مما يعضد الرّأي المومأ إليه أعلاه، والّذي يؤكّد أنّ الحرب لم تكن حربا دينيّة.

---

(224) يوسف خربيش (أو خربيشة). ولد في حدود عام 1870 بفسّاطو. كان من كبار مربّي الحيوانات زمن الأتراك، وكذا خلال السّنين الأولى للاحتلال الإيطالي. تمّ تعيينه بصفة شيخ على فساطو بعد تنحّي الأتراك عن منطقة الجبل عام 1915. دخل في خصومة مع الشّيخ سوف المحمودي بعد إعادة احتلال زوارة في ماي 1916، وجلب إلى صفّه ساسي خزام قائمقام يفرن. وانحاز الرّجلان إلى الإيطاليّين وعملا لمصلحتهم. كوّن يوسف خربيش قوّات رديفة لعضد الإيطاليّين دُعيت الباندة.

(225) **I.S.H.M.N., Archives Nationales d'Outre-mer (Aix-en-Provence),** Série H., sous série 26 H, Tunisie, b. 69, rapport, mars 1916.

(226) **Ibid.**

(227) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 211.

(228) **نفس المرجع**، ص 239.

2- بدء الحرب ومشاركة خليفة بن عسكر فيها :

تؤكّد المتابعة المتمعّنة لتطوّر الأحداث بمنطقة الجبل الغربي في أوائل عام 1916، أنّ الشّيخ سوف المحمودي تفطّن إلى خطورة الموقف النّاجم عن سياسته(229)، ومن ثمّ عزم على «إصلاح الوضع»، وتطويق الخلاف بعد أن نمت إلى علمه نتف من أخبار قوامها غضب ساسي خزام، ولا سيما سلطان بن شعبان رجل زوارة القوي واستعداد هذا الأخير لردّ الفعل اعتمادا على المساعدة الإيطاليّة.

وفي هذا الإطار يمكن تنزيل حركة الشّيخ سُوف. باتّجاه ساسي خزام في مطلع مارس 1916، إذ تحوّل من العزيزيّة إلى يفرن في محاولة لجلب هذا الأخير وأتباعه، إلى صفّه (إقرأ: إضعاف موقف سلطان بن شعبان).

ولتأكيد حسن نواياه تجاه ساسي خزام، أصدر الأمر إلى خليفة بن عسكر بالعودة إلى نالوت، وتقاسم قيادة الجبل بينه وبين زعيم يفرن(230). وموازاة مع ذلك الإجراء، عزل أحمد الباشا، وعيّن بدله ساسي خزام على متصرّفية يفرن(231). ثمّ عمد الشّيخ سوف، في مرحلة تالية إلى تشكيل وفد ترأسه هو شخصيّا، وضمّ الساعدي بن سلطان، وساسي خزام، والحاج محمد البلوطي، تمثّلت مهمّته في الحيلولة دون انضمام سلطان بن شعبان للإيطاليّين(232)، وخاصّة بعد سريان أخبار مؤداها شروع ابن شعبان في إقامة اتّصالات مع والي طرابلس بواسطة قائد مركب إيطاليّ مساحل في زوارة(233).

---

(229) الطاهر أحمد الزاوي، **نفس المصدر**، ص 185.

(230) **I.S.H.M.N., Archives Nationales d'Outre-mer (Aix-en-Provence), Série H**, sous-série 26 H, Tunisie, b. 69, rapport, mars 1916.

(231) الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 172.

(232) **نفس المصدر**، ص 185.

(233) **I.S.H.M.N., A.N.O.M., op. cit.**, rapport mars 1916.

ولقد باءت مهمّة هذا الوفد بالفشل إذ وجد أعضاؤه، خلال تحوّلهم إلى زوارة، والي طرابلس أميلو EMILO بمنزله. وقد أفهمهم، زعيم زوارة أنّه اتّفق مع الإيطاليّين على الصّلح والتّعاون، وأنّه لن ينكث عهدا قطعه على نفسه(234).

وكان من بين نتائج محاولة الصّلح هذه اقتناع ساسي خزام «بصحّة طروحات» سلطان بن شعبان، و قراره الانضمام إلى حركته(235).

نشبت حرب الجبل في أفريل 1916 على إثر اشتباك بين الرجبان والزّنتان من جهة، وفساطو من جهة أخرى، وقد انجلت هذه المواجهة عن ثلاثة وثلاثين قتيلا (من بينهم خمسة وعشرون في صفّ فساطو)(236).

وتمثّل السّبب المباشر لهذه الحوادث في «حجز» الرّجبان والزّنتان رسالة موجّهة لخليفة بن عسكر تحمل توقيعات سلطان بن شعبان، وساسي خزام، ويوسف خربيش تضمّنت «إساءة» للقبيلتين اللّتين أظهرتا بمظهر من يحاول بذر بذور الشّقاق، وإقلاق راحة السكّان الوديعين(237).

إنّ ما يهمّنا من هذا كلّه هو أنّ زعيم نالوت استجاب منذ اندلاع شرارة الحرب لنداء سوف المحمودي المرابط بلعزيزية، والقاضي بسحق «المطلينين». وستكون مشاركة ابن عسكر لافتة للأنظار خاصّة خلال عمليّات احتلال كلّ من فساطو (سبتمبر 1916) ويفرن (1916)، وهو ما سيكون شأننا ضمن عنصر تال.

II - استئناف الحرب ضدّ الفرنسيّين :

عاد خليفة بن عسكر لمحاربة الفرنسيّين من خلال التّحرّش بمواقعهم الحدوديّة بالجنوب التّونسيّ بعد انقطاع استمرّ ثمانية أشهر مستغلاّ الارتفاع

---

(234) الطاهر أحمد الزاوي، ص 185-186.

(235) نفس المصدر، ص 186.

(236) I.S.H.M.N., A.N.O.M., Série H, Sous-Série 26 H, Tunisie, b. 69, rapport avril 1916.

(237) Ibid.

الهام المسجّل في درجة الحرارة خلال صيف 1916(238).

ونقع في الوثائق الفرنسيّة الرّسميّة على ما يفيد أن «العدو وفّق في اختيار توقيت الهجوم، إذ أنّ حرارة الطّقس بالجنوب لا يمكن احتمالها...»(238مكرر).

وقد أفاضت تقارير الضبّاط الفرنسيّين في وصف الظّروف المناخية القاسية، لتخلص إلى نتيجة مؤداها أن فرق الجيش الفرنسيّ الّتي تمّ استجلابها إلى مراكز الحدود غدت تلاقي مصاعب جمّة في التّكيّف مع الطّقس بالمنطقة(239).

وغير خاف هنا أنّ المراجع الفرنسيّة، حاولت من خلال المغالاة في وصف شدّة الحرّ، التماس بعض الأعذار لفرقها الّتي ستتكبّد خسائر مهمّة، لا سيما خلال الهجوم على رمادة في 26 جوان كما سيأتي بيانه.

وينبغي ألاّ نغفل أيضا عن ذكر تواصل عمليّات «الجياشة» الّتي كان ينفّذها «المنشقون» الودارنة المقيمون بالشّريط الحدوديّ، ومن انضمّ إليهم من قبيلة الحوامد الطرابلسيّة، وبعض الأقسام الثّائرة بالجبل الغربي.

وقد نجح المغيرون، بفضل ما أوتي لهم من سرعة حركة، وقدرة على المخاتلة والتّضليل، في إقلاق راحة فرق المشاة، والرّشاشات، والفرسان المعزّزين بالمدفعيّة، والّتي كانت تجوب النواحي الجنوبيّة في كلّ الاتّجاهات(240). معنى هذا أنّ الأمر لم يستتبّ للفرنسيّين بالمنطقة الحدوديّة خلال الفترة الفاصلة بين مطلع أكتوبر 1915 (معركة وادي نكريف)، ونهاية جوان 1916 (معركة ذهيبة الثّانية).

(238) تأرجح معدّل درجة الحرارة بمدنين (على سبيل المثال)، خلال شهر جويلية 1916 ما بين 42 و45 درجة مائويّة، مع معدّلات قصوى بلغت 49 و50 درجة مائويّة في الظلّ، انظر: **I.S.H.M.N., S.H.A.T., b.s. 292, c. 2H 53, Historique... op. cit.**, f. 578.

(238مكرر) **I.S.H.M.N., M.A.E. (Quai d'Orsay)**. Fonds nominatifs, Papiers d'Etat, Papiers privés, Papiers G. Alapetite. b. 494. d. 3, 3 juillet 1916, f. 104-105.

(239) **Ibid.**, 20 juin 1916, f. 73.

(240) **Ibid.**, f. 180 et suivantes.

ومن الطّريف الدّال، ولعلّها من المفارقات أن تتعدّد تلك العمليّات وتزداد حدّة من حيث الوتيرة والدّوي خلال شهر أفريل 1916، وهو الشّهر الّذي أدّى فيه المقيم العام الابتيت ALAPETITE (ابتداء من 26 منه) زيارات قادته إلى مدنين، وتطاوين وجرجيس وبنقردان قصد استطلاع الأحوال من ناحية، والرّفع من معنويّات فرق الجيش الفرنسيّ الّتي أربت على ستّة عشر ألفا من الرّجال، ما خلا فرق الرديف، من ناحية أخرى.

وصفوة ما تقدّم فقد تسبّب الهجوم على ذهيبة ورمادة في «تدهور الوضع السّياسي» بشكل خطير، باعتراف قادة الجيش الفرنسيّ أنفسهم(241).

1- حصار ذهيبة (20-25 جوان 1916) أو معركة ذهيبة الثّانية :

لعلّه من المفيد الإشارة منذ البدء إلى أنّ «حالة من الأسف» انتابت قادة الجيش الفرنسيّ لأنّ «حسن الاستعداد والنّوايا الطّيّبة» الّتي أبداها ابن عسكر منذ أكتوبر 1915 كانت قصيرة الأمد(242).

لقد كانت القيادة العليا الفرنسيّة (بفضل ما توافر لها من معلومات أمدّها بها الإيطاليّون ومصلحة الشّؤون الأهليّة)(243)، على علم بتكوّن محلّة بالمنطقة الحدوديّة، تحت إمرة ابن عسكر، قوامها ألفا رجل وهي معزّزة بالمدفعيّة والرشّاشات(244).

---

(241) **I.S.H.M.N., M.A.E. (Q.O.), Guerre 1914-1918**, d. 1603, extraits des rapports du Service des A.I. à la date du 27 juin 1916, f. 66.

(242) **Ibid.**, b. 494, d. 1601, tél. du Général commandant armée, Afrique du Nord à Guerre, Alger 21 avril 1916, f. 284.

(243) **I.S.H.M.N., S.H.A.T., S. 292**, 2 H 53, d. 3, **Historique... op. cit.**, f. 578.

(244) **Ibid.**

وعلى الفور أصدر الجنرال أليكس ALIX، قائد جيش الاحتلال الأمر بتكوين ثلاثة طوابير: اثنان بتطاوين تحت إمرة الرّائد "قايون" GAYON و"شوان" CHOIN وواحد ببنقردان بقيادة الرّائد "لامبير" LAMBERT.

وقد تألّف كلّ طابور من فوج «قوميّة» ومفرزتي خيالة، وفصيلتين راكبتين، وفرقة مشاة، وقسم مدفعيّة (عيار 65)، وقافلة جمال(245). وفضلا عن كلّ ذلك تمّ بعث فرقة متجوّلة بأم صويغ أنيطت بالنّقيب أوديبار AUDIBERT، وتمثّلت مهمّتها في تأمين حماية قوافل الجند والتّموين، خلال مرورها بالمسلك الجبلي الوعر الّذي يصل أم صويغ بذهيبة(246).

وفعلا، فقد نبّه مرور إحدى هذه القوافل، الّتي كانت تقصد ذهيبة يوم 19 جوان، إلى وجود الثّوّار بالمرتفعات المتاخمة لمركز الحامية، إذ اشتبك رجالها (بقيادة النّقيب جيورجي GEORGER من الزوّاف الرابع) بهؤلاء الأخيرين.

ومن الغد، هوجمت نفس المجموعة، وهي في طريق العودة إلى أم صويغ، من قبل خمسمائة مقاتل الأمر الّذي استوجب تدخّل فرقة أوديبار قصد كسر الطّوق على القافلة الّتي فقدت خلال هذا الهجوم الملازم غاروبي GAROBY، وضابط صف، كما جرح لها رجلان(247).

وبوسعنا القول إنّ الحصار الفعليّ لحصن ذهيبة انطلق في ظهيرة نفس اليوم أي 20 جوان وتحديدا في تمام السّاعة الرّابعة بعد الزّوال.

ولقد جهّز ابن عسكر لحصار ذهيبة قوّة نيّفت عن ثمانمائة رجل، كان من بين عدّتها مدفعان إيطاليّان من طراز 68 ملم ومدفع ثقيل، بلغت زنة القذيفة الواحدة من مقذوفاته خمسة عشر كيلو غراما(248).

(245) **I.S.H.M.N., S.H.A.T.**, S. 292, 2 H 53, d. 3, **Historique, op. cit.**, f. 578.

(246) **Ibid.**

(247) **Ibid.**

(248) **I.S.H.M.N., M.A.E. (Q.O.), Guerre 1914-1918**, d. 1603, extraits des rapports du **Service des Affaires Indigènes** à la date du 20 juin 1916, f. 46.

وبالفعل، فقد أخضع برج ذهيبة لقصف مدفعيّ مركّز ابتداء من عشيّة يوم 20 جوان، إذ سقطت على مقرّ الحامية، في أواخر ذلك اليوم فحسب، مائة قذيفة(249).

وتواصل رشق مركز لحامية الفرنسيّة بالقنابل من 21 إلى 24 جوان دون أن تظهر على المحاصرين بوادر يأس أو استسلام. والحقّ أنّ القذائف الّتي دكّت جانبا من الحصن، لم تفتّ في عضد رجال الحامية نظرا إلى أنّها لم تصوّب بدقّة، زد على ذلك أنّ «القنابل لمصنوعة من الصّلب، كانت جوفاء...»(249).

ويعترف غابريال الابتيت G. Alapetite في «أوراقه الخاصّة» أنّ «الأمر المستجدّ» والمتمثّل في تدخّل المدفعيّة «من جانب العدو»، سيلحق ضررا بتحصينات بعض المراكز الّتي لا تملك سلاحا مماثلا(250).

وقد سبق له أن أشار في نفس المصدر، إلى صعوبة الموقف الفرنسيّ، إذ قال: «لا ريب أن الجنرال أليكس ALIX قد تأكّد منذ بدء الهجوم على ذهيبة من مدى صعوبة الردّ من خلال شنّ هجوم...» (251).

لم يكتف رجال المحلّة بعمليّة قصف مقرّ الحامية، بل حاولوا مهاجمة الحصن بواسطة زمر مسلّحة، كان يشرف على تأطيرها «رجال يرتدون بزّة الكاكي...»(252). لكن نجاعة الدّفاعات الفرنسيّة، أحبطت تلك

---

(249) **Ibid**., f. 66.

(250) **I.S.H.M.N., M.A.E., (Q.O.)**, Fonds nominatif, Papiers d'Etat, Papiers privés, Papiers Alapetite, b. 194, d. 3, lettre à Peretti de la Rocca du 26 juin 1916, f. 95.

(251) **Ibid**.

(252) تردّدت عبارة ضبّاط أو رجال في بزّة الكاكي (En kaki) في التّقارير والبرقيّات، في إشارة إلى أنّ ابن عسكر استعان خلال هجومه المذكور بضبّاط أتراك وربّما ألمان، انظر على سبيل الذّكر لا الحصر:

I.S.H.M.N., M.A.E., (Q.O.), Guerre 1914-1918, d. 1603, extraits des rapports du service des A.I. à la date du 27 juin 1916, f. 67.

المحـاولات(253) الّتي طغى عليها الارتجال والاندفاع غير المحسوب.

لقد تيقّن خليفة بن عسكر، بعد قصف استمرّ خمسة أيّام متتالية، أنّ الخطّة الّتي اعتمدها للاستيلاء على ذهيبة، قد فشلت، وهذا ما جعله يقرّر إنهاء الحصار (في نهاية يوم 25)، والانتقال لمهاجمة حامية رمادة(254).

2- حصار رمادة (26-27 جوان):

بدأ الهجوم على رمادة في السّاعة التّاسعة من صبيحة يوم 26 جوان. وكان خليفة بن عسكر حشد للغرض ثمانمائة رجل ومائة فارس. وكانت قوّته هذه معزّزة بمدفعين مثلما تقدّم(255).

أمّا الحامية الفرنسيّة، الّتي كانت تحت قيادة النّقيب موازي MOISY، فقد تألّفت من فصيل راكب للطرايور بقيادة الملازم دومي DEUMIER، وسريّة من الفيلق الإفريقي الخامس تحت إمرة الملازم "موني" MONNET(256).

وقد خضع مركز رمادة لقصف مدفعيّ مركز ابتداء من السّاعة العاشرة صباحا. ولقد اعترف الضبّاط الفرنسيّون بأنّ «العدوّ كان شديد المراس...»، وأنّ الطّلق النّاري المكثّف أوقع خلال اليوم الأوّل خمسة قتلى، وثلاثة جرحى، في حين خمّنت نفس المصادر خسائر المهاجمين بخمسين قتيلا(257).

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ طابور نجدة فرنسيّ حاول بلوغ الحصن، لكن الثوّار تمكّنوا من صدّه. بيد أنّ هؤلاء الأخيرين فشلوا في منع مفرزة من الفرنسيّين

(253) **Ibid.**

(254) **Ibid**, f. 68.

(255) **Ibid.**, extraits des rapports du Service des A.I. à la date du 11 juillet 1916, f. 137.

(256) **I.S.H.M.N.**, **S.H.A.T.**, S. 292, 2 H 53, d. 3, **Historique... op. cit.**, f. 579.

(257) **Ibid.**

من إعادة السّيطرة على نبع الماء الّذي يـزوّد الحامية(258) . وقد استشـهد خلال هذه المعركة المقاوم التّونسيّ المعروف محمد بن مذكور وابنه يحي(259) .

وتواصل التّراشق النّاري بين محلّـة ابن عسكر، ورجال الحامية الفـرنسيّة خلال صبيحة اليوم التّالي (27 جوان).

وفي هذه الأثناء، أصدر العقـيد تريستورنال TRESTOURNEL، قائد سلاح ذهبيـة أمره إلى النّقيب سكالابري SCALABRE، قائد مركـز أم صويغ بإرسال نجدة إلى رمادة، نظرا إلى أنّ الفرق المتحرّكة الّتي كانت تحت قيادته كانت منشغلة بحراسة القوافل.

والحقّ أنّ ما اقـترحه تريسـتورنال، لا يعدو أن يكون جـزءا من خطّة كانت تقضـي بكسر الحصار على مركز رمادة، ومن ثمّ تحريره إذ انطلقت في ذات الوقت فرقة من فطناسيّـة بقيادة الملازم أوّل باوليني PAOLINI باتّجاه رمادة أوكلت لها مهمّة التّنسيق في عملها مع فوج أوديبار AUDIBERT.

كما صـدرت التّعليمات إلى السريّة الصّـحراويّة ببئر قصـيرة، الّتي يقودها النّقيب "ميغريي" MEGRIER باحتـلال فجّ جبل ماطوس بغـرض منع مرور الثوّار(260) .

أوكل النّقيـب سكالابري المهمّة الاسـتكشافـيّة المارّ ذكرهـا للملازم أوّل ابن موفق BEN MOUFOUK، رئيس القـسم الرّاكب، والملازم أول بـروشـون PERRUCHON قائد الفصيلة.

وحصل أن انعـدم الانسجـام بين هذه القوّة ومجـموعـة أوديبار -AUDI BERT، ومرد ذلك وصول هذه الأخيرة إلى أم صويغ بتأخير كبير جرّاء انشغالها

(258) **Ibid.**

(259) ليسير، فتحي، **من "الصّعكة الشّريفة" إلى البطولة الوطنيّة**، مرجع سابق، ص 166-167.

(260) **I.S.H.M.N.**, **S.H.A.T.**, b. s. 2)2, 2 H 53, d. 3, **Historique... op. cit.**, f. 579.

بإصلاح خطّ الهاتف المعطّب، من ناحية، وارتفاع درجة الحرارة، ووعُورة الطّريق الرّملي، من ناحية أخرى(261).

وكان من نتيجة غياب التّنسيق هذا وقوع رجال بروشون، وابن موفق في كمين نصبه الثوّار في وادي سمنة (5 كم إلى الشّرق من رمادة). وانجلت المعركة، الّتي اندلعت إثر ذلك، وكانت غاية في الشّدّة والضّراوة عن مذبحة حقيقيّة: إذ فاقت خسائر الجانب الفرنسيّ مائة وتسعة وخمسين رجلا كان من بينهم الملازمان الأوّلان بروشون وابن موفق. كما غنم الثوّار كلّ ما كان بحوزة الفرنسيّين من أسلحة، وذخيرة، وثروة حيوانيّة(262). وزعم الفرنسيّون أن خسائر الثوّار «كانت جدّ هامّة...»(263)، وأنّ جثثهم تكوّمت في كلّ مكان.

وخلال اللّيلة الفاصلة بين 27 و28 جوان، استغلّت فرقة النّجدة القادمة من بئر فطناسيّة، بقيادة الملازم أوّل باوليني، توقّف تحرّشات ابن عسكر ورجاله بالحامية لتتسلّل إلى المركز المحاصر(264).

وفي هذه الأثناء نما إلى علم القادة العسكريّين الفرنسيّين أنّ الإخفاق المتواصل لهجومات ابن عسكر (رغم نجاحه في إبادة طابور بروشون)، قد جعل اليأس من نجاح ما أزمع عليه أمره، يتسرّب إلى القسم الأكبر من رجاله، ومن ثمّ شرعوا في أخذ احتياطاتهم تحسّبا لإمكانيّة إقدام زعيم نالوت على تحويل وجهة محلّته نحو مركز آخر مجاور. وفي هذا الإطار يمكن تنزيل تعليمات الجنرال أليكس ALIX العاجلة إلى قائد حامية ذهيبة بتاريخ 28 جوان، والقاضية بإرسال تعزيزات مهمّة إلى أم صويغ الّتي كان يعتبرها «المركز الحقيقي للعمليّات...». وقد تألّفت هذه التّعزيزات الّتي أنيطت قيادتها بالعقيد فليشي FELICI، من فرقة

(261) **Ibid.**

(262) **I.S.H.M.N., M.A.E. (Q.O.), Guerre 1914-1918**, d. 1603, extrait des rapports du **Service des Affaires Indigènes** à la date du 4 juillet 1916, f. 28.

(263) **Ibid.**

(264) **Ibid.**, rapport juin 1916.

مشاة (تكوّنت من عناصر تابعة للزواف الرابع، والفرقة الرّابعة الإفريقيّة)، وقسم للرشاشات، وقسم مدفعيّة 56، وفصيلة من الصبايحيّة(265) .

وصل طابور فليشي إلى أم صويغ في ظروف جدّ صعبة، إذ هلك له خلال سيره باتّجاه الحصن خمسة رجال وأحد عشر حيوانا بسبب ضربة الشّمس.

وقد تفطن فليشي في اليوم التّالي (29 جوان) إلى أن منسوب الآبار ضعيف جدّا ومن ثمّ فهو لا يفي بحاجة رجاله وحيواناتهم. فطلب الأمر بالتّحوّل إلى بئر مغري (16 كم إلى الجنوب الشّرقي من أم صويغ) الوفير المياه.

وفي أثناء تحوّله إلى البئر المذكور خلال فجر يوم 30 جوان، اصطدم طابور فليشي بمحلّة خليفة بن عسكر المؤلّفة من حوالي ألف ومائتي رجل، والّتي كانت تنشد هي الأخرى السّيطرة على البئر. واندلع قتال غاية في الشدّة بين القوّتين على بعد 5 كم من نبع الماء.

وقد أسفرت هذه المعركة، الّتي استعملت فيها جميع الأسلحة بما في ذلك السّلاح الأبيض، والّتي استمرت ساعات طويلة، عن مصرع سبعة رجال وجرح اثنين وثلاثين آخرين، ضمن القوّة الفرنسيّة.

أمّا خسائر ابن عسكر فقدّرها الفرنسيّون بحوالي «مائتين من الرّجال... بين قتيل وجريح...»(266) . واضطرّ ابن عسكر إلى الارتداد برجاله نحو وادي المرطبة في شيء من الفوضى . وكانت هذه الخيبة فرصة لعدد من «المنشقّين الودارنة» كي يسوّغوا قرارهم بالعودة إلى ميادينهم بالجنوب التّونسيّ، رغم العقوبات الّتي كانت تنتظرهم(267) .

---

(265) **Ibid.**, extrait des rapports, op. cit., (4 juillet 1916), f. 99.

(266) **I.S.H.M.N.**, **S.H.A.T.**, S. 292 2 H 53, d. 3, **Historique... op. cit.**, f. 580.

(267) **I.S.H.M.N.**, **M.A.E.**, **Guerre 1914-1918**, d. 1603, extrait des rapports du **Service des Affaires Indigènes** à la date du 11 juillet 1916, f. 138.

كانت واقعة بئر مغري آخر مواجهة كبيرة تجمع محلّة خليفة بن عسكر بالفرنسيّين. ولا تفوتنا الإشارة هنا إلى أنّ حوادث صيف 1916 قد أماطت اللّثام عن هنات وأخطاء تقديريّة قاتلة بدرت عن قادة جيش الاحتلال. وشاهدنا على ذلك (على سبيل المثال فحسب)، تراشق الاتّهامات بين العقيد تريستورنال TRES-TOURNEL، والجنرال ALIX، بخصوص تحرّكات الوحدات الفرنسيّة، ولا سيما مذبحة وادي سمنة، إذ ألقى الأوّل باللاّئمة على الثّاني محمّلا إيّاه مسؤوليّة ما جرى. ورفع في ذلك تقريرا لَجبا إلى المقيم العام غابريال ألابتيت ووزير الحرب(268).

أضف إلى ذلك التّباين الكبير في تقدير خطورة الموقف على الحدود، وما كان يقتضيه ذلك من تحرّكات وتدابير.

يقول غابريال ألابتيت في أوراقه الخاصّة، عشيّة الهجوم على ذهيبة ورمادة:

«الحقّ أنّ هيئة أركاننا لم تأخذ خليفة بن عسكر مأخذ الجد. وحده الجنرال موانيي MOINIER، فضلا عن بعض الضبّاط من ذوي الرّتب الصّغيرة، كانوا واعين بمدى خطورة الوضع...»(269).

ليس في نيّتنا الإفاضة في تداعيات حوادث صيف 1916، وانعكاساتها المباشرة على مستوى المؤسّسة العسكريّة الفرنسيّة(270)، وأقصى ما نودّ ذكره هنا أنّ أساطين الاحتلال قد أخطَؤوا التّقدير من خلال حديثهم المتهافت عن «السّلام الفرنسي» الّذي «غدا يلفّ البقاع...» (كذا) الحدوديّة الجنوبيّة بعد أكتوبر 1915.

**

(268) **Ibid.**, **(Q.O.)**, Fonds nominatif, Papiers d'Etat, Papiers privés, Papiers G. Alapetite, b. 494, d. 3, lettre à Peretti de la Rocca, f. 105.

(269) **Ibid.**, f. 99.

(270) **I.S.H.M.N.**, **S.H.A.T.**, b. s. 292, 2 H 53, d. 3, **Historique... op. cit**, f. 579.

مواقع أهم المعارك (1915 - 1916)

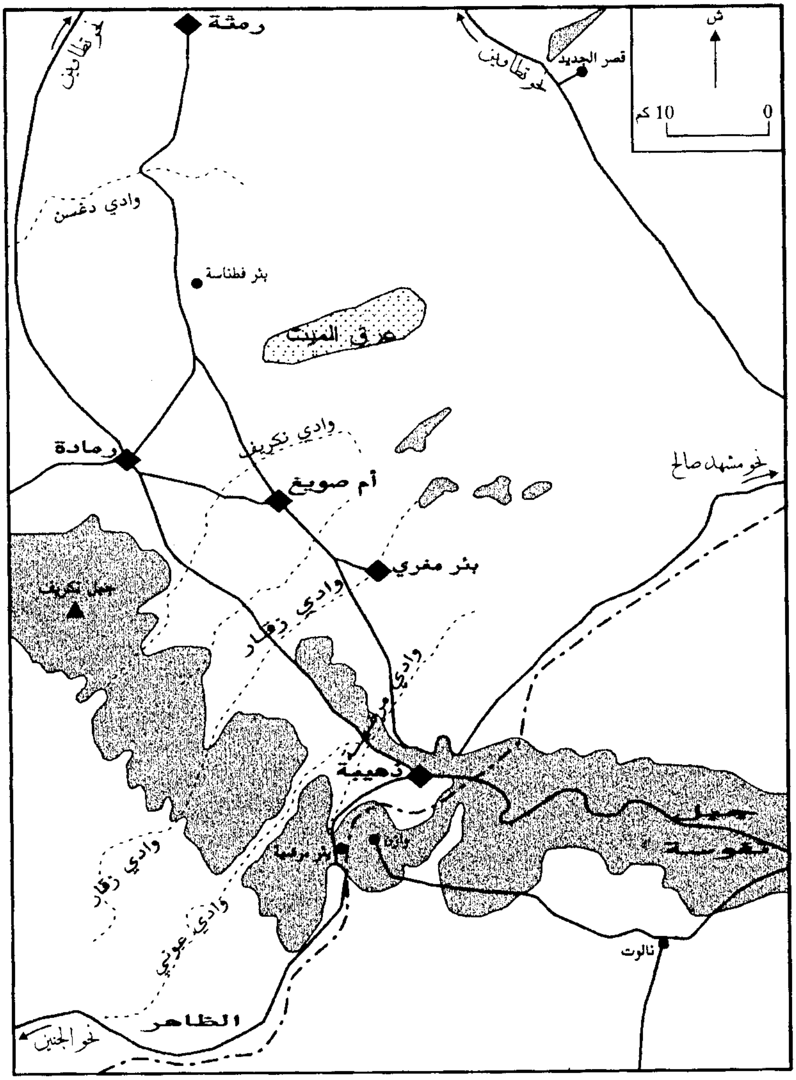

المفتـــاح

مرتـفعـات جبليـة	كثبـان رمليـة
حـدود - - -	أوديـة - - - - -
طرقـات ـــــ	أهم المـواقـع الحـربيـة ◆
مواقـع آبـار ●	قـمم جبليـة ▲

إنجـاز : مخبـر الخـرائـطيـة
كلية الآداب والعلوم الانسانية بصفاقس

ارتدّ خليفة بن عسكر مع بقيّة رجاله إلى جهة نالوت، حاملا معه الأسلاب والأسرى (271). وخمّنت المصادر الفرنسيّة عدد هؤلاء الأسرى بعشرين رجلا كان من بينهم خمسة جنود تابعين للفرقة الخاصة.

ومن الإنصاف القول هنا أنّ الضبّاط الفرنسيّين اعترفوا بحسن معاملة خليفة بن عسكر ورجاله للأسرى الفرنسيّين(272).

ويمكن القول بمعنى معيّن إن انكسار زعيم نالوت في بئر مغري، سيشكّل مبدأ دور آخر سيتمّ التّركيز فيه على الشّأن الجبلي (الحرب الأهليّة)، والوطني (العودة لقتال الإيطاليّين).

---

(271) **Q.O.**, Papiers Alapetite... op. cit., f. 100.

(272) **Q.O., Guerre 1914-1918**, d. 1603, rapport du Chef de bataillon MIQUEL, chef du secteur Tataouine - Remada - Bir Kecira, à M. le Résident Général, 10 juillet 1916, f. 203.

المبحث الرّابع :

انتصار في حرب «المطلينين»، وهزيمة في حرب الإيطاليّين، وعودة أخيرة لمضايقة الفرنسيّين قبل عقد الصّلح معهم : سبتمبر 1916 - مطلع 1919

I - الدّور الهام لخليفة بن عسكر في هزيمة «المطلينين» :

شهد مطلع خريف 1916 استحكاما في الصّراع بين معسكر سوف المحمودي، ومهدي السنّي وخليفة بن عسكر، ومن التحق بهم، من ناحية، ومعسكر سلطان بن شعبان، وساسي خرام وحرب النّايلي، وأتباعهم، من ناحية أخرى.

1- سقوط فساطو (سبتمبر 1916) :

شارك خليفة بن عسكر في الهجوم على فساطو إلى جوار مهدي السنّي ولو أنّ وصوله إلى مسرح العمليّات كان متأخّرا بعض الشّيء(273) .

وكان سكّان فساطو قد تلقّوا قبل ذلك (أي قبل شنّ الهجوم المذكور) مساعدات هامّة (أسلحة وذخائر ومؤن...) أمّد بها الإيطاليّون قائمقام البلدة محمّد بن سعيد(274) . كما تعضّد رجال هذا "الموقع البربري" الهام بتقاطر عديد المئات من الرّجال (راجلين ومشاة) القادمين من مدينة زوارة(275) .

كانت المواجهة غاية في الشدّة، إذ لاقى المهاجمون (وقد تألّفوا في معظمهم، لا سيما عند بدء العمليّة من الرحيبات، والرّجبان، والزّنتان، والحرابة...) مقاومة عنيدة من لدن سكّان فساطو الّذين أبدوا من الصّلابة وقوّة الدّفاع ما جعل المعركة تستمرّ «أيّاما عديدة...»(276) . وانتهى الأمر بأهالي البلدة إلى الاستسلام بعد

(273) **I.S.H.M.N., Archives nationales d'Outre Mer (Aix-en-Provence)**, Série H, Sous-série 26 H, Tunisie, b. 69, rapport, septembre 1916.

(274) **Ibid.**

(275) **Ibid.**

(276) **Ibid.**

فرار رجال زوارة، الذين، أمّنوا الحماية، خلال حركة ارتدادهم لحوالي ثلاثمائة وجيه من فساطو (كان من بينهم عائلة يوسف خربيش، وعائلة القائمقام...).

وقد استباح المهاجمون البلدة، وامتدّت أياديهم لكلّ ما فيها من سلاح ومتاع ومؤن. ويبدو أنّهم اقترفوا شناعات ليس أقلّها «ذبح من أسموهم بأنصار الطّليان...»(277).

2- سقوط يفرن (أكتوبر 1916) :

شجّع سقوط فساطو كلاّ من سوف المحمودي، وخليفة بن عسكر، وأحمد السنّي، والحاج أحمد فكيني(278)، على متابعة حرب «المطلينين». وقد تنزّل اجتماع هؤلاء القادة في شكشوك في هذا الإطار(279)، إذ قرّروا في أواخر سبتمبر 1916 الزّحف على زوارة والنوايل(280).

وكان المجتمعون أنذروا ساسي خزام، زعيم يفرن -الّذي تلقّى مساعدة إيطاليّة تمثّلت في قافلة مؤن وأسلحة-(281)، طالبين منه أن «يتّخذ قراره...» (كذا)، ويحيطهم علما بما أزمع عليه أمره(282).

فشلت المفاوضات مع ساسي خزام، فقرّر «الحلفاء» الهجوم على يفرن، وهذا ما تمّ فعلا يوم 13 أكتوبر، إذ قاد المحلّة المؤلّفة من أربعة آلاف مقاتل

---

(277) **Ibid.**

(278) هو **الحاج أحمد بن خليفة فكيني**. من كبار أعيان الرّجبان. تولّى عدّة مناصب إداريّة في العهد التّركي (إدارة المال بأقضية غدامس، وفساطو، والحوض...) شارك في المعارك الأولى ضدّ الإيطاليّين في نهاية عام 1911 قبل أن ينحاز لصفّهم. عيّنه الإيطاليّون قائمقاما على فساطو عام 1913، وشارك في حرب خليفة بن عسكر في الجويبية خلال خريف 1914. طرده سكّان فساطو من بلدتهم عام 1915 ونصبوا يوسف خربيش بدلا منه.

(279) **I.S.H.M.N., A.N.O.M. (Aix-en-Provence)**, op. cit., rapport, octobre 1916.

(280) **Ibid.**

(281) **Ibid.**

(282) **Ibid.**

(انقسموا إلى مجموعات بحسب مائتي مقاتل للمجموعة الواحد)(283)، «جميع زعماء الجبل...»(284)، نحو الشيخ سوف (الّذي كان مرفوقا بصهره أحمد باشا، وبعيسى بوسهمين، وبوبكر بسنوقة من زوارة)، والحاج أحمد فكيني، وعلي البدوي، وعلي الشنطة (الّذين قادوا الرّجبان والزّنتان)، وخليفة بن عسكر (الّذي كان على رأس قبائل نالوت، وكباو، والجواشة...) والمهدي السنّيّ (الّذي جمع تحت إمرته كلاّ من الحوامد، والحرابة، وأولاد محمود، وساعده في ذلك محمّد الشّين شيخ الرحيبات...)، وأحمد السنّي (شقيق المهديّ السنّي) قائد الزاوية السنوسيّة بمزدة، وأبو بكر قرزة، شيخ أولاد عبد النّبي (كانا على رأس مجموعة مؤلّفة من مقاتلين تابعين لمزدة وأولاد بوسيف، والغنايمة...)(285).

وقام رجال المحلّة -الّذين كان بحوزتهم ثلاثة مدافع- في بداية زحفهم، باحتلال ثلاث قرى متاخمة ليفرن، قبل اقتحام هذه الأخيرة في 24 أكتوبر، والقبض على ساسي خزام بعد أن خذله قسم هام من رجاله(286).

وقد غنم المهاجمون مائة وعشرين صندوقا من الذّخيرة (من خراطيش، وقنابل مدفعيّة...) ونحو ألف ومائتي بندقيّة، ومدفعين (عيار 120 مم)، قبل أن يضرموا النّار في عديد المنازل(287).

هكذا دانَ الجبل الغربي لقادة الثوّار، وأرغم سكّان جهة فساطو، ويفرن والقرى المتاخمة لهما على الهجرة، في ظروف صعبة، (على هيئة حركة ديموغرافيّة كبيرة)، نحو الواحات السّاحليّة الخاضعة آنئذ للإيطاليين، وقد استمرّ بهم الحال على ذلك النّحو حتّى عام 1919.

---

(283) **Ibid.**, rapport, novembre 1916.

(284) **Ibid.**

(285) **Ibid.**

(286) **Ibid.**

(287) **Ibid.**

II – العودة غير الموفّقة لحرب الإيطاليّين :

ابتداء يجب أن نؤكّد أنّ الظّروف الّتي حفّت باستئناف خليفة بن عسكر قتال الإيطاليّين في مطلع 1917، كانت غير الظّروف الّتي شـهدت بدايات حرب زعيم نالوت ضدّ مواقع الجيش الإيطالي في 1914.

ويقتضي البحث في هذا الدّور من حركة ابن عسكر استحضار بعض المعطيات، وهو شغلنا فيما يتلو.

لقد حرّض فشل هجوم والي سوريا، جمال باشا، على قناة السويس (ابتداء من فيفري 1915)، والتّقارب الحاصل بين السنوسيّة والأنجليز (اتّصالات إدريس السنوسي ببريطانيا خلال ربيع – صيف 1916)، واندلاع الثّورة العربيّة في الحجاز (جوان 1916) بقيادة الشّريف حسين وأبنائه، حكومة الآستانة على إعادة «المسك بزمام الأمور» في ولاية طرابلس الغرب، من خلال إعلان إلحاقها بالامبراطوريّة العثمانيّة.

وفي هذا السّياق، يتنزّل وصول سليمان الباروني في 18 أكتوبر 1916 ميناء مصراته «مرسلا من لدن الدّولة السنيّة بطلب من الأهالي بعنوان والي وقومندان طرابلس...»(288) . وقد شرح الباروني المهمّة الّتي أنيطت به إلى أعيان طرابلس ومشايخها وعلى رأسهم الشيخ سوف المحمودي في رسالة نجتزئ منها ما يلي :

«... واقتضت إرادته السنيّة إرسالي لأجل إجراء التّرتيبات اللازمة ملكيّة وعسكريّة. وتعهّد أن يوالي المدد إلى النّهاية. كما تطلعون على ذلك في منشوره العالي الشّأن...»(289) .

ويبدو أنّ ضباطا أتراكا وألمانا، حلّوا مع الباروني، بطرابلس الغرب، بغية إحكام المقاومة وتأطيرها(290) . ولم تمض مدّة على نزول هذا الأخير بمصراتة،

(288) الطاهر أحمد الزاوي، **نفس المصدر**، ص 205.

(289) **نفس المصدر**، ص 204-205.

(290) **I.S.H.M.N., S.H.A.T., Historique... op. cit.**, f. 581.

حتّى اتّخذ من الزّاوية مركزا له، و طفق يدعو إلى الجهاد، وحشد الطّاقات، ويستنفر الزّعامات الطرابلسيّة المتناحرة سعيا إلى جمع كلمتها.

إنّنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنّ سليمان الباروني نجح –على الأقلّ خلال الأشهر الأولى الّتي تلت وصول – في أن يجتذب إليه عددا مهمّا من الزّعامات الأهليّة، كان من بينها خليفة بن عسكر.

فعلا، لقد مارست تلك الشّخصيّة الكاريزماتيّة، بفضل ما أوتي لصاحبها من كياسة ولباقة وسعة اطّلاع، وقدرة على الإقناع، تأثيرها الواضح على «بطلنا»، ابتداء من خريف 1916، على ما سيزداد وضوحا في الباب الثّالث من هذا الكتاب.

وفي هذه الأثناء كثّف الإيطاليّون –لا سيما في مطلع جانفي 1917– من عمليّاتهم ضدّ المقاومة الطرابلسيّة مركّزين جهودهم على منطقة بوعجيلة – صرمان.

هكذا نلاحظ أنّ الجيش الإيطالي تحوّل في أوائل عام 1917 من وضع المدافع، إلى وضع المبادر. ولعلّنا لا نخطئ إذا قلنا إنّ خليفة بن عسكر (ومن ثمّ المقاومة الطرابلسيّة)، سيدفع ثمن «عودة الرّوح» للجيش الإيطاليّ، الّذي قام يسعى إلى إعادة بعض الألق لصورته الّتي لطّختها المقاومة وبالتّالي محاولة الثّأر للهزائم المنكرة الّتي تكبّدها منذ عام 1914.

1- هزيمة الجديدة (16-17 جانفي 1917) :

قاد الجنرال لاتيني (وكان على رأس قوّة قوامها سبعة آلاف رجل)، يوم 16 جانفي 1917، هجوما على مواقع محلّات سليمان الباروني، وخليفة بن عسكر، ومهدي السنّي(291) في لجديدة (موضع قرب بوعجيلة).

(291) **Ibid.**

ويبدو أنّ الإيطاليّين كانوا «يقصدون من هجومهم على هذا المكان، صرف نظر المجاهدين عن بوعجيلة، وجلب قوّة المجاهدين منه إلى الجديدة، وكانوا أعدّوا قوّة كبيرة للهجوم على بوعجيلة...»(292). وهذا ما حدث فعلا، إذ شنّوا الهجوم في اليوم التّاليّ (17 جانفي) على بوعجيلة.

ولئن ثبتت المحلاّت الثّلاث خلال اليوم الأوّل أمام عنف هجوم القوّة الإيطاليّة، فإنّها لم تقو على الصّمود خلال اليوم الثّاني، إذ اضطرّتها المدفعيّة، والطّيران، والرشّاشات، إلى الارتداد على أعقابها إلى جهة صرمان، بعد أن تكبّدت خسائر هامّة(293).

وقد أتاح انكسار المقاومة في الجديدة للإيطاليّين التّمركز خلال فيفري - مارس 1917 في كلّ من أبي كماش ورتبة العسّة(294).

2- هزيمة الدورانيّة (5 افريل 1917) :

أعطى نصر الجديدة للإيطاليّين نوعا من الثّقة بالنّفس وشيئا من الإحساس بالتّفوّق، وهذا ما حفّزهم على متابعة التّحرّش بمواقع حركة المقاومة : ففي مطلع أفريل 1917 صدر الأمر للجنرال كاسيني CASSINI بالزّحف على بوعجيلة. وكان الإيطاليّون حشدوا للغرض، بجهة زوارة، قوّة ضخمة قوامها عشرة آلاف رجل، وثمانية فيالق مشاة، وبطاريتين للمدفعيّة، وخمسمائة فارس، وخمس طائرات من نوع كابروني CAPRONI، وأربعين سيارة شحن، هذا فضلا عن مجموعات من المجنّدين الأهالي(295) (الباندات، ج. باندة) والّذين كانوا تحت إمرة سلطان بن شعبان.

---

(292) الطاهر أحمد الزاوي، **نفس المصدر**، ص 212.

(293) **I.S.H.M.N.**, **S.H.A.T.**, **Historique... op. cit.**, f. 581.

(294) **I.S.H.M.N.**, **S.H.A.T.**, b. s. 292, c. 2 H 53, d. 3, **Historique... op. cit.**, f. 581.

(295) **Ibid.**

اشتبك الجنرال كاسيني يوم 5 أفريل في معركة مع محلّة خليفة بن عسكر في المكان المعروف بالدورانيّة، وصفتها المصادر الفرنسيّة بـ«الحاسمة»(296). وتدافع الجمعان ساعات طويلة قبل أن تؤول الكلمة الأخيرة للجيش الإيطالي الّذي سجّل في صفّه وقوع خمسة عشر قتيلا، علاوة على ستّين جريحا.

أمّا خسائر خليفة بن عسكر فيبدو أنّها «كانت هامّة جدّا...»(297).

انكفأ ابن عسكر بعد هذه الهزيمة إلى جهة نالوت حيث برز تيّار معارض لسياسته، الأمر الّذي أدّى إلى تقلّص شعبيّته على نحو ملحوظ(298).

III – خليفة بن عسكر والفرنسيّين: من لعبة "القطّ والفأر" إلى "سلام الشّجعان". (نهاية 1916 - مطلع 1919):

انتهز قادة الجيش الفرنسيّ فرصة تورّط خليفة بن عسكر في حرب الجبل الغربي، وضمور شعبيّته في نالوت، ولدى «المنشقّين» التّونسيّين، والآثار السّلبيّة لهزيمتيه أمام الإيطاليّين في الجديدة والدورانيّة، للتّضييق عليه، وبالتّالي إنهاكه واستنزاف قواه.

أمّا خليفة بن عسكر فقد ظلّ على عناده، أي أنّ قناته لم تلن، ولم يعترف بهزيمتيه –رغم اقتناعه بأنّ الرّياح جرت بما لا تشتهي سفنه– بحيث راح يتحرّش بالفرنسيّين مزاوجا بين بثّ الأراجيف، والدّعاية والتّهديد، حينا، ودعم عمليّات «الحركة» والجياشة، ضدّ المواقع الفرنسيّة، حينا آخر.

(296) **Ibid.**

(297) **Ibid.**

(298) **M.A.E., Q.O., Série Tunisie 1917-1940**, b. 10, c. 10, rapport, février 1917 ; voir aussi : P. Grandchamp, "Khalifa ben Asker...", **op. cit.**, p. 152.

1- سلاح الطّيران يقلب «المعادلة الأمنيّة» على الحدود :

يذكر أندريه مارتال A. MARTEL في دراسة حديثة له حول تاريخ ليبيا المعاصر، أنّ صمود الوحدات الفرنسيّة بالجنوب التّونسيّ أمام هجمات ابن عسكر ورجاله (ومن ثمّ عدم جلائهم) ما كان لينجح لولا التّدخّل الفعّال والحاسم لسلاح الطّيران(299).

فعلا، لقد قلب دخول هذا السّلاح العصري مسرح العمليّات الحربيّة، المعادلة الّتي كانت تتحكّم بالوضع الأمنيّ الحدوديّ، وساهم إلى حدّ كبير في «إنقاذ» بعض الوحدات الفرنسيّة، الّتي كانت ستنقاد إلى هزائم محقّقة.

وسيوظّف العسكريّون الفرنسيّون هذا السّلاح الجديد لاحقا في إطار «استراتيجيّة» هدفت إلى توطيد هيبة فرنسا، وإعادة الألق إلى صورتها، وهو ما وجدنا صداه في الوثائق الرّسميّة.

وجدير بالتّسجيل هنا، أنّ دور هذا السّلاح الجديد، سيتأكّد، بالخصوص خلال صيف 1916، إذ تمّ في 10 جويلية 1916 تركيز أسطول Esca-drille طائرات «فرما FARMA 41» بتطاوين، مع قاعدة بقابس، وقد أنيطت مهمّة الإشراف عليه بالنّقيب "لافارق" LAFARGUE (300). وقد حدّد الجنرال قائد جيش الجنوب التّونسي (.D.S.T). المهمّة المزدوجة لسلاح الطّيران، كالآتي:

أوّلا : البحث عن تجمّعات الأعداء وتحديدها... وكذا اتّجاهات سيرهم.

ثانيا : قصف تلك التّجمّعات رابضة كانت أو متحرّكة، وإذا اقتضى الأمر، خلال المعركة(301).

---

(299) André MARTEL, **La Libye... op. cit.**, p. 96.

(300) **I.S.H.M.N., S.H.A.T.**, b.s. 292, c. 2 H 53, d. 3, **Historique... op. cit.**, f. 580.

(301) **Ibid.**

ونرى من الضّروري التّكيد هنا أنّ هذا الإجراء اندرج ضمن «استراتيجيّة جديدة» (إن صحت العبارة) تشهد على ذلك سلسلة الأوامر الصّادرة لقادة الوحدات العسكريّة منذ نهاية 1916 ولا سيما تعليمات 1 فيفري 1917(302)، وتعليمات 16 جويلية 1918(303).

وممّا جاء فيها بالخصوص :

- «ينبغي أن يكون الهدف من كلّ عمليّة إبادة العدو، وتدميره تدميرا كاملا»(304)

- «يتعيّن على القيادة [قيادة الطّابور] أن تبذل وسعها من أجل إحكام استغلال تفوقنا المادّي (البنادق، المدافع، الرشّاشات، الطّائرات...)، وأن تسعى خلال كلّ عمليّة هجوميّة مفاجئة وعنيفة بأكبر قدر ممكن إلى سحق التّجمّع المعادي، ونهب قطعانه وأهرائه..»(305).

ويهمّنا أيضا أن نشير إلى أن القيادة الفرنسيّة اتّعظت من «محنتها» خلال عامي 1915-1916، واستخلصت جملة من الدّروس، ترجمت عنها التّدابير والإجراءات المارّ ذكرها. ومن أبرز هذه الدّروس نذكر (على سبيل المثال)، البعض ممّا جاء في ديباجة أوامر 1 فيفري 1917 :

«... ينبغي تطويع مبادئ الحرب [...] مع إمكانات عدوّ محارب، سريع الحركة [...] ماكر ذا معرفة جيّدة بكلّ تحرّكاتنا، ولكنّه رغم ذلك قابل للانجراح في

---

(302) وقع عليها الجنرال بوايي BOYER، قائد فرقة الجنوب التّونسيّ بمدنين في 1 فيفري 1917، انظر :

Historique... op. cit., f. 458-463.

(303) وقع عليها العقيد ديلافو DELAVAU قائد جيوش الجنوب التّونسيّ بالنّيابة، انظر :
Ibid., f. 499-500.

(304) **Ibid.**, Instructions pour les opérations dans le Sud Tunisien... f. 499.

(305) **Ibid.**, Instructions du 1er février 1917, f. 458.

قطعانه، وأهرائه و"قصوره" وشديد التّأثّر بالفعاليّة الكبيرة لتكنولوجيتنا الحربيّة...»(306).

إنّ محاولة استبصار أبعاد التّدابير، والإجراءات الآنف ذكرها (من خلال الرّجوع إلى الوثائق المذكورة ومحاولة استقطارها)، لتجعلنا نتأكّد أنّ الفرنسيّين ضبطوا خطّة أرادوها محكمة قصد استنزاف قوى عدوّهم الماديّة، وشلّ حركته، وتدمير إرادة المقاومة لديه.

وفي هذا السّياق يمكننا تنزيل عمليّات الطّيران الفرنسيّ ضدّ مواقع خليفة بن عسكر، ابتداء من مطلع خريف 1916.

ومما يجدر ذكره هنا أنّه سبقت تنفيذ تلك الغارات الجويّة، فترة تدريبات، وطلعات استكشافيّة، كانت الغاية منها، التّعرّف إلى طبوغرافيا المنطقة الحدوديّة، إذ تسنّى للطّيارين المتمرّنين، التقاط صور عديدة(307).

إنّنا لا نعتزم التّوقّف عند كلّ العمليّات التي استهدفت القواعد - الملاجئ لقوّة ابن عسكر، بل سنقتصر على أهمّ الضّربات الجويّة التي جاءت كردّ فعل على حرب العصابات التي لجأ إليها سيّد نالوت منذ منتصف صيف 1916، بغية خلق حالة من القلق الدّائم، والتوتّر العام(308)، أي أنّه غير تكتيكه الحربيّ، وأصبح يتحاشى المواجهة «المباشرة».

وفي عبارة مجملة سنعمد أدناه إلى ذكر البعض من مظاهر ما أسميناه -بشيء من التّجاوز- بلعبة "القط والفأر".

---

(306) **Ibid.**

(307) **Ibid., Historique..., op. cit.**, f. 580.

(308) Capitaine CHAVANNE, **Historique du Service des Affaires Indigènes de Tunisie**, Bourg, 1931, pp. 81-87.

2- البعض من مظاهر «لعبة القطّ والفأر» :

راحت الطّائرات الفرنسيّة توجّه الضّربة تلو الضّربة لتجمّعات خليفة بن عسكر، و«المنشقّين» بصفة عامّة (إقرأ : إطلاق العنان لإجراءات انتقاميّة). وقد ردّ زعيم نالوت على هذا التّحدّي بأسلوبه الخاص.

سنعنى أدناه، باستعراض البعض من مظاهر هذه المواجهة الطّريفة، مع تقديم الإيضاحات اللازمة.

أ- شنّت أربع طائرات فرنسيّة غارة على نالوت في 15 سبتمبر 1916، وألقى الطيارون الثمانية أربعا وثلاثين قنبلة من أنواع وأحجام مختلفة (قنابل غاز، قنابل 90، وقنابل 155)، وقد أسفرت هذه الغارة وفق المصدر الفرنسيّ عن جرح عشرة رجال(309).

ويؤخذ من نفس التّقرير أنّ «التّأثير المعنوي للهجوم [على السكّان]، كان هامّا...»، في حين كان الأثر المادّي «متوسّطا...» (كذا)، بسبب احتماء السكّان بدهاليزهم المحفورة في الأرض، أو المغارات المنقورة بالعظم الصّدغيّ الصّخريّ(310).

ولقد كان هذا الهجوم الجويّ (والّذي خسر فيه الفرنسيّون طائرة، كان على متنها المقدّم جول لوبوف Jules LE BŒUF، والملازم أوّل شاتيني CHAT-ENAY إثر «شرودها» عن السّرب العائد، وسقوطها في العرق الكبير، وتحديدا في المكان المعروف بالزملة بعد نفاذ بنزينها)(311)، كناية عن ردّ الفعل، على العمليات التي رتّب أمرها خليفة بن عسكر، أو أوعز «للمنشقّين» بتنفيذها خلال

(309) **I.S.H.M.N., S.H.A.T.**, b. s. 292, 2 H 53, d. 3, **Historique... op. cit.**, f. 579-580.

(310) **Ibid.**, f. 580.

(311) للاستزادة بخصوص هذه الحادثة (التي أسالت كثيرا من الحبر) وظروف هلاك الضابطين الفرنسيّين، يمكن الرّجوع إلى :

S.H.A.T., b. s. 294, 2 H 55, d. 1-3, f. 494-501.

الفترة الواقعة بين مطلع أوت، ومطلع سبتمبر ضدّ عربات البريد (مثل العمليّة الّتي استهدفت بريد رمادة - بئر قصيرة في 1 أوت 1916، ونفّذها مائتا رجل، أوقعوا قتيلين في القوّة الفرنسيّة...). أو دوريات الجيش الفرنسيّ، وقوّات الرديف (مثل عمليّة وادي زقار في 29 أوت، والّتي انجلت عن قتيلين وجريح...)

ويضيق المجال هنا بذكر كلّ العمليّات، وتكفي الإشارة إلى أنّ مواقع الجيش الفرنسيّ ووحداته، استهدفت خلال مطلع سبتمبر لخمسة اعتداءات نفّذها من أسمتهم تقارير الضبّاط بـ «الجياشة»(312).

ب- شنت أربع طائرات، تابعة للسّرب 542، غارة جديدة على نالوت، في 7 جوان 1917 بأمر من الجنرال أليكس ALIX (313).

وقد ألقت الطّائرات المغيرة ستمائة وأربعين كيلوغراما من القذائف على البلدة، ممّا أدّى إلى حدوث «أضرار ماديّة هامّة...».

وجدير بالإشارة إلى أنّه لم تسجّل خسائر في الأرواح، بسبب تحصّن السكّان بالكهوف والمغارات(314).

ويبدو أنّ قادة الجيش الفرنسي استخلصوا الدّرس من هجوم 15 سبتمبر 1916. الّذي كلّفهم قتيلين (هلكا عطشا بالعرق الكبير)، ذلك أنّهم عهدوا لفرقة من القوميّة (بقيادة النّقيب فين FINE)، و«الجرارات--الرشاشة»، التّابعة للطّيران (تحت إمرة الملازم أول جولي JOLY)، بالتّمركز في نقطة تقع نحو ثمانية كيلومترات إلى الجنوب الشّرقي من «قلب أم الدود»، قصد تأمين عمليّة انكفاء الطّائرات(315).

---

(312) Ibid., b. s. 292, 2 H 53, d. 3, f. 580.

(313) Ibid., f. 581.

(314) Ibid.

(315) Ibid.

ولقد جاءت هذه الغارة كسابقتها، أي أنّها كانت بمثابة الردّ على تحرّشات خليفة بن عسكر، واستفزازاته.

وقد اختزل الضبّاط الهدف من هجومهم الجوّي في الجملة التّالية : «إيقاف الحملة المعادية لخليفة بن عسكر، ووضع حدّ لعمليّة تجنيد المحاربين المتطوّعين...»(316) .

ومما هو جدير بالتّسجيل هنا أنّ تنظيما جديدا أدخل على سلاح الجوّ الفرنسيّ بالجنوب التّونسيّ خلال نفس هذا الشّهر.

ويؤخذ من تقرير الضبّاط الفرنسيّين أنّ الغاية من التّنظيم المذكور «تكييف سلاح الطّيران مع مهامه العديدة...»(317) .

ووفقا لتلك التّرتيبات، بدا هذا السّلاح على النّحو التّالي :

- قاعدة بقابس

- سرب بجرجيس تابع لقطاع بنقردان

- سرب بتطاوين تابع لقطاع ذهيبة

- سربان «ساحليّان» بقابس وصفاقس «للدّفاع ضدّ الغوّاصات...» (كذا).

- تنفيذ طلعات استكشافيّة أسبوعيّة، على طول الحدود، وتكليف الطّائرات بتعضيد الفرق المكلّفة بتوطيد الأمن(318) .

ج- في حدود منتصف جويلية 1917، أصدر خليفة بن عسكر الأمر لحوالي مائتي رجل من رجال قوته، باحتلال وازن. وهذا ما تمّ بالفعل في 16 جويلية من نفس الشّهر.

---

(316) **Ibid.**

(317) **Ibid.**, f. 582.

(318) **Ibid.**

ومـا أن نما الخـبـر إلى علم الجـنرال بوايي BOYER حتّى أمـر بتنفـيذ «سلسلة من العمليّات» الهـدف منها التّعجيل بجني ثمار جمـيع البساتين الحدوديّة ولا سيما شجر التّين، علما وأنّ التّين شكّل الغذاء الرّئيسي لجيش ابن عسكر.

وعلى الفور، يمّم فصيل من ذهيبـة بقيادة النقيبين بيار BAYARD (من الفيلق الإفريقي الرّابع)، وفين FINE (من الشّؤون الأهليّة)، شطر وادي المرطبة، حيث باشرا عمليّات تفتيش دقيقة، قبل تنفيذ أمر جني الثّمار (18 جويلية).

وفي نفس الوقت، نفّذ فصيل آخر، تابع لمركز رمادة، يقوده النّقيب ديروديل DEROUDILHE والملازم أوّل سان ماري SAINT MARIE(من الشّؤون الأهليّة)، نفس العمليّة، بجبل مـاطوس، ووادي سقدل، في حين سيطرت فرقة من اللّواء الصّحراوي، على نقطة الماء الهامّة المسمّاة فسقيّة عمر بن عثمان(319).

ولم يقتصـر ردّ الفرنسيّين، على تحدّي ابن عسكر، عـلى هذه التّدابير، الّتي تدخل في إطار الإجراءات الاحتياطيّة، بل أعطيت الأوامر بقصف وازن، بالطّائرات، والمدفعيّة في آن معا.

لقد كان بالإمكان أن نسـترسل في ذكر الأمثلة المجسّـدة لما أسميناه، بشيء من التّجاوز لعـبة القطّ والفأر، بين الفريقين المـتقابلين. ولكن الغاية لا تكمن -فـيما نعتقد- في حشد أكثر ما يمكن من المعلومات عن الوقائع، والمواجهات لعضد الفكرة المذكورة، بقدر ما تتمثّل في إبراز تكتيك ابن عسكر الجديد في مصاولة الفرنسيّين، وردّ فعل هؤلاء السّريع والنّاجع، على محاولاته، بعد أن تمّ تجهيز وحداتهم بأحدث الأسلحة، وعلى رأسها الطّيران.

لم يكتف خليفـة بن عسكر بالعمليّـات العسكريّة، بل يبدو أنّ همّتـه اتّجهت أيضا إلى مـحاولة بثّ القـلاقل داخل «المحمـيّة التّـونسيّة»، بهـدف خلق المزيد من المنكّدات والمنغّـصات للقيّـمين على الشّأن الأمنـيّ بها. معنى هذا أنّ زعـيم نالوت، زاوج في «تكتيك الإنهاك»، الّذي سار عليه منذ صيف 1916، بين العمل الحربي

(319) Ibid.

من ناحية، وحبك الدّسائس، وإشاعة الأراجيف، من ناحية أخرى، وذلك بالتّعاون مع البعض من الزّعامات الجبلية كما سيأتي بيانه.

وتطالعنا في هذا الصّدد حركة مشايخ الحامّة أو «مؤامرة بني زيد»، كما جاء بالمصادر الفرنسيّة. وتستحقّ هذه الحادثة أن نقف عندها، لأنّها تدلّ على مدى الحظوة، الّتي كانت لقادة المقاومة في طرابلس الغرب، لدى سكّان جهة الحامّة والأعراض (والجنوب التّونسي بصفة عامّة)، رغم أنّ خليفة بن عسكر لم يكن راعيا لعهده مع الودارنة كما أسلفنا.

3- خليفة بن عسكر و«مؤامرة بني زيد» (1917) :

سنترك الكلمة في مستهلّ هذه الفقرة إلى الوثائق الفرنسيّة، الّتي جهدت في إيجاد علاقة بين مشروع انتفاضة مشايخ بني زيد عام 1917، ودسائس زعيم نالوت و«مكائده» (كذا)، الّتي لا تنتهي كما يحلو لضبّاط الشّؤون الأهليّة، الإلحاح على ذلك. وستكون استشهاداتنا مقتضبة كي لا يتوه القصد وراء السّرد.

جاء ضمن تقرير مؤرّخ في أكتوبر 1917 ما يلي : «أعلن خليفة بن عسكر أنّه سيتحوّل إلى منطقة الظّاهر، وتحديدا عند بني زيد، الّذين هم على أهبة الاستعداد للثّورة على حدّ قوله...»(320) .

ونقرأ في تقرير آخر، الآتي : «يوجد عند بني زيد (المنطقة المدنيّة لقابس)، مركز تهيّج على صلة بخليفة بن عسكر، الّذي يعد بالأسلحة والدّعم...»(321) .

ليس في نيّتنا التّدقيق في الملابسات الّتي أحاطت بالتّحضير لهذه الحركة، كما ليس مطلوبا منّا الإفاضة في الظّروف الحافّة بكشف السّلطة العسكريّة عن مخطّط «مؤامرة بني زيد» (كذا)، وإنزال العقاب بمهندسيها.

---

(320) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Série : Tunisie 1917-1940**, b. 10, c. 28, rapport, octobre 1917.

(321) **S.H.A.T.**, S. 292, 2 H 53, d. 3, Historique... op. cit., f. 582.

ويتمثّل غرضنا الأساسيّ هنا في محاولة التماس الجواب عن السّؤال التّالي : هل كان خليفة بن عسكر، من بين القادة الطرابلسيّين الّذين حرّضوا بني زيد على الثّورة عام 1917 ؟

إذا نحن أخذنا ما جاء بالمصادر الفرنسيّة على حرفيتها، فإنّ مقدّمات عمل مسلّح ضدّ فرنسا بجهة الأعراض قد بدأت بالظّهور، على نحو جليّ في خريف 1917.

ويؤخذ من تقرير للمقيم العام غابريال ألابتيت G. Alapetite، مرسل إلى وزير الخارجيّة الفرنسيّ، بتاريخ 6 أكتوبر 1917، ما يفيد أنّ المدعو مصباح الغيلوفي، وهو من «منشقّي» بني زيد المقيمين بطرابلس، قد تكفّل بإدخال رسائل، وعرائض «تركية وألمانيّة» (كذا) إلى البلاد التونسيّة (في إطار الحملة العثمانيّة - الألمانيّة المركّزة، المارّ ذكرها)، تضمّنت إدانة للاحتلال الفرنسيّ، ودعوة صريحة للسكّان للثّورة(322).

وقد سبق لمصباح الغيلوفي هذا، أن نهض لدور عون الاتصال بين عدد من قبائل الجنوب، وجماعات الثّوّار التّونسيّين بجهة الجبل الغربي. كما تبادل الرّسائل مع والده الحاج عمر الغيلوفي(323).

ومن جهة أخرى كان للحاج عمار بوطارة (الكاتب العام لخلافة الحامّة) مراسلات مع البعض من القادة الطرابلسيّين، ولا سيما الشيخ سوف المحموديّ(324).

---

(322) محمود فروة، «المقاومة المسلّحة في تونس خلال القرنين التّاسع عشر والعشرين مثال : قبيلة بني زيد (جهة الأعراض)، في أعمال ندوة : **المقاومة المسلّحة في تونس في القرنين التّاسع عشر والعشرين**، تونس، 1995، ص 63.

(323) **أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف 30/15**، وثيقة 5، محضر استنطاق علي بن عمر بن الحاج عبد القادر الحامي، ص 3.

(324) **نفس المصدر**، ص 2.

والحقّ أنّ الاتّصالات بين القادة الأتراك المقيمين بطرابلس، وكذا بعض الزّعامات القبليّة بجهة الجبل الغربي، من ناحية، وسكّان الجنوب التّونسي، من ناحية أخرى، قد انطلقت منذ عام 1915. وقد عبّر هؤلاء الأخيرون عن تحرّقهم للتّحرّك المسلّح ضدّ فرنسا، بشرط حصولهم على السّلاح والجبخانة (الذّخيرة الحربيّة) «الّتي طلبوها [من الاتراك]...»(325).

ويهمّنا التّذكير هنا أنّ المناخ العام في طرابلس غدا مشجّعا آنئذ، بفعل أفكار «الجامعة الإسلاميّة»، والنّشاط اللافت للنّظر، لعدد من العناصر التّركيّة والطرابلسيّة بهذا الخصوص، على إذكاء جذوة النّضال بالجنوب التّونسيّ. وقد سبق أن توقّفنا أعلاه، عند السّمات الأساسيّة لذلك المناخ المشجّع على استئناف حركة المقاومة.

وكان من تداعيات تلك الدّعاية المركّزة، ظهور ما يشبه «الحالة الثوريّة» أو بؤرة تمرّد، بالجهة المذكورة، تشهد على ذلك الاجتماعات الّتي كان يعقدها مشايخ بني زيد، لتدارس السّبل الكفيلة بتأمين وصول رسائل نوري باشا، وسليمان الباروني(326). وفي هذا الإطار وقع تكليف كاتب خليفة الحامّة عمّار بوطارة، بمحاولة شرح ما أزمع عليه المشايخ(327) أمرهم لرئيسه المباشر المدعو محمد الزواري، (الّذي اشتهر عند سكّان الحامّة باسم بودبّوس)، والعمل على إقناعه

---

(325) أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح (مذكّرات)**، الجزء الأوّل، الجزائر، 1976، ص 96.

(326) وكان هذا الأخير قد توجّه بالكلام في إحدى رسائله إلى وجاهات بني زيد: «تشكون من نقص السّلاح. لا بأس سنبعث لكم به. ولكن عليكم قبل ذلك بالشّروع في استغلال أسلحة أبنائكم المجنّدين بالجيش الفرنسيّ.. » انظر:

I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Tunisie 1917-1940, vol 61, Alapetite à Peretti, op. cit., 17 septembre 1917.

(327) من أهمّ هؤلاء المشايخ يمكن ذكر: الحبيب الزّائر، الحاج محمّد بن رجب، علي فارس، علي القمودي، عمّار بن شرف الدّين محمّد بن الحاج بن محمد الغيلوفي، سعد بن عمر، النّاعس الشرياق، الحاج عمر الغيلوفي، الحاج محمد الذّيب الخ...

بالانضمام إلى الحركة، بل ولمَ لا قيادتها(328) .

ويبدو أنّ الخليفة تظاهر بقبول العرض، الأمر الّذي جعل عمّار بوطارة، يزوّده بعديد الوثائق، ومن بينها رسالة موجّهة من نوري باشا إلى حسن القلاتي(329) ، تضمّنت دعوة صريحة للجهاد، واستنهاضا للتونسيّين كي يثوروا على فرنسا الخ...(330) .

وكان مهندسو الحركة، وفي مقدّمتهم عمّار بوطارة، كلّفوا، الحبيب الزّائر، شيخ الدبدابة، بحمل رسالة نوري باشا المومإ إليها، فضلا عن رسالة أخرى حرّرها الحاج عمّار بوطارة، طالب فيها -باسم قبيلة بني زيد- من حسن القلاتي إبلاغهم تعليماته.

وفي هذه الأثناء، أخطر الخليفة محمّد الزواري السّلطة الأمنيّة بتحرّكات المشايخ، وبالمهمّة الّتي أوكلت للشّيخ الحبيب الزّائر، وبالفعل، فقد تمّ إلقاء القبض عليه فور وصوله إلى مدينة تونس(331) . وعقب ذلك حملة اعتقال واسعة النّطاق بجهة الحامّة(332) ، جرت بموازاة عمليّة استعراض للقوّة، قصد إرهاب السكّان،

---

(328) Mustapha KRAIEM, **Nationalisme et syndicalisme en Tunisie (1918-1929)**, Tunis, U.G.T.T., 1976, p. 115.

(329) **حسن القلاتي** (1880-1966) من أصل جزائري، ولد بمدينة تونس عام 1880. زاول تعلّمه بمعهد كارنو الفرنسيّ بتونس، وبكليّة الحقوق بتولوز (فرنسا) حيث أحرز على الإجازة عام 1902. اشتغل بالمحاماة وكانت له مشاركة لافتة للأنظار في إطار حركة الشّباب التّونسيّ. نشط إلى جانب علي باش حانبة في تأسيس لجنة إغاثة الطرابلسيّين بتونس في أعقاب اندلاع الحرب الإيطاليّة-الطرابلسيّة عام 1912. أبعدته سلطة الحماية إلى الجزائر في مارس 1912.

(330) M. KRAIEM, **op. cit.**, p. 115.

(331) **Ibid.**

(332) **أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550، ملف 30/15**، انظر على سبيل المثال وثائق : 1195 و1196.

لقد تمّ نفي العديد من هؤلاء المشايخ في مدينة تونس، وجزيرة جربة، ومعتقل غار الملح، ومدينة مجاز الباب (انظر نفس المصدر وثيقة عدد 18). ==

وتخويفهم : فخلال الفترة الواقعة بين 17 و30 ديسمبر 1917، نفّذ طابور من الجيش الفرنسي قوامه خيّالة تابعون للمراقبة المدنيّة بقابس، وعناصر من الصبايحيّة فضلا عن فصيلة من السينيغاليّين، عمليّة تمشيط، بالأماكن القريبة من بلدة الحامّة، وكذا بالمرتفع الجبليّ الكائن شمال شطّ الفجّاج.

ومن جهة أخرى، تمّ تكثيف فرق عسكريّة تابعة لقفصة وقبلي، بإقامة «متاريس» (لاعتراض سبل «الدجياشة»، والعناصر الفارّة من الخدمة العسكريّة)، إلى الشّمال، والغرب، والجنوب الغربي للمرتفعات الجبليّة المذكورة...(333).

يفضي بنا استعراض مقدّمات «مؤامرة بني زيد» ضدّ الحضور الفرنسيّ بجهة الأعراض، وهي المؤامرة المسمّاة -أحيانا- في الوثائق الرّسميّة الفرنسيّة بـ «مؤامرة الجامعة الإسلاميّة» إلى إعادة طرح السّؤال : كيف جاء ذكر خليفة بن عسكر، خلال الحديث عن التّحذير لهذه الحركة الّتي قتلت في المهد ؟

الحقّ أنّ ذكر الرّجل جاء على هيئة إشارات سريعة مثل تلك الّتي أوردنا في مستهلّ هذا العنصر الفرعي. ولعلّ أهمّها تلك الّتي أوردها بول جرمان كلابيي Paul Germain CLAPIER، مفوّض الشّرطة الخاص بمدينة تونس في المحضر الثّاني المتعلّق باستنطاق محمد بن الحاج محمد بالحاج فرج الغيلوفي، المؤرّخ في 2 أكتوبر 1917، إذ قال : «عرضنا على المعني بالأمر نسخة من نصّ

== وفي 10 جانفي 1919 مثل «المورّطون» في هذه «المؤامرة» أمام مجلس الحرب المنتصب بمدينة تونس والّذي أصدر أحكاما بالسّجن على عدد من المشايخ تراوحت بين عشر وخمس سنوات أشغالا شاقّة. ومن الأمثلة على هذه الأحكام : الحاج عمّار بن محمد بوطارة : عشر سنوات أشغالا شاقّة، الحبيب بن الحاج علي بن الزائر : ثماني سنوات أشغالا شاقّة، سعد بن عمر بن الحاج ابراهيم العياشي، والحاج عمر بن فرج الغيلوفي : خمس سنوات أشغالا شاقّة، انظر :

I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Série Tunisie 1917-1940, vol 61, Résident Général, E. FLANDIN à M. des Affaires Etrangères S. PICHON, Tunis, 20/1/1919.

(333) **I.S.H.M.N., S.H.A.T.**, b. s. 292, 2 H 53, d. 3, Historique... op. cit., f. 579.

الرّسالة الّتي وجّهها خليفة بن عسكر إلى عمّه [الحاج عمر بن فرج الغيلوفي]، فأجاب : «لا علم لي بهذه الرّسالة، ولم أسمع قطّ بوجودها، وفوق هذا، فإنّي أقطن بعيدا عن عمّي...»(334).

ونرى من الضّروريّ التّأكيد هنا أنّنا لم نعثر على الرّسالة المذكورة، لا ضمن وثائق مشايخ بني زيد، ولا بين أوراق ملف خليفة بن عسكر ضمن سلسلة «المشبوهون»(334مكرر).

كما أنّ ضبّاط الشّؤون الأهليّة لم يشيروا إلى مثل هذه الوثيقة رغم إيماءاتهم المقتضبة إلى دسائس الرّجل. خلال تلك الحقبة، أي خريف 1917.

والواقع أنّنا لا نجانب الصّواب إذا نحن قلنا أنّ هذه الرّسالة قد تكون مزوّرة، إذ من غير المستبعد أن ينسب القيّمون على الشّأن الأمنيّ للرّجل أعمالا، أو تحرّكات، لم تصدر عنه. لا سيما وأنّ خليفة بن عسكر بات يجسّد، منذ 1915، «عدوّ فرنسا الأوّل» (كذا)، ضمن لائحة الزّعامات الطرابلسيّة.

وسواء صحّت هذه الفرضيّة أم لا، فإنّ الأمر الثّابت لدينا، أنّ زعيم نالوت استحال، خلال تلك الفترة إلى ما يشبه «المشجب»، علّقت عليه السّلطات الفرنسيّة كلّ المنغّصات والمنكّدات الأمنيّة الّتي واجهتها على الحدود الجنوبيّة، لكأنّ «شبحه» أصبح ينتاب كلّ مكان بالمنطقة تقريبا.

لا غرابة إذن، أن يتحوّل ابن عسكر، إلى نوع من «البُعْبُعْ»، أرّق على أعوان إدارة الأمن، ومصلحة الشّؤون الأهليّة لياليهم.

وخلاصة ما تقدّم : إنّه من العسير حقّا أن نكوّن لأنفسنا فكرة صحيحة عن مسألة ضُلوع خليفة بن عسكر في «مؤامرة الجامعة الإسلاميّة» (كذا). وإذا كان لنا أن نستخلص نتيجة ابتدائيّة من الفقرة السّابقة، فإنّه ينبغي القول أنّ مسألة مشاركة الرّجل في التّحضير للمؤامرة المزعومة، من الأمور المشكوك فيها.

---

(334) أ.و.ت.، **سلسلة E، صندوق 550، ملف 30/15**، ملف 1194، وثيقة 4.

(334 مكرر) انظر : **أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550**، ملف 30/15-756.

**

هل نخرج قليلا عن إطار هذه الدّراسة لنُقيم مُوازنة سريعة (يحتّمها الحديث عن الحركات والانتفاضات التّونسيّة «الموجَّهة عن بعد»، إن صحّت العبارة) بين «فاجعة» الودارنة من ناحية، وما أحَاقَ بمشايخ بني زيد بعد انكشاف أمرهم، كنتيجة من نتائج «الانسياق» وراء المشاريع الغائمة، والوعود العُرْقُوبيّة، للعناصر الطرابلسيّة-التّركيّة ؟

إنّ الإغراء لشديد، ولكن «الضّغط» الّذي تفرضه الاعتبارات المنهجيّة، يجعلنا نقصر المقارنة على عنصريّ الاتصال، أو عوْنيّ الوساطة : الودرني بنعزّوز بن سوفجّين، والبني زيدي مصباح بريبش.

لقد بذل الأوّل قصاراه، في إقناع ابني عمّه سعيد بن عبد اللطيف، وعلي بن عبد اللطيف، بصدق نوايا خليفة بن عسكر، وسوف المحمودي، وعبد الله تامسكت، والسّنوسيّين، وكذا الأتراك والألمان ورغبتهم في دعم حركة مسلّحة ضدّ فرنسا، بالجنوب التّونسيّ.

ونجح الرّجل، إثر رحلات مكوكيّة بين أرباض نالوت، وأحياء أولاد دباب في مسعاه، من حيث أنّه انتزع موافقة الوجيهين الودرنيين بخصوص «مشروع الثّورة».

كان نجاحا وقتيّا بلا ريب، إذ اصطدم صاحبنا بحقيقة الأمور، ومن ثمّ زيف الوعود، خلال حصار حصن أم صويغ (2-9 أكتوبر 1915)، لمّا اشتدّ الكرب على الودارنة، وعاين بنفسه، خذلان ابن عسكر لزعماء الانتفاضة، من خلال مغادرته أرض المعركة. تحقّق من كلّ ذلك، ولكن بعد فوات الأوان، إذ سيلقى بنعزوز بن سوفجين حتفه خلال هذه المواجهة الضارية، يوم 9 أكتوبر، إلى جانب قائديّ الحركة علي وسعيد بن عبد اللطيف، وعديد العشرات من المقاتلين، وما استتبع ذلك من هلاك نساء وأطفال وشيوخ طحنَتْهم رحَى الحرب، دون ذنب أو جريرة.

أمّا مصباح بريبش، فقد قام يسعى، عام 1917، لاستنهاض مشايخ بني زيد، كي يرفعوا السّلاح في وجه فرنسا، وهو لا يفتأ يذكّر بـ«حتميّة الكفاح المشترك»، ووحدة المصير، وبوعود الزّعامات الطرابلسيّة، أمثال سليمان الباروني، وكذا الضبّاط الأتراك والألمان، لبني زيد بالمال والمدد.

ومثلما مرّ بنا، فإنّ القادة المحرّضين، المتمركزين بالغرب الطرابلسيّ لم يَبرُّوا بوعودهم، وأطبقت كمّاشةُ رجال الأمن الفرنسيّين على مدبّريّ «المؤامرة»، و«رؤوس الفتنة»، بحيث دفع مشايخ بني زيد الثّمن باهظا.

تقودنا هذه الموازنة السريعة إلى طرح السّؤال: لماذا لم يتّعظ قادة الانتفاضات بالجنوب التّونسيّ من أخطاء التّجارب الماضية وخيباتها، فيما يتعلّق بالدّعم الخارجيّ، والسّند اللّوجيستيّ، و«المخطّطات الجاهزة» المعدّة في غيابهم، وبآفاق معيّنة، والّتي كانت تحضّهم على الانقلاب على سلطة الاحتلال؟ هل كانت خيبة الانتفاضة الفلاحيّة الكبرى 1881-1882 حاضرة في أذهان قادة الودارنة، عندما باشروا التّحضير لحركتهم في خريف 1915؟ ولماذا لم يتدبّر مشايخ بني زيد مليّا ما حلّ بالودارنة، قبل الدّخول في الاتصالات بالزّعامات الطرابلسيّة والتّركيّة كما أسلفنا القول، ناهيك وأنّه لم يمرّ وقت طويل على «كارثة» تلك القبيلة؟

ومن شأن هذا السّؤال المضاعف أن يفتح على استفهامات أخرى، لعلّ أبرزها: لماذا آلت كلّ محاولات التّحريك والإثارة «عن بعد» إلى إخفاقات دراماتيكيّة؟

4- إبرام الصّلح مع الفرنسيّين أو «سلام الشّجعان» : الوقائع والخلفيّات

توصّل الفرنسيّون وابن عسكر في مطلع عام 1919 إلى اتّفاق يقضي «بوقف كلّ أشكال العدوان، وتبادل الأسرى، واحترام الحدود القائمة، وفتح الأسواق الحدوديّة...»(335)

وجدير بالذّكر في هذا المقام أنّ الاتّفاق على مبدإ الصّلح في مرحلة أولى، ثمّ الانتقال إلى تجسيد ذلك على أرض الواقع، في مرحلة لاحقة، لم يكن بالشّيء الهيّن، نظرا لما رانَ، على العلاقة بين الجانبين من ارتياب، وانعدام ثقة منذ إخفاق محادثات راغاغري RAGAGRU - ابن عسكر في 15 جويلية 1915. وآية ذلك موقف المقيم العام غابريال ألابتيت، من الرّسالة الّتي بعث بها إليه خليفة بن عسكر في 17 أوت 1916 أي إثر إخفاقه في معارك جوان 1916)، ذلك أنّه لم يلق بالاً لما جاء فيها من «استعداد لإيجاد حلول مع الفرنسيّين...»(336).

لقد انطلقت الاتّصالات الجديدة، بين خليفة بن عسكر، وممثّلي السّلطة الفرنسيّة بالمنطقة الحدوديّة في أواخر 1918، إذ أنّها أشّرت إلى ما يشبه بداية «عهد جديد» في العلاقة بين الطّرفين. ومن الأمثلة على ذلك نذكر الرّسالتين اللّتين بعث بهما خليفة بن عسكر في 15 ديسمبر 1918 إلى الضّابط رئيس فرع الشّؤون الأهليّة بذهيبة، بواسطة مبعوثين خاصّين(337).

---

(335) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Guerre 1914-1918**, vol. 1586, rapport, janvier 1919 ; voir aussi, CHAVANNE, **Historique... op. cit.**, p. 83 ; Daniel GOLDSTEIN, **Libération ou annexion : aux chemins croisés de l'Histoire Tunisienne**, Tunis, S.T.D., 1978, p. 151.

(336) **Ibid.**, Fonds nominatifs, Papiers G. Alapetite, Lettres à Peretti de la Rocca, Lettre du 17 août 1916, f. 144 (b. 494, d. 3).

(337) **M.A.E., Q.O., Guerre 1914-1918**, vol. 1586, rapport décembre 1918.

وقد عرض قائمقام نالوت، في الرّسالة الأولى الصّلح على الفرنسيّين موضّحا أن حكومة "الجمهوريّة الطرابلسيّة" هي الّتي أناطت به هذه المهمّة(338)، وخوّلت له التّفاوض مع الجانب الفرنسيّ في كلّ ما «يتعلّق بوقف الأعمال الحربيّة، واحترام الحدود التّونسيّة-الطرابلسيّة، وفتح الأسواق، وفقا لشروط الصّلح الّتي وقعت بين الحكومات المتحاربة...»(339).

أمّا الرّسالة الثّانية، فتضمّنت مقترحا قوامه تكليف عمرو بن عسكر المقيم بتونس، بدور الوساطة بين الطّرفين(340).

وممّا يجدر ذكره هنا، أنّ الشّقيق المذكور غدا محلّ ثقة الفرنسيّين، وحسن ظنّهم، وشاهدنا على ذلك السّماح له بممارسة الأعمال التّجاريّة، والتّنقّل بكلّ حريّة، في كافّة أنحاء «المحميّة»(341).

كما أعاد الرّجل الكرّة في مطلع شهر جانفي 1919، من خلال إيفاد رسول آخر، إلى رئيس فرع ذهيبة. وقد أكّد في رسالته الجديدة أنّه قرّر منع «المنشقّين المقيمين بجهة نالوت من التّسلّل إلى التّراب التّونسيّ، والقيام بأعمال عدوانيّة...»(342)، وأنّه سيثبت على موقفه مهما كان الردّ أي بصرف النّظر عن تجاوب الطّرف الفرنسيّ مع مقترحه من عدمه.

وبالرّغم من سلامة قصد خليفة بن عسكر، وحسن نيّته (على الأقل كما أبانت عنها الرّسائل المذكورة) والّتي كان لسليمان الباروني دور مهمّ في تشكيلها(343)، فإنّ الجانب الفرنسيّ لم يبد تفاعلا معها، وظلّت الأمور تراوح مكانها.

---

(338) **Ibid.**

(339) في إشارة صريحة إلى «الهدنة» بأروبا، المعلنة بين القوى المتحاربة حينذاك.

(340) **M.A.E., Q.O., Guerre 1914-1918**, vol. 1586, rapport décembre 1918.

(341) **أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550**، ملف 30/15 (ملف عمرو بن عسكر، انظر على سبيل المثال وثيقة عدد 50).

(342) **M.A.E., Q.O., Guerre 1914-1918**, vol. 1586, rapport, janvier 1919.

(343) **Ibid.**, rapport novembre 1918.

وممّا يؤكّد عدم اهتمام الفرنسيّين بتلك «المبادرة السخيّة»، وبالتّالي عدم حملهم الرّجل على محمل الجدّ، تأكيدهم في تقرير مؤرّخ في غرّة أفريل «إنّ عدوّنا العتيد (والوحيد)، في الوقت الحالي، هو خليفة بن عسكر...»(344).

بيد أنّ تبدّلا سيطرأ على الموقف الفرنسيّ ابتداء من شهر ماي 1919 بفضل جهود عَمرُو بن عسكر، شقيق خليفة، الّذي يبدو أنّه قدم «ضمانات مهمّة» لرموز السّلطات الأمنيّة والعسكريّة فيما يتعلّق بـ «صدق نيّة شقيقه وجدّيّته...».

وقد سبق لعمرو أن حقّق نجاحا أوّليا في هذا المضمار حينما وفّق في 9 أوت 1918 في إقناع المراجع الفرنسيّة بمدينة تونس بجدوى الإفراج عن عائلة خليفة بن عسكر المحتجزة بالعاصمة، وكذا البعض من أفراد بعض الأسر اللاجئة، الّذين فرّوا من معسكر قبلّي، كما مرّ بنا ضمن الباب الأوّل.

والتزم عمرو بن عسكر بالعودة بهم إلى قبلّي حيث «سيخضعون لمراقبة ضبّاط الشّؤون الأهليّة، في نفس ظروف إقامة بقيّة النالوتيّين نزلاء الجهة...»(345).

هكذا أفرجت سلطة الاحتلال عن ستّة عشر نفرا بكفالة عمرو بن عسكر(346)، كان في مقدّمتهم كما ذكرنا جازية بنت سليمان، ومبروكة بنت أحمد، زوجتا خليفة بن عسكر، وابناه إبراهيم وعمرو، وابنتاه سليمة وفاطمة(347).

---

(344) **S.H.A.T.**, b.s. 292, 2 H 53, d. 3, Historique... op. cit., f. 586.

(345) **أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق 550**، ملف 15/30 - 756، وثيقة عدد 53.

(346) **نفس المصدر**، وثيقة عدد 51.

(347) وجدير بالإشارة أنّ بقيّة المفرج عنهم تألّفوا من الآتية أسماؤهم: سعيدة بن عيسى بن مسعود، عائشة بنت سالم بن ساسي، سلمى بنت محمّد بن طالب، عائشة بنت يوسف بن الحاج، هنيّة بنت عتيق بن محمّد، غالية بنت عتيق بن محمد، محمّد بن عتيق بن محمّد، ضرّة بنت سعيد بن الحاج محمّد، وسعيدة بنت الحاج سعيد تفوشيت.

وممّا لا شكّ فيه أنّ نجاح هذه الخطوة، قد حفّز الرّجل على الاستمرار في هذا النّهج. والأكثر رجحانا في تقديرنا أنّ هذا «الاختبار»، أو «المحك»، كان بالنّسبة للطّرف الفرنسيّ كناية عن امتحان لمعرفة مدى صدق عزيمته.

أيًا يكن، فقد توصّل الطّرفان إلى إبرام صيغة الاتّفاق الموما إليها، والّتي تضمّنت كما ذكرنا وقف الأعمال العدوانيّة، وتبادل الأسرى، واحترام الحدود، وفتح الأسواق الحدوديّة أمام مرتاديها، وحركة التّجارة بعامّة.

ونقع في الرّوايات الشّفويّة المختلفة، الّتي اعتمدها كلّ من محمّد المرزوقي، ومحمد سعيد القشّاط(348) ، على وصف، (نخاله متوافرا على «الحدّ الأدنى» من الموضوعيّة، ومن ثمّ المصداقيّة) لموكب تبادل الأسرى، الّذي جرت وقائعه بالنّقطة الحدوديّة المسمّاة بنقدال. وقد حضر لتغطية مراسم هذا الاحتفال المهيب، صحافيّون، ومراسلون خاصّون، ومصوّرون...

ولعلّ أطرف لحظة عرفها ذلك الموكب، هي تلك الّتي شهدت ترجّل خليفة بن عسكر من على جواده، وهو باللّباس الرّسمي التّركي (بصفته قائمقاما)، ووقوفه أمام عدسات المصوّروين الّذين التقطوا له صورا تذكاريّة، وذلك «نزولا عند رغبة الفرنسيّين...»(349) .

هكذا إذن وقع إطلاق سراح عائلة زعيم نالوت (وكامل نزلاء محتشد قبلي) بعد أكثر من خمس سنوات من الاعتقال. كما فتحت الأسواق الحدوديّة (وخاصّة سوق بنقردان) أمام مرتاديها التّقليديّين من سكّان الجبل الغربي. وفي مقابل ذلك تسلّم الفرنسيّون أربعمائة وأربعين أسيرا(350) قبض عليهم عام 1916 بقلعة جانيت(351) .

(348) اعتمدنا رواية كلّ من علي بن بدر المخلبيّ (انظر : محمد المرزوقي، **دماء**، ص 91)، وروايات سعيد صالح بن عسكر، وأحمد يوسف بوصوّة، وعلي عمرو بن عسكر (انظر : محمد سعيد القشاط : **نفس المرجع**، ص 107-108).

(349) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 107.

(350) **نفس المرجع**، ص 108.

(351) **نفس المرجع** والصّفحة.

ويعدّ التـزام خليفـة بز عسكر، بمنع تسـلّل «المنشقّين التّـونسيّين المقـيمين بالمنطقـة الحـدوديّة داخل الـتراب التّـونـسـيّ من أجل تنفـيـذ عـمليّـات إغـارة وسلب...»(352)، وكذلك تعهّده «بتهدئة التوارق...» الّذين نفّذوا عمليّـات جريئة ضدّ المواقع الفرنسيّة، خلال تلك الفترة(353) من الأهمّيّة بمكان بالنّسبة للجانب الفرنسيّ.

ولعلّنا لا نغالي، إذ نؤكّد أنّ هـذا الاتّفاق يعتبر -بمعنى من المعـاني- مكسبا هامّا لضبّاط الشّؤون الأهليّة وقتئذ.

وحسـبنا الإشارة في هذا الصّدد إلى أنّ الهـاجس الأكبر، والشّـغل الشّاغل لضبّـاط الشّؤون الأهليّة بمكتبي مدنين وتطاوين، في تلك الحـقبة، انحـصر في كيفيّة التّصدّي لعمليّات «الحركة» «HARKA»(354)، الّتي ازدادت وتيرتها على نحو خطير(355)، بحيث طال الأمد لفرض النّظام، وتـوطيد سلطة دولة الحماية بتلك النّواحي النّائية.

---

(352) **I.S.H.M.N., M.A.E., Guerre 1914-1918**, vol. 1586, rapports novembre, décembre (1918), février (1920).

(353) Daniel GOLDSTEIN, **Libération ou annexion... op. cit.**, p. 151.

من بين هذه العمليّات «الهجوم الّذي نفّذه ثلاثمائة ترقي في 11 جوان 1917 بالمكان المعروف بالحايرة (25 كم إلى الشّمال الشّرقي من بئر قصيرة)، ضدّ مفرزة من الحـامية الصّحراويّة. وقد غنم التوارق خلال هذا الهجوم مئتي جمل كانت على ملك الجيش الفرنسي.

وفي 5 سبـتمـبر 1919 تمكّن مائتا ترقي في مسـتوى بئر عـوين، من الاسـتيلاء على ألف ومائتي رأس من الأغنام فضلا عن عدد هام من الجمال...» انظر:

- Capitaine CHAVANNE... **op. cit.**, p.p. 81/87.

(354) المقصـود بعمليّات الحركـة وهي لفظة تردّدت كثيرا في مـراسلات الضبّاط، عـمليّات الإغارة الّتي استهدفت قطعان القبائل «الخاضعة»، ومراكز الجـيش الفرنسي، وعربات البريد، وقوافل التّموين الخ... والّتي كانت تنفّذها زمـر قليلة العدد. تراوح عدد المشاركين في كلّ واحدة منها ما بين ستّة وتسعة أنفار.

(355) **ا.و.ت.، سلسلة A، صندوق 196**، ملف، التّقارير الشّهريّة لعامي 1917 و1918. انظر كذلك:

CHAVANNE, **Historique... op. cit.**, p.p. 81-87.

وبعبارة مجملة نقول : لقد أمكن للطّرف الفرنسيّ، قبل نهاية عام 1920، طيّ «ملف خليفة بن عسكر» نهائيّا، إذ ساد الودّ، العلاقة بين الجانبين، وهي علاقة وصفها العقيد دولافو DELAVAU، في تقرير له بتاريخ 17 ديسمبر 1920، «بالمثمرة» إذ أنّها غدت تقوم –حسب زعمه– «على مبدأ حسن الجوار، الّذي يسعى الطّرفان لصونه، والمحافظة عليه ...» (356).

إنّ السّؤال الّذي يملي نفسه هنا، والّذي يتوقّف عليه جلاء عديد الأمور هو : لماذا جنح خليفة بن عسكر إلى طلب عقد الصّلح مع الفرنسيّين (وألحّ في ذلك مرارا)، في تلك الحقبة بالذّات ؟

هناك أسباب أربعة على الأقلّ تفسّر تبدّل موقف خليفة بن عسكر بالتّدريجي من الفرنسيّين (إذ من غير المستبعد أن تكون نطفة الرّغبة في المصالحة قد بدأت بالتّشكّل لديه إثر إخفاق هجومات صيف 1916)، وسعيه إلى إبرام الصّلح معهم ابتداء من خريف 1918. وهذه الأسباب هي :

أوّلا : الهزيمتان القاسيتان وغير المتوقّعتين لابن عسكر أمام الإيطاليّين خلال واقعتي الجديدة (16-17 جانفي 1917)، والدورانية (5 أفريل 1917). وقد سبق لنا تفصيل القول في الظّروف الحافّة بتينك المواجهتين، وما ترتّب عليهما من نتائج. وحسبنا التّذكير ههنا أنّ من بين التّداعيات المذكورة ظهور تيار معارض لخليفة بن عسكر في نالوت وهو ما يمكن اعتباره منعطفا هامّا برأينا.

والرّاجح لدينا أنّ اهتزاز صورة الرّجل جرّاء الهزيمتين المذكورتين، وتقلّص إشعاعه بالمنطقة الحدوديّة، كان وراء بداية تفكيره الجدّي، في ضرورة مراجعة اختياراته، لأنّ قدرته على استنفار الرّجال قد تضاءلت على نحو ملحوظ.

ثانيا : لا ينبغي أن نغفل عن الدّور الهام الّذي نهض له سليمان الباروني، للتّخفيف من جموح الرّجل وإلانة عريكته، وإقناعه بجدوى الكفّ عن معاداة فرنسا، وما قد يجلبه له ذلك الصّنيع من منافع.

---

(356) أ.و.ت.، سلسلة E، صندوق **550**، ملف 15/30. 694، انظر وثيقة عدد 297، تقرير العقيد دولافو DELAVAU، القائد العسكري لمناطق الجنوب إلى المقيم العام، مدنين في 17 ديسمبر 1920.

والواقع أنّ جنوح ابن عسكر لنهج الحوار كأسلوب جديد في تعاطيه مع الفرنسيّين، قد تمّ تقريبا بموازاة تجربة حوار الزّعامات الوطنيّة الطرابلسيّة، ومن بينها ابن عسكر، مع إيطاليا، على نحو ما سنرى تفصيلا بعد قليل.

وهنا يعنّ السّؤال: هل بشّرت الاستعدادات الّتي أبداها الرّجل للحوار مع فرنسا (بعد قبوله محاورة الإيطاليّين)، لبدايات تحوّل القائد العسكري إلى زعيم سياسي، بعد أن كان قرّر مقايضة خوذة المحارب بعباءة رجل السّياسة؟

ثالثا: إنّ القصف الجوّي المركّز، والشّديد التّواتر، الّذي استهدف مواقع ابن عسكر في نالوت ووازن، وبقاع أخرى بالجبل الغربي، قد أثّر في القدرات الحربيّة للرّجل، ونال من معنويّاته ومعنويّات رجاله، ومن ثمّ ساعد على الحدّ من غلوائه، وساهم في استرخاء شكيمته في المقاومة، والتّحرّش بالقوّات الفرنسيّة. ولعلّنا لا نخطئ إذا قلنا إنّ خليفة بن عسكر كان يبحث، منذ مطلع 1918، عن تسوية مشرّفة مع الفرنسيّين، أو مخرج يحفظ ماء الوجه، بعد تأكّده أنّهم مصمّمون على مواصلة عمليّات «الرّجم المنتظم»، لمواقعه، مستغلّين حالة الفوضى الشّاملة الّتي كان الجبل الغربي مسرحا لها.

رابعا: ظهور تيّار أو حزب معارض لخليفة بن عسكر، وفق عبارة غرانشان P. Granchamp، ما انفكّ يتعاظم(357)، وتكمن وراء ضمور شعبيّة الرّجل أربعة أسباب رئيسيّة:

– الهزيمتان الآنف ذكرهما.

– الغلظة والفظاظة الشّديدة اللّتان ميّزتا معاملته لسكّان نالوت، والمناطق المتاخمة لها بعد شهر جوان 1917، وما نجم عن ذلك من حالة تبرّم عامّة(358)، وانفضاض معظم أهالي الجهة من حوله.

(357) P. Granchamp, **Chronique... op. cit**. (année 1924), p. 152.

(358) انظر على سبيل المثال شهادة الشيخ أحمد المجبر، من قبيلة الحوامد، راجع:
S.H.A.T., b. s. 292, 2 H, d. 1, f. 341 ; voir aussi : rapports décembre 1917, mai 1918.

فعلا، لقد استحال خليفة بن عسكر آنئذ إلى طاغية غدا يبطش بالأشياء والأحياء، الأمر الّذي ألحق الأذى الشّديد والبؤس بأتباعه. ومن الأمثلة على غطرسته هذه، إقدامه في جوان 1917 على شنق ثلاثة وجهاء من نالوت بتهمة تسهيل هجرة نفر من الأهالي إلى تونس(359) . كما سبق له، في 17 نوفمبر 1916 أن سجن جميع شيوخ وازن بحجّة «دخولهم في محادثات مع السّلطة الفرنسيّة الحدوديّة...»(360) .

وكان الرّجل أمعن في إيذاء النّاس منذ نهاية 1916 من خلال رفضه التحاق قطاع عريض منهم بتونس، بغرض البحث عن مواطن الرّزق بعد أن هزلت الموارد بالمنطقة، وشحّ الزّاد جرّاء حالة الجفاف، والأدهى من كلّ ذلك تعمّده ابتزاز كلّ من دفعته حالة البؤس والمجاعة(361) إلى محاولة الهجرة.

تلكم مجرّد أمثلة فقط عن الأعمال الشّائنة الّتي أتاها ابن عسكر بالمنطقة الّتي بسط عليها جناحيه، وهي أعمال أساءت إليه أبلغ الأساءة، ونالت من صورته، وزعامته بمنطقة الجبل، وجعلت النّاس يضجّون بتجاوزاته.

– بالرّغم من أنّ المصادر لم تشر إلى موقف سكّان نالوت، وردّ فعلهم على المشاركة الفعّالة لخليفة بن عسكر في حرب «المطلينين»، (ابتداء من سبتمبر 1916)، فمن المحتمل جدّا، أن يكون «بربر نالوت الأباضيّون...» (كذا)، قد استهجنوا انخراط ابن عسكر، إلى جانب المعسكر المعادي لإخوانهم في «العرق والمذهب»، والأنكى من ذلك، حسن بلائه في عمليّة تصفيتهم، وإبادتهم بدعوى التّعاون مع المحتلّ، والحال أنّ كلّ الزّعامات «العربيّة» تقريبا، تعاملت مع الإيطاليّين –إن قليلا أو كثيرا– وقبلت مساعداتهم المالية، على ما سيزداد وضوحا في الباب الثّالث.

---

(359) P. Granchamp, **op. cit.**, p. 151.

(360) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O.**, Fonds nominatifs, Papiers Al-apetite... op. cit., b. 494. d. 3, f. 226.

(361) **M.A.E., Q.O. Série Tunisie 1917-1940**, b. 10, c. 28, rapports, janvier, février 1917.

– الوضع الاقتصادي الكارثي الّذي غدت عليه منطقة الجبل الغربي بعامّة، ونالوت بخاصّة منذ 1916، إذ منيت المنطقة المذكورة، طيلة ثلاث سنوات متتالية بقحط شديد أدّى إلى ظهور المجاعة بها(362). وتكفينا الإشارة للتّأكيد على الحالة الدراماتيكيّة الّتي أصبح عليها النّاس، إلى أنّه كان يهلك جوعا في بلدة نالوت وحدها، خلال نوفمبر 1917، ما بين ثمانية وعشرة أشخاص في اليوم الواحد(363).

ولقد نجم عن حالة الجدب المريعة تلك، ارتفاع كبير في أسعار المواد الغذائيّة. وشاهدنا على صحّة هذا الكلام، ما جاء في تقارير ضبّاط الشّؤون الأهليّة من أنّ «ويبة الشعير بلغت ثلاثين فرنكا، وأنّ أوقيّة السكّر (30 غرام)، كانت تباع بفرنك واحد، وأنّ سعر لتر واحد من الزّيت ناهز الخمس فرنكات»(364).

تلك هي، على وجه الإجمال، أهمّ العوامل، الّتي حددت نهج الرّجل مسلك الحوار مع الفرنسيّين، أوردناها في شيء من الاختزال.

وعلى العموم، وكائنة ما كانت خلفيّات هذه الخطوة الهامّة (سواء بالنّسبة للجانب الفرنسيّ، أو لخليفة بن عسكر)، فإنّ ما تمّ التّوصّل إليه كان حقّا «سلما مشرّفة» أو «سلام شجعان». معنى هذا أنّ جلوس زعيم نالوت إلى طاولة التّفاوض لا يمكن تأويله –بأي حال من الأحوال– على أنّه إقرار بالهزيمة والعجز عن مواصلة قتال الفرنسيّين. بل أنّ مقتضيات السّياسة، في معناها الواسع، والّتي سيشرع ابن عسكر في التّدرّب عليها، والتّمرّس بها، برعاية سليمان الباروني، هي الّتي حتّمت ذلك الاتّفاق الاضطراري.

---

(362) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Guerre 1914-1918**, d. 1601, télégramme du Commandant Militaire à Résident Général, Médenine, 20 août 1917, f. 341.

(363) **S.H.A.T.**, b. s. 292, c. 2 H 53, d 3, Historique... op. cit., f. 583.

(364) **Ibid.**

ما يشبه خاتمة الباب :

رجل الحرب : المناقب والمثالب

ابتداء نقرّ أنّ هذا العنوان لا يخلو من ادّعاء. فالمؤرّخ مهما اجتهد تنقيبا وتمحيصا، فإنّه لا يملك الأهليّة الكافية لإصدار أحكام بخصوص أشياء تنتمي للحقل العسكري، وما يتفرّع عنه من اختصاصات. كما أنّ ثقافته، في مجال الفكر العسكري (نظريّة الحرب، مبادئ الحرب، فنّ الحرب، التّأثير على المعركة، الاستراتيجيات الخ...)، تبقى محدودة مهما سعى إلى إغنائها وتعميقها. ومن ثمّ وجب التّنبيه إلى أنّ نتائج بعض الجهود، الّتي كثيرا ما تنطلق من إشارات غائمة وجزئيّات مفتقرة للدقّة، غالبا ما تفضي إلى نتائج مضلّلة، بل باطلة.

ولأنّ عملنا هذا لا يرشح بالجديد المثير، ولا يعد به، فإنّ أقصى ما نطمح إليه أدناه لا يتعدّى «العمل الوصفيّ». معنى هذا أنّ مقاربتنا ههنا، ستبدو «انطباعيّة» أحيانا، وتعدّ هذه «النّقيصة» من صميم محاولات غير المختصّين في هذا المضمار(365).

إنّ المتابعة المتمعّنة لأسلوب خليفة بن عسكر في التّخطيط للمعارك، وإدارتها، ضدّ الإيطاليّين كما الفرنسيّين، لتجعل الباحث، في حيرة من أمره، أي حيال ما يشبه اللّغز.

فعلاً، لقد أتى الرّجل في بعض الأحيان من الألمعيّة، والحنكة في التّخطيط للعمليّات والتّرتيب لها، ومن حيل الدّفاع، والفطنة في مواجهة الصّعاب، والشّجاعة، وروح المبادرة، واحتمال الشّدائد، والرّزانة الخ... ما هو خليق بكبار

(365) يقول اللّواء أركان حرب، جمال حماد، بهذا الخصوص :

«إنني لا أعتقد أنّ في إمكان مؤرّخ مدني، مهما كان ضليعا في مادّة التّاريخ، أن يقوم بتحليل المعارك العسكريّة من خلال منظوره التّاريخيّ، لأنّ التّحليل العسكري، هو موضوع فنيّ عسكريّ في المقام الأوّل...».

ويضيف قوله : «لا ينبغي للمؤرّخ، إذا لم يكن متخصّصا، أن يقوم بمثل هذا التّحليل، أو يبدي رأيه في صواب هذه العمليّة الحربيّة أو خطئها...»، انظر : **أخبار الأدب**، العدد 150، 26 مايو، 1996، ص 11.

القادة العسكريّين. وهو ما و جدنا صداه في تقارير أعدائه وأوراقهم الشّخصيّة، وقديما قيل : «الفضل ما شهد ت به الأعداء...».

ولكن «بطلنا»، أبدى أحيانا أخرى من الطّفرة، والتّهافت، وضيق الأفق، والأخطاء التّقديريّة، وضبابية الرّؤيا، ما فوّت عليه، وعلى أتباعه ورجاله -من الطرابلسيّين كانوا أو من التّونسيّين- انتصارات بدت في متناوله.

ولكي لا يأتي كلامنا خاليا من الدّعامة والسّند، فإنّنا سنسعى أدناه إلى محاولة عضد المفارقة موضوع العنصر، بالبعض مما توافر لدينا من حجج وقرائن. ولنبدأ بالسّليقة الحربيّة لابن عسكر، وخصاله القتاليّة، كما وردت بقلم عدوّه الفرنسي.

وتطالعنا في هذا الصّدد شهادة قيّمة عن الرّجل، حبّرها المقيم العام غابريال الابتيت ALAPETITE، في أوراقه الخاصّة عام 1916، إذ كتب يقول :

«يجب أن نقرّ أنّ خليفة بن عسكر [...] متشبّع بالطّريقة النابوليونيّة. فهو لا يقسّم قواته، بل يحشدها كلها، ويباغت بها عدوّه، الموزّع الفرق، والّذي لا يقوى على مركزتها ضدّه في الوقت المناسب، نظرا إلى أنّه أقلّ منه سُرعة...»(366).

ويضيف ألابتيت في موضع آخر :

«إنّ اختيار العدو [ابن عسكر] لتوقيت شنّ الهجوم موفّق للغاية، إذ أنّ حرارة الطّقس لا تطاق بالمرّة...»(367).

ونقع في مذكّرات «جنديّ مجهول دوّن في دفتره الخاصّ، خلال حصار ذهيبة، ملاحظات وانطباعات بخصوص العدو المحاصر للحامية الفرنسيّة، إذ ألمح إلى أنّ «الثّوّار يتفوّقون علينا [الفرنسيين] في كلّ شيء، أي من حيث تسليحهم،

---

(366) **M.A.E., Q.O., Guerre 1914-1918**, b. 69, vol. 1598, d. 3, Papiers Alapetite. Lettre à Peretti de la Rocca, 27 juin 1966, f. 99.

(367) **Ibid.**, 3 juillet 1916, f. 104-105.

وقـوّة شكيـمـتـهم، وعـدوانيّـتهم الـنهّاشـة، وعـددهم، وسـهـولة حـركـاتهم وسرعتها...»(368).

ومن ناحيـة أخرى، اعتـرف الجنرال قائد جيش شمـال افريقيـا، في إحدى برقيّاته إلى وزارة الحرب بأنّ رجال ابن عسكر : «كانوا منظّمين، وخاضعين لقيادة جيّدة، وقد انقسموا إلى طوابير متراصّة، وأخرى مبعثرة...»(369).

ونقرأ ضمن تعليمات غرّة فيفري 1917، الآنف ذكرها، والّتي كانت أشبه بدروس التّجربة (أي جبهة الجنوب التونسيّ 1915-1916)، ما يلي :

«إنّ مبادئ الحرب ينبغي أن تتكيّف مع عدوّ محارب، سهل الحركة سريعها، صبور، مخادع، مخاتل، ومطّلع اطّلاعا جيّدا على كلّ تحرّكات فرقنا...»(370).

وعلى إثر فـشل الهجـوم على حصن أم صـويغ (2-9 أكتـوبر 1915)، أشاد الفرنسيّون، بصدق بلاء عدوّهم الّذي «حارب بصلابة وشجاعة [...]، ويعود الفضل في دحره إلى القوّة الهجوميّة الضّاربة لجيوشنا ...»(371).

ونرى من الضّروريّ، قبل أن نطوي الكلام على موضـوع الخصال الحربيّة لخليفة بن عسكر، كما جاءت مدوّنة بالمصادر الفرنسيّة، أن نشير إلى ما لاحظناه -في بعض الأحايين- من اختلاف في توصيف أسلوب الرّجل في المناورة وإدارة المعارك.

---

(368) **S.H.A.T.**, b. s. 292, 2 H, d. 3, fragment du journal de Déhibat... op. cit., f. 432.

(369) **M.A.E., Q.O., Guerre 1914-1918**, b. 69, vol. 1597, télégramme du Général Commandant de l'Armée d'Afrique du Nord à Guerre, Cabinet E.M.M., Section d'Afrique, Alger, 10 octobre 1915, f. 125 bis.

(370) **Vincennes, S.H.A.T.**, b. s. 292, c. 2 H 52, instructions du 1er février 1917... op. cit., f. 458.

(371) **S.H.A.T.**, b. s. 292, 2 H 53, **Historique... op. cit.**, f. 575.

لنقتصر على مثال واحد، ولكنّه غنيّ بالدّلالة : فقد ذكر رئيس الفيلق ميكال MIQUEL، قائد قطاع تطاوين - رمادة - بئر قصيرة، في تقرير له إلى المقيم العام، بتاريخ 10 جويلية 19 6 أنّ خليفة بن عسكر عمد، خلال هجومه على ذهيبة ورمادة في موفّى ج ان 1916، إلى توزيع رجاله البالغ عددهم ألف وستمائة مقاتل تقريبا إلى ت ت عشرة مجموعة، ضمّت كلّ واحدة منها ما بين تسعين ومائة وثمانية عشر رجلا، وكانت تحت إمرة قائد معيّن من قبل ابن عسكر(372).

وواضح هنا أنّ ما كتبه جل الميدان ميكال MIQUEL يتعارض، على نحو بيّن، مع ما جاء بقلم المقيم العـ م ألابتيت ALAPETITE في تلك الفترة بالذّات، بخصوص أسلوب زعيم نالوت، والّذي سبقت الإشارة إليه. ويكفينا التّذكير هنا أنّ ألابتيت شدّد على أنّ الرّجل لا ينشر قوّاته، بل يحشدها على هيئة كتل ضخمة متحرّكة، وهو ما جعله يصرّح دون مواربة، أنّه متشرّب بالأسلوب النابليوني.

يقودنا استعراض أهمّ م جاء في هذه الشّهادات إلى تقرير ما يلي :

كان ابن عسكر في كلّ م اجهاته مبادرا غير مدافع، وهذا من الأمور الطّبيعيّة -والمنطقيّة- برأينا، لأنّ الحر ب الّتي باشرها زعيم نالوت، ضدّ الإيطاليّين، كما الفرنسيّين، تدخل في إطار العـ مليّات المعروفة بحرب العصابات (أو الغوّار، أو الأنصار). ومن نافل القول، التّ كيد هنا، أنّ أسلوب هذه الحرب، كان أنسب أشكال النّزال المسلّح، في مثل تلك الظّروف، اعتبارا إلى انعدام التّناسب في ميزان القوى، والوسائل بين القوّات المتقابلة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ المهاد البيئي، المتميّز بكثرة المرتفعات الجبليّة، ووُعُورتها، شكّل وسطا ملائما لمثل الحرب المذكورة.

---

(372) **M.A.E., Q.O., Guerre 1914-1918**, d. 1603, rapport du chef de bataillon MIQUEL, chef du secteur Tataouine-Remada-Bir Kecira, à M. le Résident Général, 10 juillet 19 6, f. 203.

كما انجلت الشّهادات المشار إليها -إن صراحة أو ضمنا- عن إقرار بالبأس الكبير الّذي أبداه الرّجل خلال اقتحام الاستحكامات، وكذا احتدام المعارك مع الفرنسيّين.

والسّؤال هنا: ما هُو قَفَا الميداليّة؟ أي ماذا عن مثالب الرّجل، بعد أن تعرّفنا إلى محاسنه؟

إذا نحن دقّقنا النّظر في أهمّ أطوار الوقائع الّتي جمعت خليفة بن عسكر بأعدائه (من الإيطاليّين والفرنسيّين)، فإنّنا نقف على أمر قوامه انتهاج قائد نالوت استراتيجيّة «الهجوم بلا هوادة»، كيفما اتّفق، وقد وجّه هذا التّمشّي فَهْمٌ خاطئ لمنطق «لا يفلّ الحديد إلاّ الحديد»، بحيث أبانَ ذلك النّهج عن محدوديّته وقصوره لا سيما خلال معارك 1915، إذ بدَا ابن عسكر عاجزا عن استنباط «حيلة»(373)، تمكّنه من احتلال مركز ذهيبة. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى بَدَا الرّجل -أحيانا- كقائد لا يعرف ما يريد على وجه الدقّة.

ودون السّقوط في أيّ اختزال مجحف، نقول: إنّ خطّة خليفة بن عسكر -في أثناء معارك جوان 1916- كانت موصومة بالاضطراب. وتكفينا الإشارة في هذا الصّدد إلى الكيفيّة الّتي عدل بها عن احتلال مركز ذهيبة، بعد خمسة أيّام متتاليّة من الحصار، وتحوّله المفاجئ إلى حصار رمادة «ظنّا منه أنّ حاميتها ضعيفة لا تقوى على المقاومة...»(374).

وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا القرار المرتجل قد أدخل البلبلة، في صفوف رجاله، وأثّر بالتّالي -تأثيرا بيّنا- في معنويّاتهم وأدائهم الميدانيّ...

ويتبدّى من خلال شهادة المقدّم هارلي HARLE، كما وردت في تقرير له بتاريخ 1 أكتوبر 1915، أنّ تلهّف خليفة بن عسكر على إعلان الحرب على

(373) محمد المرزوقي، **دماء**...، ص 136.

(374) **نفس المرجع**، ص 82. وكانت مسألة التّحوّل المفاجئ من حصار ذهيبة إلى حصار رمادة شكّلت موضوع خلاف حادّ بين مهدي السنّي وخليفة بن عسكر، انظر:

A.N.O.M., (Aix-en-Provence), Série H, Sous-série 26 H, Tunisie, b. 69 rapport, juillet 1916.

فرنسا، قد أوقع قادة قبيلة الود رنة التّونسيّة في مأزق (لم يرتبوا أمورهم بالقدر الكافي)(375) ، وجعل الفرنسيّين يتفطّنون إلى خطورة الوضع في الوقت المناسب. وبعبارة أخرى : لم ،تحلّ الرّجل بما كان يستلزمه الموقف في خريف 1915 من تأن، وعدم طفرة.

وثمّة أمر آخر تنبغي الإشارة إليه، ومفاده الصّعوبة الّتي كان يلاقيها ابن عسكر، في السّيطرة على رجاله ساعة احتدام القتال. وها هو محمّد المرزوقي، الّذي لم يخف إعجابه بالرّجل، يؤكّد في أثناء حديثه عن عيوب ابن عسكر -القائد العسكري، أنّه «كان في الواقع لا يستطيع السيطرة على سير المعركة. فبمجرّد اندلاعها، يصبح كلّ مجاهد حرًّا في عمله فالرّجل بطل شجاع لا محالة، ولكن تنقصه الثّقافة الحربيّة، واتّساع الحيلة، ولم يكن لديه اختصاصيّون في الأسلحة الثّقيلة، بدليل أن مدافعه (كذا) لم تصب هدفا في معارك ذهيبة...»(376) .

ومن الأخطاء الأخرى الّتي وقع فيها ابن عسكر عام 1916، تقديمه الهدف السّهل لأعدائه الفرنسيّين وآية ذلك هذه الشّهادة لضبّاط الشّؤون الأهليّة :

«إنّ الإحساس الحربي الغريزي لدى العربيّ، غالبا ما يحمله على المبادرة بشنّ الهجوم، بحيث يكون المشاة في الوسط، والفرسان على الجناحين. ويندفع [على هذا النّحو] مهاجما الوحدات المكوّنة لمؤخّرة الجيش.

وبإمكان العدوّ أيضا -بفضل ما أوتي له من تجربة، وكذا بفضل نصائح الأعوان الأجانب (في إشارة واضحة إلى الأتراك والألمان)، أن يتحصّن في موقع معيّن، وأن يحتفر الخنادق. ولكن في هذا العمل إفادة لنا، ذلك أنّه يهمل صفته الأساسيّة المتمثّلة في خفّة الحركة، بحيث يثبت في مكان محدّد، مما يتيح لنا استعمالا جيّدا لمدفعيّتنا، ونجاحا في حبك حركة الالتفاف...»(377) .

---

(375) **I.S.H.M.N., S.H.A.T.**, b. s. 292, Série H., d. 1, rapport du Commandant HARLE, Médenine, 1er octobre 1915, f. 35.

(376) محمد المرزوقي، **نفس المرجع**، ص 136.

(377) **I.S.H.M.N., S.H.A.T.**, b. s. 292, 2 H 53, d. 3, Historique... op. cit., f. 462.

يفضي بنا هذا كلّه إلى القول أنّ الاندفاع غير المحسوب، أو الطّفرة، كان من أهمّ أسباب فشل هجومات خليفة بن عسكر في كلّ ما خطّط له من عمليّات حربيّة. ولعل أدقّ مرادف للفظة الطّفرة في اللّهجة العاميّة، عبارة «موش رزين» الّتي جاءت في قصيدة الهجاء الّتي قالها الشّاعر خليفة الكردي، كما سبق ورأينا.

ولسنا ندري هل كان القائد الجبالي يستشير رجاله المقرّبين، في خطط القتال، وحيل الدّفاع والمناورة، وهل كان يقبل مشورتهم وآراءهم. نقول هذا ونحن من بين الّذين يستبعدون جدّا حصول مثل هذه الأمور، نظرا لما عرف عن الرّجل من «نرجسيّة» واعتداد «مرضيّ» بالنّفس.

وخلاصة الرّأي أنّ خليفة بن عسكر لم يكسب معركة ضدّ الفرنسيّين، ولم يحتلّ لهم موقعا (خلافا لانتصاراته ضدّ الإيطاليّين، واحتلاله سيناون، وكباو، والجوش، ونالوت، خلال جوان – جويلية 1915).

صحيح أن انطلاق حركته قد أرغم الجيش الفرنسيّ على إخلاء مراكز بئر بيستور، والجنين، وحصن برفنكيير (20 سبتمبر 1915)، كما مرّ بنا، ولكن لا بدّ من التّذكير أنّ المواجهات الّتي جمعته بالفرنسيّين قد انتهت كلّها باندحاره، وباء الرّجل آخر الأمر بالخيبة بعد أن ركن إلى الفرار خلال واقعة أم صويغ الشّهيرة، وهو ما فصلنا فيه القول أعلاه.

إنّ أشنع خطأ ارتكبه خليفة بن عسكر -في اعتقادنا- يتمثّل في مجابهته للفرنسيّين وقد استبدّ به نوع من الغرور، والزّهو المفرط بالنّفس، بعد أن أسكرته انتصاراته ضدّ الإيطاليين.

إنّ الأمر الّذي غاب عن الرّجل وهو في غمرة إعلان الحرب على الفرنسيّين هو أنّ الحالة (المعنويّة والماديّة)، الّتي كان عليها هؤلاء -خلال خريف 1915، وخاصّة مطلع صيف 1916- كانت تختلف اختلافا بيّنا عن حالة الإيطاليّين بالغرب اللّيبيّ، في منتهى ربيع ومطلع صيف 1915.

الباب الثّالث

السّياسيّ الإمّعة
أو
زمن التّيه

«سأصعد فوق المشنقة وأرى تحت قدميّ أناسا لا يستحقّون الحياة...»

سعيد قزّاز

شنقُوه تمّ نَهَـــــــــــــــارَهْ وبَعْثُوا جوَابَاتَهْ مَعَ الطيَّـــــــارَه
وخَانُوهْ دُولَةْ طَاليَا الغَـــــــدَّارَهْ قَالْ ريت مُكْحلة المرَا في ديَّـــــهْ
وَحَصْلُوا علَى اللِّي رَايْهمْ في شْكَارَهْ وَفي غيبْتَهْ لعْبتْ علينَا حَيَّـــــهْ

**

منينْ كَانْ فُوقْ الضَّايـــــــــــلْ عَاشْ حُرْ مَا هَزِّشْ قطَاعَهْ مَايـلْ
فيهْ الدُّولْ مَتْخَلْفَه وَغلاَيـــــــلْ عَدُو دينَّا لَوْ كَانْ فيهمْ نيَّـــــهْ
أَنَا نَخَبِّرْكُمْ رَاني قَديمْ وَدَايـــــــلْ التَوْ حَبْهُمْ قَاعدْ شُهُودَهْ فــــيَّ

شعر : علي بن عبد الله النّائليّ

مقدّمة

شكّلت نهاية الحرب العالميّة الأولى تاريخا فارقا في حركة المقاومة اللّيبيّة من خلال تدشينها طورا لم تعد فيه الأولويّة للمقاومة المسلّحة، بقدر ما غدت الأسبقيّة للمبادرات السّياسيّة وما كان يستتبعها من مزايدات ومضاربات ودسائس. وقد أشّر هذا التّحوّل لاستنفاد مرحلة مهمّة في سيرورة تلك الحركة وحلول أخرى بلغ فيها «مسلسل» تردّي العلاقات بين الزّعامات الوطنيّة والقبليّة ذروته إذ تدرّجت الحال من الجفاء والتشادّ إلى العداء الصّريح والاقتتال الضاريّ.

ولقد انخرط خليفة بن عسكر، أسوة بجلّ الزّعامات المتنفّذة، عام 1919، في تجربة حوار وتعاون مع السّلطة الإيطاليّة لم تخل من تعثّرات وانتكاسات. وهكذا اضطرّ تبدل الظّروف (إلى جوار عوامل أخرى، سنعرض لها في حينها)، زعيم نالوت إلى استبدال «خوذة المحارب» بـ «قلنسوّة» السّياسي «وعباءته».

انجذب الرّجل إذن في لجّة السّياسة دون أن تكون له الأهليّة الكافية لخوض مثل تلك التّجربة المحفوفة بالمخاطر، وغير مأمونة النّتائج.

وبالتّدريج توارى القائد الوطنيّ أمام الزّعيم الجباليّ وهو ما أشّر لنقلة خطيرة في نضاله بخاصّة، وحركته بعامّة.

سنُعنى في هذا الباب بتفصيل القول في أهمّ تعرّجات هذا الطّور المركزيّ في حياة المترجم له (وحركة المقاومة بالقطر الطرابلسيّ بصفة عامّة)، من خلال إثارة ثلاث قضايا رئيسيّة تتضمّن الواحدة منها الأُخْرَيَيْن، وتحيل عليهما.

- لحظة التّقارب، والتّعاون بين ابن عسكر والإيطاليّين.

- الحرب الأهليّة بالجبل الغربيّ ومعاني هزيمة خليفة بن عسكر.

- عزلة الرّجل ابتداء من جانفي 1922، ونهايته المأسويّة في 20 سبتمبر 1922.

المبحث الأوّل

التّقارب بين خليفة بن عسكر والإيطاليّين مقدّماته، وأطواره (سبتمبر 1919 - أوت 1920)

I – تطوّر الأوضاع في طرابلس الغرب عشيّة انتهاء الحرب العالميّة الأولى والظّروف الحافّة بـ«سياسة التّقارب» بين إيطاليا والزّعامات الطرابلسيّة (نوفمبر 1918 جويلية 1919)

1- قيام «الجمهوريّة لطرابلسيّة»:

فاجأ استسلام الامبراطوريّة العثمانيّة في الحرب العظمى، يوم 30 أكتوبر 1918 (هدنة مودروس) الأمير عثمان فؤاد، الّذي كان يجسّد السّيادة العثمانيّة في إقليم طرابلس، علاوة على مهمّته على رأس القيادة العليا للجيوش الإفريقيّة، وكذا الزّعامات القبليّة بالمنطقة.

وكان الأمير عثمان فؤاد يقيم إذ ذاك في مصراته، أمّا بقيّة الزّعامات، فكانت تستوطن –ساعة شيوع خبر انكسار جيوش الدّولة العليّة في الحرب– بمناطق نفوذها التّقليديّة، إذ كان رمضان السويحليّ في مسلاّتة (رغم أنّه سيّد مصراته، كما هو معروف)، وسليمان الباروني في العزيزيّة والزّاوية، وعبد النّبيّ بالخير في ورفلة، وأحمد المريّض في ترهونة، وخليفة بن عسكر في نالوت، ومختار كعبار في غريان الخ...

وكان لزاما على هذه الشّخصيّات، ومن كان مقيما بالبلاد، من غير اللّيبيّين، نحو عبد الرّحمان عزّام وبعض الضّبّاط الأتراك، من أمثال اسحق باشا، التّحرّك لمواجهة ما يقتضيه الموقف، وهم في مقدّمة من يعلم أنّ استسلام دولة الخلافة معناه قطع المدد عنهم وبقاؤهم وحيدين في مواجهة إيطاليا. هذا فضلا عن احتمال استعار الحروب الدّاخليّة من جديد(1)، بإيعاز من بعض الزّعامات، إذ «من المحتمل جدّا أن يرى أحد الخصمين هذه الظّروف الحرجة فرصة للثّأر لنفسه، فتعيد الفتنة

(1) أبو القاسم الباروني، **نفس المرجع**، ص 91.

سيرتها، وتقع البلاد في شرّ مستطير...»(2).

واحتياطا لأيّ احتمال، قد يؤدي إلى تعقيد الوضع الدّاخلي، وينسف توازناته الهشّة، سارعت شخصيّات طرابلس البارزة خلال اجتماع مهيب بمسجد المجابرة بمسلاّته (كان أشبه بالميعاد التّقليدي) حضرته أبرز وجاهات الإقليم، وزعماء القبائل، بالإعلان عن قيام الجمهوريّة الطرابلسيّة، وذلك في 16 نوفمبر 1918(3).

والواقع أنّ هناك ثلاثة عوامل مهمّة حرضت زعماء إقليم طرابلس على التّعجيل بتجسيد تلك الفكرة.

أمّا أولاها فيخصّ أصداء التّطوّر السّياسي المسجّل في إقليم برقة، في طرابلس الغرب، بعد اعتراف إيطاليا في 11 أفريل 1917، بموجب اتّفاقيّة عكرمة المبرمة مع إدريس السنوسي، بالحكم الذّاتي للسنوسيّة في الإقليم.

ويهمّنا أن نذكر أنّ هذه الاتّفاقيّة توّجت سلسلة من المفاوضات بين الزّعيم الجديد للحركة (بعد «انسحاب» أحمد الشّريف)، والبريطانيين، والإيطاليّين، انطلقت منذ 31 جويلية 1916.

وأمّا العامل الثّاني فيتمثّل في تصريح الرّئيس الأمريكي وُودْرُو ولسن Woodrow WILSON، الدّاعي إلى تقرير المصير. ونقع في نصّ الرّسالة الموجّهة من أعضاء مجلس رئاسة الجمهوريّة إلى الرّئيس الأمريكي على ما يشير إلى صدى هذا الإعلان في بلاد طرابلس الغرب. وهاك ما قاله هؤلاء في هذا الخصوص:

«... إنّ قواعدكم المشهورة، بالنّسبة لمقدرات جميع الأمم سواء كانت في أروبا أو خارجها، قد شجّعتنا كثيرا على أن نضع آمالنا في مقاصدكم العظيمة ونواياكم العالميّة الإنسانيّة... وإنّنا نؤمّل أن عواطفكم السّامية نحو الحكومات

---

(2) الطّاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 222.

(3) **نفس المصدر**، ص 224.

والأمم الصّغيرة الحيّة، ستـتكّم على أن تمنعوا تكرار سفك الدّماء بيننا وبين الطّليان بتكليفهم بالاعتراف بحكومتنا الجمهوريّة...»(4) .

ويشكّل تطوّر الأوضاع الدّاخليّة في إيطاليا، عشيّة انتهاء الحرب العالميّة الأولى، ثالث العوامل المومإ إليه ، إذ كان زعماء طرابلس الغرب على بيّنة بما يجري في روما من تعاقب الحكومات (وما استتبعه من انعدام الاستقرار السّياسي)، الّتي كانت تشغلها نفس التّحدّيات والشاكل النّاجمة عن خسائر الحرب وما ترتّب عليها من أزمة اقتصاديّة واجتماعيّة، هذا فضلا عن «تقلّب» الحياة البرلمانيّة، الّتي زادتها الخيبات الديبلوماسيّة تعقيدا وشلّت بالتّالي، لدى الحكومة الإيطاليّة أي مبادرة(5).

وتأسيسا على كلّ ذلك، كانت روما تسعى آنئذ لتفادي أيّ عمليّة لإعادة غزو ليبيا، تكون مكلّفة في المال والرّجال. معنى هذا أنّ التّفاوض وحده يمكن أن يشكّل المخرج أو الحلّ الأكثر واقعيّة.

تلكم إذن أهمّ العناصر الّتي وعاها الأعضاء المؤسّسون للجمهوريّة، وتمثّلوها على نحو جيّد، ممّا يشي بحسّ سياسيّ لا مجال لنكرانه أو تهوينه.

لقد تمخّض هذا الاجتماع-المؤتمر عن انتخاب مجلس رئاسة من أربعة أعضاء هم : سليمان الباروني، ورمضان السويحلي، وعبد النّبيّ بالخير، وأحمد المريّض «وهؤلاء الأربعة يمثّلون البلاد الطرابلسيّة من حدود برقة إلى حدود تونس...»(6) .

وقد أنيط بهذا المجلس الرّباعي دور الهيئة الحاكمة(7) . كما انتخب الحاضرون مجلسا شوريّا للجمهوريّة من أربعة وعشرين عضوًا برئاسة الشّيخ

---

(4) انظر النصّ الكامل للرّسالة في الزّاوي، **جهاد**... ص 230.

(5) André MARTEL, **La Libye (1835-1990)**, op. cit., p. 105:

(6) الطّاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 224.

(7) ليزا اندرسن Lisa ANDERSON «جمهوريّة طرابلس : 1918-1922»، تعريب محمد رمضان المصري، **مجلّة الشّهيد**، العدد 11، 1990، مركز الجهاد، ليبيا، ص 198.

محمد سوف(8) ، ومجلسا شرعيّا من أربعة أعضاء، وكانوا «من أبرز علماء الشّريعة...»(9) .

وفي خاتمة الاجتماع صدرت عن الزّعامات بلاغات وجّهت للرّئيس الأمريكي (كما أسلفنا القول)، ورئيس الوزراء البريطاني، ورئيس الحكومة الفرنسيّة، فضلا عن أهالي طرابلس(10) .

وجاء في تلك المراسلات، إشعار «بقيام الجمهوريّة الطرابلسيّة»، وطلب (على هيئة التماس)، بالاعتراف بها، أي باستقلال طرابلس الغرب. وهنا يعنّ السّؤال :

ماذا كان موقف الإيطاليّين من إعلان هذه الزّعامات المرموقة تأسيس الجمهوريّة الطرابلسيّة ؟

2- عقد صلح بنيادم، وصدور القانون الأساسيّ :

لاقى قرار إعلان الجمهوريّة الطرابلسية(11) ، في بداية الأمر رفض إيطاليا الّتي أوّلت دعوة مؤسّسي الجمهوريّة إلى الاعتراف بهم، على أنّها ضرب من ضروب الاستفزاز(12) .

---

(8) للاستزادة بخصوص قائمة أعضاء مجلس الشّورى، والأقاليم الّتي ينتمون إليها، انظر : أبو القاسم الباروني، **نفس المرجع**، ص 91-92، الطّاهر احمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 225-226.

(9) علي عبد اللّطيف حميدة، **نفس المرجع**، ص 172.

(10) يمكن الاطّلاع على نصوص البلاغات السّتّة الصّادرة عن الاجتماع، في الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 227-232.

(11) لا مندوحة عن الإشارة إلى ما أبدته القوى العظمى من «لا مبالاة، وفتور واضح» إثر إذاعة إعلان قيام الجمهوريّة رغم ما بذله قادة الجمهوريّة من جهود دعائيّة، بغية تحسيس الرّأي العام العالمي «بمغزى الحدث وأهمّيته...»، انظر ليزا اندرسن، **نفس المرجع**، ص 190.

(12) كان ردّ الحكومة الإيطاليّة صارما وذا بطانة تهديديّة من حيث تأكيده أنّ إيطاليا «لا تعترف بالجمهوريّة الطرابلسيّة» وهي «مستعدّة للحرب إلى النّهاية...» (انظر : الزّاوي، نفس المصدر، ص 229)، ووفقا لمنطقها هذا، وضعت الحكومة الإيطاليّة «مبالغ من المال ثمنا==

بيد أنّ ساسة روما، ما لبثوا أن أذعنوا للأمر الواقع، من خلال قبولهم فتح باب التّفاوض مع «كبار الأسياد البدو» وفق عبارة غرانشان GRAN-CHAMP(13)، من أجل التّوصّل إلى صيغة صلح يضع حدًّا لحالة الحرب، خاصّة بعد أن تناهت إليهم أنباء مؤداها عودة المناوشات وعمليّات قطع الطّرق(14).

وبوسع المتمعّن في خلفيّات هذا الموقف أن يلاحظ أنّ أنصار التّفاوض من ممثّلي السّياسة المدنيّة كانوا أوّل من يعلم أنّ الجنوح إلى صيغة تعايش أو تسوية Modus vivendi سيشلّ حركة قواتهم في طرابلس (وقد نيّفت على ثمانين ألف رجل ضمن المجال السّاحلي طرابلس – الخمس – زوارة)، ولكنّه سيجنّبهم، في المقابل، حملة عسكريّة جديدة مكلّفة جدّا، ولا شعبيّة، وغير مأمونة النّتيجة(15).

وقد سبق لوزير الخارجيّة الإيطاليّ كارلو شانزر Carlo Schanzer، أن ألح منذ نهاية الحرب العظمى إلى رغبة حكومة بلده في تدشين عهد جديد في طرابلس الغرب، لأنّ «الوقت قد حان لتجربة التّعاون المباشر، مع أبناء البلاد فيعطون حقوقا سياسيّة، ومدنيّة، كانت من قبل محدودة برأي الحكومتين المركزيّة والمحلّيّة...»(16).

ومجمل الأمر، فإنّ الإيطاليّين، أكّدوا رغبتهم، حينذاك، في اعتماد أسلوب جديد فيما يهمّ سوس مستعمراتهم الافريقيّة، وتصريف شؤونها.

== لرؤوس بعض هؤلاء القادة (أي قادة الجمهوريّة)» (انظر : محمّد رجائي ريان، نفس المرجع، ص 103) ودائما في إطار ردّ الفعل الأوّلي «الانفعالي»، ألقت طائرات إيطاليّة مناشير تضمّنت تهديدا للسكّان، وتلويحا باللّجوء إلى بعض الإجراءات الانتقاميّة (انظر : أبو القاسم الباروني، **نفس المرجع**، ص 98).

(13) P. Granchamp, **Chronique... op. cit**. (année 1921), p. X.

(14) أبو القاسم الباروني، **نفس المرجع**، ص 98.

(15) A. MARTEL, **op. cit.**, p. 105.

(16) Carlo SCHANZER, **Italian colonial policy in North Africa**, Foreign Affairs, vol. II, 1924, p. 451, cité par :

مجيد خدوري، **ليبيا الحديثة، دراسة في تطوّرها السّياسي**، نقله إلى العربيّة، نقولا زيادة، بيروت، دار الثّقافة، ص 26.

ونرى من المفيد -قبل أن نطوي الكلام على ظروف التّقارب الإيطاليّ-الطرابلسي وملابساته-، أن نشير إلى دور الوساطة المهمّ بين الطّرفين والّذي نهض له عنصران طرابلسيّان. أمّا الأوّل فيدعى محمّد بك فرحات الزّاوي، وكان من وجاهات طرابلس المعروفة، والّتي اشتهرت باعتدالها، وانتصارها لفكرة الصّلح. وقد لقي من «رؤساء العرب في العزيزيّة... ما شجّعه على المضيّ في مهمّته...»(17) .

وأمّا الشّخصيّة الثّانية الّتي وسّطها الإيطاليّون للصّلح بينهم وبين العرب، فتدعى خلافو ناحوم، وكان من أكبر التّجّار اليهود الّذين ربطتهم أواصر صداقة برمضان السويحلي(18) .

انطلقت المباحثات بين الفريقين في مارس 1919 في خلّة الزّيتونة، وارتكزت على قاعدة التّباحث فيما يكون أساسا لشروط الصّلح. وتكوّن الوفد الطرابلسيّ المفاوض من خمسة أعضاء(19) .

والحقّ أنّ هؤلاء المفاوضين كانوا يعودون قبل الموافقة على أيّ بند من بنود الاتّفاقيّة إلى لجنة من «ذوي الرّأي»، وفق عبارة الطّاهر أحمد الزّاوي، تألّفت من شخصيّات متنفّذة، نحو رمضان السويحلي، وسليمان الباروني، وعبد الرّحمان عزام ومختار كعبار(20) . ويمكن القول بمعنى معيّن أنّ الكلمة الأخيرة، أو القول الفصل، كان يعود لهذه المجموعة الّتي احتلّت الكواليس.

تواصلت المفاوضات وئيدة (بسبب مماطلات الإيطاليّين وتراجعاتهم)(21) لتتوّج في غرّة جويلية 1919 بالتّوقيع على وثيقة الصّلح الّتي ستعرف باتّفاقيّة

(17) الطاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 244.

(18) **نفس المصدر** والصّفحة.

(19) الأعضاء الخمسة هم : الهادي كعبار، الصويعي الخيتوني، محمد فكيني، علي بن تنتوش، وأحمد المريّض.

(20) الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 246.

(21) توقّفت المفاوضات خلال ربيع 1919 بسبب تشدّد الإيطاليّين في بعض المسائل، لتستأنف من جديد في مطلع ماي 1919.

صلح بنيادم. وهذا معناه، وضع حدّ لحالة الحرب المستمرّة بين إيطاليا والطرابلسيين منذ 1911.

وفي نفس هذا التّاريخ صدر القانون الأساسي Legge Fondamentale أو الدّستور Statuti Lubici الّذي قبل الإيطاليون بموجبه حكم البلاد بمعيّة حكومة وطنيّة. وأقرّ القانون نوعا من الجنسيّة «الإيطاليّة - الطرابلسيّة»، بحيث تحول الطرابلسيّون من وضع الرّعايا إلى وضع المواطنين، وأصبح لهم ما للإيطاليين من حقوق سياسيّة، وعليهم ما على هؤلاء من واجبات(22) كما نصّ على انتخاب برلمان طرابلسيّ، فضلا عن صيانة الحريّات، والتّعهّد باحترام عادات البلاد وتقاليدها الخ...

وسبق لإيطاليا أن عوّضت منذ 17 ماي 1919، الوالي العسكري بوال مدنيّ (في محاولة لإبراز صدق رغبتها في الصّلح)، كما أقرّت التّنقيص التّدريجي للحضور العسكري في ليبيا، وبرّت بوعدها بدليل أنّ عدد جنود إيطاليا لم يتجاوز خمسة وعشرين ألف رجل في نهاية عام 1919(23).

إنّ الأمر الأصيل في مقدّمات هذه المصالحة، وأطوارها يبقى -برأينا- نجاح الزّعامات الطرابلسيّة القويّة، في الاحتفاظ بشروط خارج القانون الأساسي، والتزام الإيطاليّين باحترامها. ويأتي في مقدّمة هذه الشّروط الخاصّة، عدم نزع سلاح القادة، وأتباعهم، والاعتراف بحقّهم في تجنيد عدد من الرّجال «للخدمة المحليّة» (كذا)، وفوق ذلك ما تعهّد به الإيطاليّون من عدم دخول جنودهم إلى مناطق النّفوذ (أو الإقطاعات) لتّابعة لأبرز القادة الطرابلسيّين إذ ذاك(24)، وأن يقتصر هذا الحضور على ضابط واحد، مهمّته تأمين عمليّة الاتّصال بين الزّعامات الطرابلسيّة وحكومته.

(22) Camille FIDEL, **Une mission en Tripolitaine... op. cit.**, p. 72.

(23) P. GRANCHAMP, **Chronique... op. cit.** (année 1921), p. X.

(24) التزم الإيطاليّون بعدم دخول جنودهم إلى مراكز الزّاوية، والعزيزيّة، وجنزور، ومصراته، وسرت، وترهونة، وغريان، والرياينة، ونالوت، وبني وليد.

ولعلّ السّؤال الّذي يثور هنا هو : بماذا نفسّر إذعان الإيطاليّين لشروط الزّعامات الطرابلسيّة ؟ وهل من صائب الإدراك تأويل هذا «التّنازل» على أنّه سعي إيطاليّ لاجتناب عودة الحرب بكلّ الوسائل ؟

لقد أكّدت الأحداث بالإقليم -ابتداء من عام 1920- أنّ استجابة قادة إيطاليا للشّروط المذكورة، قد انطوى على دهاء سياسيّ كبير. ذلك أنّ الإيطاليّين الّذين حصلت لديهم خبرة بالتّكوين البشري والاجتماعي والسّياسي لطرابلس الغرب (بعد انقضاء أكثر من سبع سنوات على حدث الغزو)، وما كان يشقّ زعماء «الإقطاعات»، وأعيان الجهات وشيوخها من صراعات، وتنافس وتضاد، كانوا متأكّدين أنّ ذلك السّلاح يمكن أن يوجّه إلى صدور عربيّة، إن هم أفلحوا، في تأجيج تلك الصّراعات وتوظيفها لصالحهم، وهو ما سيكون شغلنا في أحد عناصر هذا المبحث.

وجدير بالتّسجيل هنا أنّ الطّبقة السّياسية الطرابلسيّة، يتقدّمها نفر من مجلس الأربعة، ومجلس الشّوري للجمهوريّة، عمدت إثر إعلان الدّستور، إلى إعادة «تشكيل نظامها [الجمهوريّة] لفترة وجيزة...»(25) ، وقد أدّت تلك الجهود، في 26 سبتمبر، إلى ظهور هيئة الإصلاح الوطني، وهي كناية عن حزب وطنيّ، تمثّلت مهمّته في «المحافظة على حقوق الطرابلسيّين الواردة في القانون الأساسي، كاملة، والتّعجيل بتنفيذ هذا القانون...»(26) ، فضلا عن التّحضير لانتخاب مجلس النوّاب.

وتمّ إسنادُ رئاسة هذا الحزب إلى أحمد المريّض زعيم ترهونة(27) ، وآلت

---

(25) ليزا اندرسن، **نفس المرجع**، ص 200.

(26) **نفس المرجع** والصّفحة.

(27) أحمد المريّض : زعيم ترهونة، اضطلع دائما بدور هام على رأس قبيلته. اضطرّته خصومته الحادّة مع رمضان السويحلي، في وقت من الأوقات (خاصّة ما بين 1918-1920) إلى التّقرّب من الإيطاليّين.

تغيّر موقفه من السّلطة الإيطاليّة بعد موت السويحلي إذ أصبح من أهمّ الزّعامات الّتي جسّدت «الخطّ الوطنيّ» بإقليم طرابلس. انتخب رئيسا " لمجلس الثمانية " عام 1919.

رئاسته الشّرفيّة إلى رمضان السويحلي، في حين تمّ تكليف المصري عبد الرّحمان عزام(28) بمهمّة السكريتارية العامّة علاوة على إشرافه على جريدة اللّواء لسان حال الحزب.

تلك هي -على وجه الإجمال- أهمّ الظّروف والملابسات الّتي يمكن أن ننزل فيها عمليّة التّقارب الّذي حصل بين قادة طرابلس والإيطاليّين، في مبتدأ العشرينات، ومن ضمنهم «بطلنا» خليفة بن عسكر النّالوتيّ.

II - التّداني بين خليفة بن عسكر والإيطاليّين : بين «النّجاح» و التّعثّر :

1- «بدايات واعدة» :

كان خليفة بن عسكر من أوّل القادة الطرابلسيّين الّذين استجابوا لطلب الوالي الإيطالي بزيارة مدينة طرابلس (مقرّ الحكومة الوطنيّة بمقتضى القانون الأساسي)، وذلك بعد إبرام الصّلح(29).

وقد دخل المدينة إلى جانب رمضان السويحلي، الّذي تلدّد في قبول الدّعوة في بداية الأمر، وكانا محفوفين بدّوكبة مهيبة من الفرسان أربوا على ستمائة رجل.

ويعلّق الطّاهر أحمد الزّاوي على ما صاحب دخول الزّعامات العربيّة مدينة طرابلس في 2 سبتمبر 1919 من حماس شعبيّ، وأجواء احتفاليّة، وصفها

(28) **عبد الرّحمان عزام** : من أصل مصري، عمل مستشارا لرمضان السويحلي، وكانت له حظوة كبيرة لدى كلّ الزّعامات الوطنيّة تقريبا... ومن المعروف أنّ عزّام سيتولّى في منتصف الأربعينات منصب أوّل أمين عام لجامعة الدّول العربيّة.

(29) يزعم أتوني قابيلي Attone GABELLI في كتابه : **طرابلس الغرب من نهاية الحرب العالميّة الأولى إلى حدث الفاشية La Tripolitana della fini, della guerra mondiale alla avento del Fascismo** أنّ خليفة بن عسكر لم يحضر احتفالات الصّلح بمدينة طرابلس (انظر : المرزوقي، عبد النّبي بالخير، الدّار العربيّة للكتاب، تونس 1978، ص 108).

والحقّ أنّ قابيلي ضعيف الحجّة، لأنّ جلّ المصادر المتوفّرة -إيطاليّة كانت أم ليبيّة- أكّدت حضور خليفة بن عسكر الاحتفالات المذكورة في مطلع سبتمبر 1919.

بالمشهودة، قائلا :

«وكــان لهذا الموكب الــوطنيّ المنقطع النّظيــر، أثر بالغ في بعث النّشــاط في الطرابلسيّين حتّى لكأنّهم بعثوا من القبور...»(30) .

ومما هو حريّ بالتّسجيل في هذا المقـام. تأكيد الزّاوي -وهو شاهد عـيان فطن، على نحــو ما أسلفنا- أن قرار زيارة طرابـلس، انبثق عن القادة الطـرابلسيّين أنفسـهم، عــشيّة توقيع الصّلح، خلافـا لمصادر أخرى رأت فيها تلبـية لدعوة الوالي الإيطالي.

وعلى العـموم، وكـائنة ما كـانت الجهـة الّتي أوحت بهذه الزّيارة، فـإنّ هذا العمل نجح في إضفاء طابع شـعبيّ، أو إعطاء شرعيّـة جماهيريّة لجهود الزّعامات في التّعاطي مع الشّــأن الوطنيّ الطرابلسيّ. هذه حقيقة لا مـرية فيها(31) ، حتّى وإن لجأ «البعض» إلى اعتبــار قبول القادة الصّلح خطأ جسيما و«حـماقة»، و«أكبر سقطة وقع فـيها المجـاهدون»، وهي استنتـاجات حكمهـا منطق التقـاط الشوارد والتّخوين «السّاذج»، وهي فوق كلّ ذلك بعيدة كلّ البعد عن الموضوعيّة(32) .

استقبل الوالي منزنجر MENZINGER (33) ، الزّعماء الطرابلسيّين في السّراية الحمراء (قصر الحكومة)(34) ، ثم اصطحبهم في جولة قادتهم إلى ميناء طرابلس حيث أطلعهم على غواصة بحريّة «ليروا قوّة إيطاليا...»(35) .

---

(30) الطّاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 263.

(31) يقول علي عبـد اللّطيف حميدة «كانت هذه المكاسب غاية في الأهمـيّة إذا قارناها بمكاسب حركات التّحرر في تلك المرحلة» **نفس المرجع** ص 172- 173.

(32) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 169.

(33) منزنجـر : شغل خطّة مـحافظ في نابولـي، قبل أن يصـبح أوّل حاكم مـدني إيطاليّ في طرابلس الغرب، من أوت 1919. إلى أوت 1920.

(34) الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 263.

(35) القشاط، **نفس المرجع**، ص 138.

وعمـوما فقد طغى على هـذا اللّقاء الطّابع التّشـريفاتي، الشّيء الّذي لم يرق لرمضان السويحلي، وهو ما دفع به إلى رفض البقاء في ضيافة الحكومة(36).

إنّ ما نريد أن نخلـص إليه من ذكر هذه التّـفاصيل هـو تأكيد أمـر مؤداه أنّ خليفة بـن عسكر، قائمقام نـالوت، قد أصبح ابتداء من عـام 1920، موظّفا لدى الحكومة الإيطاليّة، بما أنّ اتفاقيّة الصّلح نصّت على أن تتكفّل إيطاليا بدفع مرتّبات متصرّفي المناطق الإداريّة، وقائمقاميها، ومديريها(37).

واتّساقا مع ما جاء في الشّروط الخاصّة الّتي احتفظ بها أعضاء الجمهوريّة خارج القانون الأسـاسـيّ، كما سبق توضـيحه، سمح خليفـة بن عسكر للإيطاليّين في 28 نوفمبر 1919(38)، فتح مكتب للشّؤون الأهلـيّة في نالوت، عيّنوا على رأسـه ضابط اتّصـال برتبة ماجور. وقـد تألّف هذا المكتب، الأوّل من نوعـه، من متـرجم يهودي، وطبيب إيطالي، مـهمّته الإشـراف على المصلحة الطبيّـة الأهليّة، وثلاثة عسكريّين لمأموريّة تأمين أعمال البريد والتّلغراف(39).

وتدلّ دلائل كثيرة، وأهمّها المراسلات الّتي تبودلت بين ابن عسكر وأوّل والٍ مدنيّ إيطاليّ، وبينه وبين البعض من أعوانه، من أمثال الكاتب العام، عن مدى رغبة قائمقام نالوت في التّعاون مع السّلطة الإيـطاليّة من ناحية، وارتياح، القائمين على هذه السّلطة، لما بَدَر عن خليفـة بن عسكر من تفان، في خدمة الحكومـة، من ناحية أخرى.

ولكي لا يأتي كـلامنا خاليـا من الدّعامـة والدّليل، نورد أدناه هذه الوثيـقة، وهي عبارة عن رسالة وجّهها حاكم طرابلس الغرب منزجنر، إلى خليفة بن عسكر، بتاريخ 7 نوفمبر 1919(40)، إذ قال فيها:

(36) الزاوي، **نفس المصدر**، ص 246.

(37) القشاط، **نفس المرجع**، ص 149.

(38) P. Granchamp, **Chronique... op. cit.**, (1921), p. X.

(39) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O.**, rapport janvier 1920, f. 181.

(40) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 49.

«إلى حضرة المحترم خليفة بن عسكر، قائمقام، قضاء نالوت.

نشكركم كثيرا على جوابكم المؤرّخ في 28 أكتوبر، وقد صرنا مسرورين جدًا على ما أكّدتموه مرّة أخرى من إحساساتكم نحو الحكومة، وإنّ ما فعلته الحكومة نحو أخيكم، فهو من ثقتنا، واعتبارنا العالي لكم، ومن اعتمادنا عليكم في المستقبل.

وإنّ الأهميّة العظيمة الّتي نُعلّقها على حضرتكم هي المعاونة الجديّة الّتي نأملها لكم في كافّة المسائل المتعلّقة بالحدود.

وبناء على هذا، فنحن ندعوكم للمجيء إلى طرابلس، بما أمكن من السّرعة لأجل المذاكرة معكم في هذا الشّأن، وترتيب الصّورة الّتي يمكن بها اتّخاذ التّدابير اللازمة لمحافظة الحدود الغربيّة، وبينما نحن في انتظار زيارتكم لنا، نهدي إليكم مزيد السّلام.

طرابلس في 7 نوفمبر 1919

التّوقيع: الحاكم منزنجر

ونرى من المفيد، ونحن بصدد التّعاطي مع مسألة التّقارب هذه، أن نسوق الملاحظتين التّاليتين:

أوّلا: لم تشكّل سياسة التّقارب الّتي سار عليها ابن عسكر منذ نهاية عام 1919 حالة شاذّة. معنى هذا أنّه بنهجه تلك المسلكيّة، لم يغرد خارج «السّرب الوطنيّ» آنئذ. إذ من المعروف لدينا أنّه بعد توقيع الصّلح بين الزّعامات القبليّة وإيطاليا، تعامل هؤلاء القادة، وتعاونوا مع ممثّلي إيطاليا، وفق ما نصّت عليه فصول القانون الأساسيّ، والشّروط الخاصّة بأعضاء الجمهوريّة الطرابلسيّة كما مرّ بنا.

على أنّ الأمر الجدير بالتّسجيل هنا يتعلّق بتلوّنات سياسة التّعاون المذكورة، وفويرقاتها الّتي اختلفت، بشكل بيّن، من زعيم إلى آخر، على نحو ما سيزداد اتّضاحا في بابٍ تالٍ.

ثانيا : نستطيع الجزم دون مواربة، أنّ التّقارب بين ابن عسكر والإيطاليّين، ما كـان له أن يتمّ على ذلك النّحو، لولا التّـأثير الكبـير الّذي مارسـه عليه سليـمان الباروني(41) إذ تحـوّل البـاروني منذ 1920(42)، إلى داعـية لـلتّقـارب الطرابلسيّ-الإيطاليّ، وأفلح في غضون وقت قصير، بفضل ما أوتي له من ألمعيّة، وقدرة على الاقناع، ودراية عميقة بدروب السّيـاسة، وتعاريج الديبلوماسيّة، من إحراز نجاح مـهمّ في هذا المضمار، من خلال اجـتذاب خليفة بن عسـكر إلى نهجه، وإقناعه بجـدواه من ناحية، وتمكّـنه من تحقيق المصـالحة بين هذا الأخيـر وعدوّه اللّدود يوسف خربيش، قـائمقام فسـاطو، الّذي عدّ من أبرز أعوان إيطاليـا بالجبل الغربي منذ عام 1916، من ناحية أخرى(43).

وستتوافر لنا الفرصة، كي نبيّن أنّ هذا التّحوّل الخطير في سياسة الرّجلين، قد أملته ظروف موضوعيّة، ليس أقلّها، تبدّل التّحالفات السّياسيّة بالجبل الغربي، الأمر الّذي سـيفجّر حـربا مدمّر في هذا الإقليم بين الجبـاليّة من ناحيـة، وزعماء التّحالف القبلي، ومن انضمّ إليهم من ناحية أخرى.

---

(41) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Série Tunisie 1917-1940,** op. cit., rapport juillet 1920, f. 209.

(42) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Série Tunisie 1917-1940,** op. cit., rapport juin 1920, voir aussi : P. Granchamp, **Chronique... op. cit.,** (1921), pp. XVII et XXII ; (1922), p. 160.

(43) تشـهد على تحسّن العـلاقة هذه الرّسـالة الّتي بعث بهـا خليفـة بن عـسكر إلى يوسف خربيش، والّتي يقول فيها :

«إلى أخينا يوسف خربيشة، السّلام عليكم.

وصلنا البـاروني بك، وأفهـمنا بالأحوال كلّهـا، وزال سوء الظنّ، الّذي كـان سبب أعمـال بعض المفسدين وصرت ممنونا بما أخـبرني به المذكور من اجتهادكم في مصلحتنا ومـصلحة العموم.

هذا هو المأمول منك، وإن شاء الله نجتمع في ساعة سعيدة.

6 شوال 1338، قائمقام نالوت، خليفة بن عسكر

2- تعثّر عمليّة التّقارب وجهود سليمان الباروني وسوف المحموديّ، من أجل تقريب الشقّة ورأب الصّدع :

لقد اتّضح لزعماء الجبل الغربي منذ جانفي 1920، أنّ الإيطاليّين صاروا يتحيّنون الفرص لنقض بنود القانون الأساسي، لا سيما «الامتيازات» الّتي خصّ بها أعضاء الجمهوريّة الطرابلسيّة كما سبقت الإشارة. وتيقّن هؤلاء أنّ الجانب الإيطاليّ أزمع أمره فعلا على إفساد الاتّفاقيّة وجعل بنودها لاغية لما شرعوا في معاينته من حركة وحدات من الجيش الإيطاليّ، وهي تستعدّ للتّمركز في أبرز نقاط الجبل.

كما انتبه هؤلاء إلى بعض الدّسائس الأخرى، والمتمثّلة في محاولة اجتذاب بعض الزّعامات المتنفّذة بالمنطقة إلى «صفّ الحكومة»، من أمثال علي بن تنتوش، متصرّف إقليم الجبل، والحاج محمد فكيني، زعيم الرجبان المعروف(44).

في ظلّ هذا المناخ المفعم بألاعيب السّياسة، والمنذر بتفجّر الوضع من جديد، برز خليفة بن عسكر كصوت رافض لكلّ تنازل من «الجانب الوطني»، ومعارض لكلّ تأويل لفصول الصّلح.

وقد وجد زعيم نالوت إذ ذاك، كلّ الدّعم، والمشورة من قبل رمضان السويحلي، زعيم مصراته «وأخطر رجل بإقليم طرابلس»، في نظر الإيطاليّين.

ولقد تسنّى للإيطاليّين الوقوف على مدى تصميم ابن عسكر، ورفضه تسرّب فرقهم العسكريّة إلى منطقة نفوذه خلال شتاء وربيع 1920، والأمثلة الآتية، توضّح ذلك بصفة ملموسة.

- عارض خليفة بن عسكر في 21 جانفي 1920 وصول فرقة عسكريّة إلى نالوت قوامها مائة رجل. وأرغمت هذه الفرقة، الّتي غادرت زوارة تحت إمرة ضابط برتبة نقيب، على البقاء في أبي الشول. واضطرت هذه الحال، العقيد

(44) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Série Tunisie 1917-1940, op. cit.**, rapprt janvier 1920, f. 181.

ميزيتي MEZZITTI، قائد إقليم زوارة إلى التّحوّل إلى نالوت في مناسبتين، في محاولة للتّوصّل إلى أرضيّة اتّفاق مع «رجلها القوي».

ولقد أمكن لهذا الضّابط أن يتأكّد بنفسه من أنّ الرّجل يرفض تمركز الجيوش الإيطاليّة بمنطقته، وهو مقرّر العزم «على التّصدّي بالقوّة لكلّ محاولة إرسال جيوش إلى نالوت...»(45).

– في مطلع فيفري 1920، أرغم ابن عسكر فرقة عسكريّة كانت وجهتها المنطقة الحدوديّة الغربيّة، على العودة على أعقابها. وكانت هذه الفرقة مكلّفة بالقبض على قائمقام سرت السّابق عبد اللّه بن يوسف وهو في طريق العودة من بنقردان. وقد منح خليفة بن عسكر الحماية لهذا الرّجل الّذي كان من أبرز أصدقاء رمضان السويحلي(46).

وفي نفس هذه الفترة تقريبا (6/5 فيفري)، تدخّل خليفة بن عسكر، بحزم، لدى حاكم زوارة كي يطلق سراح رجال من قبيلة الحرابة، تمّ إيقافهم بالقرب من أبي الشول. وقد استجاب الضّابط الإيطاليّ لطلب سيّد نالوت، خشية من ردّ فعله(47).

– خلال شهر مارس 1920، أحبط ابن عسكر محاولة إيطاليّة جديدة للتّسلّل إلى القسم الغربي لنفوسة.

وكان الإيطاليّون ادّعوا أنّهم هبّوا لنجدة سكّان سيناون، وغدامس، المهدّدين من قبل الشعابنة(48).

ولقد اضطرّ رفض خليفة بن عسكر الشّديد، وموقفه العنيد الايطاليّين «لتأجيل» (كذا) تمركزهم بفساطو (رأى فيها العسكريّون الإيطاليّون نقطة ارتكاز

---

(45) **Ibid.**

(46) **Ibid.**, rapport, février 1920, f. 185.

(47) **Ibid.**

(48) **Ibid.**, rapport, mars, 1920, f. 188.

مثاليّة تساعد على السّيطرة على الجبل الغربيّ)، بعد أن حشدوا رجالا، وكدّسوا آليات في كلّ من الوطيّة، وأبي الشول(49).

ويعلّق ضابط الشّؤون الأهليّة الفرنسيّ على صلابة المعارضة الّتي أبداها خليفة بن عسكر، ورمضان السويحلي تجاه الإيطاليّين قائلا:

«يتقاسم النّفوذ بالجبل الغربي الطرابلسيّ، كما في السّابق، كلّ من رمضان السويحلي، بالنّاحية الشّرقيّة، وخليفة بن عسكر بالنّاحية الغربيّة.

ويبقى هذان الرّجلان، من أشدّ المعارضين للتّسرّب الإيطاليّ. ولقد اضطرّ فشل محاولة التّسلّل الأخيرة (في إشارة إلى المحاولة الّتي باشرها الإيطاليّون في أوائل شهر مارس 1920)، حكومة طرابلس لانتظار فرصة جديدة لتحقيق مشاريعها ومتابعة خطتها السّياسيّة، بفضل مساعدة الزّعامات المحلّيّة السّائرة في ركابها.

ويبدو أنّ الحكومة نجحت في اجتذاب الشّيخ سوف المحموديّ إلى صفّها...»(50).

تلكم مجرّد أمثلة، لتوضيح مدى عنف المعارضة الّتي لقيها الإيطاليّون غربي نفوسة، من لدن خليفة بن عسكر. وستتواصل سيرورة تردّي العلاقة بين قائمقام نالوت والإيطاليّين لتبلغ ذروتها في نهاية مارس 1920، إثر طرد ابن عسكر الماجور الإيطاليّ، ضابط الاتّصال بنالوت، ومن معه من أعوان، وكانوا تسعة أنفار، واستيلائه على كلّ ما كان بحوزتهم من سلاح، ومعدّات، وأمتعة(51).

لم يرق هذا الموقف العدائي للإيطاليّين الّذين سارعوا بإيقاف مرتّب قائمقام نالوت، لأنّهم رأوا في طرد الضّابط الإيطالي ورجاله «تشويشا على معاهدة الصّلح...»(52).

---

(49) **Ibid.**

(50) **Ibid.**

(51) P. Granchamp, **Chronique... op. cit.**, (1921), p. XVII ; **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O.**, rapport, mars, 1920; voir aussi :
الطاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 286.

(52) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 151.

وكان لزاما على كلّ من سوف المحمودي، وخاصّة سليمان الباروني، التحرّك كي يضعا حدّا لتدهور العلاقة بين الطّرفين.

والحقيقة أنّ الرّجلين تحرّكا بإيعاز من الإيطاليّين(53) الّذين كانوا يرغبون في وساطة شخصيّات مؤثّرة، لعلّها تنجح في الحدّ من غلواء ابن عسكر، ليكفّ عن مناوأتهم.

والحقّ أن سوف المحمودي، وسليمان الباروني، لقيا صعوبات جمّة، في بداية الأمر، في إلانة عريكة خليفة بن عسكر، ومن ثمّ تغيير موقفه من الإيطاليّين «نظرا للصّلات المتينة التي كانت تربطه برمضان السويحلي، الّذي جسّد روح المعارضة للسّياسة الإيطاليّة...»(54).

لم ييأس الإيطاليّون بعد فشل تلك المحاولة، وكذا الباروني، الّذي استأنف مساعيه -دائما بإيعاز من الجانب الإيطالي- في جويلية 1920(55). ونجح الزّعيم «الاباضي» هذه المرّة، في كسب ثقة خليفة بن عسكر، وتمكّن من إقناعه بضرورة الإقلاع عن إثارة الإيطاليّين، وشاهدنا على صحّة هذا الرّأي تحوّل زعيم نالوت، رفقة الباروني إلى طرابلس في 20 جويلية قصد «توضيح بعض الأمور الهامّة...» مع المسؤولين الإيطاليّين.

وممّا هو حريّ بالتّسجيل في هذا الصّدد تلك الحفاوة اللافتة للانتباه الّتي شمل بها الإيطاليّون خليفة بن عسكر في أثناء إقامته بطرابلس(56).

أفلح سليمان الباروني إذن في تطويق هذا الخلاف و«إعادة الثّقة» إلى الطّرفين، وأسطع دليل على هذا التّوفيق إعادة الاعتبار للرّجل من خلال تعيينه بصفة متصرّف على منطقة الجبل الغربي، في أوت 1920(57).

(53) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O.**, rapport, avril 1920, f. 192.

(54) **Ibid.**, rapport, mai 1920, f. 206.

(55) الطاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 287.

(56) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, rapport, juillet 1920, f. 211.

انظر كذلك : الزاوي، **نفس المصدر**، ص 287.

(57) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, rapport, août 1920, f. 214.

إنّ من يحاول استبصار خلفيّات هذه الواقعة، وأطوارها، سيجد نفسه أمام طائفة من الاستفهامات، ذلك أنّ عديد الأشياء، ذات الصّلة بالأسلوب الّذي توخّاه الباروني، في «زعزعة قناعات بطلنا»، ما زال يلفّها الغموض.

وكيفما قلّبنا الأمر، فلا نجد ما يسوّغ هذا التّبدّل العميق والسّريع في موقف الرّجل، لا سيما وقد سبق له التّأكّد بنفسه من مراوغات الإيطاليّين، ورغبتهم السّافرة في نقض بنود اتّفاقيّة الصّلح.

***

لا مناص في ختام هذا العنصر الفرعي المتعلّق بلحظة التّقارب بين خليفة بن عسكر والإيطاليّين، من إيراد الملاحظات الوجيزة التّالية:

أوّلا: نستطيع الجزم أنّ ابن عسكر كان صارما في كلّ ما يخصّ تطبيق بنود الصّلح بما في ذلك الملاحق أو الشّروط الخاصّة.

وتجلّت تلك الصّرامة في إصراره على الالتزام بفصول الاتّفاقيّة وموادها، نصّا وروحا. وقد أمكننا أن نلاحظ أنّه سمح للإيطاليّين بفتح مكتب للشّؤون الأهليّة بنالوت، وفقا للشّروط الّتي احتفظ بها أعضاء الجمهوريّة خارج القانون الأساسيّ على نحو ما أسلفنا. وفي مقابل ذلك رفض دخول الجيش الإيطالي الجبل الغربي رفضا شديدا، وثبت على موقفه ذاك، استنادا إلى نفس الشّروط المذكورة (البند الثّالث).

ثانيا: برهن خليفة بن عسكر عن فطنة سياسيّة عندما شرع الإيطاليّون في التّذرّع بالمسألة الأمنيّة على الحدود الغربيّة لطرابلس (= الحدود التّونسيّة - الطرابلسيّة)، لتسويغ فكرة تمركز وحداتهم في غدامس وسيناون، إذ كان ردّ زعيم نالوت في منتهى الوضوح والإحراج بالنّسبة للإيطاليّين، ذلك أنه تطوّع لحماية القسم الطرابلسي للجفارة ضدّ اعتداءات التوازين والودارنة من خلال تجنيد ثلاثمائة رجل، وتسليحهم، شرط تكفّل ميزانيّة الحكومة الإيطاليّة بنفقات هذه الفرقة.

ولم ينتظر ابن عسكر الردّ الإيطاليّ على اقتراحه، بل عجّل بتوزيع رجاله على خمس نقاط حدوديّة هي: ذقزاو، السنيد، فم كباو، أم الفأر، ووازن(58) .

ونستطيع أن ننزّل في نفس هذا الإطار موقفه من «المنشقين الودارنة»، ذلك أنّه أعطى أوامره الصّارمة لهؤلاء كي يحجموا عن شنّ هجمات داخل التّراب التّونسيّ انطلاقا من المجالات الخاضعة لسلطانه(59) ، وإلاّ تعرّضوا للعقاب.

هكذا نتبيّن أنّ زعيم نالوت، نجح في سحب البساط من تحت أقدام الإيطاليّين ممّا يشي بنوع من الدهاء السّياسي، والرّوح البراغماتيّة التي لا مجال لنكرانها.

---

(58) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O.**, rapport, février 1920, f. 185.

(59) **Ibid**.

المبحث الثّاني

حرب خليفة بن عسكر ضدّ التّحالف القبليّ بالجبل الغربيّ (أوت 1920 - ديسمبر 1921)

لئن اتّفقت المصادر والمراجع، بمختلف منطلقاتها ودرجاتها، على وصف الأحداث الأليمة، الّتي كان الجبل الغربي الطرابلسي مسرحا لها ما بين ماي/جويلية 1920 وديسمبر 1921، بالحرب الأهليّة، فإنّ الاختلاف ما زال قائما إلى اليوم بشأن التّسمية الّتي ينبغي إطلاقها على أطراف النّزاع.

وجدير بالذّكر في هذا الخصوص، أنّ الأطراف الأساسيّة (= الفاعلة)، في الحركات الوطنيّة، ومعارك التّحرير، غالبا ما تتّفق على الخطوط الكبرى. ولكن يبدو أنّ المثل القائل بأن «الشّيطان يسكن في التّفاصيل»، صحيح تماما في حالتنا هذه.

لقد تبيّن لنا أنّ هذه المسألة في منتهى الحساسيّة، وغالبا ما تثوي وراء التّسميات/الأوصاف مواقف، رغم تحاشي أصحابها التّصريح بذلك.

وكائنة ما كانت خلفيّات هذه التّسميات والنّعوت، فإنّنا لا نعدو الحقيقة إذ نؤكّد أنّ هناك نوعا من الاتّفاق المضمر، لدى مثقّفي القطر اللّيبيّ وساسته، قوامه تحاشي الخوض في أسباب تلك الحرب، ومقدّماتها، وأطوارها، ونتائجها.

ولسنا نرى من الضّروري الاسهاب في الحديث عن مسوّغات هذا الازورار، وذلك لاعتبارات منهجيّة تستلزمها حدود الموضوع الّذي نبحث فيه، فقط سنقتصر على ذكر بعض النّماذج عن تلك المبرّرات.

يقول الطّاهر أحمد الزّاوي شيخ المؤرّخين اللّيبيّين، والشّخصيّة الوطنيّة المعروفة المشهود لها بالنّزاهة والحصافة(60) ضمن مدخله المخصّص للحديث عن

(60) كان الشّيخ الطّاهر أحمد الزّاوي من بين أعضاء «وفد الإصلاح» بين «العرب والبربر...» المنبثق عن المؤتمر التّحضيري (الّذي سبق مؤتمر غريان) الملتئم بالعزيزيّة في أكتوبر 1920. كما كان عضوا في وفد الإصلاح بين نفس الفرقاء عام 1922، انظر:
الطّاهر أحمد الزّاوي، **معجم البلدان**...، ص 109، **جهاد**...، ص 297.

الحرب المذكورة:

«وقد يقتضينا ذكر هذه الأسباب الملتوية، التّعرّض إلى أشياء لم يحن وقت التّعرّض إليها بعد. والاحتفاظ ببعض الحقائق إلى أجل قد تدعو إليه ظروف تحتم على الانسان مراعاة شعور مواطنيه وخواطرهم، لذلك رأيت أن أقتصر على ما لا بدّ منه، وأترك ما وراء ذلك إلى المستقبل...»(61) . كتب هذا الكلام في مطلع الأربعينات.

ولكن الرّغبة في تجنّب النّبش في بواعث تلك الحرب الأهليّة والحفر في مقدّماتها، استمرّ عند أبرز الكتاب فيما بعد، وفي ظلّ ظروف مغايرة تماما، ونرى ذلك بشكل جليّ لدى خليفة محمد التليسي، الّذي تهيّب (ربّما لنفس الأسباب) الخوض في المسألة، واكتفى بإيراد ملاحظات غلبت عليها نفحة وعْظيّةٌ، نحو: «إنّ الأمم المتخلّفة هي التي تطمس تاريخها الحديث، وراء حساسيّات مفتعلة، وتتجاهل تأثيره، وفعاليّته المستمرّة في تشكيل المواقف والأحداث المعاصرة...»(62) الخ...

ولقد بات من شبه المؤكّد أنّ اعتبارات سياسيّة، اضطرّت الباحثين لعدم التّعرّض لأسباب ذلك «النّزاع البغيض»، إذ تحوّل الموضوع -بالتّدريج- إلى ما يشبه المحرّمات.

يقول علي عبد اللّطيف حميدة: «اعتبرت الحكومة الوطنيّة بعد الاستقلال هذه الحرب مخجلة، ومحزنة، ولا داعي لنبش الماضي...»(63) .

وواضح هنا أنّ قضيّة البناء الوطنيّ بمعناه الشّامل (أو الوحدة الوطنيّة)، الّتي طرحت في فترة مّا كأولى الأولويّات، جعلت الحفر في دوافع تلك الحرب ضربا من «العمل التّخريبيّ» (ومن ثمّ عملا مضادا لعمليّة التّعبئة الشّاملة)، من

(61) الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 285.

(62) خليفة محمد التليسي، **بعد القرضابيّة**، ط2، تونس، الدار العربيّة للكتاب، 1978، ص 120.

(63) علي عبد اللّطيف حميدة، **نفس المرجع**، ص 187.

حيث أنّه يسعى -بوعي أو بغير وعي- إلى إذكاء الأحقاد، وتأجيج الضّغائن، وكلّ ما يذكّر بالفتنة ويحيل عليها.

وغنيّ عن الذّكر هنا أنّ أسلوب القفز على مجابهة «فلذات» من التّاريخ المعاصر، ليس خصيصة ليبيّة، إذ نلمس نفس روح التّهيّب، وذات السّلوك تقريبا، لدى باحثين عرب آخرين، كانوا عرضة لنفس العراقيل عندما حاولوا التّعاطي مع مسائل، وأحداث، أو شخصيّات، لم تتحول بعد إلى جزء من الماضي. أي أنّها ما زالت متّصلة بالحاضر الّذي يعيشون فيه، وما زال بعض الّذين سطّروا وقائعها على قيد الحياة. وهنا نجد أنفسنا إزاء السّؤال التّالي : هل سيظلّ الباحث في البلاد العربيّة، مُشيحا بوجهه عن حوادث بعض الحقب المعاصرة إلى ما لا نهاية ؟

1- من حارب من ؟

تنوّعت التّسميات / الأوصاف إذن للإشارة إلى حوادث الجبل في مطلع العشرينات : فالحرب الّتي نشبت هي مواجهة بين العرب الارثودوكس (= المالكيين) والبربر الاباضيين، بالنّسبة للبعض(64) . وهي صراع بين الزّنتان والبربر بالنّسبة للبعض الآخر(65) .

---

(64) P. Grandchamp, **Chronique... op. cit. (1921), p. 16 ; I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O.**, rapport mensuels des années 1920-1921-1922.

(65) الطّاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 285. ومن الطّريف هنا أنّ الزّاوي (وهو من المصادر الهامّة والمشهود بقيمتها) أشار خلال بحثه عن الأسباب الأولى للنّزاعات، أو بداياته إلى أنّ التّضاد كان قائما بين البربر والرجبان، لا البربر والزنتان. بل إنّ هؤلاء الأخيرين حاولوا إصلاح ذات البين، بين الفريقين من خلال إرسال وفد صلح إلى ابن عسكر. وأكّد الكاتب، بأسلوب لا يقبل المماحكة، أنّه لو كُتب لوساطة الزّنتان، التّوفيق، لوقفت الأمور عند ذلك الحدّ، ولما عرف الجبل الغربي حربا أهليّة. ولكن رفض ابن عسكر الوساطة، جعل الزّنتان ينضمّون للرّجبان، ويعلنون الحرب على البربر (نفس المصدر، ص 288).

ومما هو خليق بالتّسجيل أيضا أنّ الكاتب أطلق على المواجهة الّتي شبّت في الجبل الغربي بين نفس الأطراف تقريبا اسم : «حرب الأباضيّة والزّنتان الأولى» (نفس المصدر، ص 203-204)، وهي تسمية غير دقيقة بالمرّة. وحَسْبك هنا أنّ من بين أعداء الإباضيّة كما يسمّيهم (أي حلفاء الزّنتان) جماعات هامّة من نالوت بقيادة خليفة بن عسكر (انظر ادناه). ==

بل إنّنا نجد من آثر السّهولة من حيث اكتفاؤه بالقول أنّ الحرب المذكورة جمعت البربر بالعرب(66) ، هكذا بكلّ فجاجة.

والغريب أن تصدر مثل هذه التّسميات -أحيانا- عن كتاب ليبيين(67) ، دأبوا على استهجان «النّعوت الاستعماريّة»، غير النّقيّة من الغرض والتّعصّب، تلك الّتي تسعى إلى دقّ اسفين الشّقاق بين أبناء الأمّة الواحدة(68) .

إنّنا نعتقد أنّ التّسميات المذكورة مفتقرة إلى الدقّة، رغم صدورها عن مؤرّخين وكتّاب توافروا على معرفة عميقة بالشّأن الطرابلسيّ، خلال الفترة موضوع الدّراسة.

وما أظنّنا بحاجة إلى التّأكيد أنّ نقص الدقّة، ليس معناه أن تفاسير هؤلاء باطلة برمّتها، وأنّ ما اقترحوه من تعديلات لم ينطو على قدر من الوجاهة، إن قليلا أو كثيرا.

وهنا يعنّ السّؤال : وماذا يقترح كاتب هذه السّطور، بدلا عن هذه التّسميات؟

إنّ متابعتنا لأحداث هذه الحقبة، بقدر ما جعلتنا نقتنع بضرورة مزيد تدبّر الأوصاف المذكورة، هدتنا، في نفس الوقت (انطلاقا من هاجس / همّ المساءلة) إلى تبنّي التّسمية التّالية : الحرب بين الجبالية والتّحالف القبلي.

== وبناء على هذه التّوضيحات، نرى من حقّنا التّشكيك في هذه التّسمية من خلال الإشارة إلى ظلال اللّبس الملازمة لها.

(66) Général Rodolfo GRAZIANI, **La r conquista del Fezzan**, A. Mondadori, Milano, 1934, p. 271, voir aussi : A. Martel, La Libye... op. cit., p. 106.

(67) عبد الحميد محمود الطرابلسي، **نبذة من أعمال إيطاليا في طرابلس الغرب** [د.ت.]، [د. مكان النّشر]، ص 24.

(68) **نفس المرجع**، والصّفحة.

ولنا أن نشير أخيرا إلى أنّ محمّد المرزوقي ذهب، خلال حديثه عن طبيعة هذه الحرب، إلى اعتبارها «حربا طائفيّة...» انظر : محمد المرزوقي، **عبد النّبيّ بالخير، داهية السياسة وفارس الجهاد**، تونس، الدار العربية للكتاب 1978، ص 101.

ليس من باب الادّعاء القول هنا أنّ النّعت الّذي ذكرنا هو الأنسب، أي الأكثر صدقا وملاءمة. ونستطيع إيجاز مسوغات هذا الاختيار، في النّقاط التّالية :

أوّلا : لم تجمع الحرب فقط بين الزّنتان والبربر بل بين الرجبان والزّنتان (الّذين انضمّوا إليهم، كما انحازت إلى صفّهم عشائر أخرى «عربيّة» أمثال المحاميد، والأصابعة، والحرابة...) ومن يسميهم الزّاوي بالبربر.

ثانيا : ليس من صائب الإدراك اختزال المواجهة في نزاع عرقي ديني من خلال وسمه بالحرب بين العرب المالكيين، والبربر الأباضيين، بدليل أنّ المعسكر المناوئ لمن يسميهم غرانشان GRANCHAMP بالعرب الأرثودوكس قد ضمّ «عربا مالكيّين...»(69) ، نحو أولاد بُوسيف، والمشاشية، وقسم من الريباينة(70).

كما لا ينبغي إغفال أمر مهمّ آخر -يقع تجاهله في الأعمّ الأغلب- ومؤداه أن الحرب الّتي اندلعت عام 1920، قد سبقتها حرب أخرى عام 1916، في نفس المجال الجغرافي، وبين نفس الأطراف تقريبا(71) .

إلاّ أنّ الأمر الّذي يؤكّد ما ألمحنا إليه أعلاه هو تحالف خليفة بن عسكر (ومن ورائه نالوت) مع أحمد السنّي، وعلي الشّنطة (من الزّنتان). ومحمد فكيني (زعيم الرّجبان)، في محاربة بربر فَساطُو، ويفرن، خلال صيف وخريف 1916،

---

(69) P. Granchamp, **op. cit.**, (année 1921), p. 23.

ويؤكّد ذلك أيضا "رد بالك" Rodd BALEK (منشيكور) بقوله : «إنّ خليفة بن عسكر بالرّغم من كونه بربريا إباضيّا، إلاّ أنّه كان إلى جانبه البربر، والعرب السنيّون...» انظر :

Rodd BALEK, **La Tunisie après la guerre 1919-1921**, Paris, 1922, p. 311.

(70) علي عبد اللّطيف حميدة، **نفس المرجع**، ص 179. ويذكر هنا أنّ انشقاقا خطيرا حصل في صفّ الريباينة عند احتدام الحرب في الجبل، راجع بهذا الخصوص، الطّاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 297. وما يليها.

(71) يرى الطّاهر أحمد الزّاوي أنّ هذه الحرب كانت سببا في الحرب الّتي نشبت عام 1920، انظر : **نفس المصدر**، ص 204 و285.

وهزمهم، وإرغامهم على مغادرة لجبل واللّجوء إلى جهة زوارة(72).

ويتّضح من خلال هذا المثال، أنّ ما جمع هذه الزّعامات آنذاك (رغم اختلاف انتماءاتهم، وأصولهم كما هو واضح) هو معاداة من سمّوهم بالمطلينين (أو حلفاء إيطاليا)، من أمثال ساسي خزام، وسلطان بن شعبان، ويوسف خربيش(73).

ونجد أنفسنا مضطرّين إلى الاكتفاء بهذا القدر من التّوضيح، لأنّ الإشارة الأخيرة تفتح على استفهامات بخصوص مسألة التّعاون والتّواطؤ، ليس هنا مجالها. وأقصى ما يمكن ذكره هو أن تهم الطّلينة والتّعاون كانت تخفي تضاربا في المصالح على درجة كبيرة من التّعقيد.

ثالثا : ومن ثمّ، وتأسيسا على ما تقدّم، فإنّ الدقّة تقتضي منّا الاستعاضة عن التّسميات المذكورة بالوصف الّذي أشرنا إليه أعلاه أي : الحرب بين الجباليّة والتّحالف القبلي بالجبل الغربي. نقول الجباليّة لا نفوسة لأنّ اللّفظة الأخيرة لها معان حافّة تحيل على المذهب الإباضي(74). أمّا لفظة الجباليّة، فإنّها تشير إلى طراز عيش، كما أومأنا في الباب الأوّل. وتتّسع هذه اللّفظة لتشمل «البربر» كما «العرب»، من سكّان الجبل الغربي.

وبخصوص تسمية التّحالف القبلي، نكتفي هنا بالتّلميح إلى أنّ تحالفا مصلحيّا نشأ بين عدّة زعامات بدويّة شهيرة عام 1919 حتّم عليها التّصدّي لكلّ محاولة ترمي إلى العودة بالأوضاع في الجبل العربي لما قبل 1916، نظرا لما في ذلك المسعى (الّذي سانده الإيطاليّون وفقا لاستراتيجيّة هدفت إلى إضعاف المقاومة لا حبّا في الجبالية...)، من خطر على امتيازاتهم الجديدة، الّتي باتوا يستمدّون منها جانبا من وجاهتهم الاجتماعيّة كما سنوضّح فيما يلي من الفصول.

(72) للاستزادة بهذا الخصوص يمكن الرّجوع إلى :

I.S.H.M.N., A.N.O.M. (Aix-en-Provence), Série H, Sous-Série 2 H, Tunisie, voir les rapports mensuels : juillet, août, septembre, octobre, novembre 1916.

(73) **Ibid.**, voir rapports septembre et octobre 1916.

(74) Jean DESPOIS, **Le Djebel NEFOUSA... op. cit.**, p. 150.

2- أسباب الحرب :

بادئ ذي بدء نشير إلى أنّ هذه الأسباب في منتهى التّعقيد والتّشابك، وهي تؤلّف كُلاّ متلاحما، وعليه فإنّ تقسيمنا لهـا إلى أسباب عميقة وأخرى مباشرة هو من قبيل العمل الإجرائيّ لا غير.

وحريّ بالتّسجيل هنا، أنّ متابعـتنا لهذه الأسباب لن تكون مجهريّة، أي أنّنا سنُعنى في هذه الملاحقة السّريعة بما يسـاعد على إضاءة بعض الجوانب من سيرة خليفة بن عسكر في دورها الأخير.

أ- الأسباب البعيدة :

نستطيع إيجاز هذه الأسباب فيما يلي :

أوّلا : استمـرار التّحالفات القـديمة، أو النّزاعات المسمّـاة بالصفوفيّـة، حيّة قويّة في مـنطقة الجبل الـغربي(75) . ومـعلوم أنّ الحضـور الضّـعيف للسّلطة العثـمانيّـة بالإقليم، قد سـاهم في اشتداد عـود التّحـالفات المذكـورة بغرض درء الأخطار الخارجيّة، وإحباط دسائس القوى المناوئة(76) .

وجـدير بالتّذكـير أنّه توزّع سكّـان الجبل الغـربي (على أعتـاب الاحتـلال الإيطالي)، صـفّان : ضمّ الأوّل القـبـائل الإباضيّـة، وقـبائل المشـاشيـة، وأولاد بوسيف، والنوايل، وقطاع عـريض من الرياينة، وتألّف الثّاني من قبـائل الزّنتان، والرّجبان، والمحاميد والحرابة...

ويعود سبب انضمام المشـاشية وأولاد بوسيف (وهم من العرب المالكيين)، إلى الجباليّـة (البربر الإباضيّين)، إلى سيـاسة السّلطة العثمانيّـة بطرابلس الغرب خلال الحقـبة 1870-1910 القائمة آنئذ على مـساعدة الزّنتان ضـدّ القبيلتين

---

(75) علي عبد اللّطيف حميدة، **نفس المرجع**، ص 177-178، انظر كذلك :
MARTEL, **op. cit.**, p. 90:

(76) **نفس المرجع**، ص 77-78.

المذكورتين، ومن ثمّ فقد نظروا إليها (أي السّلطة أو المخزن) باعتبارها عدوّا(77).

وخلال زمن الاحتلال الأول (1911-1913) تراخى التضادّ الصفيّ بعض الشّيء، قبل أن يعود الاصطراع على أشدّه بعد هزيمة الإيطاليّين عام 1914، وجلائهم عن كلّ البقاع الّتي كانوا يحتلّونها بالجبل كما تقدّم بنا.

وقصارى القول، أنّ النّزاع بدا -في جانب هام منه- قبليّا صفيّا عام 1920(78).

ثانيا: تداعيات الحرب الأهليّة الأولى التي نشبت عام 1916. ومن بين ما ترتّب عليها من نتائج خطيرة، جلاء قسم هام من الجباليّة عن مجالاتهم التّقليديّة في جبل نفوسة، واستقرارهم في ظروف صعبة، بجهة زوارة.

وظلّ أمل العودة إلى مجالاتهم الأصليّة ("أوطانهم")، يراودهم. وفي عام 1919، (أي بعد إبرام الصّلح مع الإيطاليّين) بدا وكأنّ الظّروف غدت مناسبة لتحقيق تلك الغاية الأمر الّذي سيثير قادة الرّجبان والزّنتان.

ثالثا: استحكام التّنافس وتأجّجه بين مختلف الزّعامات القبليّة بالجبل (وبطرابلس بعامّة) بعد عام 1919(79)، وهو ما يسمّيه غرانشان بالتّطاحن بين «الأسياد الاقطاعيّين» بالإقليم(80)، إذ كان الصّراع القبلي، والتّضادّ الصفيّ، لا يخمد إلاّ ليعود للاضطرام من جديد، بفعل المستجدّات السّياسيّة، والأزمات الاقتصاديّة(81).

---

(77) هذا ما يفسّر إلى حد بعيد تقاعس شيوخ المشاشية، وأولاد بوسيف، في الالتحاق بحركة المقاومة خلال الحقبة 1911-1912، لا لشيء إلاّ لكون الزّنتان، ومن كان في صفّهم، قد نهضوا لقيادتها...

انظر: علي عبد اللّطيف حميدة، **نفس المرجع**، ص 157-158.

(78) راجع تعقيب هيئة تحرير **مجلّة: الشّهيد** على دراسة ليزا اندرسن المعنونة: «جمهوريّة طرابلس (1918-1922)، العدد 11، 1990، ص 215.

(79) A. MARTEL, **La Libye... op. cit.** p. 105.

(80) P. GRANCHAMP, **Chronique... op. cit.**, (1921), p. XX.

(81) فتحي ليسير، **نفس المرجع**، ص 24.

وتتّفق المصادر على أنّ صـراع الوجاهات، كان بسبب المناصب السّياسيّة، زمن «الجمهوريّة الطرابلسيّة» وكـذا الإعانات التّركيّة والألمانـيّة (قبل 1918)، وخاصّة الإيطاليّة، الّتي قدمت لأغلبهم(82) .

وتفيدنا الباحـثة ليزَا أندرسن Lisa Anderson، في دراستهـا المتأنيّة، حـول الجمـهوريّة الطـرابلسيّـة أن «نُدرة مصـادر الدّخل، وأطمـاع الأعيـان، في المناصب الإداريّة، ومـا كان يرافقـها من صلاحـيّات لفـرض الضّرائب... أدّت هذه العوامل إلى تفاقم الخصومات الدّاخليّة، بين الزّعامات الجمهوريّة...».

وتضيف في مـوضـع آخر : «كذلك أضـعفت ندرة المصادر وحدة الزّعـامات الجمهوريّة في الجبل...»(83) .

وبالتّدريـج أصبح «هؤلاء الأسيـاد الإقطاعيّـون» (بالجبل أمـثال سليـمان الباروني، وبالجفارة أمثال سوف المحمـوديّ، هذا فضلا عن بقيّة الزّعماء الآخرين نحو رمـضـان السويحـلي في مصراتة، وأحـمد المريّض في ترهونة، وعـبد النّبيّ بالخير في ورفلة...) حكامـا لدُويْلات مستقلّة(84) ، وتحوّل كلّ واحـد منهم، في المجال الرّاجع إليه، إلى سلطة «ترفع وتضـع»(85) .

ومن الأمثلة الهامّـة الّتي توضـح مدى قوّة الرّغبة فـي الهيمنة، وبسط دائرة النّفوذ على حساب الآخر بالجبل والجفـارة، ما أتاه الشّيخ سوف المحمودي، شيخ المحاميد (المدعوم من العثمانيّين) إثـر عودته من تركيا عام 1915، إذ قام بتعيين أقاربه وحلفائه في مناصب إداريّة، على حساب أعيان وشيوخ آخرين، في زوارة، وعلى رأس قبيلة النوايل، الأمر الّذي اضطرّ سلطان بن شعبان، وحرب النائلي، إلى الانضمام للإيطاليّين، وهو ما سبق أن توقّفنا عنده أعلاه.

---

(82) علي عبد اللّطيف حميدة، **نفس المرجع**، ص 178.

(83) ليزا أندرسن، **نفس المرجع**، ص 202-203.

(84) Rodd Balek, **op. cit.**, p. 114 ; P. Granchamp, **op. cit.**, (1921), **op. cit.**, p. XX.

(85) فتحي ليسير، **نفس المرجع**، ص 30

أمّا سليمان الباروني، فقد قام من ناحيته بعزل الموظّفين الّذين عيّنتهم «الجمهوريّة»، وعيّن مكانهم مأمورين آخرين من أتباعه(86).

ويذكر في هذا الصّدد أنّ الباروني كان يرغب منذ 1913 في إنشاء «إمارة بربريّة»، بالجبل، تكون مستقلّة عن بقيّة القبائل العربيّة(87).

ولقد تواقت ذلك الصّراع السّياسي بين الوجاهات الطرابلسيّة مع النّهج الّذي دشّنه الإيطاليّون في مطلع 1916، والّذي سيعرف لاحقا بـ«سياسة الزّعماء» Politica de Capi، وهي السّياسة الّتي حاول الإيطاليّون، من خلالها، وبواسطتها، الإشراف على مقدّرات البلاد، بالتّعاون مع عدد من القادة المحلّيّين. وبناء على ذلك أجزلوا العطاء لبعض الوجاهات المعروفة(88)، الأمر الّذي أدّى إلى تركّز ثروات هامّة -بمرور الزّمن- في أيدي بعض الزّعامات المشهورة...

رابعا: تصاعد التّوتّر بالجبل الغربي في مطلع شتاء 1919 إثر عودة الجباليّة (ما بين نوفمبر وديسمبر) الّذين وقع طردهم من مجالاتهم عام 1916، إلى مواطنهم الأصليّة. وقد نظر لرّجبان والزّنتان بعين الرّيبة، لهذا الرّجوع المدعوم من لدن الإيطاليّين، ناهيك أنّ هؤلاء الأخيرين قاموا بتسليح الجباليّة على نحو جيّد(89).

هكذا أصبح كلّ من الحاج محمد فكيني شيخ الرّجبان، وعلي الشّنطة زعيم الزّنتان يتوقّع ردود أفعال انتقاميّة من قبل الجباليّة، وباختصار عودة الاقتتال.

وممّا زاد الوضع تعقيدا تدخّل محمد فكيني العضو في حكومة الجمهوريّة الطرابلسيّة، كي يقع فصل المراكز الجبليّة بعضها عن بعض.

---

(86) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 153.

(87) P. Granchamp, "Sliman El Barouni", in **Chronique... op. cit.** (1922), pp. 156-160.

(88) ليزا أندرسن، **نفس المرجع**، ص 190-191.

(89) علي عبد اللّطيف حميدة، **نفس المرجع**، ص 178.

ولقد أثار استغلال شيخ الرّجبان عضويته في هيئة مجلس الأربعة لفرض هذا «الإصلاح» كلّ الجباليّة ومن بينهم خليفة بن عسكر، إذ اعتبرت وجاهات «البربر» هذا القرار تدخّلا سافرا في شؤونهم الخاصّة(90).

وغني عن الذّكر أنّ الإيطاليّين استغلّوا تلك الحالة «لتأجيج نار الفتنة» والنّفخ فيها. يقول الشّيخ الطّاهر أحمد الزّاوي في هذا الخصوص: «ولعبت أصابع الطّليان في توسيع الخرق، وتمكّنت أيدي الفتنة من الدّخول فيه وتهيّأت النّفوس للشّرّ...»(91).

ب- الأسباب المباشرة :

شكّل تعيين خليفة بن عسكر متصرّفا على منطقة الجبل الغربي في أوت 1920(92)، ما يشبه الشّرارة الّتي أشعلت فتيل حرب أهليّة ضارية بين زعامات جبل نفوسة البارزة، ومن انضمّ إليها، ذلك أنّ قادة جلّ القبائل العربيّة، وفي مقدّمتها الرّجبان والزّنتان، رفضوا تعيين زعيم «جبالي إباضي»، على رأس المتصرفية(93).

إنّ محاولة استبصار أبعاد هذه التّسمية ستجعلنا نتأكّد أنّ دائرة نفوذ ابن عسكر الإداري تخطّت نالوت لتشمل كباو، والحرابة (جبل نفوسة الغربي)، والرحيبات، وجادو، والرّجبان، والزّنتان، والرياينة، ويفرن، وككله (جبل نفوسة الشّرقي)(94).

(90) الطّاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 287.

(91) **نفس المصدر** والصّفحة.

(92) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Série Tunisie 1917-1940**, op. cit., rapport, août 1920, voir aussi : P. Granchamp, "Khalifa Ben Asker", Chronique, op. cit., (1922), p. 152.

(93) **Ibid.**

(94) **Ibid.**

وتأسيسا على هذا نفهم لماذا عارض بعض زعماء القبائل هذا التّعيين معارضة شديدة، وعدّوا ذلك إهانة لهم، واستخفافا بمراكزهم الاجتماعيّة. ومن بين هؤلاء المعارضين نذكر : الحاج محمد فكيني، وعلي الشنطة، وعلي بن تنتوش، والعزابي بن ابراهيم، وأحمد العسّيد.

عاد خليفة بن عسكر إذن إلى معقله نالوت بعد مصالحته مع الإيطاليّين، وظفره بالتّرقية المذكورة، ليدخل في مواجهة مع قائمقام البلدة ابراهيم بولحباس الرحيبيّ.

ويجمل بنا أن نشير هنا إلى أنّ هذا الأخير عيّن على رأس قائمقاميّة نالوت بفضل تدخّل صديقه محمد فكيني لصالحه لدى «الحكومة»، وذلك إثر تدهور العلاقة بين ابن عسكر والإيطاليّين عام 1920(95) .

لقد ساء الوضع الأمنيّ في نالوت، إثر استيلاء أبي الأحباس، على أغنام فلاح جبالي، الأمر الّذي جعل أقارب هذا الأخير يردّون الفعل بتحريض من سليمان الباروني، وفق رواية محمد سعيد القشاط، ويستولون فضلا عن ذلك على قطيع ابراهيم بولحباس.

واضطرّ تطور الوضع هذا قائمقام نالوت، إلى التماس نجدة صديقه، وولي نعمته محمد فكيني، الّذي وجد الفرصة مناسبة للانتقام من غريمه خليفة بن عسكر، أي محاولة «التّخلّص من خصمه الوحيد الّذي ينازعه السّلطة المطلقة على الجبل...»(96) .

---

(95) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 151.

(96) **نفس المرجع**، ص 155.

3- أطوار الحرب الأهليّة :

أ- نشوب الحرب والبداية الموفّقة لخليفة بن عسكر (أوت 1920 - جوان 1921)

انطلقت المناوشات بين الفرقاء في صيف 1920 إثر إعلان العزابي بن إبراهيم قائمقام بلدة الجوش الحرب على خليفة بن عسكر، بعيد سماعه بقرار تعيينه متصرّفا على الجبل مؤكّدا بذلك رفضه لهذه التّسمية(97).

وفي نفس الوقت هرع حسن فكيني نجل الحاج محمد فكيني إلى الحرابة، انتصارا لابراهيم بولحباس واشتبك رجاله مع رجال خليفة بن عسكر في ما اتّفق على نعته بالبداية الفعليّة للحرب الأهليّة الثّانية بالجبل الغربي(98).

احتدم القتال بين الغرماء في نهاية أوت 1920، ولاقى خليفة بن عسكر في بداية حربه مع العزابي بعض الصّعوبة، إذ فقد البعض من رجاله في 29 أوت كان من بينهم أحمد بن عسكر، ابن أخيه عمرو.

وسرعان ما مسك بزمام الأمور، بعد وصول المدد من نالوت، وتعضّد حركته، واستطاع في 10 سبتمبر احتلال فساطو، حيث أسّر خصمه إبراهيم بولحباس، الّذي مات متأثّرا بجراحه(99).

كما أفلح خليفة بن عسكر في صدّ هجوم حسن فكيني، الّذي ارتدّ مخلّفا بعض رجاله أسرى عند زعيم نالوت(100).

وممّا هو حريّ بالتّسجيل هنا، عدم انخراط الزّنتان في النّزاع ساعة

---

(97) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Série Tunisie 1917-1940**, op. cit..., rapport, septembre 1920, f. 221.

(98) الطّاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 287-288.

(99) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Série Tunisie 1917-1940**, op. cit... rapport, septembre, 1920, f. 221.

(100) الطّاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 288.

اندلاعه، بل إنّهم نهضوا للعب دور الوساطة، من خلال إرسال وفد لسيّد نالوت، كان من بين أعضائه شايب عينه البوسيفي، وعُمَر المحروق الزّنتاني، ومسعود العايب.

ولقد جهد أعضاء الوفد في إقناع ابن عسكر بإطلاق سراح الأسرى الرّجبان، ولكن الرّجل، ردّهم خائبين، مُبديا بذلك رفضه عروض الصّلح.

ويعتقد الشّيخ الطّاهر الزّاوي أن خليفة بن عسكر، قد ارتكب خطأ برفضه تلك الوساطة «لأنّه كان في إمكان الزّنتان أن يؤثروا على الرّجبان في وقف الحرب..»(101)، أضف إلى ذلك أنّ «سلبيّة» ابن عسكر قد استعدت عليه الزّنتان الّذين خرجوا عن حيادهم «الظّرفي»، وأعلنوا عن التحاقهم بالرّجبان في حربهم ضدّ القائد الجبالي.

وهكذا راح كلّ فريق يحشد كلّ إمكاناته، ويستنفر كلّ قواه لملاحقة عدوّه. واستؤنف الاقتتال بدرجة من العنف والهوج قلّ نظيرها. وتمكّن خليفة بن عسكر في 23 سبتمبر 1920 من إلحاق هزيمة منكرة بخصومه، احتلّ على إثرها بلدة تارديّة عاصمة الرّجبان، وقام بحرقها. ولقي العشرات مصرعهم خلال هذه المواجهة العنيفة، وكان من بين الضّحايا، حسن فكيني ومسعود فكيني (شقيق محمد فكيني)، قائمقام غدامس(102).

انجلت المعركة إذن عن هزيمة «التّحالف القبلي العربي» واضطرّ الرّجبان والزّنتان إلى الالتحاق بالموضع المعروف بـ«رأس الحصان». أمّا ابن عسكر، فقد فضّل التّحصّن ببلدة فساطو. وممّا هو حريّ بالإشارة في هذا المقام، وقوف يوسف خربيشة، قائمقام فساطو، الحائز على ثقة الإيطاليّين آنئذ، إلى جانب خليفة بن عسكر خلال تلك المواجهة(103).

(101) نفس المصدر والصّفحة. أمّا محمد المرزوقي، فإنّه حمل خليفة بن عسكر –وإن بطريقة غير مباشرة– مسؤوليّة الحرب، انظر: محمد المرزوقي، **عبد النّبي بالخير**...، ص 101.

(102) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, rapport, septembre 1920, f. 218.

(103) P. Granchamp, **Chronique... op. cit.**, (1922), p. 153.

وأمام استحكام العداوة بين الفـريقين، وهو ما بات ينذر باتّساع الحرب إلى بقاع أخـرى، ومن ثمّ خطر اشتعال كـامل منطقة الجبل، تحرّكت بعض الـزّعامات الوطنيّة(104) ، في أكتـوبر 1920 ، وعقدت مؤتمرا في العـزيزيّة، كان من بين قراراته المهـمّة، انتخـاب وفد دعي «وفد الإصـلاح»، تمثّلت مأموريّتـه في السّعي لوقف التّناحر، وحقن الدّماء بين الجباليّـة والتّحالف القبليّ. وتركّب الوفد المذكور، من الطّاهر أحـمد الـزّاوي، وعبـد الله أفندي الشّـريف، ومحـمـد بن حمـد، وعلي المشلوخ، ومحمّد بن خليفة ومحمّد بوزويدة(105) .

بادر أعضـاء الوفد بالاتّصـال بالجباليّـة، الّذين خَلا لهم الميـدان بعد وقـعة تارديّة. وكانوا قبل ذلك، أي في نهاية شهر أكتوبر، قد اجتمعوا، على طريق تاغمة، بالشّيخ سوف المحمودي، لمزيد المناصحة والمشورة.

وفي بلدة فساطو، حيث هـيئة أركان الجباليّة، كـان لرجال الوفد لقاءات مع عـمرو بن عـسكر رئيس جيش البـربر (وفق عـبارة الزّاوي)، ويوسف خـربيش، والشّيخ سليمان بن سعيد، وبعض الوجاهات البربريّة الأخرى(106) .

وقد تسنّـى لأعضاء هذا الوفـد أن يتأكّـدوا بأنفسهم، أنّ الخـرق اتّسع على الرّاقع، وأنّ شعار كلّ معسكر غدا : النّصر التّام أو الموت الزّؤام.

والحقّ أنّ دعاة الصّلح كانوا علـى قناعة، منذ البداية، أنّ مهمّـتهم، كانت في منتهى الصّعوبة. وممّا زاد الأمر تعقيدا، وحكم بالتّالي على مسعاهم بالفشل، عدم تمكّنهم من الاجـتمـاع بالرّجبـان والزّنتان الّذين عـسكروا جنوب الجبل الغـربي، بغرض لملمة صفّهم، وجمع شعثهم، تمهيدا لعمل انتقامي من الجباليّة(107) .

---

(104) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Série Tunisie 1917-1940**, op. cit., rapport octobre 1920, f. 223.

(105) الطّاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 296-297.

(106) **نفس المصدر**، ص 297.

(107) **نفس المصدر**، ص 298.

فشل الوفد إذن، لكن دعاة الصّلح من الزّعامات الوطنيّة، لم يفقدوا الأمل نهائيّا، وأوكلوا لمؤتمر غريان، الّذي انطلقت فعاليّاته، في نفس الفترة (نوفمبر 1920)، مهمّة مواصلة الجهود الرّامية إلى إصلاح ذات البين بين أطراف النّزاع.

وتتّفق المصادر(108) على القول أنّ الزّعيم الجبالي المشهور سليمان الباروني، رفض حضور مؤتمر غريان، مثلما امتنع قبل ذلك عن حضور مؤتمر العزيزية التّحضيري. ويبدو أنّ الباروني كان متأثّرا بالحرب الأهليّة الّتي دارت بالجبل. ولم تنجح النّداءات الصّادرة عن أحمد المريّض، رئيس المؤتمر، ورئيس هيئة الإصلاح المركزيّة المنبثقة عنه (وهي كناية عن حكومة وطنيّة) في زحزحة الزّعيم الإباضي عن موقفه.

وذهبت الزّعامات في تفسير مقاطعة الباروني للمؤتمر، ورفضه الدّخول في هيئة الحكومة الوطنيّة، مذاهب شتّى : فقد أوّل قسم من الجباليّة هذا الرّفض على أنّه تعبير عن عدم رضا صاحبه عن تركيبة الحكومة المذكورة وأهدافها...

أمّا الزّعامات البدويّة المناوئة للجبالية، نحو محمد فكيني، وعلي الشّنطة، وفقد رأت في ذلك الرّفض محاولة «لمعاكسة العرب...» (كذا)(109).

على أنّه من الحقّ القول هنا أنّ مواقف سليمان الباروني كانت موصومة بالازدواجيّة، بل الاضطراب لدظتئذ : فموازاة مع مساعيه المعلنة الرّامية إلى نزع فتيل الحرب(110)، كان يدفع الجباليّة البربر على تجاوز «خصوماتهم

(108) **نفس المصدر**، ص 300. انظر كذلك :

P. Granchamp, **Chronique... op. cit.**, 1ere année (1921) pp. XXI, XXII ; voir aussi : **M.A.E., Q.O., Série Tunisie 1917-1940**, op. cit., rapport décembre 1920, f. 231.

(109) الطّاهر الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 268.

(110) تنبغي الإشارة هنا إلى أنّ تقارير ضبّاط الشّؤون الأهليّة الفرنسيّين الّتي تهجّمت كثيرا على سليمان الباروني، قد أقرّت بجهوده الرّامية إلى إحلال الوفاق بين زعماء الجبل كما أشارت إلى الدّور الهام الّذي لعبه في نجاح انعقاد مؤتمر غريان الثّاني في أفريل 1920، انظر على سبيل المثال :
==

الهامشيّة»، داعيا أبرز قادتهم أمثال خليفة بن عسكر ويوسف خربيشة، والشّيخ الشين مدير الرجيبات، إلى استنفار كلّ القوى وحشد كلّ الإمكانات، والاستعداد لقتال طويل...(111).

إنّنا لا نعدو الحقيقة، إذا قلنا أنّ مسؤوليّة تردّي الوضع الأمني بالجبل الغربي الطرابلسي، لا يمكن أن تلقى بالكامل على كاهل الباروني، ذلك أنّ قادة التّحالف القبلي وعلى رأسهم فكيني، والشّنطة صمّوا آذانهم عن نداءات المصالحة الصّادرة عن الباروني وغيره(112).

وتدلّ دلائل كثيرة، على أنّ فكيني، والشّنطة قاما، منذ أكتوبر 1920 بتكثيف الجهود من أجل جمع السّلاح والذّخيرة، والاستعداد للمواجهة. وموازاة مع ذلك شنّا حملة دعائيّة واسعة في أوساط سكّان المنطقة السّاحليّة بقصد «تأجيج كراهيّة المالكيّين للأباضيّين...»(113).

ويلمح الطّاهر الزّاوي في مذكّراته إلى «دسائس» قادة التّحالف القبلي و«مكائدهم»، وما أثارته من ردود أفعال لدى بعض الزّعامات الوطنيّة إذ «رأى بعض أعضاء هيئة حكومة القطر الطرابلسيّ في أعمال فكيني، والشّنطة خروجا عن دائرة اختصاصهما، وهو شيء يمسّ كرامة الحكومة، الّتي هم (كذا) من أعضائها، وحذّرهم عاقبة هذا العمل...»(114).

تأكّدت القطيعة إذن بين الفريقين، وجاء مؤتمر غريان الثّاني في أفريل 1921 ليكرّس ذلك، إذ فشل المؤتمر في التّوصّل إلى أيّ قرار يخصّ النّزاع الدّائر

I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Tunisie 1917-1940, op. cit., == rapports, février, mars et avril 1921, folios : 150 et 164.

(111) انظر بهذا الخصوص (على سبيل الذكر، لا الحصر). البعض من آراء محمد فكيني، والقائمقام عمر عثمان بودبوس، القشّاط، **نفس المرجع**، ص 158-159.

(112) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Tunisie 1917-1940,** op. cit., rapport, mars 1921, f. 14.

(113) **Ibid.**, rapport, octobre 1920, f. 223.

(114) الطّاهر الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 268.

بين خليفة بن عسكر من ناحية وزعماء التّحالف القبليّ، من ناحية أخرى(115).

ولم تمرّ أيام قليلة على نهاية فعاليّات المؤتمر المذكور، حتّى عادت الحرب على أشدّها بين الفرقاء، إذ تمكّن خليفة بن عسكر، في منتصف أفريل 1921، من هزم الرّجبان والزّنتان في المكان المعروف بالسيح(116)، وكانت الخسائر في الأرواح الّتي انجلت عنها تلك لواقعة هامة إذ قدرت المصادر الفرنسيّة خسائر الزّنتان والرّجبان بمائتي رجل، وخسائر ابن عسكر بمائة وأربعة وستّين رجلا(117).

ولعلّ الأمر الجديد بالتسجيل هنا هو ذاك الّذي يخصّ المساعدة غير المباشرة، الّتي أمّنها الإيطاليّون لخليفة بن عسكر إبّان اندلاع الاقتتال(118). إذ أمرت الحكومة -كما ورد على لسان غراتسياني- «بعمليّة استطلاعيّة للطّريق من الزّاوية إلى ما وراء بئر الغنم، بواسطة قوّة مسلّحة بقيادة ميتزيتي، وهي تأمل بذلك إيقاف زحف العرب على البربر...»(119).

لقد منعت تلك العمليّة أحمد المريّض، ورجاله من مغادرة مواقعهم، ولم تسمح لهم بالتّالي بتعضيد حلفائهم من القبائل العربيّة(120).

(115) من بين المسائل الّتي استأثرت باهتمام المؤتمرين، والّتي تمّ إدراجها قبل قضيّة الصّراع بين الفرقاء في الجبل مسألة اختيار قائمقام لغريان، وكذا السّبيل الكفيلة بوضع حدّ للنّزاع الدّائر بين مصراتة وورفلة انظر:

I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Tunisie 1917-1940, op. cit..., rapport, avril 1921, f. 23.

(116) موضع منبسط بين الرّجبان وفساطو.

(117) **M.A.E., op. cit...**, rapport avril 1921, f. 23.

ويشار هنا إلى أنّ الطّاهر الزّاوي أكّد في مذكّراته إلى أنّ المواجهة أسفرت عن مائتين وستّين قتيلا، انظر: **نفس المصدر**، ص 288.

(118) J. DESPOIS, **Le Djebel NEFOUSA, op. cit.**, p. 307, Granchamp... **op. cit.**, (1922), p. XI.

(119) رودولفو غراتسياني، نحو فزّان، نقلا عن القشاط، **نفس المرجع**، ص 117.

(120) RODD Balek (Charles Monchicourt), **La Tunisie après la guerre... op. cit.**, p. 308.

وبَدَا جليًا لدى زعمـاء القبائل المناهضـة للباروني، وابن عسكـر، وخربيشة مـدى «ضلوع البـربر مع الإيطاليّين»، إذ قـام التّـحـالف القبـليّ، باستـغـلال هذا «التّواطؤ» وتوظيـفه على أكـمل وجه من خلال مـحاولة إظهـار «الزّعيم الإباضـي» خليفة بن عسكر، على أنّه عون إيطاليا «وأحد الخائنين للقضيّة الوطنيّة...»(121) ، مما يعني أنّه تحوّل إلى أداة طيّعة، لتنفيذ مشروعهم الاستعماري.

ويهمّنـا أن نلاحظ أيضا، أنّ الإيطاليّين، سـعَوْا إلى استـغلال حـالة الحرب الأهليّة بالجبل في ربـيع 1921 لمحاولة التّمركز في بعض النّقـاط الكائنة بسفح جبل فـساطو، ولكنّهم سـرعان مـا عدلوا عن تلك الخطّة، لأنّ الأحـوال لم تستـقر بعد(122) ، بمعنى أنّ الظّروف لم تكن مناسبة رغم أنّهم حـشدوا للغرض أزيد من أحد عشر ألف رجل.

وعلى إثر واقعة السيح، عزّز الجباليّـة حضورهم بفساطو، وقام ابن عسكر بتكثيف اتّصالاته بالباروني المقيم آنذاك بيفرن.

أمّا الرّجـبان والزّنتـان، فقد ولّوا شطر تـاردية وتاغرمين(123) . وهكـذا سـجّلنا ما يشـبـه الهدنة الّتي تواصلـت زهاء الشّـهـرين (ماي-جـوان 1921)، وكانت هذه المدّة كـافية لـزعماء التّـحالف القبليّ كي يلمـلموا صفـوفهم استـعدادا للهجوم على الجباليّة، ومن ثمّ هزم ابن عسكر في مـعقله وهذا ما سيتحقّق بالفعل خلال صيف وخريف 1921.

ب- هزيمة خليفة بن عسكر (جويلية - ديسمبر 1921) :

شهدت منطقة الجـبل الغربي خلال الفترة الواقعـة بين أوائل جويلية ومطلع ديسمبر 1921 عدّة معارك بين أطراف الصّراع المتذابحة، انتهت جميعها بانكسار الجباليّة.

---

(121) P. Granchamp, **Chronique, op. cit.**, "La Tripolitaine en 1921", in **"l'Afrique Française"**, février 1922.

(122) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Tunisie 1917-1940, op. cit...**, rapport, mai 1921, f. 25.

(123) الطّاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 288.

وبالجملة، دارت الدّائر على خليفة بن عسكر، وتتابعت هزائمه إذ نجح أعداؤه في السّيطرة -تباعا- على كلّ من يفرن، وفساطو، ونالوت، بحيث دان ذلك القسم من الجبل لجيش عبد اللّه تامسكت، دون أن يحرك الإيطاليّون ساكنا، لانقاذ حلفائهم البربر.

- سقوط يفرن (جويلية 1921)

كنّا أومأنا إلى أنّ زعماء التّحالف القبلي، أو قادة الكيان المعروف بهيئة الإصلاح المركزيّة، وفق المصدر اللّيبيّة(124) ، أعادوا تنظيم صفوفهم بعد هزيمتهم في أفريل 1921 ، وعهدوا إلى عبد الله تامسكت(125) ، وعبد العاطي الجرم بقيادة القوّة الحربيّة المشتركة.

وفي مطلع جويلية 1921، أعلن أحمد المريّض عن انطلاق عمليّة «تحرير الجبل الغربي» (كذا)، وصدر الأمر لعبد اللّه تامسكت، بالهجوم على يفرن معقل سليمان الباروني وقتذاك(126) . ولم يكن الباروني يقوى على الصّمود في وجه جيش التّحالف القبليّ، ممّا اضطرّه إلى التماس العون من الإيطاليّين.

وممّا يستوقف النّظر في هذه الحادثة اكتفاء هؤلاء الأخيرين بعمليّة استعراضيّة شبيهة بتلك التي نفّذوها في أفريل 1921(127) . وبدا واضحا لدى أحمد المريّض، أنّ الإعانة لإيطاليّة للجباليّة، عند اندلاع الاقتتال، لن تتجاوز هذا الضّرب من العمليّات.

(124) راجع تعقيب هيئة تحرير مجلّة **الشّهيد**، على دراسة ليزا اندرسن، نفس المرجع، ص 215.

(125) **عبد اللّه تامسكت** : من أصل تركي، ولد في حدود عام 1886 في قرية صغيرة على ساحل الدردنيل. انخرط في الجيش العثماني، وشارك في حرب البلقان عام 1912. انتقل للعمل في برقة عام 1915 بصفة ضابط. كانت له مساهمة لافتة للأنظار خلال هجوم أحمد الشّريف السنوسي على المواقع الانجليزيّة في مصر. وعلى إثر فشل الهجوم المذكور، ولى تامسكت وجهه شطر إقليم طرابلس رفقة نوري باي، حيث استقرّ في المكان المعروف بفندق بن غشير. قاد عبد اللّه تامسكت جيش «التّحالف القبلي» خلال الحقبة 1921-1922.

(126) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O.**, Tunisie 1917-1940 **op. cit.**, rapport juillet 1921.

(127) **Ibid.**

وفي هذه الأثناء خفّ ابن عسكر لنجدة الباروني، وكان لاقى صعوبات جمّة من أجل لمّ شعث رجاله، ذلك أنّ أولاد محمود، والحوامد، ووازن، والقسم الأكبر من «المنشقّين التّونسيّين» (الّذين شكّلوا زهاء ربع مقاتليه)، قد رفضوا مرافقته إلى يفرن(128).

ويشار هنا إلى أنّ مثل هذه الصّعوبات النّاشئة أساسا عن قلّة الانضباط في جيش ابن عسكر، فضلا عن تخلّي البعض من الرّجال عن «قضيّته»، تعود إلى شهر مارس 1921(129).

وبالرّغم من عدم تكافؤ ميزان القوى، فإنّ المواجهة كانت غاية في الضّراوة. وجاء في المصادر الشّفويّة الأهليّة أنّها استمرّت يومين(130)، وأسفرت عن عديد الضّحايا من الجانبين. كما وقع في الأسر عدد هام من الجباليّة(131).

وبالجملة، انجلت معركة يفرن عن سقوط البلدة المذكورة في أيدي الزّنتان والرّجبان وحلفائهم، واضطرّ سليمان الباروني، وموسى قرادة، والبعض من أتباعهما إلى الالتحاق ببلدة زوارة بفضل مساعدة الجيش الإيطاليّ(132)، دون إشعار خليفة بن عسكر بذلك. وقد اضطرّ هذا الأخير إلى التّحصّن بفساطو. وجدير بالذّكر هنا رواج إشاعة -في خضمّ معركة يفرن- مؤداها أنّ ابن عسكر لقي حتفه خلالها(133). لكنّ الرّجل دحض تلك الأراجيف يوم 13 جويلية من خلال محاولته عكس الهجوم على مواقع خصومه(134).

---

(128) **Ibid**, rapport, mars 1921, f. 14.

(129) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 180.

(130) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., Tunisie 1917-1940**, rapport juillet 1921.

(131) Ibid.

(132) **La Tunisie Française** du 22-9-1921, cité par Granchamp, **op. cit.**, (1921), p. 24.

(133) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O.**, op. cit., rapport juillet 1921.

(134) **Ibid**.

ولا تفوتنا الإشارة هنا إلى حصول ما يشبه الهدنة في مطلع شهر أوت، ذلك أنّ «اللّجنة الإسلاميّة الطرابلسيّة»، المكوّنة من بعض الشّخصيّات الوطنيّة، والوجاهات الدّينيّة، ونفر من «الجيوش الوطنيّة» (كذا!)، بقيادة عبد الله تامسكت، اغتنمت حلول عيد الإضحى، لتوقيع في العاشر من نفس الشّهر وثيقة صلح.

ولعلّ الأمر المهمّ بصدد هذه "الجهود الصّلحيّة" وما أفضت إليه من اتّفاق، استثناء خليفة بن عسكر، وأتباعه من هذا الحوار الوطني(135)، بعد رفضه شروط خصومه(136)، ومن المهمّ الإشارة هنا إلى أنّ جباليّة الرياينة، حلفاء ابن عسكر قبلوا ما عرض عليهم من شروط(137).

وكان زعماء التّحالف القبلي اشترطوا على زعيم نالوت تسليم سلاحه، وسلاح أنصاره، كما أعربوا عن نيّتهم في سلب أي نفوذ للرّجل على المناطق الّتي فرض عليها سلطانه حتى الآن(138).

اقتصرت المصالحة إذن على الزّنتان والرّجبان من ناحية، وبربر الرياينة، من ناحية أخرى، وتوّجت بعقد الاتّفاقيّة الآنف ذكرها.

لقد التزم الموقّعون خلال موكب مهيب بوضع حدّ لحالة التّناحر والاقتتال، وقبر ما خلفته الحرب من أحقاد وضغائن. كما تعهّدوا بفتح صفحة جديدة في العلاقات بين مختلف سكّان الجبل(139). وهنا يعرض السّؤال: لماذا جنح معسكر التّحالف القبلي إلى إبرام مثل هذا الصّلح المنقوص أو المبتور؟

(135) P. Granchamp, **Chronique... op. cit.**, (1921), p. 24.

(136) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O.**, Tunisie 1917-1940 **op. cit.**, rapport, août 1921, f.

(137) **Ibid.**

(138) **Ibid.**

وبناء على عمليّة التّحييد تلك لم يعد بوسع خليفة بن عسكر الاعتماد مستقبلا إلاّ على فساطو، وكباو، ونالوت.

(139) P. Granchamp... **op. cit.**, p. 24.

وجدير بالذّكر هنا أنّ جريدة اللّواء الطرابلسيّ ليوم 12-8-1921 قامت بنشر النّص الكامل لاتّفاقيّة الصّلح.

من الواضح أنّ محمّد فكيني، وعلي الشّنطة وعبد الله تامسكت، أرادوا إضعاف خليفة بن عسكر من خلال تحييد قسم من أتباعه، ونعني بهم الرياينة، موازاة مع شروعهم «بمغازلة» الحوامد، وأولاد محمود، والصّيعان، وسيناون. ويبدو أنّ هؤلاء الأخيرين أظهروا رغبة في الالتحاق بمعسكر التّحالف القبليّ أو بما سمّته الوثائق الفرنسيّة «الصفّ الوطنيّ» (كذا!)(140).

ولعلّنا لا نخطئ إذا قلنا إنّ ابن عسكر كان على دراية بمخطّطات غرمائه، وهذا ما يفسّر عودة المناوشات بين المعسكرين قبل أن يجفّ حبر الوثيقة المذكورة(141).

- سقوط فساطو (سبتمبر 1921)

زحف جيش التّحالف، في مطلع سبتمبر 1921، على بلدتي الرحيبات وفساطو، والقرى القريبة منهما.

وكانت محلّة علي الشّنطة، ومحمد فكيني، قد تعضّدت قبل بدء العمليّة، بوصول مقاتلين من ترهونة، وإمدادات من مصراتة(142).

وخلال هذا الاجتياح، تكبّدت قوّات خليفة بن عسكر خسائر جسيمة. وكان من بين القتلى محمد الشين مدير الرحيبات(143). وأتاح هذا النّصر للمهاجمين إنزال نقمتهم بكلّ ما يمتّ للجباليّة بصلة، وبالتّالي الثّأر لهزيمتهم في تاردية.

يقول الطّاهر الزّاوي في هذا المعنى بأسلوب يشي بالمرارة، بعد أن وصف كيف صبّ جيش تامسكت نقمته على السكّان الأبرياء: «... وحلّ بفساطو ما حلّ بتاردية من حرق، وتخريب، وسلب ونهب...»(144).

(140) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, rapport, août 1921.

(141) P. Granchamp, **op. cit.**, p. 24.

(142) **Chronique de Libye... op. cit.** (année 1921) p. 45.

(143) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, rapport septembre 1921, f.43

(144) الطّاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 288.

وعلى إثر سقوط الرحيبات، وفساطو، والبقاع المتاخمة لهما، لاذ المتساكنون الجباليّة بسهل الجفارة، وتحديدا بمنطقة الوطية(145)، وجهة زوارة السّاحليّة(146).

وممّا هو حريّ بالتّسجيل هنا اتّفاق المصادر على غدر قسم من الرحيبات بخليفة بن عسكر، وهو ما يفسّر -إلى حدّ ما- نجاح الهجوم المفاجئ على فساطو في 11 سبتمبر(147). وربّما علّلت هذه الخديعة السّهولة الكبيرة الّتي سيطر بها رجال عبد الله تامسكت على البلدة.

ولنا في ختام هذه الفقرة ملاحظتان: أمّا الأولى فذات صلة بعمليّة نهب فساطو، إذ يبدو أنّ رجال التّحالف عثروا خلال استباحتهم البلدة على ثمانين صندوقا شحنت ذخيرة إيطاليّة وهذا ما رسّخ لديهم القناعة الّتي أومأنا إليها أعلاه والّتي قوامها «ضلوع الجباليّة مع الإيطاليّين»(148).

وأمّا الملاحظة الثّانية فتهمّ توتّر العلاقة بين الزّعامات غير الجباليّة، إثر هذه الوقعة، إذ يبدو أنّ انتصار محمد فكيني، وعلي الشّنطة قد أثار قلق أحمد المريّض زعيم ترهونة، وجعله يعدل عن التّحرّش بورفلة، خشية من غدر زعيمي التّحالف به(149).

- سقوط كباو (ديسمبر 1921)

قام خليفة بن عسكر، إثر الانكسارات الّتي ألمّت به، في الرحيبات، وفساطو، بتعزيز مواقعه في نالوت وكباو(150)، وراح يسعى لترميم معنويات أتباعه.

(145) موضع يقع بين زوارة والجبل وتحديدا خمسة عشر كيلومترا إلى الشّرق من عقلة لحيمر، بالقرب من الحدود التّونسيّة وتعود ملكيّة هذه الأرض لقبيلة الصّيعان.

(146) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, rapport septembre 1921, f.43

(147) **Ibid.**

(148) P. Granchamp, **Chronique de Libye... op. cit.**, (1921), p. 50.

(149) **Ibid.**

(150) **Ibid.**

وفي هذه الأثناء، وتحديدا في مطلع أكتوبر 1921، اقترح قادة التّحالف القبلي الصّلح على ابن عسكر بواسطة بشير السعداوي(151)، المتصرّف الجديد للجبل الغربي(152)، وفقا للشّروط الآتية:

أوّلا: نزع سلاح جميع الجباليّة.

ثانيا: حصر نفوذ خليفة بن عسكر في منطقة فسّاطو.

ثالثا: وجوب اعتناق خليفة بن عسكر واتّباعه المذهب المالكيّ(153).

رفض ابن عسكر هذه الشّروط، ويبدو أنّ سليمان الباروني، وقسما من الإيطاليّين كانوا يستحثّونه حينذاك على مواصلة المقاومة، ورفض الحوار مع أعدائه(154). كما رفض القائد الجبالي وساطة أحمد السنّيّ ممثّل السنوسيّة في مزدة، الّذي قام يسعى لوضع حدّ لحالة إهْراق الدّماء بين «الأشقّاء»(155)، وآية ذلك تعمّده سجن وفود الوساطة المرسلة إليه. وبلغ الأمر برجاله حدّ إطلاق النّار على الوفد الأخير الّذي وصل مثابة الجباليّة في 28 نوفمبر 1921(156).

---

(151) **بشير السعداوي**: من الشّخصيّات الوطنيّة الطرابلسيّة المعروفة. كان عضوا في الوفد الوطنيّ الّذي سافر إلى روما في مارس 1921 واستقبل من لدن وليّ العهد الإيطاليّ (تشكّل الوفد المذكور من: فرحات باي، نوري باي، الصّادق بالحاج، وخالد القرقني، وعبد السّلام البوصيري). واشتهر السّعداوي بالكلمة الّتي ارتجلها أمام وليّ العهد الإيطاليّ، وأدان فيها «الاستعماريين الإيطاليين».

(152) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit...**, rapport octobre 1921 f.47.

(153) **Ibid.**, rapport, novembre 1921 ; voir aussi : Rodd BALEK... **op. cit.**, p. 310.

(154) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O.**, rapport octobre 1921, f.47.

(155) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, p. 60 ; voir aussi : **M.A.E., Q.O.**, rapport novembre 1921, f.51.

(156) **Ibid.**

وحيال العناد الّذي أبداه ابن عسكر، قرّر قادة التّحالف استئناف الحرب، بإعلانهم الهجوم على كباو، في 7 ديسمبر 1921. وحاول الزّعيم الجبالي الصّمود إذ كانت خطّته تقتضي الاحتفاظ بمضيق فرسّطة الاستراتيجيّ(157).

ولكن هجوم أعدائه كان من القوّة والعنف بحيث اضطرّ إلى التّخلّي عن مواقعه والارتداد إلى بقاع متخمة للشّريط الحدوديّ التّونسيّ، ومن بينها أبي الشّول(158).

ولقد أثار دنوّ الفرقاء من حدود البلد المجاور، مخاوف ضبّاط الشّؤون الأهليّة الفرنسيّين. وهذا ما دفع قادة التّحالف القبلي إلى محاولة طمأنة الفرنسيّين وتبديد توجّسهم، من خلال التّأكيد على أنّ الصّراع المستعر بالجبل هو «صراع ذو طابع ديني بحت، وأنّه غير موجّه ضدّ الحكومة الإيطاليّة...» وأنّ «الحزب الوطنيّ» (هيئة الإصلاح المركزيّة)، يرغب في إقامة علاقات جيّدة مع السّلطة الفرنسيّة وهو حريص على احترام الحدود احتراما تامّا...(159).

ولا ينبغي أن نغفل هنا عن الإشارة إلى ما رافق دخول كباو، من فظاعات، وأعمال شنيعة بحق السكّان الأبرياء، إذ صبّ المهاجمون نقمتهم على أهالي البلدة، وطالت أعمال التّقتيل والتّمثيل، الأطفال والنّساء. وقدرت المصادر الفرنسيّة عدد الضّحايا -في أعقاب استباحة القرية- بحوالي مائتي نفس بشريّة(160).

- ابن عسكر يُخلي نالوت (12 ديسمبر 1921):

كانت الهزائم المتتالية لخليفة بن عسكر أمام جيش التّحالف القبلي وراء عدول الرّجل عن فكرة الدّفاع عن نالوت، معقله الرّئيسي، ومسقط رأسه(161).

(157) الطّاهر الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 289.

(158) **M.A.E., Q.O.**, rapport décembre 1921, f.57.

(159) **Ibid.**, rapport novembre 1921, f. 52.

(160) P. Granchamp, **Chronique de Libye... op. cit.**, (1922), p. 73.

(161) **La Tunisie Française** du 29 décembre 1921, Ibid.

إذ كان متيقّنا أنّ بقاءه بالبلدة، ومحاولة الدّفاع عنها، سيجعله ينقاد إلى هزيمة محقّقة. وتأسيسا على هذه القناعة، عزم الرّجل، في 12 ديسمبر 1921، على إخلاء نالوت، والتّوجّه، رفقة من انضمّ إليه من سكّان كباو، وجميع أهالي نالوت، إلى بئر الوطية. وقد تراوح عدد أتباعه آنئذ ما بين أربعة آلاف، وخمسة آلاف نفر(162).

هكذا أتاح هذا الانسحاب المأسوي، لأحمد المريّض، أن يبسط جناحيه، على كامل المنطقة المتراوحة بين غريان ونالوت، يساعده في ذلك مجلس مؤلّف من خمسة زعماء...(163).

ومما يجدر تسجيله هنا، عدم إقدام جيش التّحالف على نهب قرية نالوت، وحرقها، وهي الأعمال الّتي دأب عليها حتّى الآن، خلال اقتحامه القرى الأخرى بالجبل.

ويبدو أنّ قادة التّحالف، اقترحوا على النالوتيين العودة إلى ديارهم شرط تخلّيهم عن خليفة بن عسكر(164).

ولأنّ ابن عسكر كان يخشى أن يلاحقه أعداؤه، فإنّه لم يعسكر في مكان محدّد، وظلّ يسير بمحاذاة الشّريط الحدودي: فتارة يضرب خيامه في العسّة، وطورا في الوطيّة أو في أبي الشّول(165). وكانت الحشود الّتي تتبعه في خفارة

---

(162) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O.**, rapport novembre 1921, f.52.

وجدير بالإيماء هنا أنّ الشّيخ الطاهر أحمد الزّاوي أشار إلى أنّ عدد "البربر" الّذين لاذوا بالوطيّة، كانوا في حدود عشرة آلاف نسمة، **نفس المصدر**، ص 290.

(163) **Ibid.**, rapport janvier 1922, f.62.

وقد تكون هذا المجلس الّذي كان يعقد جلساته في غريان من مختار كعبار، وعمر بودبوس، وأحمد الشتيوي، والحاج محمد فكيني، وعلي الشّنطة.

(164) **Chronique de Libye... op. cit.**, p. 73.

(165) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, rapport décembre, 1921, f.56.

ستمائة من الرّجال المسلّحين(166) . وسبق لهذا القائد الجبالي أن طلب، منذ مطلع شهر ديسمبر، وتحديدا بعد هزيمته في كباو، من ضباط الشّؤون الأهليّة الفرنسيين السّماح له، ولقومه باللّجوء إلى تونس. وجاء الرّدّ الفرنسيّ هذه المرّة يحمل الرّفض، إذ أشعره الضبّاط أنّهم لن يتردّدوا في نزع سلاح رجاله، وتسليمهم جميعا إلى مراكز الجيش الإيطالي، إن هم تعمّدوا دخول التّراب التّونسيّ(167) .

وتهمّنا الإشارة ههنا إلى أنّ طلب اللّجوء إلى التّراب التّونسيّ قد لقي معارضة شديدة ساعتذاك من لدن مقاتلي ابن عسكر من التّونسيّين، وقد تألّفوا في معظمهم من قبائل ورغمّة وبني زيد(168) ، وكانت حجّة هؤلاء «المنشقّين» أنّ الفرنسيّين سيعدمونهم لا محالة، لأنّهم مطلوبون جميعا من قبل العدالة الفرنسيّة(169) .

ويفيدنا محمد سعيد القشاط، استنادا إلى المصادر الشّفويّة التي اعتمدها، أنّ ابن عسكر فكّر -بعد الرّفض الفرنسي لطلبه -في اللّجوء إلى الصّحراء، ولكن المعارضة، صدرت هذه المرّة عن سكّان نالوت، الّذين أكّدوا أن لا قبل لهم باحتمال الشّدائد، وشظف العيش بالمناطق القاحلة، حيث يزداد خطر الهلاك جوعا وظمأ(170) .

وبالجملة، وجد خليفة بن عسكر نفسه في مأزق، وكان لزاما عليه العمل للخروج من عزلته، وهذا ما سيسعى للقيام به منذ أوائل عام 1922، وذلك من خلال محاولته الاتّصال بأحمد المريّض، والحاج محمّد فكيني أملا في العودة إلى «الصفّ الوطنيّ»، على ما سيزداد اتّضاحا في مبتدإ المبحث الآتي.

(166) **Ibid.**

(167) **Ibid.**

(168) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, rapport décembre 1921, f. 57.

(169) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 185.

(170) **نفس المرجع** والصّفحة.

المبحث الثّالث

الأيّام العصيبة والنّهاية المأسويّة

(جانفي – ماي 1922)

I – محاولة يائسة لإعادة «مدّ الجسور» مع الزّعامات الوطنيّة

يلاحظ المتقصّي لتحرّكات خليفة بن عسكر واتّصالاته، خلال الحقبة الواقعة بين شهري جانفي وماي 1922، جنوح الرّجل إلى المناورة، في محاولة شبه يائسة للخروج من الورطة المارّ ذكرها : فموازاة مع سعيه إلى ابتزاز الإيطاليّين، عمل على إعادة ربط الجسور مع زعامات التّحالف القبليّ، موهما إيّاهم بقرب انقلابه على حلفائه.

1- السّعي إلى ابتزاز الإيطاليّين :

بعد انكساره في الجبل، ولجوئه إلى الوطنيّة، طفق خليفة بن عسكر يكاتب والي طرابلس طالبا مساعدته بالمال والمدد الحربيّ(171)، كي يتسنّى له التحضير لاسترداد مواقعه الّتي طرد منها. وفي هذا المعنى كتب العقيد رودولفو غراتسياني، في مذكّراته المعنونة : نحو فزّان، يقول إنّ «خليفة بن عسكر (...) أمطرنا برسائله الّتي طلب فيها تكوين جماعة من المسلّحين تحت إمرته...»(172).

وقد كرّر الزّعيم الجبالي رغبته المذكورة لفولبي VOLPI وباودوليو، خلال الزّيارة الّتي أدياها إلى العسّة، ملحا على ضرورة تمكينه من السّلاح والمال(173).

وفي مطلع جانفي 1922، استقبل خليفة بن عسكر من لدن الوالي الّذي «شجّعه»، وجدّد له «الوعد بالمساعدة المادّية الّتي ستتيح له استعادة فرض سلطانه

(171) الطّاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 290.

(172) نقلا عن محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 190.

(173) الطّاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 290.

على نالوت...»(174).

ولكن تلك المساعدة لم تأت، الأمر الّذي اضطرّه إلى طلب مقابلة الوالي الإيطاليّ من جديد في أفريل 1922(175).

وبإزاء تلدّد الإيطاليّين، جنح خليفة بن عسكر للحيلة كي يستحثّهم على البرّ بوعودهم، من خلال ادّعائه أنّ غرماءه من الرّجبان والزّنتان، يستعدّون للانقضاض عليه في الوطيّة.

ولكن الإيطاليّين، تابعوا نهج التّسويف والمراوغة الّذي ساروا عليه منذ وقوع «حليفهم» في المأزق المذكور.

والحقّ أنّه لا الإيطاليّون، ولا زعماء التّحالف القبلي، ولا خليفة بن عسكر، كانوا يرغبون في عودة الاقتتال لمنطقة الجبل الغربي: فالإيطاليّون كانوا يريدون من زعيم النالوتيّين تكوين «باندة»(176) أسوة بيوسف خربيشة، قصد فرض الأمن وتوطيده بمنطقة الوطيّة. ويمكن القول أنّ زعماء التّحالف لم يكونوا متحمّسين للهجوم على الوطيّة، لأنّ انتصارهم المؤكّد، سيضعهم وجها لوجه مع الإيطاليّين، وهو ما كانوا يتحاشونه. وفوق ذلك، فإنّ وجود خليفة بن عسكر في تلك المنطقة لم يكن يشكّل مصدر قلق بالنّسبة إليهم(177).

أمّا ابن عسكر، فيبدو أنّه كان يخطّط للعودة إلى الجبل، ولكن لتعزيز صفّ المقاومة الوطنيّة بعد أن يكون قد ضمن الحصول على الأسلحة والأموال الّتي طلبها(178).

(174) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, rapport janvier 1922.

(175) **Ibid.**, rapport, avril 1922.f. 77.

(176) الباندة فرقة شبه عسكريّة مؤلّفة من الأهالي قام الإيطاليّون بتسليحها بغرض فرض الأمن وتنفيذ بعض المهمّات وكان قائدها يأتمر بأوامر السّلطة العسكريّة الإيطاليّة.

(177) P. Granchamp, **Chronique de Libye**, 2ème année (1922), op. cit., p. 31.

(178) **Ibid.**

وكـان إلحاح الرّجـل الشّديد في طلـب المدد أثار شكوك الإيطاليّين وقلقـهم، وجـعلهم يتـوجّسـون خـيـفة منه، ومن ثـمّ يتلدّدون في تزويده بما يريد. يقـول غراتسياني بهذا الخصوص :

«ولكنّ مـاضيه في الخـيانة الّتـي لا تغتفـر، جعل قـائد المنطقة والحـكومة يشتبهان فيه، ويتردّدان في إعطائه الأسلحة...»(179) .

وبالرّغم من شكوك الإيطاليّين المتعاظمة في نوايا الرّجل، فإنّهم وضعوا على ذمّته ألف وسـتمائة بندقيـة، وكميّات هامـة من الذّخيرة(180) ، ليقـوم بتأمين الدّفـاع عن الوطنيـة، وحراسـة قسم مـن الثّغـور الشّـماليـة الغـربيّة. وربّمـا أراد الإيطاليّون -بهـذا العمل- البرهنة عن حـسن نيّتهم تجـاهه. ومع ذلك يظلّ السّؤال قائما : لماذا أعطى الإيطاليّـون ابن عسكر السّلاح، وهم يعلمون أنّ صنيـعهم هذا قد يعود عليهم بالوبال ؟

ويجيب رودولفو غـراتسياني : «ومع هذا فقـد كان من اللاّزم أن يبقى رجل خطير للغاية مثله، مرتبطا بنا ببعض امتيـازات صغيرة قدّمت إليه، وبوعود بهبات كبيرة، حتّى لا يعود إلى إظهار عداوته لنا علَنا...»(181) .

وفي ذات الوقت الّذي كان فيه خليفة بن عسكر يستحثّ الإيطاليّين، على مدّه بالأموال، كـانت تجرى اتّصـالات بينه وبين رجال هيـئة الإصلاح المركـزيّة، الّتي كانت تجسّد المقاومة الوطنيّة وهو شغلنا في العنصر التّاليّ.

(179) رودولفو غراتسياني، **نحو فزّان**، نقلا عن محمد سـعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 190.

(180) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op. cit.**, rapport, mars 1922, f. 72.

(181) نقلا عن القشّاط، **نفس المرجع**، ص 190.

2- عودة الاتّصالات بين خليفة بن عسكر والزّعامات الوطنيّة وتفطّن الإيطاليّين لدسائسه :

بدأ خليفة بن عسكر، منذ مطلع عام 1922، في مراسلة محمد فكيني في الجبل، وأحمد المريّض، ومبروك المنتصر في ترهونة. وتكفّل بحمل رسائله كلّ من أحمد المجبّر الحامدي(182)، وسعد البدويّ(183).

لقد حاول ابن عسكر إقناع أبرز الزّعامات الوطنيّة أنّه على استعداد للعودة إلى تعزيز صفّ المقاومة الوطنيّة وتعضيده، وأنّه بصدد التّخطيط للفرار من الوطيّة حالما يحصل على الأموال والسّلاح من الإيطاليّين، ويتسنّى له بالتّالي تجهيز محلّته الّتي قوامها تسعمائة رجل تجهيزا جيّدا(184).

ويبدو أنّ محمّد فكيني حاول امتحان نوايا خليفة بن عسكر في أوائل شهر ماي 1922، بعد حصول هذا الأخير على إمدادات هامّة. ذلك أنّه كلّف محمد المجبّر الحامدي بإشعار الزّعيم الجبالي أنّ رجاله سيشنّون هجوما على مواقع الإيطاليّين في الوطيّة خلال اللّيلة الفاصلة بين 10 و11 ماي.

وقبيل الموعد المحدّد بساعات قليلة، أقدم ابن عسكر على سحب رجاله إلى موضع يدعى «نبرة» وهي منطقة قريبة من العسّة(185).

---

(182) أحمد المجبّر الحامدي هو شيخ الحرابة، انظر : القشّاط، **نفس المرجع**، ص 190
وكذا: **Chronique de Libye... op. cit.**, (1923) p. 153.

(183) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O.**, rapport février 1922, f. 67.

(184) يمكن العودة بهذا الخصوص إلى التّهم الموجّهة لخليفة بن عسكر أثناء مثوله أمام هيئة المحكمة في 19 سبتمبر 1922 : كما أوردتها جريدة «تونس الفرنسيّة **La Tunisie Française**، بتاريخ 26-9-1922،
انظر : **Chronique de Libye... op. cit.**, (2ème année 1922), p. 46 et p. 95.

(185) محمد سعيد القشّاط، **نفس المرجع**، ص 190.

وواضح هنا أنّه أراد فسح المجال لقوّات محمد فكيني كي تضرب الإيطاليّين المتمركزين في هذا المكان بقيادة النّقيب «كورو» CORO، ولكن فكيني، لم ينفّذ هجومه المرتقب بعد أن نما إليه خبر إرسال الإيطاليّين للوطيّة -على جناح السّرعة- الفيلق الأوّل اللّيبي(186) لسدّ الثّغرة الّتي أنشأها انسحاب ابن عسكر ورجاله.

وبإزاء التّطوّر الّذي اتّخذته الأحداث، اضطرّ خليفة بن عسكر، في 14 ماي، إلى العودة للوطيّة. أمّا محمد فكيني، فإنّه اكتفى يوم 20 ماي بعمليّة صغيرة، في المكان المعروف بالهبيلة، عهد بها إلى مبروك الغديّ(187).

لقد أماطت هذه العمليّة اللّثام عن أمرين:

أوّلا: الرّغبة القويّة لخليفة بن عسكر في كسب ثقة زعماء المقاومة الوطنيّة بعد كلّ ما أشيع حوله من تهم التّواطؤ مع المحتلّ، ومن ثمّ استعادة مركزه ضمن القيادة الوطنيّة.

وكما سبق ورأينا، فقد وقعت مرادفة الاتّصال مع الإيطاليّين لدى الصفّ الوطنيّ، أو البعض من مكوّناته على الأقل، بالخيانة، و«الطلينة».

ونرى من المفيد -قبل طيّ الحديث عن هذه المسألة- أن نؤكّد أنّنا لا نجانب الصّواب إذ نقول إنّ خليفة بن عسكر لم يكن يعلّق كبير وهم على نجاح محاولته هذه.

لقد كان الرّجل أوّل من يعلم أنّه استعدى عليه زعامات التّحالف القبليّ، وأحنقهم على شخصه على نحو كبير وعميق، الأمر الّذي قلّص هامش «عودة الوئام» بين الطّرفين بكيفيّة جدّ هامّة. وسيتأكّد ابن عسكر بنفسه من ذلك في أواخر ربيع 1922 عندما رفض الزّنتان والرّجبان التحاقه بنالوت، وقد اشتدّ الكَرْبُ عليه(188)، وهو ردّ مُثقل بالدّلالات، ومن ثمّ فهو يُغني عن أي تعليق(189).

(186) **Chronique de Libye... op. cit.**, p. 95.

(187) محمد سعيد القشّاط، **نفس المرجع**، ص 191.

(188) **Chronique de Libye... op. cit.**, (1922), p. 48.

(189) **Ibid.**

ثانيا : تيقّن الإيطاليّين من «خيانة ابن عسكر لهم...»، وهم الّذين فطنوا لمراسلاته السريّة مع التّحالف لقبليّ قبل شهر من العمليّة الآنف ذكرها(190). وقد تأكّد الوالي «فولبي» بنفسه من مراوغات خليفة بن عسكر و«صلفه» (كذا)، خلال لقائه به في أثناء زيارته لـ وطيّة والعسّة، في 21 ماي 1922(191).

وقد علّق غراتسياني على هذه العمليّة بقوله : «إنّ هذه الأعمال قد كشفت بجلاء، مرّة أخرى، أنّ التّقرّب من هذا الزّعيم مسألة معقّدة، وأمر لا يخلو من خطر...»(192). وذكر أيضا أنّه سمع خليفة بن عسكر يقول باللّغة العربيّة : «لتسر الأمور كما هي الآن، ولكنّنا سنتفاهم فيما بعد عندما أكون في الجبل...»(193)، ثمّ أردف قوله : «إنّه أدرك منذ ذلك اليوم ضرورة القضاء على هذا الرّجل...»(194).

هكذا إذن تحقّق الإيطاليّون من خديعة ابن عسكر لهم، وسلوكه معهم مسلك المراوغة، ومن ثمّ، فقد صمّموا على إلقاء القبض عليه، وتقديمه للمحاكمة بتهمة الخيانة.

وتدلّ دلائل كثيرة على أنّ شيخ الحرابة المدعو أحمد المجبّر الحامدي كان ضالعا مع الإيطاليّين، بهذا الخصوص إذ يبدو أنّه كان يزوّدهم بالمعلومات عن تحرّكات ابن عسكر واتّصالاته.. (195).

---

(190) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q.O., op cit.**, rapport avril 1922, f. 77.

(191) **Ibid.**

(192) محمد سعيد القشّاط، **نفس لمرجع**، ص 191.

(193) يذكر امحمّد بن يوسف بوصوّة، أحد رفاق خليفة بن عسكر المقرّبين، أنّ الجملة الّتي تفوّه بها كانت كالآتي : «توّه اللّي عيذكم فيه ديرُوه، ونشّابحُو في الجبل...»، انظر : القشّاط، **نفس المرجع** والصّفحة.

(194) رودلفو غراتساني، **نحو فزّان**، نقلا عن خليفة محمد التليسي، **بعد القرضابيّة...**، ص 81.

(195) **Chronique de Libye... op. cit.**, (1922), p. 153.

3- القبض على خليفة بن عسكر :

شرع العقيد غراتسياني، والنّقيب كورو، منذ مطلع ماي 1922، في التّخطيط للإيقاع بخليفة بن عسكر. وكان العقيد الإيطاليّ قد بذل وسعه من أجل إقناع الوالي فولبي، بالمرامي الحقيقيّة للزّعيم الجبالي، وبما بات يشكّله من خطر على أمن الجبل، بحيث أمكن له بعد لأْي، أن ينتزع منه أمرا بالقبض عليه(196) .

ويعترف غراتسياني في مذكّراته أنّه : «لم يكن من السّهل خداع رجل حذق فن الخبث والمكر، مثل هذا الرّجل، وكان هذا الأمر يتوقّف على مراعاة السريّة المطلقة...»(197) .

وتتلخّص الخطّة الّتي اتُّفق بشأنها في إيهام ابن عسكر بأنّ الحكومة قرّرت تعويض أسلحته القديمة، بأسلحة جديدة. وتمّ تكليف النّقيب كورو بالتّوجّه إلى الوطيّة، وجمع أسلحة رجال ابن عسكر تعضده قوّة قوامها ألف جندي(198) . كما أوهم الإيطاليون «عدوّهم المراوغ» بأنّ غراتسياني سيحلّ في نفس اليوم بالوطيّة لتفقّد قوّته العسكريّة، واستعراضها وفقا لما كان ينعت لدى الإيطاليّين بعمليّة التّفتيش(199) .

وفي 28 ماي 1922، نجح النّقيب كورو، في تطبيق الخطّة على حرفيتها. ونتوافر بهذا الخصوص على شهادة نادرة أدلى بها رفيقا خليفة بن عسكر في المقاومة وهما : محمد بن يوسف، وصالح الشّاوش اللّذان كانا من بين أسرى الوطيّة.

يقول الرّجلان : «أبلغنا كورو بالتّجمّع صباح الغد بجانب القصر، بين القصر والبئر (الوطيّة)، وأكّد لنا (كذا) أن نحضر أسلحتنا كلّها لتغييرها بأسلحة جديدة،

(196) الطّاهر أحمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 291.

(197) رودولفو غراتسياني، نحو فزّان، نقلا عن محمّد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 191.

(198) محمد سعيد القشّاط، **نفس المرجع** والصّفحة.

(199) **نفس المرجع** والصّفحة.

ونتوجّه معا للجبل. وفي الصّباح حضرنا، وأمرنا الرّئيس كورو بتجميع الأسلحة كلّها، ثمّ بعد ذلك، يعطينا الأسلحة الجديدة. فصار كلّ منا يرمي بندقيّته حتّى صارت كومة من الأسلحة، بجانب القصر، والّذي يتولّى التّسليم منّا هم الجنود الإيطاليّون.

وعند الضّحى، قدمت القوّات القادمة من زوارة، والإريتريين يردّدون الهبيليّة... الهبيليّة... لإيهامنا بأنّهم ذاهبون للهبيليّة، حتّى طوّقونا، ونحن عزل من السّلاح، وصاحوا فينا ارفعوا أيديكم، فرفعناها...»(200).

وفي الوقت الّذي كان فيه كورو منهمكا في نزع أسلحة رجال ابن عسكر، أفلح غراتسياني -بما أوتي له من دهاء العسكريّين المضرّسين- في إبعاد الزّعيم الجبالي عن مسرح العمليّة المذكورة تمهيدا للقبض عليه. وخيّرٌ لنا أن ندع الضّابط الإيطالي يصف لنا بنفسه الكيفيّة الّتي تمّ بها إيقاف خليفة بن عسكر كما جاءت في كتابه "نحو فزّان"، وهي شهادة على قدر من الغرابة غير يَسير.

يقول غراتسياني: «كنت مع خليفة بن عسكر في مقصورة منفردين، وفي هذه الأثناء كان يقبض على أنصاره الواحد تلو الآخر، ومن الصّدف أن وقع سقف الحجرة الّتي فيها أنا وابن عسكر علينا. فلمّا خرج من الحجرة قبض عليه، ووضع الحديد في يديه...»(201).

وخلال نفس اليوم تمّ في المكان المعروف بالعسّة القبض على جميع أفراد عائلته والبعض من ذوي قرباه. وكان من ضمن الموقوفين شقيقه عمرو(202). ونقل خليفة بن عسكر، إلى مدينة طرابلس حيث أودع السّجن المعروف بالقلعة(203) في انتظار محاكمته.

(200) نفس المرجع، ص 193

(201) رودولفو غراتسياني، نحو فزّان، نقلا عن الطّاهر احمد الزّاوي، **نفس المصدر**، ص 291.

(202) **Chronique de Libye... op. cit.**, 2ème année, (1922), p. 57.

(203) **Ibid.**, p. 59.

وممّا هو جدير بالتّسجيل هنا، أنّ غراتسياني أوكل إلى يوسف خربيشة، إثر هذه الحادثة، مهمّة تأطير الجباليّة(204)، يساعده في ذلك المدعو مسعود بن عيسى(205).

4- محاكمة خليفة بن عسكر وإعدامه :

أ- مجريات المحاكمة :

يجمل بنا أن نومئ، بادئ ذي بدء، إلى ما يمكن اعتباره -بمعنى من المعاني- حملة صحفيّة، طالب القائمون عليها، بإنزال عقوبة صارمة بخليفة بن عسكر. كان ذلك مباشرة إثر ترامي أنباء القبض على «زعيم نالوت إلى مكاتب كبريات الصّحف».

ولقد قادت هذه الحملة العنيفة صحيفتا «كوريري دي تريبولي» Corriere di Tripoli، وفاشيو Fascio (206) اللّتان اجتهدتا في التّأكيد على أنّ الرّجل لم يكن راعيا لعهده مع إيطاليا وفي هذا الصّدد وصمت صحيفة "كوريري دي تريبولي" ابن عسكر بأنّه «الخائن الأبدي...»(207). وسعت في مقال تحريضيّ لها بتاريخ 18 جوان 1922 إلى التّأثير على القضاء الإيطاليّ، من خلال مطالبتها «إصدار أحكام صارمة ورادعة بحقّ من أقضّوا مضجع إيطاليا لفترة ناهزت عقدا من الزّمن...»(208).

كيف كانت إقامة خليفة بن عسكر في سجنه ؟ وهل حاولت بعض الزّعامات القريبة من إيطاليا التّدخّل لفائدته ؟

نقرّ بداية أنّنا لا نتوافر على إجابة عن هذين السّؤالين اللّذين يفتحان بدورهما على أسئلة أخرى تتعلّق بأصداء سجن زعيم نالوت لدى الجباليّة وكذا

(204) **Ibid.**, p. 57.

(205) محمد سعيد القشّاط، **نفس المرجع**، ص 193-194.

(206) **Chronique de Libye... op. cit.**, p. 65.

(207) **Ibid.**

(208) **Ibid.**

موقف من كان يتعامل مع إيطاليا من القادة الطرابلسيّين. بمعنى هل دفعهم ما حلّ بابن عسكر إلى إعادة التّفكير في صدق وعود إيطاليا حيال حلفائها وأعوانها، وباختصار كلّ من سار في ركابها حتّى الآن.

بالرّغم من ندرة المعلومات بشأن هذا الفصل الأخير في حركة الرّجل، فإنّه يبدو أنّ خليفة بن عسكر كان يأمل في مغادرة سجنه، والعودة إلى الجبل. وممّا يؤكّد صحّة هذا الافتراض هذا المقتطف القصير من آخر رسالة وجّهها الرّجل من سجنه، إلى أخيه عمرو الّذي لم يمكث طويلا رهن الاعتقال. والرّسالة المذكورة مؤرّخة في 11 جويلية 1922 (16 ذي القعدة 1340). يقول خليفة بن عسكر: « (...) يا أخي لا يضيق صدرك من الغنم ولا من الإبل. إن احنا خرجنا من هذه الضّيقة كل شيء يكون سامل. والسّعي في الجبل أحسن من هنا. الفلوس بعد ثلاثة أيّام. ان لم يصير طلوعنا نعطيك مطلوبك، واصبر هذه الأيام لا تبع الخيل إلا بعد ما تعرف المسألة هل هي بقاء بطرابلس أم لا...»(209).

وواضح هنا أنّ الرّجل كان يتعلّل بأمل الخروج من معتقله. ولكن الأمور سارت بغير ما كان يتمنّى، إذ قامت السّلطة الإيطاليّة، في 18 سبتمبر 1922، بنقله من سجن القلعة بطرابلس، إلى مدينة الزّاوية، حيث يوجد مقرّ «المحكمة الخاصّة»، الّتي تقرّر أن يمثل «الزّعيم البربري» (كذا)، أمامها(210).

وفي حدود السّاعة العاشرة، من اليوم الموالي، جلب خليفة بن عسكر إلى قاعة المحكمة، وهو يرسف في الحديد، وكان مخفورا بعدد هام من رجال الدّرك (كرابنييري)، والضّبطيّة. وتذكر صحيفة "كورييري دي تريبولي" الّتي أمّنت تغطية وقائع المحاكمة، في نشرتها المؤرّخة في 21 سبتمبر 1922، أنّ «الإعلان عن هذه المحاكمة، أثار فضول النّاس بشكل منقطع النّظير...»(211).

(209) أوردها محمد سعيد القشّاط، **نفس المرجع**، ص 195.

(210) أسهبت جريدة كورييري دي تريبولي **Carriere di Tripoli** ليوم 21 سبتمبر 1921 في ذكر وقائع المحاكمة وقد نقلت صحيفة تونس الفرنسيّة **La Tunisie Française** ليوم 26 سبتمبر 1922 فقرات مطوّلة من هذه التّغطية الصّحفيّة.

(211) **Chronique de Libye... op. cit.** (2ème année), 1922, p. 94.

وتستمرّ الصّحيفة، بقلم مبعوثها الخاص، في نقل ما سبق انطلاق المحاكمة من هوامش. ونقرأ بهذا الخصوص، ما يلي: «استقبل الحاضرون دخوله [ابن عسكر] قاعة المحكمة بهمهمة، فيما كان يصوّب نحوهم نظراته النّارية، الّتي كانت إحدى مميّزات سحنته المنقبضة...».

وبُعيد الإعلان عن افتتاح الجلسة، عدّد رئيس المحكمة العقيد "بوري" BUREI، التّهم الموجّهة «للمتّهم خليفة بن عسكر»، والّتي تمثّلت في:

- إخلال الرّجل بواجباته في حماية الوطنية (عندما كان تحت إمرة العقيد غراتسياني بصفته قائد «بانده» قوامها ثلاثمائة رجل تكفّلت الحكومة بتسليحها والإنفاق عليها...)، خلال اللّيلة الفاصلة بين 10 و11 ماي 1922، رغم الأوامر الصّريحة الصّادرة له بهذا الخصوص، ممّا اضطرّ غراتسياني إلى «اقتطاع» الفيلق اللّيبيّ الأوّل، من جيوش القطاع الشّرقي، وتكليفه بسدّ الفجوة، الّتي خلقها انسحاب ابن عسكر ورجاله.

- دخول خليفة بن عسكر في اتّصالات مع «قادة التّمرّد» (كذا) أمثال مبروك المنتصر، وأحمد المريّض، وتواطُؤه معهم، حين كان في مرؤوسي رودولفو غراتسياني، ثمّ شروعه في التّخطيط للانقلاب على الحكومة حالما يحصل على المُخصّصات المقرّرة له، قصد بناء قوّة شبيهة بـ«باندة» يوسف خربيشة، قوامها تسعمائة رجل. وفوق ذلك إقدامه على قتل المدعو أحمد المجبّر الحامدي(212)، بعد أن فطن إلى ألاعيبه، والّتي ليس أقلّها، تسريب معلومات عن حركاته، واتّصالاته إلى السّلطات الإيطاليّة.

ثمّ استمعت هيئة المحكمة إلى إحدى وعشرين شهادة، جاءت كلّها مرصّعة «ببراهين قاطعة، لا تقبل الطّعن، أكّدت جميعها الخيانات المنسوبة للرّجل...»، وكان من بين الّذين حضروا للإدلاء بشهاداتهم، العقيد رودلفو غراتسياني، والنّقيب مارغينوتي MARGHINOTTI، والملازم أوّل فينيراندي VENERANDI (213).

(212) **Ibid.**, p. 95.

(213) **Ibid., Corriere di Tripoli**, 21/9/1922.

ويزعم المبعوث الخاص لكوريري دي تريبولي، أن دَمْدَمَة استنكار، ندت عن الحضور بالقاعة، عندما شرع المترجمان غالو GALLO، وكانتوري CANTORE، في تذكير هيئة المحكمة بفظاعات ابن عسكر، وأعماله البربريّة، الّتي استهدفت الإيطاليّين إثر جلائهم عن نالوت.

ويبدو أنّ الرّجل، اجتهد في نفي التّهم المنسوبة إليه، ولكنّ حججه (دائما وفق نفس المصدر)، كانت ضعيفة.

وفي حدود السّاعة السّابعة من مساء نفس اليوم، تناول الكلمة ممثّل النّيابة العموميّة، الّذي ركّز في مرافعته، على ما أتاه خليفة بن عسكر من «فظاعات وأعمال بربريّة» وعرّج على مسلكه المستهتر الغاشم وما اقترفه من خيانات (كذا)، وختم كلامه مطالبا الحكم بالإعدام على المتّهم.

ثمّ أحيلت الكلمة للسان الدّفاع المعيّن حكما. وبعد مداولات قصيرة، أصدرت المحكمة حكمها بالإعدام شنقا على خليفة بن عسكر(214).

ويزعم المراسل الصّحفي الآنف الذّكر، أنّ الزّعيم الجبالي، خرج عن سجيّته المعهودة لدى سماعه قرار المحكمة، بحيث انقلب من شخصيّة متعالية مُتْرعة بالأنفة والزّهو، إلى رجل محطّم المعنويّات، خائر الهمّة(215).

ونرى من المهمّ الإشارة إلى أنّ هيئة المحكمة كان بإمكانها إصدار حكم بالإعدام رميا بالرّصاص، وفقا للأمر الخاص الصّادر عن الحاكم بالنّيابة عام 1922، والّذي خيّر قضاة هذه المحكمة بين الشّنق، والرّمي بالرّصاص.

ولسنا ندري لماذا جنحت المحكمة إلى تطبيق العرف المحليّ في الإعدام (أي الشّنق) في حين أنّ الرّجل متّهم بالخيانة عندما كان عونا «من أعوان إيطاليا، يأتمر بأوامر ضباطها بالجبل الغربي، ويتلقّى النّصح، والتّعليمات من طرابلس...».

ومعلوم أنّ الإعدام رميا بالرّصاص هو في الأعم الأغلب، خصيصة من خصائص العقاب بالمؤسسة العسكريّة.

(214) **Ibid.**

(215) **Ibid.**

ب- تنفيذ حكم الإعدام :

اقتيد خليفة بن عسكر في السّاعة التّاسعة إلاّ الرّبع من صبيحة يوم 20 سبتمبر 1922 إلى ميدان سوق بلدة الزّاوية حيث نصبت المشنقة(216). وصعد خليفة بن عسكر (وفق شهادة نفر من الصّحافيّين الإيطاليّين الّذين قاموا بتغطية الحدث)، على مصطبة المشنقة وهو واثق الخطو، وكان يرتدي قميصا أبيض فضفاضا، وقد عصبت عيناه، وغلّت يداه وراء ظهره...(217).

وكان تجمّع بالميدان المذكور، لمشاهدة تنفيذ حكم الإعدام، أكثر من ستمائة نفر(218). ولسنا ندري هل أنّ هذا الحشد كان مؤلّفا في معظمه من الفضوليّين، بمعنى أنّ جلّهم جاؤوا من تلقاء أنفسهم، أم أنّ السّلطة الإيطاليّة، رتّبت لهذه العمليّة، وأطّرتها، من خلال استجلاب أناس موالين لها من خارج بلدة الزّاوية. وممّا يسوّغ طرح مثل هذا السّؤال المضاعف «المسرحيّة»، الّتي سبقت تنفيذ الإعدام بحقّ الرّجل، إذ انتصب محمّد عزيز فوزي، وهو أحد أعوان إيطاليا المقرّبين، خطيبا في الجموع الحاضرة، وقام يحضّ مستمعيه على «احترام إيطاليا والإخلاص لها...»، قبل أن يختم خطبته «الوعظيّة»، بدعوتهم إلى أن يهتفوا بأعلى أصواتهم «عاشت إيطاليا، ثلاث مرات»(219).

ويزعم مبعوث «إيطاليا الجديدة» «Nuova Italia» أنّ الحضور استجابوا، ملوّحين بأياديهم في الهواء، في حين كانت أصواتهم تشقّ عنان السّماء. كما ندّت عن مجموعة صغيرة من الحاضرين صيحة : «عاشت العدالة الإيطاليّة...»(220).

---

(216) **I.S.H.M.N., M.A.E., Q. O., Série Tunisie 1917-1940,** rapport septembre 1922.

(217) **Chronique de Libye... op. cit.,** (2ème année) 1922, p. 95.

(218) **Ibid.,** p. 96.

(219) **Ibid.**

(220) **Ibid.**

وفي تمام السّاعة التّاسعة والرّبع، وقع تنفيذ حكم الإعدام(221). وحسب الرّواية الشّفويّة، فإنّ خليفة بن عسكر بصق على جلاّديه، قبيل إعدامه، وهو يقول: «لعنة اللّه على من يركن لإيطاليا، ويثق بها، ويهادنها...»(222).

ويذكر هنا أنّ جثّة الرّجل ظلّت معلّقة حتّى مساء يوم 21 سبتمبر(223)، وغير خاف هنا المغزى الثّاوي وراء هذا العمل، الّذي غدا مألوفا لدى النّاس في كلّ بقاع القطر حينذاك.

إنّ السّؤال الّذي لا محيص عنه، في هذه المرحلة من البحث هو:

لماذا عزم الإيطاليّون على التّخلّص من خليفة بن عسكر في هذا الوقت بالذّات؟

بإمكاننا تكثيف مسوّغات هذا القرار، في النّقاط التّاليّة:

أوّلا: لقد عزم غراتساني (كما فولبي)، بعد انكسار الجباليّة بالجبل الغربي، على التّخلّص من حليف انتهت مهمّته بانتهاء أحد الفصول المأسويّة للحرب الأهليّة، وما استتبع ذلك من فقدان حركة المقاومة للكثير من عناصر قوّتها. وفوق ذلك فإنّ هذا الحليف أصبح يشكّل مصدر إزعاج مستديم، بعد أن تحقّق لديهم أنّه بات غائم الوعود، مشبوه التّحرّكات. وقد وقف غراتسياني بنفسه على هذه الحقيقة، ممّا أشرنا إليه آنفا.

ونرى من المفيد أن نذكر بهذا الخصوص أنّ الإيطاليّين نهجوا ذات المسلكيّة مع قادة آخرين نهضوا هم أيضا لمهمّات معيّنة، حدّدها لهم الإيطاليّون، أمثال أحمد الرجيبي، شيخ الرياينة، والهادي كعبار أحد زعماء غريان، وفي مرحلة لاحقة، عبد النّبي بالخير، زعيم ورفله، وغيرهم.

---

(221) **Ibid.**

(222) محمد سعيد القشاط، **نفس المرجع**، ص 195.

(223) **Chronique de Libye... op. cit.**, 1922, p. 105.

وجدير بالذّكر هنا ورود أخطاء بشأن تاريخ إعدام خليفة بن عسكر، إذ يذكر حسن علي خشيم في هذا الصّدد أن زعيم نالوت أعدم في 28 ماي 1922 (انظر: **نفس المرجع**، ص 46 وص 57) بينما يجعل محمد المرزوقي حادثة الإعدام المذكورة في «جوان 1922» (انظر: **الدغباجي**، ط. 2، تونس، مكتبة المنار، 1979، ص 53).

ثانيا : تزامن قرار التّخلّص من ابن عسكر، مع تبدّل، في طريقة تعاطي الإيطاليّين مع الشّأن الطرابلسي بصفة عامّة، والزّعامات المحليّة بصفة خاصّة.

لقد ترتّب على تعيين الوالي الجديد الكونت فولبي Le Comte VOLPI، في أوت 1921. تقطعٌ مع «سياسة الزّعماء»، «Politica di capi» الّتي سار عليها الولاة(224) حتّى الآن، والّتي شكّلت الخطّ العام للحكومة المركزيّة آنئذ، ورفعٌ لشعار جديد، كان من مبتدعات «فولبي»، هو : «لا مع الزّعماء، ولا ضدّ الزّعماء، ولكن بدون الزّعماء».

ولقد أبدى الكونت فولبي من خلال نهجه الجديد هذا «استخفافا كاملا بالحكومة المركزيّة (حكومة فاكتا Facta)، ومواقفها، وتعليماتها...»(225)، ومضى سادرا في تطبيق سياسته الجديدة المعادية للزّعماء(226) والتي لم تلبث أن أثبتت نجاعتها يشهد على ذلك توقّف المقاومة بإقليم طرابلس عام 1924، وهو العام الّذي غادر فيه فولبي، أرض ليبيا.

هل كانت هذه النّقلة في التّعامل مع الزّعامات بإقليم طرابلس، والّتي هي من بنات أفكار كونت متحمّس، تهجس -بمعنى من المعاني- بما ستكون عليه، سياسة الفاشيين إزاء المستعمرات في نهاية العشرينات ؟

ثالثا : لا ينبغي أن نغفل عن ذكر ما كان يَعْتَمِل في ذهن رودولفو غراتسياني، ويَمُورُ في نفسه تجاه ابن عسكر وأضرابه. لقد كان الضّابط الإيطاليّ يرغب في إقامة الدّليل لرؤسائه أنّه أذكى من العقيد مياني Miani الّذي باء بالخيبة عام 1914. وعليه فقد أراد أن «يتجنّب تكرار الدّور الّذي قام به رمضان

(224) الولاة المومإ إليهم هم : أميليو باتيستا (15 جويلية - 1 أوت 1918)، فيشنزو غريوني (2 أوت 1918 - 16 أوت 1919)، فيتوريو منزنجر (16 أوت 1919 - 10 جويلية 1920) لويجي مركاتليّ (1 أوت 1920 - 16 أوت 1921).

(225) خليفة محمد التليسي، **بعد القرضابيّة**... ص 238.

(226) Pompeo GHERADI, **La reconquête de la Tripolitaine, vue du camp des rebelles**, traduction française de Pierre Granchamp, pub. Comité Algérie, Tunisie, Maroc, Paris, 1925, p. 102.

الشتيوي في معركة القرضابيّة ضدّ مياني، وهو الدّور الّذي أدّى إلى تلك النّتائج الّتي عانت منها إيطاليا كثيرا من الإهانات والهزائم. كانت كلّ الدّلائل تشير إلى أنّ الرّجل [ابن عسكر] سيتحيّن أوّل فرصة للغدر بهم...»(227) .

ونتوافر بهذا الخصوص، على شهادة قيّمة نخالها جديرة بالإحالة على متنها، وهي بقلم غراتسياني الّذي يبدو أنّه لم ينس أبدا لابن عسكر مواقفه ضدّ الإيطاليّين، إذ اعترف قبيل زحفه على الجبل الغربي، في مطلع جويلية 1922 (خلال ما سيعرف بمرحلة الاسترداد La Riconquista) أنّ ذكريات الهزائم الإيطاليّة المنكرة عام 1915، على يد سيّد نالوت، ما زالت تتلجلج في صدره، استمع إليه يقول :

«إنّ الذّكرى المخيفة الّتي يبعثها الماضي، كانت تلقي بظلّها الحزين على الطّريق الّتي سنسلكها. فقد كانت كتيبة مؤلّفة كلّها من عناصر وطنيّة (إقرأ إيطالية) قد غادرت جادُو، بقيادة سيئة، وتجهيز أسوأ، ودون احتياطات مائيّة لأفرادها، رغم علم القائد بأنّ الآبار الّتي سيصادفها في طريقه ستكون جافّة تقريبا، وقد أحاطت بها مجموعة صغيرة من الثوّار، شجّعتهم هذه الأوضاع السيّئة فقضي عليها، وأبيدت حول آبار قصور غدُّو والحمراء، حيث جرت مشاهد وحشيّة من القتال المتبادل، والانتحار، وحالات الجنون، الّتي وقعت في ذلك اليوم الفاجع (...)، انقطعت كلّ الارتباطات المنظّمة، فلم تجد الكتيبة إلاّ أن تزرع طريقها بالموتى من أفرادها، وما تزال منذ سبعة أعوام، تلك العظام تتألّق تحت الشّمس...»(228).

***

إنّ السّؤال الّذي يملي نفسه في خاتمة هذا الباب هو : ماذا كانت أصداء خبر نعي خليفة بن عسكر في الجبل الغربي وكذا في سائر أقاليم البلاد الأخرى ؟

الحقّ أنّ المعطيات المتوفّرة لدينا لا تسمح بالإجابة عن هذا السّؤال على نحو مستفيض. صحيح أنّ حادثة شنق خليفة بن عسكر قد «أثّرت في القبائل الثّائرة» كما جاء في بعض المصادر الإيطاليّة(228) ، وأنّ عددا من الشّعراء قالوا مرثيّات

(227) خليفة محمد التليسي، **نفس المرجع**، ص 81.

(228) رودولفو غراتسياني، نقلا عن التليسي، **نفس المرجع**، ص 82.

في زعيم نالوت، غَدَتْ من المردّدات الشّعبيّـة فيما بعد. ولكن هل يكفي هذا للخروج بنتيجة مفادها أن نبأ إعدام الرّجل قد أحدث رنّة أسى شديد، في كلّ أصقاع البلاد.

الرّاجح لدينا أنّ حادثة إعـدام ابن عسكر غذّت تعليـقات شتّى، لكنّهـا لم تُثر لَغطا كبـيرا، ولم تخلق ما يشـبه حالة الوجوم. لقـد نزل نعي الرّجل على النّاس في برهة ملّوا فـيها النّزاعـات الدّاخليّة الّتي بلغت شـأوها، وخاصّـة ما استـحكم بين مخـتلف الزّعماء من مشـاحنات لأسباب لم يكن لسـواد النّاس فيها ناقـة أو جمل، و«كفـروا» بوطنيّـة البعض من القـادة الّذين لم يجدوا غـضاضـة في التّعـاون مع الإيطاليّين، نظير مقابل زهيد، وضـجّوا بحالة الفقر المدقع الّتي أصبحوا يعيشونها، بعد أن شحّ الزّاد، وهزلت الموارد، وانقطعت أشكال التّكافل التّقليديّة لسبب أو لآخر. وفوق كلّ هذا، فـإنّ خليفة بن عسكـر قد استعـدى عليه -لا سيمـا بعد 1918- قطاعا عريضا من سكّان الجبل الغربي، وفقد بالتّالي مؤازرتهم (ويسري هذا حتّى على أقرب رجاله إليه)، جرّاء تجاوزاته العديدة، ومعاملته لهم في صلف وعجرفة.

لقد تواشج العـامل الأخير، وتضـافـر مع بقيّة العوامل الأخـرى المارّ ذكرها، ليفرز ما يشبه «الاستقالة» أو اللامبالاة، وربّما «الغثيان»، لدى عموم النّاس بسبب ما كان يمُوج به الجبل من عصبيّات، وتسويّة حسابات لا حَصْر لها ولا نهاية.

وتأسيسا على هذا الّذي ذكرنا، نفهم لماذا كانت المرثيّات قليلة، بل قليلة جدّا، إذا ما قورنت بقصائد الهجاء التي قيلت فيـه. ومن مقابلة قصائد الهجاء بالمرثيّات، تنبثق أسئلة وعلامات استفهـام، تتجاوز حدود الإطار الّذي نتحرّك فيه هنا. وهي برأينا -أي الأسـئلة- جـديرة بالتّـدبّر، لا لشيء سوى أنّ قـصـائد الهـجاء كـان مصدرها شعراء لم يقوّموا حركة الرّجـل تقويما «موضوعيّا»، بقدر ما صدروا في أقوالهم، عن خلفيّات قبليّة، وصفيّة، أو «مصلحيّة» معيّنة(229).

لنعد، بعد هذه التّوضـحيات، إلى قصائد الرّثاء لنشيـر إلى أنّ أفضل ما قيل في هذا المضمار وأشهره قد جادَت به قـريحة الشّاعر خليفة الكرديّ. ومن الطّريف

(229) من أشهر الشعراء الّذين هجوا خليفة بن عسكر: أحمد الموسّي وعبد الله عثمان الزعيمة.

الدّال ههنا أنّ الشّاعر المذكور، سبق له أن هجا خليفة بن عسكر عندما ركن إلى الفرار خلال حصار حصن أم «سويغ (2-9 أكتوبر 1915)، تاركا الودارنة يُواجهون مصيرهم بمفردهم، وهو ما فصّلنا فيه القول، في أحد مباحث الباب الثّاني.

ونتوافر، بخصوص رثاء «بطلنا»، على قصيدة مطوّلة، ننقل منها الأبيات التّالية:

نَارِي عَلَى بِيْ نَغَّـــــار	كَنْبَاصْ دَبَّـــــارْ
طَرْشُول فِي الحَرْب مَا صَارْ	لَعْبُوا عَلِيهْ الشْكُوطَه
كَانْ صِيْد فِي روس نوْعَـارْ	هَرْشَامْ كَسَّـــارْ
فِي طَالْيَا دَارْ بَـــازَارْ	مَاجُورْ سَلَّمْ خُيُوطَه
نَاسْ طَوْلُوا وَقْتْ وِاذْ هَـارْ	خَيَّانْ سَحَّـــارْ
سِيَاسَه وقَلَابَة أَفْكَـــارْ	جِبْدُوهُ لِنْ هَافْ لُوطَه
مِطْمَانْ لْحُكْمْ غَــــدَّارْ	نَادُوه فِـــي دَارْ
فِيهْ يِدْفْعُوا مِيَّاتْ قِنْـطَارْ	صَادُوهْ صِيْدَانْ حُوتَه
يَا رِيتْ ضَرْبُوهْ بَـــازْرَارْ	عَلَى ظِهْرْ نَقْمَـــارْ
فِي امْلاَطْمَه خَيْل وانْ حَـارْ	مَرْحُومْ وِيسَالْ مُوتَه
مَا هُوشْ وِتْقُوهْ كُفَّـــارْ	مِنْ غِيْرْ مِقْـــدَارْ
وِيخَلْصُوا بِيهْ فِي النَّـــارْ	شِنْقُوهْ فِي رَاسْ تُوتَه(230)

(230) ومن أهم ما قاله الشّاعر خليفة الكرديّ بخصوص حادثة شنق خليفة بن عسكر، الأبيات التّالية:

ضَرْبُوهْ عَلَ مَكْنُونَـــه	سَحْنُوهْ سَحْنْ القَمْحْ فِي الطَّاحُونَه
شَنْقُوهْ قَعْدُوا شَايْلاَتْ عُيُونَه	خَرْتُوهْ خَرْتْ الطِّيْرْ فِي الخطَّارَه
مِلْزُوزْ جَاهِمْ مِنْدَفَعْ عِرْبُونَه	بَاعُوهْ بِيعِتْ كَبْشْ للجَـــزَّارَه
مَالاه ضَوْ الوطنْ فِيهْ رَزُونَا	خُيَّانْ بَعْدْ إِيمَانْهُمْ غَـــدَّارَه

ومن بين الشّعراء القلائل الآخرين الّذين رثوه، الشّـاعر ضو العسّاس، الّذي أشـار في قصـيدته إشارة نافـذة، إلى مكانة الرّجل ضـمن المشـهـد الزعامـاتي بطرابلس. استمع إليه يقول :

ماما لاَه الوطَنْ الدَّالَـــه   مَا عَادشْ ينْقَـامْ
رَاحْ صَقْر يعَاشُوا بَقْوَالَه   كَانْ ذكْره في لَفَّامْ
رَفْعُوا بن عَسْكَرْ وعْيَالَه   وخَانَاتَه لَيَّـامْ

***

بَعْدَه حَارتْ كُلْ أعْمَالَـه   وخَلَّى الضَّوْ ظلاَمْ
تمْشي مظْيُومَه في حَالَه   علَى منْ كَانْ اخْزَامْ
حَاكمْ متْعَلّي شنْقَالَـه   فُوقْ من الحُكَّـامْ
المطْرَاحْ الضيِّقْ يرْقَى لَـه   ويَحْضَرْ كُلْ قْبُولْ
نَافقْ مَقْبُولاَتْ أقْوَالَـه   ويَرْزَى بالمَفْعُـولْ

ومنها أيضا :

كَانْ صَقْرْ فُوقْ العَالـي   كَانْ مسْكْ علْ لَعْطَّارْ سُومَه غَالي

ما يشبه خاتمة الباب

ثلاثة أعوام! هذا ما كان المستقبل يدّخره لخليفة بن عسكر بعد انجذابه في دوّامة السّياسة عام 1919.

ثلاث سنوات، كانت ما ئ بالمدّ والجزر، حافلة بالتّقلّبات، عرف فيها الانتصارات كما الاندحارات، قبل أن يسير إلى حتفه غير هيّاب.

شهد هذا الطّور نقلة مهمّة لدى الرّجل، إذ تحوّل المتمرّد العنيد إلى مهادن واقعيّ، وما كان لهذه النّقلة أن تتحقّق، بمثل السّرعة الّتي رأينا، -لما عرف عن «بطلنا» من صلابة وعناد، لولا التّأثير الكبير، الّذي مارسه عليه سليمان الباروني بفضل ما أوتي له من كياسة سياسيّة، ومهارة ديبلوماسيّة، وهي الخصال الّتي وظّفها من أجل فرملة جموح ابن عسكر، والحدّ من غلوائه، وتليين طباعه...

ولكن لا ينبغي أن نسقط من حسابنا هنا -في أثناء حديثنا عن هذا التّحوّل- ما انجلت عنه نهاية الحرب العالميّة الأولى في طرابلس الغرب، إثر انسحاب الأتراك والألمان من هذا القطر من تبدّل مواقع بخريطة الزّعامات القبليّة والوطنيّة، وما أثارته من نعرات، ورياح تعصّب (في مختلف أشكالها)، وما أنشأته من صراعات، وتنافس من أجل مناطق النّفوذ والإعانات الإيطاليّة...

لم يكن تعاون خليفة بن عسكر مع الإيطاليّين استثناء أو موقفا شاذّا آنئذ، ذلك أنّ كلّ الزّعامات الطرابلسيّة تقريبا، تعاملت مع سلطة الاحتلال -بشكل أو بآخر- بما في ذلك رمضان السويحلي «عدو دولة إيطاليا الأول». هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإنّ نقض الاتّفاق مع الإيطاليّين من جانب واحد عام 1920، وطرد أعوانهم، لا يحسب له وحده إذ سبقه إلى ذلك سيّد مصراته، رمضان السويحلي.

ومثلما فرضت مستجدات ما بعد الحرب على خليفة بن عسكر التّقرّب من الإيطاليّين، والتّعاون معهم ابتداء من عام 1919، فإنّ تداعيات تسميته بصفة متصرّف على الجبل الغربي في أوت 1920، هي الّتي أدّت إلى انفصام ما كان

قائما بينه وبين الزّعامات القبليّة العربيّة انفصاما تاما، وأجبرته على قتال حلفاء الأمس.

لماذا هذا الانقلاب ؟ أسلفنا أنّ الرّجل شارك في حرب بني جلدته من البربر عام 1916، لأنّ «إصلاحات» سوف المحموديّ، وترتيباته الإداريّة لم تمسّ مركزه في نالوت، ولم تضرّ بمصالحه وامتيازاته (الماديّ منها والرّمزي)، والّتي كان يستمدّ منها وجاهته الاجتماعيّة ويستشعر النّفوذ والرّفعة.

أمّا في خريف 1920 فقد تبدّلت الحال بعد معارضة الرّجبان والزّنتان تعيينه متصرّفا على الجبل الغربيّ، ذلك أنّهم استكثروا على «جبالي» مثله منصبا إداريّا بمثل تلك الأهميّة، وكان علَى ابن عسكر أن يرفع التّحدّي، بعد أن غدَا مركزه مهدّدا على نحو جدّي.

ومجمل الأمر، أنّ الحرب الأهليّة الّتي شبّت بالجبل الغربيّ خلال الحقبة 1920-1921، كانت حرب مصالح في المقام الأوّل، وهو ما حاولنا توضيحه في متن هذا الباب تأسيسا على طائفة من الأمثلة والأدلّة.

ومثلما رأينا، فقد جرت الحرب المذكورة في تفاوت كبير، وبالرّغم من انتصاراته الأولى، انقاد ابن عسكر إلى الهزيمة بعد أن ألْفَى نفسه وحيدا إثر فرار الباروني في نهاية 1921. وقد اضطرّته الحال أن يسعى -في محاولة يائسة- إلى ربط جسور الحوار، ومن ثمّ رتق الفتوق مع «الفرقاء الجدد»، حدث هذا قبل أن يقع في شرك رودولفو غراتسياني في مشهد لم تكن فاجعيّته أقلّ من مأسويّته.

***

من الأشياء الّتي تدخل في نافلة القول التّصريح أنّ مسألة التّعاون والتّواطؤ، من الأمور البالغة التّعقيد، والشّديدة الحساسيّة، إذ غالبا ما يشكّل التّذكير بهذه الحقيقة البديهيّة مدخلا للباحث أو المؤرّخ كي يسارع بالقول أنّه لا يريد الزّج بنفسه في خضمّ المناقشات والمباحثات الجدليّة الّتي تثيرها هذه القضيّة بدعوى أنّ التّاريخ «النّهائيّ» لتلك الفترة، لم تتوفّر بعدُ موادُه، ولم تنضج النّضج

الكافيّ، كلّ ذلك في محاولة لبنة لتحاشي ارتياد الدّرب الصّعب الّذي يحتّم استجلاء حقيقة الأمور، والبحث ي خلفيّاتها ومظانها.

لن نضيف جديدا إن نؤكّد نّ المؤرّخ لا يعطي شهادات في «حسن السّيرة»، وأنّه لا يخلع الوطنيّة على من يشاء، ذلك أنّ همّه الرّئيسي، يبقى، في نهاية التّحليل، محاولة فهم الأشياء في غموضها وتعقّدها، انطلاقا من هاجس المساءلة الدّائم.

إنّ ما نريد أن نخلص إليه من وراء إثارة هذه المسألة «المحجوجة» هو أنّ البحث في تعاون ابن عسكر من عدمه، تأسيسا على المصادر المتوفّرة، قد أفضى بنا إلى ما يشبه الطّريق المسدود.

لقد تبيّن لنا أنّه من التّهافت مرادفة الحوار، والاتّصال، والتّنسيق بالعمالة والخيانة، وهو ما حاولت المصادر الفرنسيّة الإيحاء به لأسباب لا نراها خافية على كلّ من تعرّف إلى العلاقة العدائيّة لّتي جمعت الرّجل بالفرنسيّين.

أمّا الشّوارد المفتقرة للدقة بهذا الخصوص، والّتي انطوت عليها بعض المصادر الإيطاليّة، فإنّنا نتحفّظ من أخذها كأساس للحكم في تعاطينا مع هذه القضيّة «الكبيرة».

لا مريّة إذن، في أنّ المصادر الأجنبيّة مغرضة (إن قليلا أو كثيرا)، ولكن ماذا عن المصادر الأهليّة ؟

يجمل بنا، قبل محاولة لتماس الإجابة عن هذا السّؤال أن نذكر بعض النّماذج «الأهليّة» الّتي اجتهدت في إلصاق صفة العمالة والتّواطؤ بالرّجل، ولقد جاءت هذه «المصادر» على هيئة قصائد شعريّة، وهذا من الأمور الطّبيعيّة في مجتمع سادت فيه الثّقافة الشّفويّة.

يقول الشّاعر أحمد المُوسيّ في قصيدة هجا فيها خليفة بن عسكر :

غَرُّوك بالحقّان ـــــــــــــــ ي خَرْبِيشه ومازِيتي وبن شَعْبَان(1)

(1) في إشارة إلى يوسف خربيشة، وسلدان بن شعبان، والضّابط الإيطاليّ ميزيتي MEZETTI

رفَضْتْ قُلْتْ لْهُمْ أنا **طَلْيَانِــي** ودرتْ المَغَارَة في شَرِيعَةْ مَالكْ
لِحْدُودْ بِنْغَازِي يسِيرْ حْصَانِي وَعَقْلكْ الخَارِبْ هَكَذَا سَاوَالكْ

ونقرأ ضمن قصيدة للشّاعر عبد اللّه عثمان الزعيمة، وصف فيها هزيمة الرّجبان أمام ابن عسكر، عام 1921، هذه الأبيات الّتي تشير بكلّ وضوح وقوّة إلى أنّ الرّجل كان من بين الدسيسة الّذين تقرّبوا إلى الإيطاليّين، ونفّذوا خططهم بدافع الرّغبة في زيادة الرّواتب، وحبًّا في المال :

في سُوقْ مَالَه سَيَّــه لاَ في مْسَاقْ البِلْ لا شَاوِيًّــه
دْبَارِةْ عَدِيمْ الرَّايْ والذرِّيَّــه واللِّي شَهِي **الزِّيدَانْ لِمْعَاشَاتَــه**
سُكَّارْ مَا تدْرِي علَى عِقْبِيَّه **بِدَفْعْ الكَوَارِطْ وَطْنْهَا بَاعَاتَــه**

***

لَوْلاَ المَعَاشْ وُهِيلَــه لَوْلاَ دبَايِرْ وِلْدْ بُوبَرْطِيلَــه
كَانْ وطنْ جَاملْ شَيْ مَا طَارِيلَه وُظَاهِرْ الخِيوَه مِنْ حَيَاةْ أبَّاتَه

***

مِنِ الكَارْطَه اللِّي خْذُوهَــا كِيفْ قَالْ دِيرُوا دْبَارْتَه(2) دَارُوهَا
الخ...

ولسنا نرى مسوّغا للاسترسال في ذكر مزيد النّماذج -وهي نماذج ناطقة- لأنّ جلّها، إن لم نقل كلّها صادر عن أعداء الرّجل، وهذا ما يجعلنا في وضع يسمح لنا بالقول أنّ ما ذكر أعلاه بخصوص الكتابات الأجنبيّة حول المسألة، يسري أيضا على المصادر الأهليّة وفي ذلك ما يؤشّر لنا معنى استحالة الحسم في قضيّة كهذه، في ضوء ما هو متوفّر لدينا من معطيات...

***

(2) أي الإيطاليّين.

يمكن القول أنّ النّهاية الدر ماتيكيّة للزّعيم الجباليّ خليفة بن عسكر قد كثّفت مأساة جيل كامل من الزّعامات الو طنيّة بطرابلس الغرب في مطلع العشرينات.

لقد عاش قـادة الحركة الو طنيّة ما بين 1912 و1922 حـالة من التّمزّق والبلبلة ترجم عنهـا تذبذب مواقفـهم وتأرجحهـا بين الحياد، والتّـواطؤ الضّمني، والتّعاون الصّريح، والمقاومة.

ومن المفارقـات أن تبلغ تلك الحالة شَـأْوَها في وقت انحسـر فيه الحـضور الإيطاليّ في البلاد بشكل بيّن بحيث غَدا حبيس النّطاق الضيّق لطرابلس – الخمس.

أسباب عديـدة، يأخذ بعضها برقاب بعض كـانت وراء ذلك الوضـع، منها ما هو راجع للتّركيبة الاجتماعيّة المعقّدة بالإقليم، ومنها ما هو مرتبط بالإرث التّركي، ولا سيما خلال العهد العثمـاني الثّاني (1835- 1911)، ومنها ما هو مستجدّ أي من صميم تمركز الاحتلال الايطاليّ، ومـا انجلى عنه من تحولات عميـقة ليس أقلّهـا تضـرّر فئـات، ووجـاهات قـديمة، وبروز وجاهات جـديدة، وعـودة الألق لشرائح اجتماعيّة غُمطَت في نهاية العهد التّركي، وحُجِّمَت مكانتها لسبب أو لآخر.

لاَقَت المراجع الإيطاليّة، في بداية أمـرها بالشّأن الطرابلسي صعـوبات جمّة في فهم مكوّنات المجتمع المستعمر وآلياته، وفي النّفاذ إلى «عـقليّة العربي» (كذا)، وهذا الجهل بواقع المستعمرة الجديدة وحقـيقة الأشياء فيها -والّتي هي بنات آماد طويلة من السّنين- هو الّذي يفسّر جانبا هامـا من الضّربات العشوائيّة، والأخطاء التّقديريّة الّتي بَدَرَت عن السّاسة كما العسكريّين آنئذ.

ولمّا وضعت الحـرب العظمى أوزارها، وجد قـادة الحركـة الوطنيّة أنفسـهم فيما يشبه العزلة بعد انقطاع المدد العثمانيّ والألمانيّ عنهم. في هذا الظّرف استأنف الإيطاليّون التّعامل مع الزّعامات المحليّة والقـبليّة ولكن هذه المرّة وفقا لنهج مخالف كـان ثمـرة ثمـاني سنوات من التّعـاطي مع العـادات والسّـوالف، والسلوكـيـات والذهنيات الأهليّة في تلوّناتها المختلفة، ودرجاتها المتعدّدة.

هكذا حصلت للإيـطاليّين خبرة بواقع اجـتماعي غـاية في التّعقـيد، ومن ثمّ

باتوا على بيّنة من الرّهانات الّتي أفرزتها نهاية الحرب. وبناء على كلّ هذا نهضوا لتوظيف تلك الخبرة بغرض اختراق الصفّ الوطنيّ، ودقّ أسفين الشّقاق بين أبرز فئاته وزعاماته، مزاوجين بين الشدّة والعطاء حينا، وبين الوعيد والوعود العرقوبيّة، حينا آخر.

ومن الإنصاف القول هنا أنّ قلّة قليلة جدًا من القادة استطاعت مقاومة سياسة الإغواء الإيطاليّة. أمّا الكثرة الكاثرة منهم فإنّها لم تقوَ على الصّمود أمام الرّواتب المجزية الّتي أجْرَتْهَا لهم دولة الاحتلال، وسياسة «نثر الذّهب» الّتي سارت عليها في محاولتها الرّامية إلى استمالة زعامات معيّنة. وبالتّدريج استحكمت العداوة بين أبرز الوجاهات، الأمر الّذي أفقد حركة المقاومة الكثير من عناصر قوّتها. ولقد دلّت الحروب الأهليّة منذ عام 1916، على أنّ المحرّك الرّئيسي للقادة والزّعماء كان المصالح ولا شيء غيرها. وكان هؤلاء، خلال سعيهم الدّؤوب، إلى تحقيق مصالحهم والدّفاع عنها يغلّفون مراميهم الحقيقيّة بالعديد من الغايات «النّبيلة السّامية». ولكن يبقى تحت ذلك الرّونق الظّاهريّ، برود المصالح وقوّتها التي لا تقبل التّنازل. هكذا وَصَم كلّ زعيم من خالفه الرّأي أو الموقف (إقرأ: كان معارضا لمصالحه)، بالتّواطؤ، ودمغه «بالخيانة» و«الطّلينة»، وبالتّدريج اختلط الحابل بالنّابل، وأصبح التّمييز بين «الوطنيّ» و«العميل»، ضربا من المخاطرة...

انخرطت الكثرة السّاحقة من الزّعامات إذن في تلك «اللّعبة الإيطاليّة»، البعض فعل ذلك عن قناعة وإخلاص (محمد فكيني، يوسف خربيشة، سلطان بن شعبان، ساسي خزام، الهادي كعبار، أحمد العياط...)، والبعض عن مداراة وانتهازيّة (سليمان الباروني، عبد النّبيّ بالخير، سوف المحمودي، رمضان السويحلي، أحمد المريّض...) والبعض الآخر جرفه التيّار شأن «بطلنا» خليفة بن عسكر وهذا ما يسوّغ نعتنا إيّاه بالإمّعة في العنوان الكبير الّذي اخترناه لبابنا هذا.

إنّ التّذكير بجملة هذه المعطيات ضروري -فيما نعتقد- لفهم السّهولة النّسبيّة الّتي تمكّن بها الدّاهية غراتسياني، من تصفية طائفة من الزّعامات الطرابلسيّة في مطلع العشرينات.

لقد أمكن للجنرال الإيطالي، بعد تلاشي حالة الاحتقان بالإقليم جرّاء سياسة فرّق تسد الومأ إليها، أن «يقتنص» ضحاياه الواحدة تلو الأخرى. والغريب في الأمر، بهذا الخصوص، عدم اتّعاظ كلّ ضحيّة جديدة بما حاق بالأخريات.

أعدم غراتسياني خليفة بن عسكر، كما أعدم أحمد الرجيبيّ أحد كبار أعيان الرياينة، رغم الخدمة الجليلة الّتي أسداها له من خلال إشعاره بخديعة سيّد نالوت له في مطلع 1922.

وطَالَت الإعدامات من هزمو ابن عسكر في نهاية عام 1921: عليّ الشّنطة (زعيم الزّنتان)، وعلي بن تنتوش، (من ورشفانة)، رغم وعد غراتسياني لهما «بالصّفح». ثم التحق بالقائمة كلّ من: الهادي كعبار، وابنه محمّد كعبار، وعبيدة المحجوبي...

وتواصلت الإعدامات بعد ذلك على يد جلاّدين آخرين، وهكذا تمّ شنق الشّيخ عبيدة الصرماتيّ، والشّيخ علي العايب المطردي، والشيخ أحمد الحجاويّ، والشيخ علي الشويخ، والشيخ عبد السلام بن عامر، والشّيخ محمد التّركلي، والشّيخ شرف الدين العمّامي، والشيخ عمر العمراني، والشّيخ محمد عبد العال وغيرهم بعد مصادرة أملاكهم وأموالهم و«بعد أن أبلغتهم [إيطاليا] العفو بصورة رسميّة، وآمنوا بكلمتها...»(3).

ويصف الشّيخ عبد الحميد محمود الطرابلسي جانبا من الملابسات التي حفّت بتلك الهجمة الكاسحة بلغة نالها جدّ أمينة، قائلا:

«وكثيرا ما تعلن إيطاليا العفو على الأهالي، والأمان، فيصدّق النّاس إعلانها، ويحضرون أملا بأن دولة كبيرة لا تعلن شيئا وتكذب فيه، فإذا بها بعد استسلام هؤلاء تقبض عليهم غدرا وتفتك بهم...»(4).

---

(3) عبد الحميد محمود الطرابلسيّ، **نبذة من أعمال إيطاليا في طرابلس الغرب**، [د.ت.]، ود. مكان النّشر، ص 32.

(4) **نفس المصدر والصّفحة.**

وقبل أن تدور رحى المذبحة، كان رمضان السويحلي قد لقي حتفه في صيف 1920، لا في أثناء مواجهة الإيطاليّين، ولكن أمام غريمه عبد النّبيّ بالخير. كانت نهاية أكثر مأسويّة من نهايات الزّعماء الّذين سيقوا إلى المشانق الإيطاليّة.

ولم تكن نهاية عبد النّبي بالخير أرحم، ذلك أنّه هلك عطشا في صحراء الجزائر في أوت 1932، بعد أن انقطعت به الأسباب، ودارت الدّائرة عليه، رغم ما أبداه من شواهد الإخلاص لدولة إيطاليا راضيا من الغنيمة بالإيّاب.

أمّا بقيّة الزّعماء فقد انتهوا إمّا إلى الموت خلال المواجهات مع الجيش الإيطاليّ، نحو فرحات الزّاوي، أو إلى الهجرة أمثال سليمان الباروني (عمان)، ومختار كعبار، وأحمد المريّض، وعبد الهادي المنتصر (مصر)، ومحمد فكيني (تونس) وبشير السعداوي (فلسطين)...

هكذا ذهب جلّ زعماء طرابلس الغرب، الّذين جسّدوا المقاومة والرّفض، خلال أزمنة مختلفة، أيْدي سَبَا، بحيث ما إن حلّت نهاية عام 1924 حتّى توقّفت المقاومة بإقليم طرابلس، في حين تواصلت في فزّان حتّى عام 1930، وفي برقة حتّى سبتمبر 1931.

الخاتمة العامّة

لقد حاولنا في دراستنا هذه إضاءة بعض الجوانب الخفيّة في حياة أحد أبطال المقاومة الشّعبيّة في طرابلس الغرب خلال الرّبع الأوّل للقرن العشرين، عدّتنا في ذلك بعض المصادر الأصليّة البِكْر، وما جاء مبثوثا في عدد من الدّراسات.

والحقّ أنّ مادّتنا المصدريّة، على ما بذلنا في جمعها من جهد، وما أنفقنا في استنطاقها، واسْتِكْناهها من وقت، تعتبر محدودة بخصوص جوانب مهمّة من حياة نضال المترجم لهَ، ظلّت تمثّل ما يشبه البياضات، ممّا يجعل الصّورة الّتي نقدّمها عن خليفة بن عسكر أبعد ما تكون عن الإتقان والكمال، وهو أمر نبّهنا إليه ما وسعنا التّنبيه.

لم نصدُر في تصدّينا لبيوغرافيا الرّجل عن قبليّات، وأفكار جاهزة، ولم نبحث في عمليّة التّقميش، والجمع الّتي باشرناها عن مدعّمات لقناعات مسبقة، رغم أنّنا قاربنا هذه الشّخصيّة الإشكاليّة من زاوية نظر معيّنة، وموطن اهتمام محدّد.

وليس من باب التّواضع الكاذب التّصريح هنا، أنّ الفكرة الابتدائيّة التي تشكّلت لدينا عن صاحب السّيرة قبل مباشرة عملنا هذا، قد خضعت لتقلّبات الاستقصاء، بحيث أدخلنا عليها عديد التّعديلات و«الرّتوش». وكان همّنا الرّئيسيّ في أثناء مراحل هذه الدّراسة، محاولة إبراز ابن عسكر كما كان في الواقع، لا كما أراده التّاريخ «الوطنيّ» أن يكون.

ومهما يكن من أمر ما توصّلنا إليه من نتائج خلال تعاطينا مع سيرة خليفة بن عسكر، وهي نتائج نعتقد أنّها انطوت ولو في مظهر ضئيل منها، على قدر من الجدّة والطّرافة، فإنّ ما انجلت عليه دراستنا في هذا المضمار، يظلّ نسبيًا وناقصا، ما لم تقع العودة لهذه الشّخصيّة المركزيّة من خلال طرح أسئلة جديدة، أو بغرض التّفصيل والتّعميق، وإبراز التّلوّنات والفُوَيْرقاتِ، حيث اكتفينا بالإشارة والتّلميح، أو من خلال عمليّة تقاطع البيوغرافيّات، أي مقارعة السّيرة بالسّيرة، وهي تَقْنِيَة لم تنل حظّها عندنا في حقل الدّراسات التّاريخيّة والسوسيولوجيّة.

*

ثمّة فرق كبير بين قائد يقول لجنوده : اهْجُمُوا، وقائد يأمر رجاله أن اتبعوني. لقد جسّد خليفة بن عسكر نموذج القائد الأخير أجلّ تجسيد وهو ما اجتهدنا في تبيانه في أبواب هذه الدّراسة.

لا شكّ أيضا أنّ الرّجل كان خارقا للمألوف في حزمه وعزمه، في مضائه وبلائه، وممّا هو بديهيّ لا يحتمل مراءً أنّ الأوصاف المذكورة كان يعتورها -بين الفينة والفينة- بعض الارتخاء أو الفتور، وهذا من صميم الذّات البشريّة كما هو معروف، وحسبنا هنا أن جموحه اللامتناهيّ، وطفرته، وطبعه المتقلّب، قد شكّلت ما يمكن اعتباره بمعنى من المعاني «كعب أخيل» Talon d'Achille هذه الشّخصيّة القياديّة الغامضة، وجعلت الرّجل يقع في جملة من الأخطاء التّقديريّة كان البعض منها قاتلا.

إنّ ما نريد الخلوص إليه من وراء هذا التّذكير هو أن «بطلنا» كان نسيجا لوحده من حيث أنّه مثل شخصيّة اجتمع فيها وبشكل غامض الفارس الغيور على كلّ حَرَم وحَوْزة، والزّعيم الممزّق بين «القبليّ» و«الوطنيّ»، والانسان المصاب بدُوار السّلطة والنّفوذ، وبلوثة حبّ التّسلّط والنّفعيّة.

**

لقد اضطرّتنا محاولة استجلاء السّمات المميّزة لحركة الرّجل منذ انطلاقها عام 1913 وحتّى منتهاها عام 1922، إلى تقسيم هذه الحقبة إلى ثلاثة أدوار، بحيث شكّل كلّ دور موضوعا لباب من أبواب هذه الدّراسة. ونودّ التّنبيه هَهنا إلى أنّنا لن نقوم، في هذه الخاتمة العامّة، بتكرار ما سبق أن كشفناه من أفكار واستنتاجات في نهاية كلّ باب(1) .

في الباب الأوّل أمكننا أن نتبيّن كيف فجّر الغزو الإيطاليّ في الشّاب الجباليّ خليفة بن عسكر خِصالا وقدرات أهّلته لدور القيادة والبطولة.

---

(1) يمكن الرّجوع إلى خاتمة كلّ باب من الأبواب الثّلاثة.

فعلا، لقد هيّأت تداعيات الاحتلال الظّروف لولادة «جبالي عفريت» وفق العبارة الّتي ستجري على الألسن فيما بعد... يسمُ حركة المقاومة في الجبل الغربيّ بمَيْسَمه، بعد أن توطّدت قدمه في نالوت وأرباضها، وهو ما كان يَهْجسُ بتبدّلات سلوكيّة واجتماعيّة هامّة في بيئة الجبل الغربيّ وما جاورها، وخلصنا إلى الاستنتاج أنّ ردّ فعل الرّجل كان صدى لمشاعر الرّفض الشّعبيّ للاحتلال، وإلى أنّ حركته خلال ذلك الطّور كانت عاريَة من أيّة خلفيّة سياسيّة واضحة، ولم تنطو على «برنامج اجتماعيّ» بيِّن...

أمّا في الباب الثّاني فقد أوضحنا كيف بلغت حركة خليفة بن عسكر شَأْوَها خلال الحقبة 1915-1918 من حيث القوّة والأتباع، وكيف قفزت به أعمالُه، المجيد منها والمرذول، إلى حيث لم يصل رجل من الجباليّة فيما سبق، وفي حدود علمنا طبعا.

وبالتّدريج تحوّل الرّجل إلى أحد القادة البارزين في إقليم طرابلس، ومن ثمّ أصبح له فعْلُهُ الوازن في حركة المقاومة بحيث سارت بذكر بطولاته وأعماله أسلاك البرق، وعربات البريد الإيطاليّة والفرنسيّة، وتناقلتها ألسن الشّعراء كما الرّواة...

وهكذا أكْرهَ سيّد نالوت، بفضل سجاياه العسكريّة، الإيطاليّين والفرنسيّين على مُصانَعَته لأنّ مواقفهم كانت آنئذ (1915-1918) ضعيفة وحرجة... وقد خلصنا إلى الاستنتاج في بابنا هذا أنّ إعلان الحرب على فرنسا كان عملا متّسما بسمات الطّابع الفرديّ، ولم يكن له أيّ أفق محدّد. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ الرّجل انقاد إلى الهزيمة أمام الإيطاليّين عام 1917 (مع أنّ وضعهم كان حرجا) بالرّغم من أنّ جيشه كان مؤلّفا من مقاتلين مُضرّسين خَبروا المعارك مع الإيطاليّين كما الفرنسيّين وكانت لهم مشاركة لافتة للأنظار خلال حرب «المطليّين» عام 1916. وقد كشفت تلك الخيبة (أمام جيش في وضع مزر) عن قَفَا صورة ابن عسكر «العسكريّ» وأبرزت البعض من مثالبه كقائد كثيرا ما غاب عنه أنّ الشّجاعة وحدها غير كافية لكسب المعارك إذا لم تكن مقْرونة بالدّهاء في وضع الخطط، والفطنة في استنباط حيل الدّفاع، خلال المواجهات، على ما شرحناه في خاتمة هذا الباب.

ومن الإنصاف والأمانة القول هنا أنّ صورة الرّجل، خلال هذا الطّور المركزيّ، لم تكن بمثل النّصاعة الواردة في التّأليفات «الوطنيّة» إذْ أمكننا أن نُعاين أن تلك الصّورة اهتزّت لدى معسكر المقاومة، وأنّ ظلالا لطّختها إثر خذْلانه قبيلة الودارنة التّونسيّة عام 1916، وما استتبع ذلك من منع رجالها شنّ غارات على مواقع الحاميات الفرنسيّة، انطلاقا من قواعده، وكذا بسبب ما اتّسمت به معاملته لأتباعه، وللمهاجرين التّونسيّين الّذين التحقوا بحركته، ولسكّان الجبل بصفة عامّة، من قسوة متناهية وعنف بالغ.

وانصرفنا في الباب الثّالث للبحث في انخراط خليفة بن عسكر عام 1919 في سياسة التّفاوض والحوار مع الإيطاليّين، وما أفضت إليه من تعاون. وقد أبانَت تلك التّجربة عن ضعف العامل الذّاتيّ في معسكر المقاومة.

أجل، لقد اضطرّ سيّد نالوت، أن يقلب ردَاءَه، كما جلّ الزّعامات تقريبا، لأجل الظّفر ببعض الامتيازات، وقد مثّلت تلك اللّحظة له ولغيره، منعطفا أثبت حدود حركة الجهاد، وكشف النّقاب عمّا أصابها من إجهاد.

وفي نفس هذا الإطار، كانت معالجتنا للحرب الأهليّة بالجبل الغربيّ (1920-1921)، الّتي وضعت إمْكانات ابن عسكر موضع الاختبار، وأشّرت مُقدماتها لتصدّع حلف 1916، المناوئ «للمطلينين».

وقد حاولنا في المبحث الّذي أفردناه لهذه الحرب إلقاء قليل من الأضواء على خلفيّاتها، وأسبابها وخرجنا بنتائج متواضعة، لعلّ أهمّها أنّ الحرب المذكورة لم تكن دينيّة، أو عرقيّة، أو قبليّة، بقدر ما كانت حرب مصالح.

لقد انتهى بنا التحليل إذن، إلى حقيقة قد تبدو مرّة، ومؤداها أنّ الزّعامات أصبحت أسيرة النّفعيّة الضّيّقة، والمصالح والسّلوك «الأناني» (وقد احتدّ ذلك بعد انقطاع المساعدات الخارجيّة، وهُزال مصادر الدّخل المحليّة)، ولو أدّى الأمر (في سبيل ذلك) إلى التّآمر على الوطن.

إلاّ أنّ ما ينبغي التّشديد عليه هنا هو أنّنا لم نسقط من حسابنا دور السّياسة الإيطاليّة المبنيّة على الدسّ والكيد، ويكفي للتّحقّق من ذلك العودة إلى المبحث المعقود للحدث المذكور.

***

تكمُن أهمّيّة بيوغرافيا خليفة بن عسكر في أنّها تروي فصلا مركزيّا ودراماتيكيا من الحياة السّياسيّة في طرابلس الغرب، في أوج الهجمة الاستعماريّة الإيطاليّة، وتلقي الضّوء على المقاومة العنيدة والمتنوّعة للشّعب اللّيبيّ(2).

ومثلما بيّنّا، فإنّ شعار المقاومة بهذا القطر لم يكن الانتصار التّام أو الموت الزّؤام، وإنّ تطوّرها لم يكن خطيّا، كما أفاضت في ذلك بعض الكتابات «الوطنيّة» في تبسيط مخلّ، إذ أمكننا أن نلاحظ أنّ تلوّنات المقاومة من ناحية، وتنوّع المشهد الزعاماتي من ناحية أخرى، كانت من الغنى والتّعقيد بحيث لم يعد من المقبول اختزالها في بعض الصّيغ الانشائيّة الفضفاضة، واستبعاد كلّ الحقائق الّتي تتنافرُ مع «الفُولْقَاتْ» والأسئلة المربكة. اللّهم إلاّ إذا تمادينا في إيثار السّهولة، وواصلنا التّشبّث بنفس اللاّزمة، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى يخطئ من يظنّ أنّ الطّبقة السياسيّة في هذا القطر كانت تفتقر آنئذ إلى التّجربة، وبالتّالي النُّضوج الكافيّ الّذي يخوّل لها التّعاطي مع مجريات الأمور باقتدار وبراغماتيّة(3).

---

(2) أصبح سكّان ولاية طرابلس عام 1912 «ليبيّين» لا فقط بسبب الغزو الإيطاليّ وما فجّره لديهم من طاقات وقدرات وما شحذه من أحاسيس ومشاعر، بل أيضا نتيجة اختفاء المرجعيّات السّابقة للاحتلال (ولا سيما خلال الفترة 1918-1924) ومنها: الجيش التّركي، الامبراطوريّة العثمانيّة، السّلطنة، الخلافة الإسلاميّة، وبالتّدريج «انتبه» سكّان القطر إلى محيطهم العربيّ بعد تقاطر أعداد هامّة من التّونسيّين والمصريّين على بلادهم لتعضيد حركة المقاومة.

(3) من شأن هذه المعاينة أن تدحض ما درج عليه بعض الباحثين من الإشارة في شيء من الإيجاز الملّبق إلى أنّ الحياة السّياسيّة في طرابلس الغرب كانت بسيطة بعيدة عن التّعقيد والالتواء، إذا ما قُورنت بمثيلاتها في المشرق والمغرب العربيّين.

والواقع أنّ الحركة الوطنيّة بهذا القطر كانت خلاصة معقّدة لطائفة من العناصر تآزرت، وتواشجت، لتفرز في النّهاية حالة طريفة في سياق تلك الحقبة.

لقد جمع معسكر المقاومة على الأقلّ في بدايات أمره، جنبا إلى جنب، زعماء قبائل بدويّة متنفّذة، ومشايخ عشائر مشهورة، ووجاهات مدينيّة معروفة، وأعيان أقلّيات، وقوى ضغط Lobb es مهمّة، بمعنى أنّه حصلت حالات مُساكنة Cohabitation بين وجاهات ا أرستقراطيّة المدينيّة والزّعامات القديمة، دون أن يكون لصفة قديمة مدلول الذمّ.

كان الزّعماء بمختلف مراكزهم، ومستوياتهم، وانتماءاتهم يعيشون، وإن بدرجات متفاوتة، على نبض مُستجدّات السّياسة الدّوليّة، لا سيما في أوائل القرن العشرين، وكان لتجربة التّنظيمات العثمانيّة، والّتي اكتشف السكّان من خلالها أسس الدّولة الحديثة، وكذا بدايات تعاطي قسم من الوجاهات مع الممارسات التّمثيليّة ما بين 1908-1911، سواء على المستوى المحلي، أو الإقليمي، أو المركزيّ (مجلس المبعوثان)(4) وانفتاح قسم آخر على الأفكار القوميّة العربيّة حينما كانت الحركة القوميّة تشقّ طريقها بصعوبة في فترة احتضار الدّولة العثمانيّة، دَوْرٌ في بلورة صفوة سياسيّة طرابلسيّة، نهضت للشّأن الوطنيّ بُعَيْدَ الاحتلال الإيطاليّ وأثناء السّنوات الأولى الّتي تلت تمركزه. وهنا تتعيّن الإشارة إلى أنّ لحظة المُساكنة بين الفريقين المذكورين لم تكن سهلة، إذ كانت «لعبة» السّياسة العصريّة، وما تستلزمه من شروط، وراء حالات من التشادّ، والتّضادّ، وسوء الفهم، وما استتبع ذلك من محاولات استقطاب، وجفاء، ومواجهات...

لم يكن الحوار سهلا إذن بين رجال صقلهم العلم، وهذّبتهم الأسفار، وأغنى تجاربهم تقلّد الوظائف الحكوميّة والمهمّات النيابيّة، وارتياد كواليس السّياسة، في تركيا، ومصر، وإيطاليا، وتونس والبعض من البلاد الإسلاميّة، نحو سليمان البارونيّ وفرحات الزّاويّ وخالد القرقنيّ...، وبين زعماء بدو لم يؤتوا حظّا كبيرا

(4) مثل ولاية طرابلس في البرلمان العثماني (مجلس المبعوثان) خلال دورته الأولى عام 1908 كلّ من: سليمان الباروني، ومحمود ناجي بك، ومصطفى قيدارة، وصادق بك، وجامي أفندي، وبمتصرفيّة بنغازي عمر منصور باشا، ويوسف شتوان.

من العلم، وعاشــوا الجانب الأكبـر من حياتهم صلب قـبائلهم حيث عــادات البداوة المتأصّلة، وطابعها الحسـيّ اللاتاريخي، بـحيث ظلّوا ضيّقي الأفق، تعوزهـم النّظرة الشّموليّة للأشياء، أمثال : رمضـان السـويحلي، ومـحمّد فكيني، وعبد النّبي بالخير، وخليفة بن عسكر، ومحمد بن عبد الله البوسيفيّ...

وغنيّ عن الإشارة إلى أنّنا لم نختزل الطّبقة السّياسيّة في إقليم طرابلس (لا ولاية طرابلس) في هذه الثّنائيّة، الّتي تبـقى أداة إجرائيّة هامّة، وحـسبنا ما ألمحنا إليه من وجـود تناقضــات صلب الزّعامـات المدينيّة، وما ذكـرناه من اتّساع شــقّة الخلاف بين زعـماء القـبائل، الّذين كـانوا في الغالب مـتنافسين في الرّيـاسة وفق العـبارة الخلدونيّـة، وفوق كـلّ ذلك : ألم يتحــالف البارونــيّ وابن عسكر ليُناجـزا «التّحالف القبليّ» عام 1920 وسط الضّعف العام الّذي غدت عليه حركة المقاومة؟

ملاحق

ملحق 1

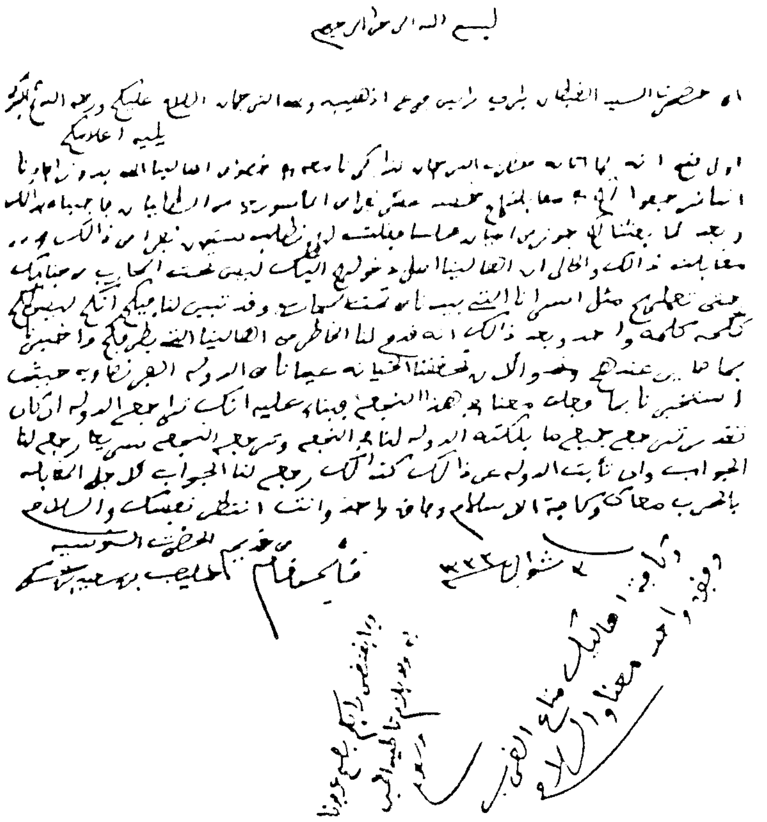
بسم الله الرحمن الرحيم

- الرسالة- الإنذار الموجهة من خليفة بن عسكر إلى النقيب باري رئيس فرع ذهيبة للشؤون الأهليّة.

ISHMN SHAT (Vincennes) 2 H 57 d . 15

ملحق 2

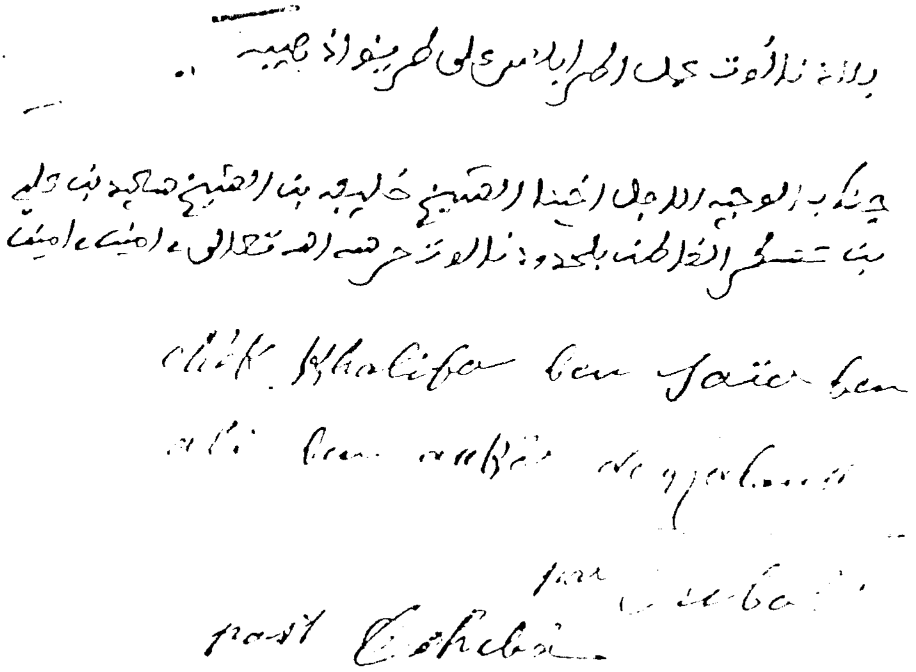

– عنوان خليفة بن عسكر كما جاء على وجه ظرف الرسالة التي وجهها إليه ابن عمه وصهره خليفة بن أحمد بن ابراهيم العزابي لنالوتي.

المصدر : أ . و . ت ، س E ص 550 ، م . 30 – 15 – 776 ، و . 27

– آخر رسالة لخليفة بن عسكر قبل إعدامه (11 جويلية 1922)

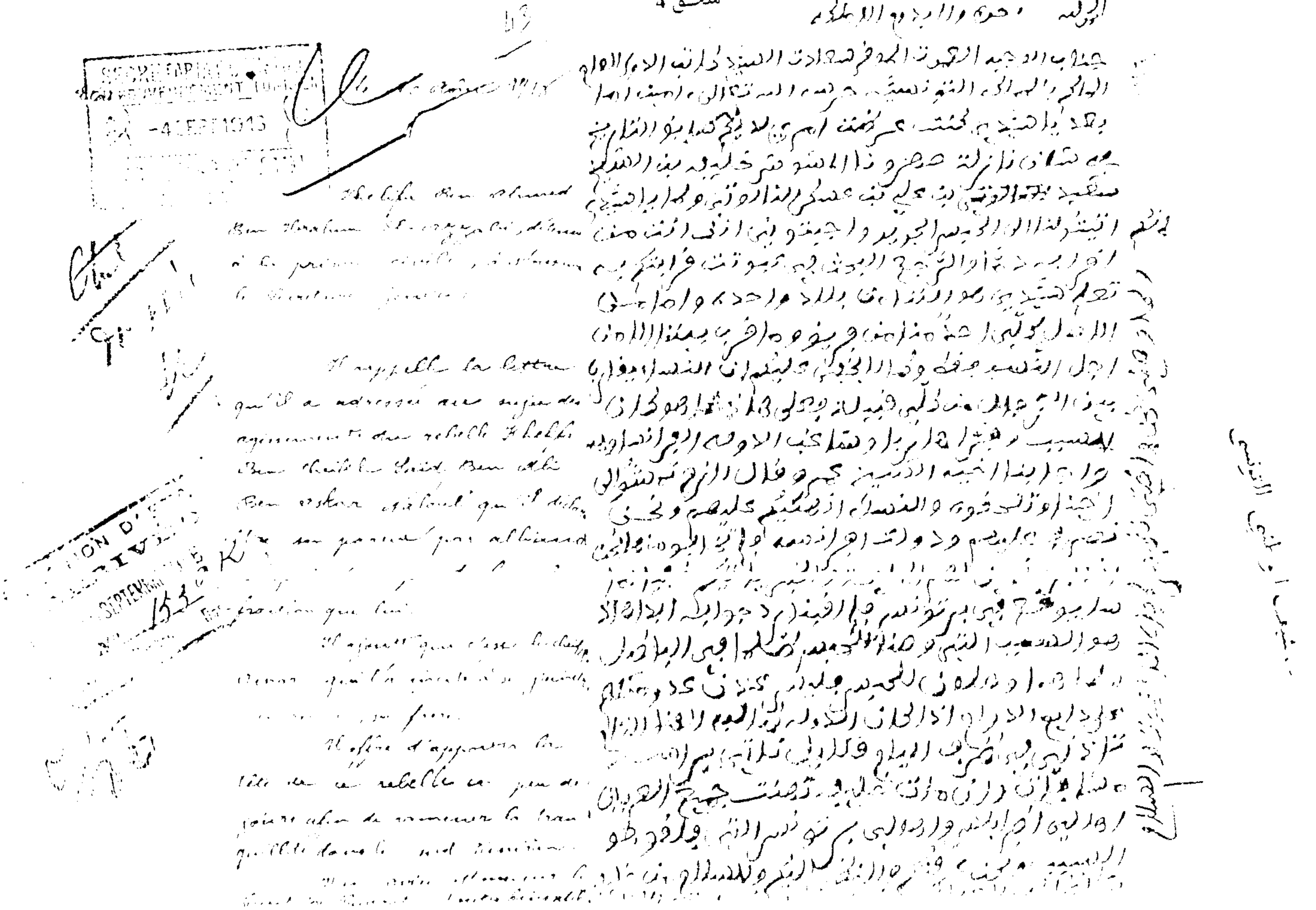

– رسالة خليفة بن أحمد بن ابراهيم العزابي النالوتي المقيم في سجن تونس إلى الكاتب العام للحكومة والتي يعرض فيها خدماته على السلطة الفرنسية في ما يخص الإيقاع بابن عمه خليفة بن عسكر.

الصدر . أ . و . ت . س E . ص 550 ، م 30 – 15 – 776 ، و 46

ملحق 5

COPIE

TELEGRAMME OFFICIEL

Annexe à Résident Général, en communication Commandant militaire Affaires indigènes Médenine et Division Tunis.

Off. Tunis. de Ben-Gardane, 490-45, le 2 à 18 h. 15.

Aff. Ind. n° 117. — Nouvelle arrestation Khalifa ben Askor e son frère Amor annoncée par vos bulletins de renseignements n° 54 du 1er juin, confirméepar lettre Colonel PAVONI au Chef de l'Annexe./.

Copie conforme transmise à M. le Secrétaire général du Gouvernement tunisien, à Tunis.

N° 488

Tunis, le 6 juin 1922.
Pr le Résident général et par son ordre :
Le Chef de bataillon MIQUEL,
Chef du Service central
des Affaires indigènes de Tunis,
(Signé) : MIQUEL.

– برقية ضباط الشؤون الأهلية حول إيقاف خليفة بن عسكر في ماي 1922

المصدر : أ . و . ت . س E ، ص 550 ، م . 30 – 15 – 776 ، و . 60

- رسالة المدعو خليفة بن أحمد بن ابراهيم العزابي النالوتي إلى ابن عمه خليفة بن عسكر يأمره فيها بالكف عن معاداة الفرنسيين المصدر : أ . و . ت ، س E ، ص 550 ، م . 30 - 15 - 776 ، و . 43

ملحق 6

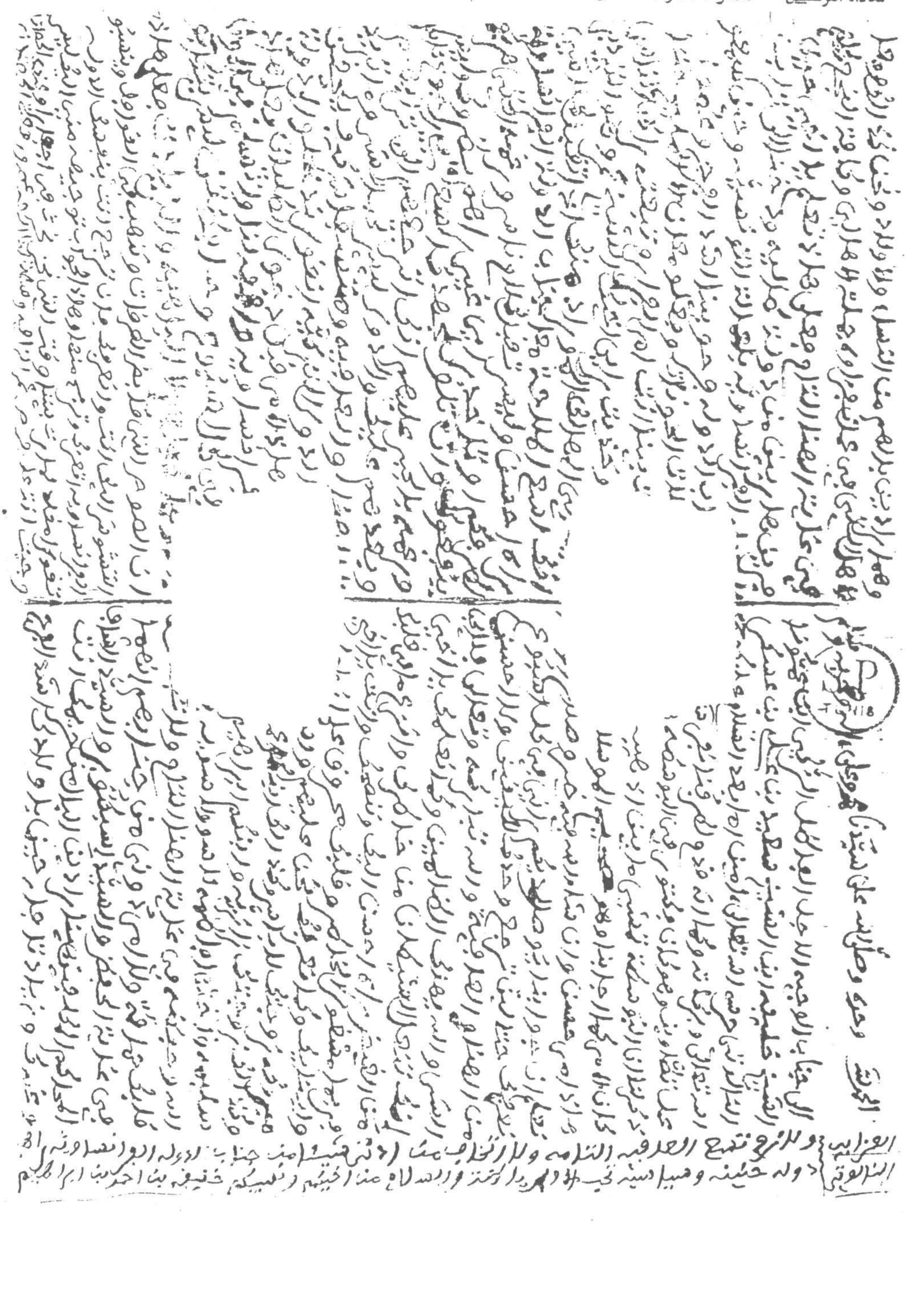

ملحق 7

ARRETE N° 79 A.I.

Le Général ALIX Commandant la Division d'Occupation de Tunisie, Ministre de la Guerre du Gouvernement Tunisien.

Vu l'article 4 du §3 du décret du 3 août 1918 sur l'Etat de siège dans la Régence.

Sur l'avis émis par le Lieutenant-Colonel Commandant Militaire du Sud Tunisien ~~dans~~ son télégramme N° 690 du 26 Juillet 1918 .

ARRETE

Articlel er. Les femmes et enfants de KHALIFA ben ASKER objet de la lettre N° 796 du 16 Novembre 1916 de la Résidence Générale.-La nommée Saïda bent el hadj Saïd Tefouchit ,objet de la lettre N° 797 du 16 Novembre 1916 et les familles indigènes tripolitaines abandonnées par les réfugiés évadés de Kebilli objet de la lettre N° 1152 du 7 novembre 1916 de la Résidence Générale seront remises en liberté et présentées à la Section d'Etat du Gouvernement Tunisien.

Article 11 Monsieur le Direc~~t~~eur de la Sûreté publique est chargé de l'exécution du présent arrêté./.

Tunis le 9 Août 1918

[signature] Alix

- الأمر المتعلق بالإفراج عن عائلة خليفة بن عسكر المحتجزة في تونس

الصدر : أ . و . ت ، س E ، ص 550 ، م . 30 - 15 - 776 ، و . 51

expédition, à Monsieur le Secrétaire général du Gouvernement tunisien. Tunis le 9 Août 1918

N° 2238

[signature]

Monsieur le Secrétaire Général du Gouvernement Tunisien.

Réfugiés Tripolitains

Etat nominatif des chefs de famille de la tribu des Nalout en Tunisie

N°	Noms	Nombre de femmes et d'enfants	Observations
1	Amor ben Said ben Ali ben Atker	5	Chef [illegible]
2	Khalifa ben Said ben Ali ben Atker	4	Frère de [illegible] le 25 septembre [illegible] lieutenant Italien commandant [illegible] de chameaux tripolitains.
3	Amor ben Ali ben Amor El Khattali	.	
4	Said ben Ali ben Youcef ben M'Hamed	4	
5	Messaoud ben Said ben M'Hamed	4	
6	Said ben Messaoud b. M'Hamed B. Atker	1	
7	Messaoud ben Said ben Ali ben Atker	1	
8	Yacoub ben Salem ben Khalifa	4	
9	Ali ben Said Yacoub ben Khalifa	5	
10	Sliman ben El Hadj Brahim b. Yacoub	1	
11	Yahia ben Said ben Amor Tebzeki	3	
12	M'Hamed ben Ali ben Amor Tebzeki	4	
13	Ali ben Salah ben Ali Ennoufi	6	
14	Salah ben Ali ben Khalifa b. Atker	8	
15	Said ben Salah ben Ali ben Khalifa	3	
16	Said ben El Fequih Khalifa b. Amor	4	
17	Mohammed b. El Fequih Khalifa b. Amor	1	
18	Youssef ben El Hadj Yahia ben Amor	3	
19	Aitta ben Messaoud ben Aitta	2	
20	Salem ben Satti ben Belgacem ben Atker	2	
21	Hadj Said ben Amor Tebzeki	1	
	à Reporter	69	

قائمـــــة برؤساء العائلات النالوتيّة التي التحقت بالتراب التونسي عام 1913، وفـــي مقدّمتها عمرو بن عسكر وشقيقه خليفة (1 ، 2)

المصدر : أ . و . ت ، س A ، ص 16 ، م 37 .

ملحق 7

ARRETE N° 79 A.I.

Le Général ALIX Commandant la Division d'Occupation de Tunisie, Ministre de la Guerre du Gouvernement Tunisien.

Vu l'article 4 du §3 du décret du 3 août 1917 sur l'Etat de siège dans la Régence.

Sur l'avis émis par le Lieutenant-Colonel Commandant Militaire du Sud Tunisien dans son télégramme N° 690 du 26 Juillet 1918

ARRETE

Article1er. Les femmes et enfants de KHALIFA ben ASKER objet de la lettre N° 796 du 16 Novembre 1916 de la Résidence Générale.-La nommée Saïda bent el hadj Saïd Tefouchit, objet de la lettre N° 797 du 16 Novembre 1916 et les familles indigènes tripolitaines abandonnées par les réfugiés évadés de Kebilli objet de la lettre N° 1152 du 7 novembre 1916 de la Résidence Générale seront remises en liberté et présentées à la Section d'Etat du Gouvernement Tunisien.

Article II Monsieur le Directeur de la Sûreté publique est chargé de l'exécution du présent arrêté./.

Tunis le 9 août 1918

G. Alix

- الأمر المتعلق بالإفراج عن عائلة خليفة بن عسكر المحتجزة في تونس

المصدر : أ . و . ت ، س E ، ص 550 ، م . 30 - 15 - 776 ، و . 51

Expédition, à Monsieur le Secrétaire général du Gouvernement tunisien. Tunis le 9 août 1918

N° 2298

[illegible]

Monsieur le Secrétaire Général du Gouvernement Tunisien.

Réfugiés Tripolitains en Tunisie

État nominatif des Chefs de famille de la tribu des Nalout

N°	Noms	Nombre de femmes et d'enfants	Observations
1	Amor ben Said ben Ali ben Asker	5	Chef [illegible]
2	Khalifa ben Said ben Ali ben Asker	4	Frère du précédent [illegible]
3	Amor ben Ali ben Amor El Khatali	.	
4	Said ben Ali ben Youcef ben M'Hamed	4	
5	Messaoud ben Said ben M'Hamed	4	
6	Said ben Messaoud b. M'Hamed b. Asker	1	
7	Messaoud ben Said ben Ali ben Asker	1	
8	Yacoub ben Salem ben Khalifa	4	
9	Ali ben Said Yacoub ben Khalifa	5	
10	Sliman ben El Hadj Ibrahim b. Yacoub	1	
11	Yahia ben Said ben Amor Tebgelti	3	
12	M'Hamed ben Ali ben Amor Tebgelti	4	
13	Ali ben Salah ben Ali Ennoumi	1	
14	Salah ben Ali ben Khalifa b. Asker	3	
15	Said ben Salah ben Ali ben Khalifa	3	
16	Agid ben El Fequih Khalifa b. Amor	4	
17	Mohammed b. El Fequih Khalifa b. Amor	1	
18	Youssef ben El Hadj Yahia ben Amor	3	
19	Attia ben Messaoud ben Asker	2	
20	Salem ben Sassi ben Belgacem ben Asker	2	
21	Hadj Said ben Amor Tefruchit	1	
	à Reporter	69	

قائمــــة برؤساء العائلات النالوتيّة التي التحقت بالتراب التونسي عام 1913، وفـــي مقدّمتها عمرو بن عسكر وشقيقه خليفة (1 ، 2)

المصدر : أ . و . ت ، س ٨ ، ص 16 ، م 37 .

لائحة المصادر والمراجع*

I – دور المحفوظات (الأرشيفات) :

1- الأرشيف الوطنيّ التّونسيّ (A.N.T.) :

أ- السلسلة E، صندوق 550 (المشبوهون : Gens suspects)

- الملف 30-15 – 756 : خليفة بن عسكر.
- " "/" – 171 : سليمان الباروني.
- " "/" – 694 : عمرو بن عسكر.
- " "/" – 207 : سوف المحمودي.
- " "/" – 208 : ساسي خزام.
- " "/" – 323 : يحي الباروني.
- " "/" – 188 : موسى قرادة.
- " "/" – 234 : خالد القرقني.
- " "/" – 353 : أحمد الباروني.
- " "/" – 274 : نوري أفندي.
- " "/" – 1736 : رافد (قائمقام نالوت).

ب- السلسلة A، صندوق 280 (شؤون طرابلسيّة)

- الملف 1 : يضمّ بدوره أحد عشر ملفًا (عبارة عن 11 صندوق وثائق يهمّ قضايا مختلفة Affaires diverses)
- الملف 3 : مطالب اللّجوء إلى القطر التّونسيّ.
- الملف 8 : الحوادث الإيطاليّة – الطرابلسيّة.
- الملف 11 : أخبار طرابلس الغرب.
- الملف 12 : الاستعمار الإيطاليّ بطرابلس الغرب.
- الملف 16 : إحصائيّات السكّان أصيليّ طرابلس الغرب المقيمين في تونس.

ج- السّلسلة A، صندوق : 208ter.

- ملف 30 : عمرو بن بلقاسم لبيض.
- ملف 61 : الحاج سعيد بن محمّد بن عبد اللّطيف.
- ملف 62 : الشّيخ علي بن حميدة بن عبد اللّطيف.

---

* سنكتفي هنا بذكر أهمّ المصادر والمراجع الّتي أفدْنا منها –إن قليلا أو كثيرا– في إنجاز دراستنا هذه. ويجدر التّذكير أنّنا قدّمنا وصفا لأهمّ المصادر المعتمدة، وتقويما مختصرا لها ضمن توطئة هذا العمل.

- ملف 1194 : محمد بن الحاج أحمد الغيلوفي.
- ملف 1195 : النّاعس الشّرياق.
- ملف 1202 : الحاج عمر بن فرج الغيلوفيّ.
- ملف 1674 : مصباح بن الحاج عمر الغيلوفيّ اليزيديّ.

د. سلسلة الحركة الوطنيّة، صندوق 10، ملف 1، تقارير وملاحظات بخصوص هجرة الطرابلسيّين المقيمين بتونس (1919-1923).

2- أرشيف المعهد العاليّ لتاريخ الحركة الوطنيّة (I.S.H.M.N.)

a) Fonds du Ministère Français des Affaires Etrangères (M.A.E.) Séries du Quai d'Orsay (Q.O.) :

- Nouvelle Série Tunisie (1882-1919).

* b., p. 38 N.S 73, d. II (occupation italienne de la Tripolitaine).

* b., p. 38, N.S 74, d. I (la guerre italo-turque).

* b., p. 38, N.S. 75, d. I (occupation militaire italienne en Tripolitaine, résistance).

* b., p. 39, N.S., dossier général XXXII, (Libye : occupation militaire, réfugiés tripolitains en Tunisie).

* b., p. 62, c. 1528, dossier unique (rapports mensuels sur la situation économique et politique des territoires du Sud : 1917-1918.

* b., p. 62, c. 1529 (rapports mensuels sur la situation économique et politique des territoires du Sud : 1914-1918).

- Série : Tunisie 1917-1940

Fonds Nominatifs. Papiers d'Etat. Papiers privés. Papiers G. Alapetite :

* b. 494, c. 4 (situation militaire au Sud Tunisien. Agitations armées en Tripolitaine, 1916).
* b. 495, c. 5 (situation militaire du Sud) ; 1916-1917 ; 6, (situation militaire en Tripolitaine et au Sud).
* b. 495, c. 8, d. 1 (agitations armées en Tripolitaine et troubles sur la frontière, 1914-1916).

- Série : Guerre 1914-1918 :

* b., p. 68, c. 1596, (opérations militaires à la frontière tuniso-tripolitaine, 1915).
* b., p. 69, c. 1597, insurrections des tribus. Relations entre les insurgés tunisiens et libyens ; c. 1598 (mouvement insurrectionnel dans le sud tunisien, 1915).
* b., p. 70, c. 1599 (opérations dans le Sud Tunisien, 1915-1916) ; c. 1600 (situation politique et militaire du Sud Tunisien, la Sénoussia et la résistance armée contre les puissances occidentales en Tripolitaine, 1916).
* b., p. 73, c. 1606 (situation politique et militaire du sud et de la frontière tuniso-tripolitaine, 1916-1917).
* b. , p. 73, c. 1608 (bombardement français de Nalout).

- Série : Tunisie 1917-1940

b. 10, (rapports mensuels 1917-1922).

b. 138 (troubles au Sud Tunisien, 1917).

b. Fonds du Service Historique de l'Armée de Terre (S.H.A.T.), Château de Vincennes. Sous-Série 2 H Tunisie

- b. 289 bis, c. 2 H 50, La Guerre Italo-turque en Tripolitaine (rapport sur les hostilités Italo-turques du 1er octobre

1911 au 1er octobre 1912 par le Commandant ROUX)
- b. s. 292, c. 2 H, d. 1, renseignements sur les chefs tripolitains
- b. s. 292, c. 2 H 53, d. 1, rapport sur les événements ayant précédé le mouvement insurrectionnel dans le Sud Tunisien par le Commandant HARLE, 1915).
b- s. 292, c. 2 H 53, d. 3, Historique des opérations au Front de Tripolitaine (Sud Tunisien) 1915-1919.

c. Fonds des Archives Nationales d'Outre-Mer (A.N.O.M.), Aix-en-Provence.

Série H., Sous-Série 26 H, Tunisie

b. 69, rapports mensuels 1912-1916

II - البحوث والدراسات باللّغة العربيّة :

- أبو القاسم (إبراهيم أحمد)، **المهاجرون اللّيبيّون بالبلاد التّونسيّة 1911-1956**، ط. 1، مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله للنّشر والتّوزيع، سوسة (تونس)، 1992، 235 ص.
- ارحومة (مصطفى حامد)، «مساهمة جديدة في إعادة كتابة تاريخ جهاد اللّيبيين ضدّ الغزو الإيطالي»، **مجلّة الشّهيد**، العدد 11، 1990، طرابلس، مركز الجهاد، ص 299-313.
- آرسي (ضابط)، **مع الإيطاليّين في حرب طرابلس**، ط. 1، ترجمة منصور عمر الشتيوي، دار الفرجاني، طرابلس، 1972، 184 ص.
- أندرسن (ليزا)، «جمهوريّة طرابلس 1918-1922»، ترجمة محمد رمضان المصري، **مجلّة الشّهيد**، العدد 11، 1990، طرابلس، مركز الجهاد، ص 185-212.
- انسباتو (انريكو)، **العلاقات العربيّة - الإيطاليّة 1902-1930 (مذكّرات)**، ترجمة عمر الباروني، مركز الجهاد، طرابلس، 1980، 373 ص.
- الباروني (أبو القاسم) **حياة سليمان الباروني زعيم المجاهدين**

الطرابلسيّين، ط. 2، القاهرة، 1948، 162 ص.
- البريكي (عبد الرّحمان)، «من معارك الجهاد : معركة الجويبيّة»، **مجلّة الشّهيد**، العدد 11، 1990، طرابلس، مركز الجهاد، ص 361-369.
- بازامه (محمد مصطفى)، **العدوان أو الحرب بين إيطاليا وتركيا في ليبيا**، ج. 1، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1965، 166 ص.
- بغني (عمرو سعيد)، «أصول حركة الصّفوف وأثرها على حركة الجهاد اللّيبيّ»، **مجلّة الشّهيد**، العدد 4، 1983، مركز الجهاد، طرابلس، ص 91-135.
- البوري (عبد المنصف حافظ)، **الغزو الإيطاليّ لليبيا، دراسة في تاريخ العلاقات الدّوليّة**، ط.1، شركة كاظمة للنّشر، الكويت، 1986، 230 ص.
- التليسي (خليفة محمّد)، **بعد القرضابيّة**، ط. 2، الدّار العربيّة للكتاب، تونس 1978، 299 ص.
- التليسي (خليفة محمّد)، **معجم معارك الجهاد في ليبيا 1911-1931** ط. 1 الدار العربيّة للكتاب، تونس، 1980، 549 ص.
- التليسي (خليفة محمّد)، **معارك الجهاد اللّيبيّ**، ط. 2، المنشأة العامّة للنّشر والتّوزيع والإعلان، طرابلس، 1982، 184 ص.
- تيلهابر (فيليكس)، **مع الهلال الأحمر عند أعتاب طرابلس**، ترجمة عماد الدّين غانم، مركز الجهاد، طرابلس، 1983، 109 ص.
- حسن (محمد)، **المدينة والبادية بإفريقيّة في العهد الحفصيّ**، ط. 1، 2 ج. منشورات كلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، تونس، المجلّد XXXII، 1999، 863 ص.
- حسن (محمّد) «نفوسة : فضاؤها الجغرافيّ وعلاقتها بالسّلطة المركزيّة»، مجلّة **أوراق**، عدد 5-6، 1982-1983، ص 105-114.
- حسن (محمّد)، «قبيلة نفوسة»، **مجلّة كلّيّة الآداب بالرّباط**، 1982، ص 149-167.
- الحسناوي (حبيب وداعة)، «عمر المختار : نشأته وبيئته الأولى حتّى تسلّم قيادة الجهاد في برقة سنة 1923» في : **عمر المختار نشأته وجهاده**، أعمال ندوة علميّة بمناسبة خمسينيّة استشهاد عمر المختار، مركز الجهاد، طرابلس،

1983، ص 17-51.

- حميدة (علي عبد اللّطيف)، **لمجتمع والدّولة والاستعمار في ليبيا، دراسة في الأصول الاجتماعيّة و لاقتصاديّة والثّقافيّة لحركات وسياسات التّواطؤ ومقاومة الاستعمار 1830-1936**، ط. 1 مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1995، 226 ص.

- الجابري (محمد صالح)، **يوميّات الجهاد اللّيبيّ في الصّحافة التّونسيّة 1912-1932**، الدّار العربيّة للكتاب، تونس، 1982.

- الجرّاري (محمّد طاهر)، «البطل عبر التّاريخ»، في : **عمر المختار نشأته وجهاده 1862-1931**، مركز الجهاد، طرابلس، 1983، ص 53-64.

- خدّوري (مجيد)، **ليبيا الحديثة : دراسة في تطوّرها السّياسي**، ترجمة نقولا زيادة، دار الثّقافة، بيروت [د.ت.].

- خشيم (حسن علي)، **صفحات من جهادنا الوطنيّ**، ط2، دار مكتبة الفكر، طرابلس، 1974، 183 ص.

- ريّان (محمّد رجائي)، «الجمهوريّة الطرابلسيّة 1918-1923»، **المجلّة التّاريخيّة المغاربيّة**، العدد 69-70، تونس، ماي 1993، ص 95-117.

- ريمون (جورج)، **من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا (1912)**، ط. 2، ترجمة وتحقيق محمد عبد الكريم الوافي، المنشأة العامّة للنّشر والتّوزيع والإعلان، طرابلس، 1983، 391 ص.

- الزّاوي (الطّاهر أحمد)، **جهاد الأبطال في طرابلس الغرب**، ط. 1، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، 1950، 386 ص.

- الزّاوي (الطاهر أحمد)، **معجم البلدان اللّيبيّة**، ط. 1، دار مكتبة النّور، طرابلس، 1968، 292 ص.

- زيادة (نقولا)، **محاضرات في تاريخ ليبيا، من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال**، جامعة الدّول العربيّة، معهد الدّراسات العالية، القاهرة، 1958، 274 ص.

- الطرابلسي (عبد الحميد محمّد)، **نبذات من أمل إيطاليا في طرابلس** [د.ت.]، [د. مكان النّشر]، 64 ص.

- الطاهر (عبد الجليل)، **المجتمع اللّيبيّ، دراسة اجتماعيّة وانتروبولوجيّة**، المكتبة العصريّة، صيدا - بيروت، 1969، 329 ص.

- الطوير (محمد أحمد)، «ملامح الكفاح المشترك بين اللّيبيّين والتّونسيّين»، **مجلّة الشّهيد**، العدد 11، 1990، مركز الجهاد، طرابلس، ص 59-76.

- الطوير (محمد أحمد) «مقاومة العرب اللّيبيّين للاستعمار الإيطاليّ (1911-1932)»، أشغال مؤتمر التّاريخ : الاستعمار في العالم العربي في القرنين التّاسع عشر والعشرين، **المجلّة التّونسيّة للعلوم الاجتماعيّة**، عدد 72-73، تونس، 1983، ص 31-50.

- الطوير (محمد أحمد)، **مقاومة الشّيخ غومة المحموديّ للحكم العثمانيّ في إيالة طرابلس الغرب 1835-1858**، ط. 1، مركز الجهاد، طرابلس، 1988، 593 ص.

- عاشوراكس (أحمد محمد)، **لمحات تاريخيّة عن النّضال اللّيبيّ المسلّح**، ط. 1، المنشأة العامّة للنشر والتّوزيع والإعلان، طرابلس، 1985، 212 ص.

- عزام (عبد الرّحمان)، «كفاح الشّعب اللّيبيّ في سبيل الحريّة»، **مجلّة الوثائق والمخطوطات**، ترجمة عماد الدّين غانم، منشورات مركز الجهاد، طرابلس، السّنة الأولى، العدد 1، 1986.

- غراتسياني (رودولفو)، **برقة الهادئة**، ط. 4، ترجمة إبراهيم سالم عمر، الدار الجماهيريّة للنّشر والتّوزيع والإعلان، بنغازي (ليبيا)، 1998، 295 ص.

- غريفيتش (غيورغ فون)، **تاريخ الحرب اللّيبيّة-الإيطاليّة**، ترجمة وتقديم عماد الدّين غانم، مركز الجهاد، طرابلس، 1986، 435 ص.

- فروة (محمود)، «المقاومة المسلّحة في تونس خلال القرنين التّاسع عشر والعشرين. مثال : قبيلة بني زيد (جهة الأعراض)، أعمال النّدوة الدّوليّة السّابعة حول : **المقاومة المسلّحة في تونس في القرنين التّاسع عشر والعشرين**، منشورات المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنيّة، تونس، 1995، ص 43-65.

- الفقيه (عزالدين عبد السّلام)، «سياسة فرّق تسد الإيطاليّة وأثرها على حركة الجهاد اللّيبيّ 1911-1918»، **مجلّة الشّهيد**، العدد 11، 1990، مركز الجهاد، طرابلس، ص 217-235.

- القشّاط (محمد سعيد)، **خليفة بن عسكر، الثّورة والاستسلام**، ط.1، المنشأة الشّعبيّة للنّشر والتّوزيع والإعلان، 1980، 415 ص.
- ليسير (فتحي) «خليفة بن عسكر النالوتي (1878-1922)، **المجلّة التّاريخيّة المغاربيّة**، العدد 79-80، ماي 1995، ص 567-615.
- ليسير (فتحي)، «تجربة الحكم الذّاتي في ليبيا 1918-1923 : قراءة في حدود التّجربة ومحدّدات إخفاقها»، في : أعمال الملتقى الدّولي العاشر حول : **المغرب العربي في العشرينات**، تونس، 5-6 ماي 2000، (تحت الطّبع).
- ليسير (فتحي)، **من "الصّعلكة لشّريفة" إلى البطولة الوطنيّة**، مدياكوم - كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس، تونس، 1999، 218 ص.
- ليسير (فتحي)، **الاستعمار الفرنسيّ وقبائل أقصى الجنوب التّونسيّ : مثال الودارنة 1882-1918**، شهادة الكفاءة في البحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، 1987، 120 ص.
- الماجري (عبد الكريم)، «الصحافة التّونسيّة والغزو الإيطاليّ لليبيا 1911-1912»، **مجلّة روافد**، العدد 4، 1998، ص 131-154.
- مدلّل (أحمد)، «معركة كاباو 6 جوان 1915»، **مجلّة الشّهيد**، العدد 11، 1990، مركز الجهاد، طرابلس، ص 385-394.
- المصراتي (علي مصطفى)، **سعدون البطل الشّهيد**، ط. 1، المكتب التّجاري للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، 1964، 254 ص.
- مالجيري (فرانشيسكو)، **الحرب اللّيبيّة 1911-1912**، ترجمة وهبي البوري، الدّار العربيّة للكتاب، تونس، 1978، 492 ص.
- المرزوقي (محمد)، **دماء على الحدود**، ط 1، الدار العربيّة للكتاب، تونس، 1975، 406 ص.
- المرزوقي (محمّد)، **الدغباجي**، ط 2، مكتبة المنار، تونس، 1979، 221ص.
- المرزوقي (محمد)، **عبد النّبي بلخير، داهية السّياسة وفارس الجهاد**، ط. 1 الدار العربيّة للكتاب، تونس، 1978، 297 ص.
- منّاع (عبد الرزاق)، **جذور النّضال العربيّة في ليبيا**، ط2، دار مكتبة الفكر، طرابلس، 1972، 143 ص.

II – البحوث والدّراسات في غير اللّغة العربيّة :

- ABDELMOULA (Mahmoud), **Jihad et Colonialisme, la Tunisie et la Tripolitaine (1914-1918)**, éd. Tiers-Monde, Tunis, 1987, 180 p.

- ALBERGONI (Gianni), "Mémoire gentilice et histoire nationale : figures et enjeux du récit d'une insurrection bédouine anti-coloniale", in **Cahiers d'Etudes Africaines**, 119, XXX-3, 1990, pp. 299-328.

- ANONYME, **Chronique de Libye** (1921-1922-1923-1924), articles parus dans la Tunisie Française et dans le Bulletin de l'Afrique Française, Tunis, La Rapide, 1925.

- AYADI (Taoufik), **Mouvement réformiste et mouvements populaires en Tunisie, 1906-1912**, publication de l'Université de Tunis, Tunis, 1986, 300 p.

- BELAÏD (Habib), "La Révolte de 1915-1916 dans le Sud Tunisien à travers les Archives du Protectorat", in **Révolte et Société** (actes du IV colloque d'histoire au présent), Paris, 1988, Histoire au Présent, Paris, 1989, pp. 176-184.

- BOSSOUTROT (Auguste), "Vocabulaire du dialecte ancien du Djebel Nefousa", **Revue Tunisienne**, 1900, pp. 489-507.

- BURGAT (François), LARONDE (André), **La Libye**, Paris, P.U.F. 1996, 127 p.

- CHAVANNE (Capitaine) : **Historique du Service des Affaires Indigènes de Tunisie (1881-1930)**, Bourg, 1931, 248 p.

- CRESTI (Frederico), "Projet social et aménagement du territoire dans la colonisation démographique de Libye (1938-1940), in **Correspondances**, n° 58, 3ème trimestre, 1999, pp. 11-19.
- DAVICO (Rosalba), "La guerilla Libyenne 1911-1932", in **Abdelkrim et la République du Rif**, Paris, F. Maspero, 1976 (535 p), pp. 402-449.
- DEAMBROGGIO, "Notes succinctes sur les tribus tripolitaines situées entre la frontière tunisienne et le méridien de Tripoli, **R.T.**, 1902, pp. 113-134 ; 266-276.
- DEMONTES (Victor), "La Tunisie pendant la Guerre,", **Bulletin de la Société de Géographie d'Alger**, 1916, pp. 26-76.
- DESEVAUX (Capitaine), **La guerre Italo-Turque en Tripolitaine,** 1913, 64 p. (manuscrit, cote à la B.N. de Tunis : 19877 Br).
- DEPONT (Octave), "Une insurrection en Algérie pendant la Guerre (1916), **La Revue de l'Afrique du Nord**, 1921, pp. 5-19.
- DESPOIS (Jean), "Les déplacements de villages dans le Djebel Nefousa", **R.T.**, n° 17-18, 1933, pp. 263-284.
- DESPOIS (Jean), "L'habitation dans le Djebel Nefousa", **R.T.**, n° 19-20, 1934, pp. 277-316.
- DESPOIS (Jean), **La Colonisation Italienne en Libye**, Paris, Leroux, 1935, 47-104 p
- DESPOIS (Jean), **Le Djebel Nefousa**, Paris, Larose, 1935, 349 p.

- FIDEL (Camille), **Une mission en Tripolitaine** (septembre 1920), Paris, Société Générale d'Imprimerie et d'Edition, 1921, 133 p.
- FOREST (Capitaine), **Coutumes des populations de la circonscription de Tataouine**, Paris, C.H.E.A.M., mémoire n° 573, 1942, 79 p.
- GHERARDI (Pompeo), **La reconquête de la Tripolitaine vue du camp des rebelles**, (traduction française de P. Granchamp), pub. Comité Algérie, Tunisie, Maroc, Paris, 1925, 102 p.
- GOGUYER (A), "Le servage dans le Sahara Tunisien", **R.T.**, II, 1895, pp. 308-318.
- GOLDSTEIN (Daniel), **Libération ou annexion : aux chemins croisés de l'histoire tunisienne (1914-1922)**, Tunis, M.T.E., 1978, 535 p.
- GRANCHAMP (Pierre), "Notes Tripolitaines, Sliman El Barouni", **C.T.**, t. XIII, 1956, pp. 175-182.
- GRANCHAMP (Pierre), "Khalifa Ben Saïd Ben Asker", **C.T.**, t. XIII, 1956, pp. 183-185.
- GRAZIANI (Rodolfo), **La Riconquista del Fezzan**, Milano (s.d.), 276 p.
- KRAIEM (Mustapha), **Nationalisme et syndicalisme en Tunisie**, 1918-1929, Tunis, imp. U.G.T.T., 1976, 691p
- KRAIEM (Mustapha), "La question de l'annexion italienne de la Libye", **Revue d'Histoire Maghrébine**, n° 6, juillet 1976, pp. 151-179.

- KURAN (Ercument), "L'invasion italienne de Tripoli d'après le quotidien Tanin, organe semi-officiel du gouvernement Ottoman (septembre 1911 - octobre 1912), **R.H.M.**, n° 59-60, 1990, pp. 103-106.
- **La Libye nouvelle : rupture et continuité**, Paris, C.N.R.S. 1975, 262 p.
- MARTEL (André), "Aux origines de l'Etat Libyen : la Porte et la Sanusiya au Sahara 1835-1922" in **Enjeux Sahariens**, Paris, C.N.R.S., 1984, pp. 233-239.
- MARTEL (André), "Soulèvements tribaux et ingérences étrangères dans les steppes tunisiennes", in **La résistance armée en Tunisie aux XIX et XX siècles**, actes du VII colloque international (novembre 1993), Tunis, 1995, pp. 141-154.
- MARTEL (André), "Souveraineté et autorité ottomane : la province de Tripoli du Couchant (1835-1918)", in **Annuaire de l'Afrique du Nord**, 1983, pp. 73-83.
- MARTEL (André), "Un cas de colonisation retardée ? La Libye 1855-1911", in **Revue Tunisienne des Sciences Sociales**, n° 72-75, 1983, pp. 183-200.
- MARTEL (André), **La Libye 1835-1990**, essai de géographie historique, Paris, P.U.F. 1991, 247 p.
- MARTEL (André), "Histoire contemporaine de la Libye", in **Annuaire de l'Afrique du Nord**, 5, 1996, pp. 781-792.
- MARTIN (Yolande), "La Libye de 1912 à 1969", in **La Libye nouvelle : rupture et continuité**, Paris,

C.N.R.S., 1975, pp. 33-50.
- MATUISIEULS (H. Méhier), **Rapport sur une mission scientifique en Tripolitaine**, Paris, imprimerie nationale, 1902, 37 p.
- MATUISIEULS (H. Méhier), **La Tripolitaine d'hier et de demain**, Paris, Hachette, 1912.
- MIEGE (J.L.), **L'imperialisme colonial italien de 1870 à nos jours**, Paris, 1968.
- MONTALEMBERT (Capitaine) de , "Le front Sud Tunisien 1915-1918", in **Revue historique de l'armée**, Paris, 11ème année, 1955, n° 1, pp. 149-168.
- MEYNIER (Général), "La Guerre Sainte des Senoussya dans l'Afrique Française (1915-1918)", in **Revue Africaine**, 83, 1939, pp. 227-275, 323-357.
- MEYNIER (Gilbert), **L'Algérie révélée**, Paris-Genève, Droze, 1981, 793 p.
- OKYAR (Osman), "Un témoignage français sur Union et Progrès et la défense de la Tripolitaine (1911-1912), **R.H.M.**, n° 47-48, 1987, pp. 173-178.
- PIAZZA (Giuseppe), "La nostra terra promessa", traduction française de P. Granchamp, **Revue Tunisienne**, 1912, n°93, pp. 263-284.
- RAFFOUX (Capitaine), **Le Front Sud Tunisien pendant la Guerre : 1914-1918**, brochure sans date ni lieu d'édition, 39 p. (Côte à la B.N. : 1725 Br).
- RODD BALEK (ch. Monchicourt), **La Tunisie après la Guerre (1919-1921), Problèmes politiques**. 1ère

Série, 2ème édition, publication de l'Afrique Française, Paris, 1922.
- SOURIAU (Christine), "La Libye moderne", in **La Libye nouvelle : rupture et continuité**, Paris, C.N.R.S., 1975, pp. 135-160.
- TLILI (Béchir), **Crises et mutations dans le monde islamo-méditerranéen contemprorain (1907-1918)**, vol. 1 : fondements et positions des réformes, Tunis, Pub. de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines, 1978, 540 p
IV - مراجع عامّة :
- إيتيان (برونو)، **عبد القادر الجزائري**، ترجمة ميشيل حوزي، ط. 1، دار عطيّة للنّشر، بيروت، 1997، 524 ص.
- حسن (محمد عبد الغنيّ)، **التّراجم والسّير**، ط. 2، دار المعارف، القاهرة، 1969، 112 ص.
- دلّو (فضيل)، «المنهج البيوغرافي : استعمال السير الذّاتية والحياتيّة في علم الاجتماع»، **مجلّة العلوم الاجتماعيّة**، جامعة الكويت، المجلّد 27، العدد 2، 1999، ص 141-167.
- زيعور (علي)، «علم البطولة في الذّات العربيّة : غرضه ومناهجه»، **مجلّة دراسات عربيّة**، العدد 10، أوت 1981، ص 63-82.
- سايمنتن (دين كيث)، **العبقريّة والإبداع والقيادة**، ترجمة شاكر عبد الحميد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 176، أوت 1993، 344 ص.
- الهراس (مختار)، «منهج السّيرة في السوسيولوجيا» في : **إشكاليّات المنهاج في الفكر العربيّ والعلوم الإنسانيّة**، ط 1، دار توبقال، الدار البيضاء، 1987، ص 83-99.
- ARKOUN (Mohamed), "Imaginaire social et leaders dans le monde musulman contemporain", **ARABICA**, t. XXXV, fasc. 1, mars, 1988, pp. 18-35.

- BERTAUX (Daniel), "L'approche biographique. Sa validité méthodologique, ses potentialités", **Les Cahiers Internationaux de Sociologie** (numéro spécial : histoire de vie et vie sociale), vol. LXIX, 1980, pp. 197-225.
- CANDAR (Gilles), "Le statut de la biographie, essai de chronologie", **CORRESPONDANCES**, n° 61, mai-juin 2000, pp. 11-16.
- FERRAROTI (Franco), "Les biographies comme instrument analytique et interprétatif", **Les Cahiers Internationaux de Sociologie**, vol. LXIX, 1980, pp. 227-248.
- MADELENAT (Daniel), **La biographie**, Paris, P.U.F. 1984, 222 p.
- PENEFF (Jean), **La méthode biographique**, Paris, Armand Colin, 1990-144p.
- POIRIER (Jean), CLAPIER-VALLADON (Simone), "Le concept d'ethnobiographie et les récits de vie croisés", **Les Cahiers internationaux de Sociologie**, vol. LXIX, 1980, pp. 351-358.

الكشّافات

كشّاف الأعلام

- ا -
- ابات (رائد) 157-158
- ابن داود (نقيب) 158
- الأبيض (عمر) 15-153-160-166
- الإدريسي (محمّد) 79
- اركونالي (نقيب) 134
- اسحق باشا (ضابط) 254
- الاسكندر الأكبر 34-40
- الأسود (الشّريف بن الحاج احمد) 105
- الابتيت (غبريال) 119-163-200-202-207-225-242-244
- اليسي (نقيب) 95-102-105
- اليكس (جنرال) 201-202-205-207-221
- اميلو (والي طرابلس) 198-315
- انور باشا 79
- أوديبار (نقيب) 201-204
- أيّوب (احمد) 137
- ب -
- الباروني (احمد) 86
- الباروني (سليمان) 18-21-22-23-26-47-83-85-86-88-92-100-139-195-213-214-226-254-256-259-266-267-270-281-282-284-288-289-291-292-293-297-320-321-325-327-335-336
- الباروني (عبد الله بن يحي بن احمد)83
- باري (نقيب) 69-102-144-147-169
- باش حانبه (علي) 227
- باودوليو 301
- باوليني.(ملازم أوّل) 170-171-173-204-205
- البدوي (سعد) 304
- البدوي (علي) 187-212
- برموند (نقيب) 165-166-167-168-169
- برشون (ملازم أوّل) 204-205
- بريبش (مصباح)
- بغني (خليفة) 91-107-135
- بلتييه (ملازم أوّل) 159
- بالحاج (الصّادق) 297
- بالحاج سعيد (موسى) 137
- بالخير (عبد النّبي) 187-254-256-281-314-325-327-336
- بلقاسم (سعيد) 114
- البلوطي (الحاج محمّد) 197
- بن ابراهيم (العزّابي) 284-285
- بن تنتوش (علي) 259-267-284-326
- بن الحاج (احمد) 127
- بن الحاج (علي) 92
- بن حمد (محمّد) 287
- بن خليفة (محمّد) 287
- بن رجب (محمد) 226
- بن سعيد (سليمان) 287
- بن سعيد (محمّد) 210
- بن سلطان (السّاعدي) 197
- بن سوفجين (بن عزوز) 173
- بن شرف الدّين (عمّار) 226
- بن شعبان (سلطان) 18-188-192-195-197-198-210-215-278-281-322-325
- بن عاشور (ساسي) 86
- بن عامر (عبد السّلام) 326
- بن عبد اللّطيف (الحاج سعيد) 13-15-152-153-160-165-166-173
- بن عبد اللطيف (محمّد) 173
- بن عبد الملك (علي) 74
- بن عبد الملك (عمر) 87-98-113
- بن عسكر (ابراهيم) 71
- بن عسكر (أحمد) 285
- بن عسكر (خليفة) 9-10-11-12-13-15-17-18-20-21-22-23-25-30-42-43-49-50-51-64-65-68-69-70-71-72-73-75-76-

-94-93-92-91-89-88-87-86
-102-101-100-99-98-97-95
-108-107-106-105-104-103
-115-114-113-112-111-110
-124-123-122-121-119-116
-130-129-128-127-126-125
-137-135-134-133-132-131
-143-142-141-140-139-138
-149-148-147-146-145-144
-157-156-153-152-151-150
-168-167-166-165-164-158
-177-176-175-174-171-170
-184-183-182-181-179-178
-195-191-188-187-186-185
-201-200-199-198-197-196
-207-206-205-204-203-202
-216-214-213-211-210-209
-224-223-222-220-219-217
-244-243-242-241-228-225
-254-253-248-247-246-245
-268-267-266-265-264-262
-275-273-272-271-270-269
-286-285-284-283-279-277
-294-293-292-291-290-289
-300-299-298-297-296-295
-306-305-304-303-302-301
-312-311-310-309-308-307
-318-317-316-315-314-313
-325-324-323-322-321-320
.336-334-333-331-329-326
- بن عسكر (سعيد) 89-75-73-70-69
126
- بن عسكر (سعيد بن صالح) 114-92
- بن عسكر (سليمة) 71
- بن عسكر (فاطمة) 71
- بن عسكر (عمرو) 91-89-88-70-69
-112-110-108-104-103-92
310-308-287-285-150-145
- بن عسكر (مسعود) 185-126
- بن عمر (سعد) 226
- بن عمر (يحي بن سعيد) 148

- بن عيسى (مسعود) 309
- بن كنيفو (المهدي) 124
- بن مذكور (محمّد) 204-157-132
- بن مذكور (يحي) 204
- بن مسعود (أيّوب) 137
- بن المنتصر (زحمد) 90
- بن موفّق (ملازم اوّل) 205-204
- بن يوسف (عبد الله) 268
- بن يوسف (محمّد) 307-145
- بوايي (جنرال) 223-218-162
- بوبرنوصة (عمرو) 196
- بوبطنين (عون) 186
- بودبّوس (عمر عثمان) 299-289
- بوري (عقيد) 311
- بوزويدة (محمّد) 287
- بوسنّوقة (بوبكر) 212-196-188
- بوسهمين (عيسى) 212-192-188
- البوسيفي (شايب عينه) 286
- البوسيفي (محمّد بن عبد الله) 187-99-83
336
- بوشنبة (سعيد) 185
- بوصوّة (محمد يوسف) -92-70-20
306-185
- البوصيري (عبد الرّحمان) 90
- البوصيري (عبد السّلام) 297
- البوصيري (محمّد) 90
- بوطارة (عمّار) 228-227-226-225
- بوفي (نقيب) 73
- بولحباس (إبراهيم) 108-104-91-86
285-284
- بولحباس (احمد) 86
- بيار (نقيب) 223
- بيتي (نقيب) 158

– ت –

- تاسوني (جنرال) 105
- تامسكت (عبد الله) 295-294-292
296
- التّركلي (محمّد) 326
- تريستورنيل (عقيد) -161-160-158
207-204-169-167
- تفوشيت (عيسى) 137-126-112-92

185
- التّمتام (خليفة) 127
- التّمتام (يحي) 137
- التواتي (احمد) 180-181
- توكانتي (ملازم اوّل) 127
- ج -
- جامي افندي 335
- جانيل (ملازم اوّل) 158
- الجرم (عبد العاطي) 292
- جمال باشا 213
- جمال (يوسف) 79
- جوسلين (قنصل فرنسي) 156
- جولي (ملازم اوّل) 221
- جيورجي (نقيب) 201
- ح -
- الحجاوي (احمد) 326
- خ -
- الختّالي (عمر بن علي بن عمر) 113
- خربيش (يوسف) 18-26-176-196
-198-211-266-278-286-287
-289-291-302-309-311-322
325
- خزام (ساسي) 86-188-192-195
-196-197-198-210-211-212
278-325
- خليل باشا 79-97
- الخيتوني (الصويعي) 259
- خيشة (بلقاسم) 127
- د -
- دبسكي (يحي) 185
- درويتي (جنرال) 105
- الدّغباجي 13
- دوميي (ملازم) 203
- دي بودي مولان (ملازم اوّل) 167
- ديروديل (نقيب) 223
- ديمبرو جيو (قدور بن العربي) 100
- ذ -
- الذّيب (الحاج محمّد) 226
- ر -
- راسم باشا 62
- رافو (نقيب) 19-191
- الرجيبي (احمد) 326
- رغاغري (نقيب) 133-147-148
- روفرسي (عقيد) 104
- ريتشي (جنرال) 90
- ز -
- الزّائر (الحبيب) 226-227-228
- زازية (بنت سليمان بن خنيس) 71
- الزّاوي (احمد) 287
- الزّاوي (فرحات) 259-327
- الزّاوي (محمد بن فرحات) 82-335
- الزّاوي (محمّد) 226-227
- الزّاوي (هاشم) 185
- س -
- سان ماري (ملازم اول) 223
- ستروبا (نقيب) 105
- السعداوي (بشير) 297-327
- سعيد باشا 77
- سفورزا 92
- سكالابري (نقيب) 204
- السنوسي (احمد الشريف) 179-180-
183-292
- السنوسي (أدريس) 26-179-213-
255
- السنوسي (صفي الدّين) 179-180-
181-184
- السنوسي (محمّد بن علي) 179
- السنوسي (محمّد العابد) 179-180-
181-183-184
- السنّي (احمد) 181-185-211-212-
277-297
- السنّي (عبد السّلام) 84-124-181
- السنّي (محمّد مهدي) 84-124-178-
179-181-184-187-210-212-
214-245
- سوف (محمّد) 257
- السويحلي (رمضان) 26-137-180-
181-184-254-256-259-261-
262-264-267-268-269-270-
281-320-325-327-336
- سينيغا (نقيب) 160

– ش –
– شاتيني (ملازم أوّل) 220
– شاطون (ملازم أول) 160
– شانزر (كارلو) 258
– الشّاوش (صالح) 307
– شتوان (يوسف) 335
– الشتيوي (احمد) 299
– الشتيوي (رمضان) 316
– الشّرياق (النّاعس) 226
– الشريف (احمد) 26-255
– الشريف (حسين) 213
– الشريف (عبد الله افندي) 287
– الشريف (مصباح) 90
– الشنطة (أحمد) 22
– الشّنطة (علي) 187-212-277-282-284-288-289-295-296-299-326
– شوان (رائد) 201
– الشويخ (علي) 326
– الشّين (محمّد) 212-289-295
– ص –
– صادق بك 335
– الصرماتي (عبيدة) 326
– صفي الدّين 64
– الصّيد (احمد) 284
– ع –
– العابد (محمّد) 64
– العابد (مسعود) 286
– عبد الحميد الثّاني 190
– عبد العال (محمّد) 326
– العربي (احمد) 107-108
– العرابي (خليفة بن احمد بن ابراهيم) 109-112-113-114-149-150
– عزّام (عبد الرّحمان) 254-259-261
– العمامي (شرف الدين) 326
– عمّانويل الثالث 76-80-109
– العوراني (عمر) 326
– العيّاشي (سعد بن عمر بن الحاج إبراهيم) 228
– العيّاط (أحمد) 325
– غ –
– غاروبي (ملازم) 201
– غالو 312
– غالياني (نقيب) 127-128
– الغدّي (مبروك) 305
– غراتسياني (رودولفو) 17-26-72-73-121-140-290-301-303-306-307-308-309-311-314-315-316-321-325-326
– غريوني (فيشنزو) 315
– غنغانة (عمرو) 126-196
– الغيلوفي (عمر) 225-226-228
– الغيلوفي (محمد بن الحاج بن محمد) 226-228
– الغيلوفي (مصباح) 225
– ف –
– فؤاد (عثمان) 254
– فارس (علي) 226
– فرحات بي 81-83-90-297
– فكيني (احمد) 187-188-211-212
– فكيني (حسن) 285-286
– فكيني (محمّد) 21-22-83-259-267-277-282-284-285-286-288-289-295-296-299-300-304-305-325-327-336
– فكيني (مسعود) 286
– فكيني (المهدي) 187
– فليشي (عقيد) 205-206
– فليفل (سليم) 145
– فليك (كولونيل) 171-172-173
– فنغولي (ملازم أوّل) 127-128
– فورش (عقيد) 99
– فوزي (محمد عزيز) 313
– فولبي (وال) 301-306-307-314-315
– فيتز (ملازم أوّل) 81
– فيتورة (سعيد صالح) 105
– فين (نقيب) 169-221-223
– فينيراندي (ملازم أوّل) 311
– ق –
– قايون (رائد) 201
– قرادة (موسى) 293
– قرزة (ابو بكر) 212

- قرقاب (خليفة) 92-185
- القرقني (امين) 90
- القرقني (خالد) 297-335
- قرمانلي (حسونة باشا) 90-189-190
- القلاتي (حسن) 227
- القلال (سالم) 92
- القلال (سليم بن خليفة) 145
- القمودي (علي) 226
- قناية (الشريف) 90
- قيدارة (مصطفى) 335

- ك -

- كاسيني (جنرال) 215-216
- كانتوري 312
- كانيفا (كارنو) 78-95
- كرينييك (ملازم اوّل) 168
- كعبار (محمّد) 326
- كعبار (مختار) 254-259-299-327
- كعبار (الهادي) 259-314-325-326
- كلابيي (بول جرمان) 228
- كورو (نقيب) 305-307-308
- كوميرساتو (رقيب) 95
- كيزيني (ماجور) 131-132

- ل -

- لاتيني (جنرال) 214
- لاتيبي (نقيب) 160
- لافارق (نقيب) 217
- لامبرت (رائد) 158-167-201
- لوبوف (جول) 131-220
- لوفيفر (ملازم) 157
- لوكات (ملازم اوّل) 167
- لوكيو (جنرال) 85

- م -

- ماديا (رائد) 95
- مازغينوتي (نقيد) 311
- ماريي (ملازم اوّل) 152
- مارولي (ملازم اوّل) 128
- مبارك (احمد) 92
- مبروكة بنت احمد بن ابراهيم 71
- المجبّر (احمد) 306-307-311
- المحجوبي (عبيدة) 326
- المحروق (عمر) 286
- محمد الخامس 80-138
- المحمودي (ابو القاسم خيشة) 129
- المحمودي (احمد باشا) 192-197-212
- المحمودي (سعيد بن الحاج) 107
- المحمودي (سوف) 84-86-135-139-150-175-182-183-185-186-187-188-191-195-196-197-198-210-211-212-213-225-267-269-270-281-287-321-325
- المحمودي (الصويعي) 92-114
- المحمودي (عون بالحاج) 192
- المحمودي (غومة) 63-68-84-100-111
- المحمودي (محمّد بن بلقاسم) 192
- المختار (عمر) 26
- المخترش (احمد) 185
- مرسيل (رائد) 158-169
- ماركاتلي (لويجي) 315
- المريّض (احمد) 254-256-259-261-281-288-290-292-296-299-300-304-311-325-327
- المسعودي (محمد) 140
- المشلوخ (علي) 287
- المطردي (علي العابد) 326
- المنتصر (عبد الهادي) 327
- المنتصر (عمر) 90-189
- المنتصر (مبروك) 304-319
- منزنجر (وال) 263-264-265-315
- منصور باشا (عمر) 335
- موازي (ملازم اوّل) 169-203
- موانيي (جنرال) 207
- موني (ملازم) 203
- مياني (كولونيل) 187-315-316
- ميزيتي (عقيد) 268-290-322
- ميقريبي (نقيب) 157-158-204
- ميكال (رئيس فيلق) 244
- ميني (مقدّم) 134-135

- ن -

- نابليون 34
- ناجي بك (محمود) 335
- ناحوم (خلافو) 259
- الناكوع (يحي) 92-112-114
- النّايلي (حرب) 144-188-192-2 0-281
- نشأت باشا 79
- نوري بك 90-97-226-227-292-297
- نيغرا (كولونيل) 126

- هـ -

- هارلي (رائد) 145-245
- هتلر 34

- و -

- الورغمّي (أمحمّد بسيسه) 169
- الورغمّي (عبد الله بن منصور) 130
- ولسن (وودرو) 255

كشّاف القبائل

-ا-

- الاصابعة 277-99-85-83
- اولاد بوسيف 58-59-185-195-
280-279-277-212
- اولاد دبّاب
166-159-153-152-149-15
- اولاد سالم 59
- اولاد سعيد بن صوله 59
- اولاد سلاّم 142
- اولاد سلطان 149
- اولاد سليمان 59
- اولاد شبيل 188
- اولاد شهيدة 159-153-149
- اولاد عبد النّبي 212
- اولاد عمر 65
- اولاد محمّد 65
- اولاد محمود
-187-128-123-107-106-105
295-293-212

-ب-

- بني زيد
227-226-225-224-29-15-13
300-228-

-ت-

- التلاثلة 196
- التوارق 129
- التوازين 271-151

-ج-

- الجباليّة
-73-71-70-68-60-55-54-23
111-107-101-100-99-75-74
287-283-282-280-278-266-
296-295-293-292-291-288-
332-314-309-297-
- الجواشه 212

-ح-

- الحرابة
195-187-129-107-59-54-51
283-279-277-268-212-210-
306-304-285-
- الحميديّة 149-153-159
- الحوامد
-187-129-107-105-103-54
295-293-212-199

-د-

- الدغاغرة 68-107-149-153
- الدواسر 185

-ر-

- الرجبان
129-59-58-54-51-49-22-21
-212-211-210-198-195-187
-282-280-279-277-275-267
-293-291-290-287-286-283
323-321-305-302-294
- الرحيبات 59-187-210-212-
296-283
- الربايبة
-294-283-279-277-55-51
326-314-295

-ز-

- الزّرقان 149-153
- الزنتان 20-21-22-49-51-54-
1-185-129-85-83-59-58-55
2-275-212-210-198-195-87
2-286-283-282-280-279-77
3-302-294-293-291-290-87
326-321-05

-س-

- السّبعة 58-59

-ش-

- شدّاد (صف) 58-59
- الشعانبة 268

-ص-

- الصّيعان 59-86-99-105-129-

296-295-186-142

-ع-

- العجاردة 159-153

- العساكرة 65-71-83-113-131-
147

-غ-

- غديرات 58

- الغزاية 105

- الغنايمة 58-59-212

-ق-

- القدادفة 59

-ك-

- الكراشوة 15-153-159-160

-م-

- المجابرة 187-103

- المحاميد 58-59-62-84-127-186
281-279-277-195

- المحاميد الشّرقيّين 59

- المخالبة 153-149

- المرازيق 87-74

- المشاشة 54-58-59-195-277-
280-279

- المقارحة 59

-ن-

- النوايل 59-84-144-188-192-
281-279-211-195

-و-

- الودارنة 9-23-29-43-68-98-
-152-151-149-143-122-107
-165-160-157-156-155-153
-174-173-172-171-168-166
-206-199-182-178-177-176
333-318-272-271-246-224

- ورشفانة 326

- ورغمة
300-150-130-107-92-49

- ورفله 59-187

-ي-

- يوسف (صف) 58-59

كشّاف الأماكن الجغرافيّة

-أ-
- الآستنانة 79-213
- ابها 79
- ابي الشّول 104-130-267-268-269-298-299
- ابي كمّاش 85-215
- أروبا 13
- استانبول 78-82-83-84-90-92-139
- اشكده 187
- الأعراض 106-224-225-228
- افريقيا 80-138-161-166-170-171-243
- الباني 76
- المانيا 79-138-141
- امّ الدّود 102
- ام السويق 11-13-14
- ام صويغ 14-30-152-153-165-166-167-168-169-170-173-175-176-177-178-201-204-205-206-243-247-318
- امّ الفار 272
- انجلترا 79-82-138
- إيجه (بحر) 80
- إيطاليا 26-47-76-77-78-79-80-82-83-84-90-95-101-109-110-121-138-176-177-178-183-188-254-255-256-257-260-261-263-264-265-266-291-309-310-312-313-314-316-320-326-327-335
-ب-
- بئر بيستور 14-135-159-247
- بئر التويس 165
- بئر زار 155
- بئر سلطان 112
- بئر الغنم 290
- بئر فطناسيّة 205
- بئر قصيرة 11-204-221-244
- بئر مغري 165-206-207-209
- باريس 27-110
- برج مسعودة 134
- برقة 50-53-60-61-63-76-80-179-180-183-189-255-256-292-327
- بريطانيا 213
- بلغاريا 80
- البلقان (شبه جزيرة) 76-80-292
- بنغازي 77-85-335
-بنقدال 171
- بنقردان 100-144-152-182-200-201-222-268
- بوعجيلة 55-214-215
-ت-
- تارديّة 135-187-286-287-291-295
- تاغرمين 185-291
- تاغمة 287
- تركيا 13-79-138-179-183-281
- ترهونة 135-254-261-281-295-296-304-335
- تشاد 95
- تطاوين 49-99-145-152-153-155-159-160-163-168-171-177-200-201-217-222-244
- تولوز 227
- تونس 14-19-27-54-71-72-74-77-78-81-83-85-89-93-95-98-106-107-108-109-110-1 23-135-151-161-177-227-2

335-327-300-256-28
- تيجي 130

-ج-

- جادو -183-105-85-59-58-51
316
- الجبل
-84-83-70-63-61-60-55-53
-143-139-105-104-89-86
-212-198-197-196-186-180
-281-280-279-277-275-267
-290-288-287-285-284-282
-299-298-296-294-292-291
-308-307-306-304-302-301
333-317-310
- الجبل الابيض 49
- جبل الحراية 185
- الجبل الاسود 80
- جبل عفينة 157
- الجبل الغربي
-51-50-44-43-24-22-16-10
-64-63-62-61-59-58-55-53
-83-81-74-73-70-69-68-65
-97-96-95-94-89-86-85-84
-134-129-125-121-111-100
-151-146-144-138-137-135
-177-174-163-161-156-153
-197-191-188-187-186-181
-253-226-225-216-212-199
-273-271-270-269-267-266
-285-283-282-279-278-275
-297-292-291-289-288-287
-320-317-316-314-312-302
333-332-321
- جبل ماطوس 223-204
- الجحيش 65
- جدابيا 180
- الجديدة 216-215-214
- جربة 227-83
- جرجيس 222-200-162-135
- الجرد 127-126
- الجزائر 327-227-160-135-95
- الجغبوب 179
- الجفارة -195-191-54-53-51
296-281-271
- جندوبة 85
- جنزور 188-85
- الجنين -159-155-14-13-11
247
- الجوش 131-130-129-128-104
285-247-192-142
- الجويجيّة 211

-ح-

- الحامة 228-227-226-225-224
- الحجاز 213
- حصن بارفنكيير
-159-155-134-128-127-14
247
- الحوض 211-55

-خ-

- خلّة الزّيتونة 259
- الخمس -157-138-135-77-59
324-258-190

-د-

- درج 129-123
- الدردنيل 292-80
- درنه 77
- دمّر (جبل) 49
- الدوديكانيز 80
- الدورانيّة 216-215

-ذ-

- الذهيبات 123-81-14-13-11
- ذهيبة 108-106-102-85-15-14
-147-146-144-133-132-125
-159-158-157-155-154-152
-176-171-170-167-162-160
-203-202-201-200-199-182
-242-223-222-207-205-204
246-245-244

-ر-

- الرّابطة 99
- راس الحصان 286
- الرحيبات 296-295-92-51

- رقدالين 103
- رمادة 11-160-165-186-199-200-203-204-205-207-221-223-244-245
- رمثة 160
- روسيا 79-82-138
- روما 79-84-110-256-258-297
-ز-
- الزّاوية 55-61-84-135-181-214-254-290-310-313
- زقزاو 272
- زليطن 59-103
- الزّملة 220
- زميط 112
- زوارة 51-55-56-62-77-104-125-131-132-135-144-146-188-192-195-196-197-198-210-211-212-215-258-267-268-278-280-281-293-296-308
-س-
- سانيةر جرجير 106
- سرت 146
- السّنيد 272
- سواني بن آدم 85
- سوريا 213
- السويس (قناة) 213
- سويسرا 80
- سوينيه يعقوب 125-126
- السّيح 290-291
- سيدي سعيد 85
- سيدي عبد الصّمد 85
- سيناون 124-125-127-128-145-247-268-271-295
-ش-
- الشّام 195
- الشّب 187
- الشط 85
- شط الفجاج 228
- الشقيقة 159
- شكشوك 211
-ص-
- صبراته 62
- صربيا 80
- صرمان 55-214-215
- صفاقس 163-222
-ط-
- طبرق 77
- طرابلس 10-21-25-26-29-42-47-50-51-53-55-58-59-61-62-63-64-65-70-73-74-75-76-77-78-80-81-82-83-84-87-90-93-94-95-97-98-100-102-105-106-108-109-111-115-124-132-134-135-137-138-139-140-142-150-155-157-178-179-180-181-183-184-185-186-187-189-190-191-195-197-198-213-224-225-226-254-255-256-257-258-261-262-263-265-267-270-271-279-280-292-301-308-310-312-315-319-320-324-327-329-332-334-335
- طومزين 187
- طويل الحلاب 104
- طويلة أحمد بن راشد 112
-ظ-
- الظاهر 53-54-160-224
-ع-
- العجميّة 142
- العجيلات 55-85
- العرق 160-220
- عرق حمّاد 112
- العزيزيّة 82-135-197-198-254-259-273-287-288
- العسّة 215-299-301-304-306-308
- عسير 79
- عمّان 327

- العوينة 112
- عين تزّو 111
- عين صفرة 112

- غ -

- غار الملح 227
- غدامس 55-68-86-91-102-123
-133-135-134-126-125-124
-263-211-187-155-147-146
286-271
- غريان 51-55-61-63-65-84-
-290-289-288-273-254-180
314-299

- ف -

- فرسطّة 298
- فرنسا
-82-81-79-77-35-23-19-13
-144-143-138-122-107-106
-225-217-186-183-178-177
332-246-227-226
- فزّان
105-85-63-61-55-53-50-26
187-180-179-156-124-115-
327-308-301-189-
- فساطو
-83-63-59-58-56-55-51-23
-195-129-127-113-92-86
-266-212-211-210-198-196
-290-287-286-285-277-268
-296-295-294-293-292-291
297
- فطناسية 160-170-204
- فلسطين 327
- فندق بن غشير 292

- ق -

- قابس 162-163-217-222-224-
228
- القاهرة 25-83
- القبلة 59
- قبلي
137-114-113-111-87-74-41
148-147-146-145-144-
- القرضابيّة 102-132-184-316
- قرقاب 113
- قرقاش 85
- قصبة ايجوجين 92
- قصر ابي هادي 179
- قصر احمد 85-140
- قصر اولاد دباب 152
- قصر اولاد محمود 105
- القطفة 130
- قفصة 228
- قلب أم الدود 221
- القنفدة 79
- قيليلة 55

- ك -

- كباو 51-55-66-93-96-128-
-187-147-145-134-130-129
-296-294-283-272-247-212
300-299-298
- كرشاو 153
- الكفرة 179-180
- ككله 51-55-65-83-283

- ل -

- لحيمر 103-296
- لندن 138
- لوزان 80-82-84
- ليبيا
-82-81-53-29-28-27-26-25
315-260-256-217-179-176

- م -

- ماترس 126-129
- مجاز الباب 227
- المجر 88-138
- المحروقة 187
- مدنين 158-162-199-200-218
- مرزق 115
- مزاب 83
- مزدة
21-187-181-135-124-84-55
297-2
- مسلاته 180-254-255
- مشهد صالح 159

- مصر 78-95-183-292-327-
335
- مصراته
51-59-61-77-102-137-140-
180-181-184-190-213-254-
267-281-290-295-320
المنشية 85

-ن-

- نالوت 49-51-53-54-55-56-
58-63-65-66-67-68-69-70-
71-72-85-86-88-89-91-92-
93-94-96-97-101-102-103-
104-105-106-107-108-114-
121-124-125-126-128-129-
131-132-133-134-135-137-
138-139-141-143-144-145-
146-147-148-149-150-151-
152-156-163-165-170-174-
177-178-180-181-182-183-
184-185-186-187-195-197-
198-205-209-212-213-216-
219-220-221-223-224-244-
245-247-253-254-264-265-
266-267-268-269-270-271-
272-275-277-283-284-285-
286-292-294-296-298-299-
300-302-305-309-312-314-
316-317-321-326-332-333
- نبرة 304
- نجد185
- نفزاوة 87-111-113-124-131-
157-165-182
- نفّوسة 49-51-53-54-58-66-
67-69-74-83-85-89-98-100
-102-107-129-131-132-185
-187-188-262-269-278-280
-283
- النّمسا 79-82-138

-هـ-

- الهاني 85-188
- الهبيلة 305-308

-و-

- وادي أوال 123-124-125
- وادي الجويجيّة 104
- وادي زقار 221
- وادي سقدل 223
- وادي سمنه 205-207
- وادي شيحان 128-131-
- وادي المرطبه 157-206-223
- وادي خكريف 172-173-199
- وازن 146-158-176-222-223-
272-293
- ورفله
135-180-254-281-290-296-
314
وزّان 55
- الوطيّة 17-269-296-299-302-
303-304-305-306-307-311

-ي-

- يفرن 23-51-55-56-63-85-86-
102-187-188-192-195-196-
197-198-211-212-277-283-
291-292-293
- اليمن 76
- اليونان 80

فهرس المحتويات

- توطئة ---------- 9
- مقدّمة ---------- 33
- الباب الأوّل : «الصّعلوك الشّريف» أو زمن العصيان ---------- 45
- مقدمة ---------- 49
- المبحث الأوّل : الوسط والتّنشئة ---------- 51

I- نالوت موطن العساكرة ضمن «بيئتها الجبليّة» على أعتاب الاحتلال الإيطالي ---------- 51

II- شاب جبالي شاذ ---------- 65

- المبحث الثّاني : إعلان العصيان ---------- 76

I- خليفة بن عسكر وبداية الاحتلال الإيطالي ---------- 76

1- بدء الاحتلال الإيطالي وانطلاق حركة المقاومة (1911-1913) ---------- 76

2- هل شارك خليفة بن عسكر في حركة المقاومة الأوليّة ؟ ---------- 86

II- بدء التّمرّد ---------- 91

1- بصدد البواعث ---------- 91

2- بصدد معاني التّمرّد ---------- 93

III- خليفة بن عسكر وانطلاق «حرب الغوّار» ضدّ الإيطاليّين بالقسم الغربي لجبل نفوسة ---------- 102

1- كمين وادي نالوت : 28 ديسمبر 1914 ---------- 102

2- حصار بلدة نالوت (النّصف الأوّل من ديسمبر 1914) ---------- 104

IV- اللّجوء إلى القطر التّونسيّ ---------- 106

1- ظروف الهجرة وخصائصها ---------- 106

2- خليفة بن عسكر أحد رعايا إيطاليا ---------- 108

3- معتقل قبلّي ---------- 111

4- الفرار من المعتقل ---------- 112

ما يشبه خاتمة الباب ---------- 115

الباب الثّاني : المحارب المتوثّب أو زمن الثّورة ---------------- 117
- مقدمة -- 121
المبحث الأوّل : استئناف الحرب ضدّ الإيطاليّين ومولد قائد عسكري ملهم 123
I- حرب عصابات نشيطة ---------------------------- 125
1- عمليّة سوينيّة يعقوب (11 أفريل 1915)-------------- 125
2- حصار سيناون (5-11 جوان 1915) --------------- 127
3- احتلال كاباو (26-27 جوان 1915) -------------- 128
4- الهجوم على الجوش (28-29 جوان 1915) ----------- 130
II- خليفة بن عسكر سيّد نالوت ------------------------ 131
المبحث الثّاني : حرب خليفة بن عسكر مع الفرنسيّين وتدهور علاقته
بزعماء السنوسيّة (سبتمبر 1915 - نهاية 1918) ----------- 144
I- لماذا أعلن خليفة بن عسكر الحرب على فرنسا --------------- 144
1- أسباب عدّة ؟ ---------------------------------- 144
2- البواعث الشّخصيّة أو مسألة سراح عائلته ورهائن محتشد
قبلّي -- 147
3- إقفال الأسواق الحدوديّة التّونسيّة في وجه أهالي الجبل الغربي
الطرابلسي ------------------------------------ 151
II- أهمّ وقائع خريف 1915 : الهجوم على ذهيبة، وحصار أم صويغ
أو فتح جبهة جديدة من جبهات الحرب العالميّة الأولى ----------- 152
1- الهجوم على مركز ذهيبة (18-23 سبتمبر 1915) -------- 154
أ- عندما تناقض السلطة الفرنسيّة نفسها ------------------ 154
ب- معركة ذهيبة الأولى ك 18 - 23 سبتمبر 1915 -------- 157
جـ- استجلاب فرق جديدة وإمدادات ضخمة وتنظيم «جبهة الجنوب
التّونسي» : إحدى تداعيات معركة ذهيبة الأولى ----------- 162
2- حصار مركز أم صويغ (2-9 أكتوبر 1915) : حدود «عبقريّة»
ابن عسكر الحربيّة وخذلان الودارنة ------------------ 165
أ- أطوار عمليّة الحصار ------------------------------ 166

ب- خليفة بن عسكر يخذل الدوارنة ---------------------- 171
3- سجن خليفة بن عسكر وتنديد ممثّلي السنوسيّة بتصرّفاته ----- 179
أ- ابن عسكر والسنوسيّة : العلاقة الغامضة ---------------- 179
ب- حبس السنوسيّة لخليفة بن عسكر : حادثة ما زال يلفّها الكثير من
الغموض -- 184
المبحث الثّالث : انخراط خليفة بن عسكر في الحرب ضدّ «المطلينين»
واستئناف حربه ضدّ الفرنسيّين (ربيع - صيف 1916) --------- 187
I- مشاركة خليفة بن عسكر في حرب «معسكر المطلينين» --------- 187
1- في أسباب الحرب ---------------------------- 187
2- بدء الحرب ومشاركة خليفة بن عسكر فيها -------------- 197
II- استئناف الحرب ضدّ الفرنسيّين ---------------------- 199
1- حصار ذهيبة (20-25 جوان 1916) أو معركة ذهيبة
الثانية ---------------------------------- 200
2- حصار رمادة (26-27 جوان 1916) -------------- 203
المبحث الرّابع : انتصار في حرب "المطلينين"، وهزيمة في حرب
الإيطاليّين، وعودة أخيرة لمضايقة الفرنسيّين قبل عقد الصّلح معهم
(سبتمبر 1916- مطلع 1919) --------------------- 210
I- الدّور الهام لخليفة بن عسكر في هزيمة المطلينين ------------ 210
1- سقوط فسّاطو (سبتمبر 1916) ------------------ 210
2- سقوط يفرن (أكتوبر 1916) -------------------- 211
II- العدوة غير الموفّقة لحرب الإيطاليّين ------------------ 213
1- هزيمة الجديدة (16-17 جانفي 1917) ------------- 214
2- هزيمة الدورانيّة (5 أفريل 1917) --------------- 215
III- خليفة بن عسكر : من لعبة " لقطّ والفأر" إلى "سلام الشّجعان"
(نهاية 1916 - مطلع 1919) -------------------- 216
1- سلاح الطّيران يقلب «المعادلة الأمنيّة» على الحدود --------- 217
2- البعض من مظاهر "لعبة القطّ والفأر" --------------- 220

3- خليفة بن عسكر و«مؤامرة بني زيد» (1917) ---------- 224
4- إبرام الصّلح مع الفرنسيّين أو «سلام الشّجعان» : الوقائع
والخلفيّات ---------------------------------- 231
ما يشبه خاتمة الباب : رجل الحرب : المناقب والمثالب ------------ 241
الباب الثّالث : السّياسيّ الإمّعة أو زمن التّيه ---------------- 249
مقدمة --- 253
المبحث الأوّل : التّقارب بين خليفة بن عسكر والإيطاليّين : مقدّماته
وأطواره سبتمبر 1919 - أوت 1920) ------------------ 254
I- تطوّر الأوضاع في طرابلس الغرب عشيّة انتهاء الحرب العالميّة
الأولى والظّروف الحافّة بـ«سياسة التّقارب» بين إيطاليا والزّعامات
الطرابلسيّة (نوفمبر 1918 - جويلية 1919) --------------- 254
1- قيام «الجمهوريّة الطرابلسيّة» --------------------- 257
2- عقد صلح بنيادم، وصدور القانون الأساسيّ ------------ 257
II- التّداني بين خليفة بن عسكر والإيطاليّين بين «النجاح» والتّعثّر ---- 262
1- «بدايات واعدة» -------------------------------- 267
2- تعثّر عمليّة التّقارب وجهود سليمان الباروني، وسوف
المحموديّ من أجل تقريب الشقّة ورأب الصّدع ------------ 267
المبحث الثّاني : حرب خليفة بن عسكر ضدّ التّحالف القبليّ بالجبل
الغربيّ (أوت 1920 - ديسمبر 1921) ------------------- 273
1- من حارب من ؟ ---------------------------------- 275
2- أسباب الحرب ----------------------------------- 279
أ- الأسباب البعيدة ---------------------------------- 279
ب- الأسباب المباشرة -------------------------------- 283
3- أطوار الحرب الأهليّة ------------------------------ 285
أ- نشوب الحرب والبداية الموفّقة لخليفة بن عسكر
(أوت 1920 - جوان 1921) --------------------------- 285
ب- هزيمة خليفة بن عسكر (جويلية - ديسمبر 1921) -------- 291

- سقوط يفرن (جويلية 1921) ------------------- 292
- سقوط فساطو (سبتمبر 1921) ------------------- 295
- سقوط كاباو (ديسمبر 1921) ------------------- 296
- ابن عسكر يخلي نالوت (12 ديسمبر 1921) ------------- 298
المبحث الثّالث : الأيّام العصيبة و لنّهاية المأسويّة
(جانفي - ماي 1922) ------------------------------- 301
I- محاولة يائسة لإعادة «مدّ الجسور» مع الزّعامات الوطنيّة -------- 301
1- السّعي إلى ابتزاز الإيطاليين ------------------------ 301
2- عودة الاتصالات بين خليفة بن عسكر والزّعامات الوطنيّة وتفطّن
الإيطاليّين لدسائسه ------------------------------ 304
3- القبض على خليفة بن عسكر -------------------------- 307
4- محاكمة خليفة بن عسكر وإعدامه ----------------------- 309
أ- مجريات المحاكمة -------------------------------- 309
ب- تنفيذ حكم الإعدام ------------------------------ 313
- ما يشبه خاتمة الباب ------------------------------ 320
- الخاتمة العامّة ---------------------------------- 329
- الملاحق --------------------------------------- 337
- المصادر والمراجع -------------------------------- 347
- كشاف الأعلام ----------------------------------- 365
- كشاف القبائل ----------------------------------- 371
- كشّاف الأماكن الجغرافيّة -------------------------- 373
- فهرس المحتويات --------------------------------- 378

صدر للمؤلـف :

- قبائـل أقصى الجنـوب التونـسي تحت الإدارة العسكريّـة الفرنسيّـة : نجم ورغمّة نموذجا (1881 - 1939) عن مؤسســة التميمي للبحث العلمي والمعلومات F.T.R.S.I جوان1998 403 ص .

- من « الصعلكة الشريفة » إلى البطولة الوطنيّة ، دراسة في سير بعض «المستبعدين» من تاريـخ تونس المعاصـر ، عن كليـة الآداب و العلـوم الإنسانيـة بصفاقس ميديـاكـوم ، تونس ، نوفمبر 1999 218 ص .

- مجموعة من المقالات بالعربية والفرنسية نشرت ضمن أعمال جماعية أو في مجلاّت مختصّة.

* * * * *

كيف خرج هذا القائد العسكريّ من إهاب « جبـاليّ وديم » سليل عائلات كدودة ، لم يكن لها الباس خلقا و الشّجاعة سجيّة ، وفق العبارة الخلدونيّة ؟ كيف انتقل خليفة ابن عسكر من « الهمّ الأصغر» إلى « الهمّ الأكبر » ؟ بـعبارة أخرى : كيف تطـوّرمن حال كان يحمل فيها قضيّة مفـردة ، إلى حال أخـرى أرقى بذل فيها نفسه من أجل المجموعة(= القبيلة - الوطن) وانبرى يحميها غائلة الغازي الإيطالي ؟ لماذا استضخم دور بن عسكر في انتفاضة الودرانة عام 1915 ، و الحال أنّه خذل قادتها عام 1916 قبل أن يبرم الصلح مع فرنسا ؟ ما حقيـقـة العلاقـة بين ابن عسكر و قادة الحركة السنـوسـيـة ما بين 1913 و 1916 ؟ ما طبيعة الحرب الأهليّة التي اندلعت عام 1921 بين معسكر الجباليّة بقيادة خليفـة بن عسكر و معسكر الزّعـامـات القبليّة البدويّة بالجبل الغربيّ ، و حلفاء سيّد نـالوت عام 1916 ضدّ بني جلدته من بربر يفرن و فساطو ؟ . ماهو جانب الحقيقة ، و ما مجال البهتـان بخصوص ضلـوع الرّجل مع الطليـان ؟ أين تكمن فرادة القـائد العـسكريّ و الزّعيم السيـاسيّ خليفـة بن عسكر ضمن المشهد الزّعاماتي بالقطر الطرابلسي ما بين 1913 و 1922 ؟ .إلى أيّ مـدى يصحّ القول أنّ النّهـاية الدراماتيكيّة لهذا القائد الغامض عكست مأساة جيل كامل من الزّعامات الوطنيّة بطرابلس الغرب على إمتداد الحقبة 1913- 1926 ؟.

تلكم أهمّ الأسئلة التي حاولت هذه الدراسة الإجابة عنها .

مطبعة التسفير الفني - الهاتف : 04.439.030

6192201001154

الثمن : 12.000 د الإيداع القانوني : الثلاثية الثانية 2001